تاريخ

التمدن الحديث

عبد الله سكندر

فهرس مواضيع الكتاب

الفصل الاول

دول اوروبا الجديدة في القرن الثامن عشر

بدء التمدن الجديد : اعتاد الكتبة ان يحسبوا عام ١٧٨٩ بدأة التمدن الحديث ولا بدع في ذلك فالثورة الفرنساوية احدثت من التغيير الكبير في الشؤون والعادات ما كان فارقاً لهذا التمدن مميزاً له عن سواه الا ان هذا التغيير كان من قبل كامناً تحت ستر الخفاء ومعدًّا للظهور منذ اوائل القرن الثامن عشر والاولى ان يقال منذ اواخر ملك لويس الرابع عشر يوم ظهرت المناهج السياسية الجديدة التي تكفلت بمحو كل الشؤون الاوروبية القديمة وادت الى الاصلاح ثم الى الثورة

وكان في ذلك الوقت ايضاً ان تطرق التبديل الى التوازن الدولي من ذلك ان وجود سلطة استعمارية انكليزية في اميركا هيأ لنشوء الولايات المتحدة دولة جديدة عظمى ومن ثمّ ان الدول الثلاث وهن اسبانيا وهولاندا والسويد اللواتي كنّ في القرن السابع عشر في مصاف الدول الكبرى هبطن يومئذ من سدرة اعتلائهن وصرن في عداد الدول الثانوية وقام الى جانب فرانسا التي كانت لذلك العهد قد خسرت شيئاً من تفوقها وبسطة تسيدها اربع ممالك كبرى هنّ انكلترا المنتصرة على لويس الرابع عشر والنمسا التي تعزز سلطانها باخراجها الاتراك من بلادها ومن ثم الدولتان الجديدتان مملكة بروسيا والسلطنة الروسية

بروسيا

مملكة بروسيا : قامت هذه الدولة سنة (١) ١٧٠١ وقد كانت مثل سائر الممالك الالمانية مؤلفة من املاك تضم احادها الاسرة المالكة ولم تكن بروسيا بلاداً واحدة وانما هي مجموع اراض متفرقة في سائر جهات المانيا ولا اتصال بينها فان قسماً من املاكها كان ممتدًّا من الغرب حتى الشاطىء الشمالي من نهر الرين وفي الشرق مقاطعة بروسيا وهي واقعة وراء حدود السلطنة وفي الوسط كانت براندبرج ومعظم سكانها على جانب من

(١) ان الامبراطور كان قد اباح لمنتخب براندبرج لقب ملك وابى عليه جعل مملكته من ضمن السلطنة الالمانية واختار لها بروسيا اذ لم تكن قسما من السلطنة ولذلك منح الملك الجديد لقب ملك في بروسيا

المسكنة والفاقة • وبلغ عددهم زهاء مليوني نفس • وما كانت بروسيا سوى مملكة صغيرة على ان اسرة هوهنزولرن صيرتها دولة كبيرة الا انها لم تنتحل من اساليب السياسة في حكومتها غير ما انتحله غيرها من امراء تلك الايام فكانت تعمل « لمصلحة العائلة » ساعية قبل كل شيء الى تعزيز الاسرة باكثار املاكها وبسط قوتها وكانت وجهة سياستها منفعة البلاد فلم تدخر وسعاً في كل ما من شأنه البلوغ بها الى هذه الغاية • على انها تختلف عن سواها من امراء هاتيك الايام بطرق معيشتها الاقتصادية التي ضمنت لها النجاح فانها بدلاً من استنزاف دخلها باحياء ليالي الحفلات في البلاط كانت تبذله في سد نفقات الدولة ولا سيا في سبيل تنظيم الجيش

البلاط : ان فردريك الاول اول من تلقب بالملك واكثر من الحاشية ورجال البطانة على طرز الملك لويس الرابع عشر اما خليفته فردريك وليم فصرف الحاشية ولم يبق منها سوى اربعة حجاب واربعة من الاعيان وثمانية عشر من البطانة وستة من الاتباع وخمسة من الخدم وكان لباسه الرسمي ازرق اللون • وبنطالونه ابيض وكان ابداً يتقلد السيف على جنبه ويحمل العصا في يده ولم يحوِ قصره من الاثاث سوى بضع مساند وعدد من المقاعد الخشبية وليس فيه مقعد من الصندل ولا طنافس ولا شيء من التأنق في مآكل مائدته ولم يكن يأذن لولده بمناولة الطعام حين يشعرون بالجوع وانما في اوقاته المعينة وكان يقضي الليل مع قواده ووزرائه يدخن التبغ في غليون هولاندي طويل ويشرب البيرا فاغاظت تلك العيشة السمجة سائر الامراء فلقبوه بالملك الجاويش

وخلفه على الملك فردريك الثاني وكان على عكس طباعه متهذباً اديباً محباً الموسيقى يحسن الكتابة في اللغة الفرنساوية ويقرض الشعر فيها ويطالع مؤلفات الفلاسفة ومع ذلك فقد عاش عيشاً يقرب من بساطة عيش ابيه حيث اقام في مدينة بوتسدام لا يعاشر الا قواد جيشه وعماله ونفراً من الفلاسفة واغلق قصره دون احياء ليالي المسرات وبعبارة الاصطلاح لم يتخذ بلاطاً • ولانفصاله عن زوجته الملكة لم يكن يقتبل زيارة امرأة • وكان لباسه مرفوءاً واثاث قصره ممزقاً مزقته كلابه • وقد بيعت خزانة ثيابه بعد موته بالف وخمسمائة فرنك على ان افخر موجوداته كانت مجموعة علب العطوس وقد بلغت عدتها مئة وثلاثين حقة

ميزانية ملوك بروسيا : وكانت الاموال التي يقتصدها ملوك بروسيا من مصارفهم تنفق على الجيش فكان فردريك وليم ينفق سنوياً على نفسه وعلى بلاطه نحواً من ٥٢,٠٠٠

تالبرس (اقل من ٢٠٠,٠٠٠ فرنك) اما دخل المملكة فكان يناهز يومئذ ٦,٩٠٠,٠٠٠ تالبرس (نحواً من ٢٦ مليون فرنك) وكان من الواجب ان يقسم مناصفة تقريباً بين المصارف العسكرية والمصارف الاخرى غير ان الملك كان يأخذ من المصارف الاعتيادية نحو ١,٤٠٠,٠٠٠ تالبرس (٥,٢٥٠,٠٠٠ فرنك) لتخصص للجند فلا يبقى لسائر مصارفات الدولة الا ٩٦٠,٠٠٠ تالبرس اي ٣,٧٥٠,٠٠٠ ويؤخذ الباقي لاعالة الجيش ويبقى احتياطاً بحيث اصبح في وسع الملك ان يحشد تحت السلاح ٨٠,٠٠٠ عسكري وقد ترك بعد موته من النقود المخزونة ٨,٧٠٠,٠٠٠ تالبرس (٣٢ مليون ونصف من الفرنكات) وعلى منوال ابيه نسج فردريك الثاني فحفظ مبلغاً من النقود للجيش يبقى احتياطاً بحيث كان يستطيع عند الحاجة ان يحشد ٢٠٠,٠٠٠ عسكري وانه بالرغم عن حرب السبع سنوات التي اودت بالبلاد الى الخراب ترك من النقود ما يبلغ ٥٥ مليون تالبرس ما يعادل ٢٠٠ مليون من الفرنكات

الجيش : يتألف الجيش البروسياني من المتطوعين كغيره من جيوش تلك الازمنة فكان القادة يجوبون البلاد الالمانية لتكتيب الرجال فيقيمون في احد الفنادق حيث يجتمع اليهم كل من أراد الانخراط في خدمة الملك . على ان معظم هذا الجيش كان من الرجال الاشداء المستميتين أو من البُلُط الفارين من بين جند غير واحدٍ من امراء الالمان . أما القادة الحشدة فكانوا يأخذون هؤلاء الجنود تارة بالشدة وآونة بالخديعة حيث كانوا يقتنصونهم بما يستهوونهم به من الوعد بالمال. وحدث ان احد اولئك القادة أراد تعيين نجار في فرقة من الفرسان لانه كان جميل القوام فطلب اليهِ ان يصنع له صندوقاً كبيراً لينام فيهِ فاراد النجار ان يبرهن على حسن صنعتهِ وسعة الصندوق فقعد فيهِ . وعندئذٍ اغلق عليهِ وارسل الصندوق مقفلاً فلما وصل وفُتح وُجد النجار ميتاً فيهِ بالاختناق

الا ان هذا الضرب من التجنيد لا يكفي لحشد جيش كبير . ولذلك خطر للملك سنة ١٧٣٣ ان يضيف الى هذه الفرق شراذم من رعيتهِ فاوجد الخدمة العسكرية الالزامية وقسم الولايات الى مقاطعات وفرض على كل واحدة منها تقديم العدد الضروري لتكملة الفرق المتطوعة وجعل الخدمة عامةً لجميع الوطنيين الا اولاد الاعيان والكهنة والاوساط الذين لاتقل ثروتهم عن ستة آلاف تالرس . على انهُ لم يكن يومئذٍ بين عيال بروسيا من يملك هذا القدر من المال . وفي غضون حروب فردريك الثاني قلّ عدد الرجال الذين

يصلحون للجندية فاضطروا الى تجنيد طلبة المدارس العليا حتى اذا نشأ غلام وكان نموه سريعاً يقول له ابواه « لا تنمُ بسرعة فيأخذك القادة الحشدة »

الا ان طريقة تدريب الجند البروسياني كانت في منتهى القسوة حيث كان يقوم القواد على تعليمهم وفي ايديهم العصي يضربون بها من لا يتم الحركة العسكرية بكل اتقان اذ يجب على الفرقة ان تتحرك كلها معاً على السواء في غاية الاحكام كما يتحرك الانسان الواحد أو الآلة الواحدة او يدربونهم على حشو بنادقهم في اثنتي عشرة حركة ويتطلب من الكتيبة ان تطلق نارها دفعة واحدة وان لا يرى لها الا لمعان واحد ولا يسمع الا دوي واحد . على ان البروسيان تفوقوا على سائر الامم في حسن تدريب المشاة واشتهروا به في كل اوربا الا ان هذا الاسلوب من التعليم وما فيه من الشدة والضنك على الجنود الجأ القادة الى محافظة الثكنات والسهر عليها منعاً لفرار العسكر حتى ان فردريك الثاني كان في اوقات الحرب يطوّق فرق المشاة بشرذام من الفرسان لمنع فرارهم

وما كان للجندي البروسياني حظ في الارتقاء حيث كان يتقلد القيادة الشبان النبلاء ويتسابق جماعهم للدخول في خدمة الملك بين ان في غيرها من المدائن الاخرى كانت القيادة تنال منحة أو بيعاً أما في بروسيا فلا تنال عفواً الا بعد ان يقيم القائد مدة في المدرسة الحربية (مدرسة غير البكور من ولد الاعيان) ولا تنال الدرجات العالية من غير ان يصعد اليها تدريجاً من الدرجات السفلى حتى ان الخدمة العسكرية كانت فرضاً على امراء الاسرة المالكة بحيث يرقون مراتبها تدريجاً الواحدة بعد الاخرى

وما كان يومئذٍ لدولة من دول اوربا جيش كبير يعادل جيش بروسيا بالنسبة لعدد الاهلين فيها . ولا ريب ان جيشاً يبلغ الثمانين الفاً لبلاد لا يزيد عدد اهاليها عن ٢,٥٠٠,٠٠٠ نفس يكون بالنسبة أكثر عدداً بست مرات من جيش النمسا وباربع مرات من جيش فرنسا ولما كانت مشاكل الدول في القرن الثامن عشر لا تفصل الا بالحرب كانت سطوة الدولة وعظمتها يتوقفان على عدد جيوشها لذلك كانت بروسيا في عداد الدول الثلاث الاوربية الكبرى لكثرة جيوشها وحسن تدريبها مما اعده الملك الجاويش . واستظهر به فردريك الكبير على ولايتين ضمهما الى مملكته الا وهما (سيليسيا وبولونيا البروسية) وفيهما من النفوس ٢,٢٤٠,٠٠٠ نفس وقد مات تاركاً ٦,٠٠٠,٠٠٠ من النفوس تحت سلطانه

الادارة : اتخذ ملوك بروسيا السلطة المطلقة في سياسة مملكتهم على ان تلك السلطة

في اطلاقها لم تحصل لملك من ملوك تلك الايام الذين لم يكونوا يتقاضون من الامم الخاضعة لهم ما يتقاضاه ملوك بروسيا من شعبهم فان فردريك وليم وضع الضرائب على نبلاء البلاد الذين كانوا حتى يومئذ معافين منها فكبر الامر عليهم ورفعوا له العرائض يطلبون اعفاءهم من الرسوم وختموا العرائض بهذه العبارة « ان ذلك سيئول الى خراب البلاد » فاجاب الملك اني في ريب من ذلك على ان سلطة النبلاء هي وحدها التي سيعتورها السقوط لاني اسست مملكتي على صخرٍ من الشبهات . وكان يحسب نفسه سيداً لرعيته ويريد الدخول في جميع شؤونهم حتى في امور ازيائهم فحظر على الناس استعمال الانسجة القطنية وامر بان من يحتفظ بها في بيته يغرم ويقيد بالاغلال وكان يزعم ان من حقوقه ان يكون محبوباً فاتفق ليهودي فقير ان رآه قادماً فخاف وفرّ هارباً فقبض عليه من طوقه واوسعه ضرباً بالعصا وقال له « لا يجب ان تخافني وتهرب مني بل يجب عليك ان تحبني » وخطر له احتكار المشروبات وعهد بها لجماعة من الفرنساويين فتبرم قوم من رعيته للامر فلم يعبأ بتذمرهم وقال لهم « افتكروا ما تريدون ولكن اطيعوا وادفعوا »

ومما تمتاز به هذه المملكة ان الملك يقوم بنفسه بكل حاجاته ويراقب عماله ويتطلب منهم ان تسير جميع الامور سيراً قانونياً وقد قال فردريك انه يستحيل على الامير ان يكون السيد المطلق في مملكته ما لم يكن خادمها الاول . وحسبك في مراقبة ملوك هذه المملكة للعمال الامر الذي اصدره فردريك الثاني سنة ١٧٤٩ يقول فيه ان الكثيرين من العمال على اختلاف وظائفهم يجنفون على الفلاحين فيضربون بالعصا فلا يمكن لجلالته والحالة هذه ان يصبر على مثل هذا الجور في رعيته لذلك يأمر ايّاً كان من العمال متى ثبت عليه انه ضرب فلاحاً بالعصا ان يُزج في الحال من غير مرحمة في احد الحصون ويبقى مسجوناً ست سنوات ولئن كان من خيار العمال القائمين بوظائفهم احسن قيام . وكانت كل الاشغال ترفع الى الملك فيقرأ اوراقها ويعلق عليها الحواشي بيده

وبهذه السياسة الاقتصادية والنظام الحسن اقتدر ملوك بروسيا ازاء ممالك تلك الايام المطلقة على وضع الطرز الجديد للهيئة العسكرية الذي ثبت طويلاً وفاق كل نظام جندي آخر فهو الذي حفظ لملوك بروسيا بيضة سلطتهم المطلقة حتى عهدنا هذا . فدوّخوا به الممالك الالمانية الاخرى

السلطنة الروسية

اصل السلطنة الروسية : ان السهول الفسيحة من اوربا الشرقية من حد اودر

حتى الاورال كانت مسكناً للشعب السلافي منذ اوائل العصور الوسطى . والسلاف قبائل بيض من ذات ارومة الشعوب الاوروبية ولغتهم من اصل آري كاللغات اللاتينية واليونانية والالمانية . على ان قبائلهم اكثر عدداً من كل السلائل النازلة في اوربا الغربية وتنقسم الى امم متعددة . ففي الغرب البولونيون وقبائل التشك في بوهيميا وفي الجنوب الكروانس والسربيون والبلغاريون الخاضعون للسلطنة البزنطية . وكان السلاف النازلون في الشرق حتى القرن التاسع منقسمين الى قبائل تحرث الارضين وتقيم في بيوت من خشب ولم تكن مدنهم الا عبارة عن حصون مسورة بالتراب ومحاطة بخندق يلتجئون اليها ايام الحرب ثم جاء من الشمال من صوب السويد جماعة من الكماة ضموا اليهم تلك القبائل وصيروها امة وسميت الامة روسيا تسمية باسم البلاد التي خرج منها رؤساء اولئك الكماة فالف هؤلاء الامراء جيشاً ثم اعتنقوا النصرانية ودعوا اليها رعيتهم فتنصروا (١)

فاصبحت المملكة الروسية في القرن الحادي عشر بلاداً مسيحية ارثوذكسية مرتبطة بكنيسة القسطنطينية . والروسية القديمة هي بلاد البحيرات ومقاطعة دنيبر اي القسم الغربي من روسيا الحالية المسماة روسيا الصغرى . وكان لروسيا الصغرى عاصمتان هما نفوغرود وكيف فالاولى مدينة التجار وهي قائمة على شاطىء بحيرة المن والثانية المدينة المقدسة وفيها اربع مئة كنيسة قائمة على شاطىء نهر دنيبر حيث كنيسة القديسة صوفيا المزينة بالصور والرسوم المذهبة والكتابات اليونانية

ولم يكن يتهيأ للروسية اقامة دولة ثابتة الدعائم اذ كانت البلاد عند موت كل امير تتجزأ بين اولاده حتى بلغ عدد اماراتها في القرن الثالث عشر اثنتين وسبعين امارة وجاءها من صوب اسيا جيش جرار من التتر يبلغ ثلثمئة الف فارس احط على تلك الممالك الصغرى فدمرها ولذلك صارت الروسية كلها منذ القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر خاضعة لامير المغول الخان الكبير وكان يسكن مدينة على شاطىء الفولكا ولم يكن للامراء الوطنيين من الروس شان يذكر الا خدمة امير المغول وكان من واجباتهم حين يتقلدون الامارة ان يجيئوا بلاطه ويجثوا على ركبهم امامه فيمنحهم اللقب والمنصب . وكان اذا أرسل اليهم وفداً فرشوا بيوتهم بالبسط الفاخرة وقدموا للمعتمد كاساً مملوءة

(١) وليس لدينا عن هذا التاريخ الا اقاصيص وخرافات وضعها الراهب ناسطور من كيف في القرن الثاني عشر

بالقطع الذهبية وجثوا على ركبهم حين تلاوة الامر

وفي خلال هذه الازمنة كانت الروسية الغربية تستعمر شيئاً فشيئاً الاحراج الوسيعة من الصحراء الشرقية حتى اوجدوا فيها شعباً روسياً جديداً . وكان امراء موسكو يجمعون الضرائب من الروس لخان التتر فارتفع شانهم وعلا كعبهم وظلوا نحو قرنين يستعينون بالجند التتري في اقتحام الامارات فلقبوا بجامعي البلاد الروسية . وحدث في القرن السادس عشر ان تخلص هؤلاء الامراء من سلطنة التتر واقيم عليهم سنة ١٥٤٧ ايفان الرابع قيصراً اوملكاً ومنذ يومئذ صارت الروسية الحقيقية في الشرق وهي بلاد فولكا . واصبحت قرية موسكو الواقعة تحت قلعة كرملين عاصمة السلطنة الجديدة

القيصر : يحكم القيصر بلاداً من اكبر ممالك اوروبا واكثرها اتساعاً وله السلطة المطلقة التي لا ضريب لها بين السلطات الاخرى حتي ان الروس يدعون انفسهم عبيد القيصر متبعين في ذلك العادة الشرقية . واذا مثلوا بين يديه ضربوا الارض بجباههم . وفي روسيا يسمون العرائض ضرب الجباه . وكل ما في البلاد من الرجال او المتاع ملك القيصر فاذا اراد ان ينزع من الرجل املاكه او يأمر بقتله بغير ذنب سوى مجرد الارادة فيطاع غير ممانع . وليس في البلاد من شريعة غير ارادته وهي شريعة البلاد الروسية الوحيدة . وفوق هذا ينظر الشعب اليه كشخص مقدس تانست فيه القديسة « روسية » وكان الدين يامر بمحبته ويدعوه الفلاحون اباً وقد كان لسكان بسكو منذ اجيال كثيرة حق الاجتماع وادارة اشغالهم فلما امر فاسيلي برفع الجرس الذي يعلن اجتماعهم قالوا له نحن اولادك اليتامى حتى نهاية العالم ولله ولك الحق في التمتع بميراثك وتتصل بك . ويطيع الروس قيصرهم طاعة الرهبة والحب معاً ويحسبونه اباً وسيداً ووكيلاً عن الله . ولم يكن لتلك القوة المطلقة والسلطة التامة ما يعدلها اذ كانت البلاد خلواً من كل نظام او عادة قديمة تستوجب احترام القيصر لها . وما قانون الروس الا مجموع اوامر القياصرة ولم يكن في الروسية مجلس للبحث في الضرائب ولا للمفاوضة فيما يحتاجون اليه . وفي نهاية القرن السادس عشر اضمحلت اسرة القياصرة من عائلة روريك فاجتاح الروسية اميران الواحد من بولونيا والآخر من السويد ودوخاها فاقام الواحد منهما في موسكو والثاني في نوفغرود الا ان هذه الحادث اثارحمية الروس فنهضوا لمناوأة الاميرين الغريبين ولاجل ذلك التام سنة ١٦١٢ مجلس عام من كبراء الرجال ونواب المدن وانتخبوا قيصراً جديداً هو ميشال رومانوف فلما اتموا انتخابهم انفض هذا المجلس من غير ان يحاول الاشتراك

مع الحكومة حيث لم يكن للروسية من قبل هذا الحق العادل وانما كان الحق للقيصر بان يجلد من اراد • والجلد بالنوت وهو ضرب من السياط التترية ذات سيور طويلة من الجلد يمزق الجسم ويدميه بل ربما يقضي به المضروب اجله • واستمر هذا النوع من القصاص معمولاً به الزمن الطويل حتى لقبت حكومة القيصر بحكومة النوت اي السوط وكانت كلمة من القيصر كافية لضرب عنق اي كان من الناس حتى من الرجال العظام وكثيراً ما كان يقطع الملك العنق بيده حتى ان ايفان المخيف وضع في اواخر ايامه جدولاً باسماء قتلاه ليصلي لاجلهم في الكنائس فبلغت عدتهم ٣,٤٨٠ نفساً منهم ٩٨٦ رجلاً ذكرت اسماؤهم وازاءها قوله « مع نسائهم واولادهم » مما يدل على ان القيصر كان يقتل العائلة احياناً في اثر كبيرها

الاشراف والفلاحون : لم تكن الروسية ذات مدائن . حتى ان موسكو نفسها لم تكن الا قرية كبيرة . بل كانت الامة عبارة عن اشراف وفلاحين لا اوساط بينهم وليس ثمة من شبه بين اشراف روسيا واشراف اوربا لان شرف نبلاء الروس متصل اليهم بالارث عن اجدادهم اشراف البلاط (فكلمة دفوريانو يعني بها حاشية الملك) وكانوا درجات . فالدرجة الاولى اقارب العائلة الامبراطورية وهم كثيرون في الروسية . والدرجة الثانية سلالة الذين كان لهم منزلة في البلاط وهم بوارس الذين تصدروا زمناً طويلاً اكراماً للمناصب التي شغلها اجدادهم من قبل فنتج من احتفاظهم هذا كثير من الخصومات بينهم وظل رجالاتهم امداً مديداً يحتفظون بمقامات ابائهم وما ورثوا من حقوق التصدر في المقامات السامية حتى على مائدة القيصر حيث رفض احدهم ان يجلس في مكان يعلوهُ فيه شريف كان منصب اجداده اقل اعتباراً ومقاماً من منصب جد المعترض وعبثاً حاول القيصر ان يجلسهُ في مكانهِ قسراً فما استطاع بل استشاط الشريف غيظاً وخرج من القاعة قائلاً انهُ يؤثر قطع رأسه عن ان يتخلى لمناظره عن مركزه . على انهُ في اوخر القرن السابع عشر وضع القيصر حداً لهذه المناظرات التافهة اذ امر باحراق الكتب المسجل فيها اسماء الذين يحق لهم التصدر ومنذ يومئذٍ اصبحت مراتب النبلاء تراعى بنسبة اقدارهم في المناصب التي يتولونها لان مقامات الشرف متوقفة على ارادة القيصر وهو الذي يمنح الالقاب ويسلبها كيف شاء . وقد قال القيصر بولس الاول يوماً لاجنبي عنده اني لا اعرف سيداً كبيراً الاَّ الذي اكلمه وذلك مدى كلامي معه فقط

والسبب في عظمة اولئك الاشراف والداعي لتغطرسهم املاكهم التي يمنحها القيصر

ذلك لان الارض في روسيا هي ملك القيصر شأن سائر السلطنات الشرقية والفلاحون لا يمتلكون الارض وانما يقومون على حرثها واستغلالها للملك او للاعيان من خدمه وهؤلاء المسترقون يؤلفون الطبقة السفلى ويعرفون بالموجيك Moujiks (اي الرجال الصغار) وكان لهم حتى القرن السادس عشر حق الانتقال من ملك الى آخر كل سنة في عيد القديس جورجيوس (٢٦ت٢) وحالتهم هذه شبيهة بحالة مزارعينا (اي مزارعي فرانسا) الذين لم يكونوا ملاكين وانما كانوا احراراً وفي اواخر القرن السادس عشر ابان الحرب الاهلية منعاً لمهاجرة الاجراء صوب الجنوب اصدر القيصر امراً سنة ١٥٩٧ يمنع فيه الفلاحين من الانتقال العادي في عيد القديس جورجيوس فلبث الموجك في الارض التي يحرثونها تحت الطاعة الابدية للملاكين ولهذا كانت حالة فلاحي روسيا اشد قسوة من حالات جميع فلاحي الممالك الاوروبية [1] وكان الملاكون يتقاضونهم السخرة في املاكهم ثلاثة ايام في الاسبوع او يأخذون منهم لقاء ذلك مالاً معيناً في السنة والفلاحون راضخون لاهواء اسيادهم او لاهواء الخولة وكلائهم من غير ان يكون لهم ما يضمن بقاءهم في قراهم كما كان الحال في فرنسا • اما اسياد فلاحي الروس فكانوا اذا شاؤا استخدموهم في البيوت خدماً دون اجرة وزوجوهم على خاطرهم وبعثوا بهم عسكراً او جالية للاستعمار او باعوهم فينقلون الى بلاد بعيدة وكانوا يضربونهم اويزجونهم في السجن من غير حساب و بالاجمال كان شأن هؤلاء الفلاحين اشبه بحالة الارقاء في الزمن القديم من حالة المزارعين في العصور الوسطى

الكنيسة الروسية : لقد اهتدى الشعب الروسي بواسطة رسل القسطنطينية واعتنقوا النصرانية حسب التعاليم اليونانية فكانوا ارثوذكساً ومابرحوا كذلك • وينقسم الاكليروس عندهم الى صنفين الصنف الاول الرهبان ويسمونهم الكهنة السود ويقضون ايامهم في الاديرة ولا يباح لهم الزواج والصنف الثاني الكهنة (بوب) ويسمونهم البيض يمارسون العبادة ويتزوجون ويكاد يكون زواجهم اجبارياً • على ان الكهنة السود هم الذين يديرون شؤون الكنيسة ذلك لان من الواجبات المفروضة على الاساقفة ان يكونوا عزاباً ولا يمكن انتخابهم الا من مصاف اولئك الرهبان وما البوب (الكهنة البيض) بارقى حالة

---

(١) ولبث الفلاحون احراراً في الاقليم الشمالي الشرقي حيث لا وجود للشرفاء وكذلك على شاطئي Denieper في الايكران حيث ظلوا على العيشة الحربية

من الفلاحين الذين يعيشون في وسطهم فانهم يتهيأون للانخراط في هذا السلك بالممارسة كما تمارس المهن اليدوية ولا يتعلمون الا التراتيل الكنائسية واقامة الاحتفالات وبالكاد يعرفون القراءة وقد منعوا مدة من الزمن عن الوعظ في الكنائس

وكانت الكنيسة الروسية مستقلة عن كنيسة القسطنطينية ولها طقوس لوحدها مكتوبة باللغة السلافية القديمة • وفي القرن السادس عشر اقام القيصر بطريركاً على جميع الكنائس الروسية ولما كانت الكتب الطقسية قد استنسخت كثيراً تطرّق اليها التحريف خلال العصور الوسطى فاراد البطريرك نيكون سنة ١٦٥٤ ان يصلح اغلاط النسخ ومواضع الخطاء فيها ويرجع النصوص والاحتفالات الى نقاوتها الاولى • ولما جمع لهذه الغاية مجمعاً من كل مطارنة روسيا صار هذا الاصلاح عثرة لان الروس كانوا شديدي التمسك بالاعمال الخارجية التي يمارسونها وما فتئوا محافظين على صيام الكنيسة اليونانية الصارم لا ياكلون لحماً ولا بيضاً مدى اربعين يوماً وكان في كل بيت من بيوتهم صورة (ايقونة) يضيئون امامها الشموع ويقفون مصلين

وقد ظل عدد كبير من الروسيين على طقوسهم القديمة ممتنعين عن قبول الاصلاح البطريركي لا يدخلون الكنائس التي قبلت الاصلاح وسموا الطائفة المصلحة المنشقة والغير المصلحة يسمي ذووها انفسهم بالمؤمنين القدماء على ان وجه الخلاف بين الفريقين على الاعمال الخارجية فقط فالمؤمنون القدماء لا يرسمون اشارة الصليب الا باصبعين عوضاً عن الثلاثة الاصابع ويلفظون اسم يسوع هكذا (Isous) خلافاً لاولئك الذين يلفظونه هكذا (Iisous) ويحسب المؤمنون ان من الخطايا المميتة ان يحلق الانسان ذقنه وان يدخن التبغ ولاجل هذه الامور قاسى جماعة المؤمنين القدماء انواعاً من الاضطهاد الهائل من مثل السجن والقتل وذلك مدى قرنين من الزمن وهم اليوم كثيرو العدد لا سيما بين فلاحي الشمال الاحرار وبين تجار المدن

دخول التمدن الغربي الى روسيا : لقد كان الروس حتى اواخر القرن السادس عشر شعباً اسيوياً يطلقون اللحى الطويلة ويلبسون الثياب الطويلة الضافية على الزي الشرقي ويحجبون النساء ولا يسمحون لهن بالخروج الا وعلى وجوههن الحجاب ولم يكونوا يحترفون صنعة من صنائع اوروبا الغربية ويكرهون شديداً سكان تلك الممالك ويحسبون الاوروبيين هراطقة سواء كانوا كاثوليكاً او بروستانتاً

واتفق في اواسط القرن السادس عشر (سنة ١٥٥٣) لبحارة الانكليز في تفتيشهم

عن طريق الصين ان اكتشفوا البحر الابيض وكان هذا البحر حتى يومئذ المنفذ الوحيد لسلطنة القيصر • لان شواطئ البلطيك كانت لملك السويد وشواطئ البحر الاسود لسلطان العثمانيين • وظلّ ميناء مدينة اركانجيل زهاء قرن النقطة الاتصالية الوحيدة بين اوربا وروسيا • وفي سنة ١٥٨٣ امر القيصر ان تشاد هنالك مدينة ومنح حق احتكار التجارة فيها للتجار الانكليز والهولانديين الذي سكنوها واحضر اليها ايفان المخيف جماعة من المهندسين والصناع الايطاليين واقام فيها مطبعة ايضاً

ومع هذا ما برح الروس على حالهم الاول من البربرة والخشونة حتى ان السفراء الذين كان يبعث بهم القيصر في الاحايين الى ملوك اوروبا كانوا في منتهى الغباوة والبربرة وحدث سنة ١٦٥٦ ان ارسل الى ليفورنا سفيرين كانت خشونتهما وقذارة ملابسهما مدعاة لهزء الايطاليان واستغرابهم لانهما كانا ينامان على الارض بثيابهما ولا يخلعانها ويخبئان المناديل في قبعاتهما ويتناولان على موائد الاكل قطع الطعام بايديهما ثم يشكانها بالشوك • وكانوا قد اصحبوهما بالمقادير الكبيرة من المؤن وبراميل الخمر فلما رجعا حملا معهما تلك البراميل فارغة ليظهرا ضخامة امتعتهما • وكانا يدمنان الخمر فاذا سكرا جعلا يضربان الخدم بالعصي • واتفق لاحد الشعراء ان مدح احد السفيرين بقصيدة رفعها اليه فاغتاظ السفير الثاني شديداً فتدارك الشاعر الامر بان مدحه بقصيدة ثانية فلما قدمها له استشاط الممدوح الاول غيظاً لانها كتبت على ورق كان اكثر جمالاً من الورق الذي كتبت عليه القصيدة الاولى • واتصل بهما الجهل المطبق انهما لا يعرفان لغة غير الروسية حتى ولا جغرافية البلاد التي بعثا اليها فانهما في تقاريرهما الى القيصر حرّفا اسماء المدائن التي مرّا بها أو اقاما فيها

ومع جهل الروس كانوا شديدي التعلق بالمجاملات الرسمية حسب اصطلاح بلادهم • من ذلك ان سفارة جاءت فرنسا ايام لويس الرابع عشر سنة ١٦٨١ لعقد عهدة تجارية فرغب بوتماكين رئيس السفارة ان كل مرة يرد فيها اسم القيصر ان يكتب هكذا (الجلالة القيصرية) وتشكى من ان كتاب ملك فرانسا الجوابي كان على ورق اصغر من كتاب القيصر له فاعتذر له ان كتاب القيصر كان على رق ثخين وكتاب ملك فرنسا على حجم مماثل لكنه مطوي طيًّا لطيفاً لذلك ظهر كانه اصغر من كتاب القيصر • وفوق هذا انه لما قابل لويس الرابع عشر ما بدأ في محادثته حتى انقطع عن الكلام فهمس اليه المترجم ان يستمر على الحديث والا فاني انوب عنك بالكلام فاجابه « اما ترى اني كلما لفظت اسم

القيصر لا يحرك الملك حتى ولا يرفع قبعته » كانه يريد منه الوقوف لدى كل عبارة يرد فيها اسم مولاه

الا انه يستحيل على هذا الشعب البربري ان يستمر بعيداً عن التمدن الاوروبي ومع هذا كان الناس يتساءلون مدى قرن اذا كان التمدن سيخترق الروسية من جهة بولونيا الكاثوليكية او من صوب الشمال البروتستانتي وكان نفر من الاشراف قد بدأوا في استعمال الزي البولوني

الا ان الشعوب الشمالية كانت السابقة لغيرها من الشعوب في الولوج توًا الى قلب الروسية حيث كان من عادة القياصرة اذا اغاروا على بلاد ان يصحبوا معهم عدداً من اهلها ليقيموا في بلادهم . فان ايفان سنة ١٥٦٥ صحب معه الى موسكو من ولايات البلطيك زهاء ثلاثة الاف الماني . ولذلك نشأت هنالك مستعمرة المانية بقسوسها وكنائسها . ومن ثمّ زادت اتساعاً في القرن السادس عشر بجماعات الجالية من الذين جاء بهم القيصر أو ممن جاءها طلباً للثروة من المهندسين والنجارين والمعدنيين والتجار والاطباء والصيادلة والقواد اتوها من كل البلاد الاوربية . الا ان معظمهم كانوا من الالمان والهولانديين والانكليز وكانوا في بادىء امرهم قد امتزجوا مع الاهلين من الروس . الا انه في سنة ١٦٥٢ وجد الروس من الغرباء التغطرس والبذخ في الملبس فمنعوهم من اتخاذ ازيائهم الروسية وحملوهم على السكنى ظاهر موسكو في مكان يقال له سلوبودا وقد بلغ عددهم (سنة ١٦٧٨) ١٨٠٠٠ نفس

وكانوا يكرهون هؤلاء الغرباء ولا يريدون تحديهم في الملبس . أما القياصرة الذين نشأوا على احترام الارثوذكسية والتمسك بتقاليدها فلم يكن لهم اسباب اخرى تدفع الى التماس تمدن الهراطقة

وفي اواخر القرن الثامن عشر افضى العرش الى قيصر من اعظم قياصرة الروس بأساً واوفرهم حكمة الا وهو بطرس الاكبر . نودي به ملكاً وهو لم يزل حدثاً لا يقدر على سياسة الملك فنابت عنه شقيقته صوفيا وابعدته الى بيت في الارياف واهملت شأن تربيته جداً فنشأ يجهل اللاتينية والكتابة حتى الآداب الدينية . الا انه تعرف هنالك الى نفر من الاوربيين فصار يتردد على حيهم واتفق له ان رأى مركباً قديماً متروكاً في انبار هنالك فشغف به واتخذه ملعباً له وجعل يتسلى به باللعب تارة كعسكري وآونة كنوتي وذهب الى اركانجيل وعاش فيها وسط البحارة والنجارين و بعد ذلك بزمن طويل سنة ١٦٩٧ يوم

اخذ على نفسه انشاء اسطول حربي في البحر الاسود جاء اوربا بغية درس الشؤون فيها واستصحب معه من شبان الروس نحو مئتين واثنين وخمسين شخصاً ليطلعوا على التمدن الاوربي فتستنير اذهانهم وتثقف عقولهم (١)



بطرس الاكبر

ولدى رجوع بطرس الاكبر لروسيا اخذ يبذل غاية جهده في انتشال الامة الروسية من حالتها البربرية وصيرورتها امة اروبية من حيث العادات والاخلاق ـ ذلك لانه نشأ خالياً من خرافات شعبه غير متأدب بآدابه ولا معتقد بمذهبه وانما كان معجباً بالتمدن الغربي ميالاً كل الميل لادخاله الى سلطنته . وكان قد اعتاد من رعيته الطاعة لما

(١) وقد جمع فولتير عن صبوة بطرس الاكبر قصصاً طويلة عريضة اقتبلها على علاتها منها انه اشتغل طويلاً مثل صانع في المصانع البحرية في ساردام من اعمال هولاندا حال كونه لم يقم في هذه المدينة الا ثمانية ايام

يقول فامران تغيير العادات القديمة واعدّ لمن شذ عن الطاعة الغرامة والجلد وكان من جملة ما امر الامة به العدول عن اطالة اللحى وقص بيده لحى نفر من اشراف البلاط . ومن ثم اصدر امرًا قيصريًا يوجب على جميع العمال اتخاذ الزي الاوروبي وامر النساء بحضور اجتماعات الرجال والظهور بالازياء الاوروبية حاسرات القناع واتاح تدخين التبغ الممنوع من الكنيسة والمحسوب عندها نبتًا شيطانيًا وطفق يدخن على مرأى من الناس ليقلدوه والصغير مولع باتباع الكبير في سائر احواله وفي سنة ١٧١٨ ادخل بطرسبورج عادة حفلات الرقص وحتم على الاشراف بوجوب حضورها وان يقيموا مثلها في منازلهم مع نسائهم ليلاً وان يتموا شرائطها من الرقص والمحادثة واللعب والتدخين كما يعمل الاوربيون في ليالي الحفلات ووضع لهم نظامًا يرشدهم الى ما يجب تقديمه من المرطبات في تلك الليالي وبديهي ان هذه الحفلات الاجبارية في اوائل نشأتها لم تكن تشابه الحفلات الفرنساوية الاختيارية لا سيما وان النساء الروسيات المعتادات على الحجاب كنّ لا يستطعن في بادىء الامر حراكًا بل كنّ صامتات . أما الرجال فكانوا يأخذون بالسكر والعربدة

شرع بطرس الاكبر بالاصلاح فشق ذلك على الشعب وقد جرح به عواطف الامة والم بشعورها الديني حتى صار الجميع من اضداده — فالكهنة لما رأوه يعاشر الهراطقة اتهموه بالمروق من الدين وانه يريد محوه وحسبوا ان حلق اللحى يكاد يكون ضربًا من الهرطقة حتى ان البطريرك قال ان من حلق لحيته يكون اشبه شيء بالهر منه بالانسان — واخذه الجيش الرومي سترليتس على منحه رتب القيادة للاجانب — واهل موسكو لم يرضهم منه استحسانه مناهج الاجانب وامتناعه عن حضور الاحتفالات الدينية — ولم تكن زوجته ايدوكسيا ولا ابنه الكسيس راضيين عن اعماله حتى ان الكسيس رفض تعلم أي لغة اجنبية قائلاً انه بعد ابيه سيرجع كل شيء في روسيا الى ما كان عليه من قبل

وكان يصعب على الكثيرين من الروس ان يعتقدوا ان قيصرًا روسيًا ينهج مثل هذه المناهج ولذلك قالوا انه ليس بالقيصر الحقيقي انما هو شاب الماني رجع من اوربا عوض القيصر بطرس

ولم يكن راضيًا عن بطرس غير رجال بطانته وجماعة الاجانب . الا انه في سائر الاحوال كان قيصرًا على شعبٍ اعتاد الطاعة العمياء لملوكه ولم يكن يعرف العصيان فاقتصر المعارضون على الشكوى في سرهم ولم يكن بالمستطاع حملهم على الاجهار بها الا اذا سجنوا أو جلدوا . ولكنه لكي يكبح جماح عنادهم رجع فاتخذ العادة القديمة وهي القوة وكان

ان تمرد في غيابه عسكر السترلتس اقتص منهم عند رجوعه بان كان يلقي المذنب على قطع من الخشب يصف صفًا ويضرب بها الرأس . ولكي يتخلص من سلطة الكهنة وعتوهم الغى المنصب البطريركي وظل ملغىً واراد التغلب على معارضات زوجته وابنه فجلد امرأته وقتل ابنه ثم تزوج ثانية من سجينة ليفونية هي كاترينا وتوّجها قيصرة وسكن معها في بطرسبورج وشرع بتهذيب ابنتيه تهذيبًا اوربيًا وهما المرأتان اللتان اتمتا بعده ما بدأ به من الاعمال . ورغبة في التخلص من رجال موسكو شاد عاصمة جديدة في بلاد غربية قرب البلطيك وسماها باسم الماني وهو بطرسبورج واستجلب اليها السكان قسرًا بنقلهم من اركانجيل وامر الاعيان ان يبني كل منهم فيها بيتًا وقد صرف بطرس زمن ملكه في ادخال كل ما اعجب به من فنون اوربا ونظاماتها الى بلاده

وغاية ما تاقت اليه نفسه من التمدن الاوربي الاختراعات المادية لانه هو نفسه كان نجارًا وجنديًا وبحارًا ونقاشًا والغرباء الذين جاء بهم الى روسيا لم يكونوا من العلماء وارباب الفنون وانما كانوا من العمال والمهندسين . وكانت المدارس التي اسسها عملية (مثل مدرسة الاكاديمي البحرية ومدرسة المحاسبات) وكان ما ترجم من الكتب الى الروسية الاقتصاد السياسي والجغرافية وقد اشتغل بنفسه في دقائق الصناعات وامر جماعة من الاساقفة ان يغيروا طريقتهم القديمة والا ضبطت اموالهم ذلك ان لا يضعوا المسمار الثخين في الحذاء ولا يجعلوه في شكل الزورق وحسّن شكل المنجل والمجرفة اللتين تستعملان للحصاد وشرع سنّة جديدة لقطع الاحراج وقد قال مرة ان الشعب الروسي يشبه الاولاد الصغار الذين يتعلمون الالف والباء بكل صعوبة وعناء واذ كان المعلم يجبرهم في اول الامر على التعليم بالقوة كانوا يكرهون منه ذلك الاجبار حتى اذا تعلموا شعروا من انفسهم بجميل معلمهم

انقلاب الاشراف في روسيا : ان بطرس لم يخفض شيئًا من سلطة القياصرة وانما عززها بما ادخل اليها من معدات الاحكام التي كانت مجهولة حتى ذلك العهد في الروسية القديمة . من ذلك وضع نظام الاحكام وتنظيم الجيش . وقد نقل النظامات الغربية الى بلاده ولم يبال بعادات الشعب الروسي وتبرمه . ولم يلتفت الى تغيير اسماء ما نقل من الاشياء بل ابقاها على اصلها كما فعل في الجيش فانه ابقى الالقاب الالمانية كما هي من مثل الجنرال والفيلد مارشال وجعل لباس الجند على شكل لباس الجيش الاوربي وقسمه الى فرسان ومشاة . الا ان القوزاق وحدهم استمروا محافظين على ازيائهم الوطنية وحروبهم

القديمة . وانشأ اسطولاً على الطريقة الهولاندية واجبر الروس على الخدمة البحرية بالرغم عن تخوفهم من البحر وانشاء الادارات على شكل الادارات السويدية واقام مجلس اعيان مؤلف من تسعة اعضاء وكذلك مدارس للحكومة واوجد قضاة للادارة ورؤساء للضابطة ونظارات مرية وكان رؤساء تلك الدوائر من الروس ووكلائهم من الغرباء

ولكي يستتب لبطرس تنظيم تلك الادارات عمل على قلب الاعيان الروسيين فالغى الالقاب « البوار » ووضع بياناً جديداً للمراتب . ذلك انه جعل جميع المناصب شبيهة بامثالها في الجندية وهكذا كانت الدرجات منقسمة الى ١٤ مرتبة وكل واحدة منها تقابل رتبة عسكرية فالناظر في الخدمة المدنية هو في الدرجة الاولى تقابل في الجندية رتبة الفيلد مارشال ومرتبة مقيد السجلات في الادارات هي في آخر مراتب الحكومات المدنية تقابل في الجندية رتبة حامل العلم وكانوا يرتقون في الخدمة المدنية كما في الخدمة العسكرية من درجة الى اخرى فكانت الهيئة الروسية مثل فرقة عسكرية كل فرد منها حسب درجته والتلميذ الذي يخرج من المدرسة و يدخل في الجامعة ينخرط في سلك الدرجات ودرجته الرابعة عشر

وان جماعة الرجال الحاصلين على تلك الرتب يعرفون باسم تشين Tchine وليس في الروسية من الاشراف سوى هؤلاء الجماعة فكل متوظف هو شريف لانه في خدمة القيصر وكل شريف يجب ان ينخرط في سلك الوظائف وقد سن بطرس الاكبر ان كل عائلة مر عليها جيلان ولم تدخل خلالها في خدمة الحكومة ليست من الاشراف وكانوا اذا ارادوا اكرام تاجر ذي ثروة او عالم او كاتب اوطبيب يمنحونه لقب متوظف (مترشح من شوراء التجارة) الذي يجعل له مقاماً بين التشين يقابل الماجور او الميرالاي فاصبح الشرف في الروسية يتوقف على شرف الوظيفة وكان من قبل ذلك ينتقل الشرف المنصبي الى اولاد محرزيه في جميع مراتب التشين اما اليوم فاصحاب الوظائف الدنيا لا يتصل الشرف منهم بالارث الى ابنائهم

الرشوة — ان عمال الادارات الروسية ظلوا زمناً طويلاً يحافظون على العادات القديمة البربرية غير انهم يسمونها باسماء اوربية وكان القيصر نفسه اذا قلد واحداً منهم وظيفة يقول له « عش من مهنتك وتمل منها » لذلك اتخذ العمال مناصبهم ذريعة لتحصيل المال من مرؤوسيهم على ان بطرس الاكبر ابطل ما كان يدفعه العمال من المال لقاء مناصبهم واوجب عليهم الاكتفاء بما يتقاضونه من اجورهم ومنع قبول الهدايا وعامل

كثيرين من العمال المرتشين معاملة اللصوص فضرب اعناق جماعة من الحكام وكسر عظام بضعة من كبار رجال المالية ومع هذا كله ظلّ العمال على حالتهم من قبول الرشوة والزيغ عن سبل العدالة والحق . قيل ان القيصر حدّث يوماً واحداً من عظماء رجاله عن وضع قانون يقضي بالموت على كل مرتش من عماله . فاجابهُ كان « جلالتكم تريدون البقاء لوحدكم في المملكة — اريد بذلك ان الرشوة عامة لجميع العمال وانما تختلف بين النهم الذي يأ كل بغلظة و بين من يرتشي بلطف وتعقل »

وجملة القول ان الرشوة كانت من عادات عمال الروس وما كانوا ينالون مناصبهم الا و يؤدون اثمانها . على ان ارتقاء الروسية لعهدنا هذا مكنها من اخفاء الرشوة لا من ازالتها

الحكومة الروسية في القرن الثامن عشر : ان بطرس الاكبر نهض بالشعب الروسي ودفع به الى التمدن الاوربي واتخاذ نظاماته وسائر شؤونه وانشأ في البلاد قوتين عظيمتين هي الجيشان البحري والبري اللذان استظهر بهما على السويد وافتتح جميع الولايات البلطيكية واشهر الحرب على العثمانيين لاكتساح ولايات البحر الاسود واغتنم فرصة هجوم السويديين فزحف على بولونيا بعلة الدفاع عنها واوجب على ملكها بواسطة اعيان مملكته وضع قانون يمنعهُ من حشد جيش يزيد عدده عن ١٨٠٠٠ جندي سنة ١٧١٧

ولما مات سنة ١٧٢٥ ترك الشعب الروسي غير راض عنهُ بل متضعضع الاحوال رازحاً تحت اعباء الضرائب الجديدة يتألم لفقدان العدد العديد من الاهلين اثر الحروب والسخرة . وكيف كان الحال فان بطرس الاكبر نجح في تحويل الروسية القديمة الى سلطنة اوربية عظيمة ومع ان هذه الاستحالة تستغرق من الايام عصراً فانهُ اتمها في جيل من الزمن

بيد ان هذا العمل الناضج قبل اوانه كان ضعيف الاسباب واهي الدعائم لان عواطف الشعب الروسي مابرحت على حالها لم يمسها التبديل بحيث ان ارادة قيصر جديد يخلفهُ في الملك كافية لهدم كل ما بناه ونسخ ما اوجده . وكان ذلك يوم انتهى الملك لحفيده بطرس الثاني اذ رجع الى موسكو وانصرف الى ادمان الخمر والاشتغال بالصيد عن النظر في شؤون المملكة والعمل على ارتقائها فهملت المجالس واجباتها والنظر في شؤون الولايات البلطيكية فانتهى الملك بعده الى ثلاث نسوة تعاقبن على الاريكة وكانت كل واحدة منهن تقيم في بطرسبورج تاركة الامر لعاشقها وكاد يسقط عمل بطرس الاكبر لولا ان البلاط كان حزوماً وفيه من ارباب المناصب بضعة غرباء كمونيخ و بيرون واوسترمان ولستوك ثم تعززت

السلطنة بامرأة المانية هي كاترينا التي جاءت روسيا زوجة لبطرس الثالث ومن ثمَّ توجت قيصرة بعد موته

وكان اشراف الروس قد الفوا العادات الاوربية خلال القرن الثامن عشر واقبلوا بكليتهم عليها حتى اصبحوا لا يرتضون بان يكونوا من البويار بل بل من نبلاء الاوربيين وغالوا في الاعجاب بالعادات الاوربية والاسترسال في تتبعها ومحاكاة اهلها في سائر احوالهم حتى صاروا لا يعلمون اولادهم الا اللغة الفرنساوية الى ان جاء وقت لم يكن في مجتمعات النبلاء من يتكلم اللغة الروسية بحيث صارت لغة الشعب والخدم

على ان هذا التغيير انحصر في النبلاء وعمال الحكومة ولبث جماع الشعب من الفلاحين والتجار والصناع يحتفظون بلغتهم وعاداتهم و يحرصون على سائر شؤونهم واحوالهم

ولذلك انقسم الشعب الروسي الى شطرين الاول الاعيان وهم المرتقون المتبعون للتمدن الاوربي والحاكمون في البلاد . والشطر الثاني من بقي من الشعب وهم في حالة التأخر والخمول محكومين طائعين من غير ان يمتزجوا بالحاكمين او يحبونهم . على ان الروسية اليوم اليوم تبذل وسعها لضم هذين الشطرين الى واحد

الفصل الثاني

نظام الاستعمار في القرن الثامن عشر

نظام الاحتكار : كانت الدول الاوربية الخمس ذات الاساطيل الماخرة عباب الاوقيانوس تمتلك بعض المستعمرات في القرن السادس عشر وكانت فرانسا وانكلترا عاملتين على المزيد من التوسع في الاستعمار

وكان لجميع الدول غاية واحدة ترمي اليها في الاستعمار وكانت أيضاً ذات نسق واحد في ادارتها ولم تكن تحسب ارض المستعمرات خلاء تصلح لسكنى الذين ضاقت ارض بلادهم عن القيام بأودهم لأن اوروبا لم تكن لذلك العهد ملأى بالاهلين شأنها اليوم بل كانت اقل سكانا ثلاث مرات ولم يكن فيها من السكان من يكفي لحرث كل ارضها بحيث بقي القسم الاكبر منها بوراً من غير حرث وليس فيها مكان مزدحم ليشعر الناس بالضيق

على ان الحكومات لم تكن ترى في استغلالها الارضين في العالم الجديد الا الانتفاع بما تستطيع جره لنفسها وكانت تصرف جهدها لاقتناص الاقطار الاستوائية لانها تنتج اثمن الحاصلات كالافاويه والسكر والقطن والقهوة ولذلك ظلت اطيب البلاد هواء في اميركا الشمالية خالية من المستعمرين حتى القرن السابع عشر ولم يكن احد يفكر في اوستراليا

وكانت المستعمرات من املاك الدولة وتشتغل لحسابها ولذلك كانت الدول تبذل وسعها بالانفراد في الانتفاع منها واتخذت سنَّة تحصر استغلال مستعمراتها بها فالهولانديون سادة جزائر الصوند حظروا على الاوروبيين النزول فيها ليبقى استغلال الافاويه محصوراً فيهم ولم يسمحوا لاحد بغرس اشجارها الا في الجزائر التي يسهل عليهم مراقبتها حيث شادوا فيها الحصون ليردعوا بها اللصوص عن التهريب وكان الحكام يطوفون الجزائر الاخرى ليقلعوا شجيرات الافاويه التي نبتت من غير حرث

وفي القرن الثامن عشر يوم تكاثر الناس في المستعمرات جعلوا يصدرون الى اوروبا غلال مزروعاتهم و يستبضعون منها حاجاتهم من المنسوجات فرأت الحكومة ان لها من هذه التجارة مصدراً جديداً لدخلها فحفظت لنفسها حق ابتياع حاصلات المستعمرات و بيع اهاليها ما يحتاجون اليه من المنسوجات واعلنت ان التجارة الاستعمارية من ممتلكات الدولة وهذا هو مبدأ الاحتكار

الشركات التجارية : على ان الدولة لم تكن تستغل المستعمرات بنفسها وانما كانت تتخلى عنها لبضعة من التجار يؤلفون شركة . وانموذج هذه الشركات الشركة الهندية التي اسست في هولاندا سنة ١٦٠٢ وكان الهولانديون في القرن السادس عشر يستبضعون الحاصلات الهندية من ليسبون فبعد عصيانهم منعهم الملك فيليب الثاني عن الاتجار مع بلاده فجعلت المراكب الهولاندية تروح للاستبضاع توًّا من المدن الهندية وكان هذا العمل خطراً لان البورتغاليين كانوا يعاملون السفن الاوروبية التجارية التي تمخر الاوقيانوس الهندي معاملة القرصان ولم يكن تجار تلك الايام في سعة من المال تمكنهم من ادارة تجارتهم بين الاعداء في بلاد مجهولة . فكان يعوزهم اسطول حربي منيع يواقع المراكب البورتغالية ووكلاء يستطلعون لهم ما هنالك من الاحوال و يبرمون العهود التجارية مع الامراء الوطنيين فبعض المدن الهولاندية انضمت الى نفر من الاغنياء الراغبين في المخاطرة باموالهم في سبيل هذا المشروع وجمعوا المال اللازم لقيامه . فنشاء من ذلك كثير من الغرف التجارية وكل منها ابتاع السفن وجهزها وانضمت كلها الى شركة واحدة تحت امرة سبعة من المديرين

تعينهم الحكومة فيديرون الاعمال العامة اي ادارة الاسطول الحربي والجيش وابرام العهود التجارية مع الهند ولذلك لم تكن الشركة تأذن لغير مراكبها ان ترسو في هاتيك المين وكان رأس مال هذه الشركة مؤلف من ٢,١٥٣ سهماً (ثمن كل سهم ٣,٠٠٠ فلورين) على ان اشغال هذه الشركة لم تنجح في بدء امرها كثيراً بحيث انها منذ سنة ١٦١١ الى سنة ١٦٣٤ اي مدة اربع وعشرين سنة لم تستطع في ثلاثة عشر سنة منها ان تدفع للمساهمين شيئاً من ربع سهامهم ولكنها اخذت بالنجاح بعد ذلك حتى تمكنت من ابعاد البورتغاليين عن جزائر الافاويه وعن التجارة مع الهند وصار لها سبعة حكام وحاكم عام في باتافيا

على ان هذا النجاح دفع بالممالك الاخرى الى تاليف شركات من مثل هذه الشركة والى منحها حق تملك البلاد واحتكار تجارتها فانشأ ملك انكلترا الشركة الاميركية الشمالية التي كانت تتجر في كل الشاطيء من درجة ٤١ الى ٤٥ ثم شركة خليج ماسكوسنس وشركة وشركة خليج هادسن ووزعت الحكومة الفرنساوية حق الاتجار في العالم على شركات كثيرة منها الشركات الهندية الشرقية سنة ١٦٠٤ والشركات الهندية الغربيه وشركات جزائر القديس خريستوف في بارباد سنة ١٦٣٦ وشركة جزائر اميركا وشركة الرأس الاخضر سنة ١٦٣٩ وشركة كوينية سنه ١٦٣٤ وشركة الرأس الابيض سنه ١٦٣٥ وشركة الشرق ومداغاسكر سنه ١٦٤٢ والشمالية سنه ١٦٦٥ والشرق سنه ١٦٧١ وشركة سنيكال سنة ١٦٧٩ وكثير من هذه الشركات اضمحلت ثم عادت فتالفت . وقد احصي عدد تلك الشركات حتى سنة ١٧٦٩ فكانت خمساً وخمسين شركة احتكار قد حبطت ومعظمها من الشركات الفرنساوية

المستعمرات البورتغالية : وكان البورتغاليون يقصدون من الاستعمار الاشتغال بالتجارة فاكتفوا منها بالاحتلال في بعض المين وبتحصينها واستخدموا اساطيلهم الحربية في طرد مراكب الآخرين وفي استجلاب البضائع الشرقية الى ليسبون (من الافاويه والانسجة القطنية والحرير والخزف الصيني والعاج) ولم يكن عامة التجار يستطيعون الذهاب الى الهند من غير رخصة الحكومة فكانوا يتجرون قليلاً سيما وانهم كانوا يؤثرون البيع بالاثمان الباهظة على البيع الكثير وكان العمال يوظفون لثلاث سنوات فقط فيسعون خلالها للاثراء السريع فيسيؤون الادارة ويبيعون العدالة ويمنعون عامة الناس عن الاتجار . على ان هذه الطريقة كانت تجلب من النفع قليلاً وتكلف كثيراً . وقد كتب انكليزي ارسل الى الهند سنة ١٦١٣ لانشاء العلائق التجارية ما ياتي « ان البورتغاليين رغماً عن جمال اماكنهم صائرون الى الفقر

والشحاذة لاعالتهم عساكرهم »

واتخذ البورتغاليون استعمارهم الشواطيء الافريقية سجناً للمحكوم عليهم بالنفي والابعاد وسوقاً للاتجار بالعبيد فكانوا يرسلون من ميناء لواندا كل سنة زهاء السبعين الفاً من الزنوج اما مستعمرة البرازيل فاخصب بلاد في العالم وقد ظلت الزمن الطويل مهملة لانها تحتاج الى الحرث . وقد كانت منفى المحكوم عليهم فادخل هؤلاء واخص منهم اليهود اليها قصب السكر ثم ان بعض المجازفين شرعوا يعدنون داخليتها فنشأت بهم مستعمرة سان بولو من غير مداخلة الحكومة فكان لسكانها المعروفين باسم باوليستاس شان مخصوص استقلوا به في القرن الثامن عشر

الاستعمار الاسباني : ان الحكومة الاسبانية التي امتلكت قسماً عظيماً من الارضين في اميركا لم تكن ساعية بايجاد اسبانيا جديدة يسكنها الاسبانيون وجل ما كانت تريده توسيع املاك اسرة كاستيل وهدي الوثنيين البرابرة الى الايمان الحقيقي فكانت مستعمراتها عبارة عن املاك وسيعة مغلقة الابواب لا يدخلها الاسباني نفسه الا اذا استحصل على الرخصة من الحكومة ولا يقلع المركب من الميناء قصد السفر الى اميركا الا بعد ان يقسم الربان اليمين بوليه من القديسين انه لا يوجد بين الركاب من ليس بيده اجازة السفر . على ان الاجازة لا تنال دون ان يعاني صاحبها عرق القربة من تقديم الاسباب الكافية لسفره واقامة الدليل على انه من عائلة كاثوليكية لم يحكم مجلس التفتيش منذ جيلين على واحد من افرادها وكذلك لا تعطى الاجازة الا لمدة سنتين

ولم تكن الدولة تأذن باستيطان المستعمرات الا لعدد قليل من الاسبان لذلك لم يتجاوز عدد سكانها سنة ١٥٥٠ الخمسة عشر الفاً من النفوس فلبثت اميركا الاسبانية ومعظم سكانها من الوطنيين والزنوج وحتى اليوم ترى جميع سكان باراكوا وجبال البيرو من الهنود وثلاثة ارباع المكسيكيين من الخلاسيين وكانت الارساليات اليسوعية قد انشأت عدة قرى للهنود في كليفورنيا وباراكوا حيث لم تكن تسمح للبيض ان تدانيها

ولم تكن الحكومة الاسبانية تسعى لاستجلاب المزارعين والعملة اليها وانما اعلنت ان كل الارضين من ممتلكات الملك وقسمتها الى املاك كبيرة وزعتها على اخصاء الملك والمقربين اليه فكان للكونت فالانسياناس من الاراضي الواسعة ما تقدر بخمسة وعشرين مليوناً وكذلك منجم من المعادن دخله السنوي مليون وخمسمائة الف فرنك ولم يكن يوجد في تلك الارضين غير الهنود والزنوج لان الاسبان كانوا يزدرون بالزراعة على ما قال سائح

من سياح القرن الثامن عشر لان كل واحد منهم كان يريد ان يكون سيداً وان يعيش بلا عمل . وكان الاسبان يتقاطرون الى سكنى المدائن وهناك يقيم المزارعون والعمال ووكلاء الدعاوي المضاربون والرهبان وكثيرا ما كان ابناء غير البكور من اولاد الاعيان ليعيشوا في اميركا عيشة شريفة من غير عمل ، وهذا الارتحال كان واحداً من الطرق الثلاث التي يسلكها ابناء الاعيان الاسبان وقد قال المثل « تخير البحر او الكنيسة او قصر الملك » ولما كان بين ابيض قسم من النبلاء وخمسة واربعون عائلة من المار كيزت والكونتات

على ان كل شيء في هذه المستعمرات كان يتحدى في نظامه المثال الاسباني فكان ميراث التوارث والعشر والتفتيش ومراقبة المطبوعات . فانه كان بوسع عمال التفتيش ان يدخلوا في كل ساعة من ساعات النهار الى اي بيت كان للبحث عن الكتب الممنوعة . وجملة القول كانت هيئة اجتماعية قديمة في بلاد جديدة والحكومة مع ذلك لا ترغب في التغيير ولهذا كانت تبذل جهدها في ابعاد الغرباء حتى ظلوا في اواسط القرن السابع عشر يعاملون كل سفينة غريبة معاملة القرصان بحيث اذا نزل بحارتها الى البر ينالهم عقاب القتل او النفي الى المناجم للاشغال الشاقة فلما الغي هذا القانون ظل لرجال التفتيش حق منع الغرباء من دخول البلاد لانهم على غير المذهب القويم وكانت الحكومة لا تثق بالبيض المولودين في اميركا وتطلق عليهم اسم كريول ولا تريد تعليمهم وقد قال وكيل الملك في خطاب تلاه على تلامذة مدارس ليما « تعلموا القراءة والكتابة لتحسنوا تلاوة الصلاة » ذلك كل مايطلب من الاميركي معرفته . وانما فعلوا ذلك لانهم لم يكونوا يريدونهم ان يتولوا الحكم فان كل الوظائف كانت تعطى للاسبان القدماء فان من ١٦٠ وكيلاً للملك لم يكن الا اربعة من الكريول اي البيض المولودين في اميركا . ومن ٣٦٩ مطراناً في اميركا لم يكن الا ١٢ من الكريول فقط ولكي تمنع الحكومة اتفاق هؤلاء الكريول اتخذت عدم المساواة بين الدم الازرق (البيض) وبين الدم الملون (الهنود والزنوج والخلاسيين)

واحتفظت الحكومة باحتكار التجارة فمنعت سكان المستعمرات عن بيع نتاج اعمالهم وعن ابتياع الانسجة من غير اصحاب الامتياز من التجار وبما ان اميركا اكتشفت زمن مملكة كاستيل ونزلها الجند باسمها لذلك كانت تجارتها من متملكات تاج هذه الدولة ولا يجوز معاطاتها الا في ميناء تابع لها على ان كل مين اسبانيا الامينة كانت تابعة لدولة الاراكون ولهذا كان من الواجب على كل سفينة تسافر الى اميركا ان تسافر الى ميناء صافيل وهو ميناء متوسط . الا انه الميناء الوحيد الخاضع لدولة الكاستيل

والاضبط المركب [1] وفتش ذووه وفي سنة ١٥١٣ انشأوا في هذا الميناء مكتباً تجارياً كان متوظفوه يزورون المركب قبل سفره ويقيدون في السجل انواع موجوداته ويمنحونه الاجازة التي تخوله حق السفر . وفي سنة ١٧٢٠ انتقل الاحتكار الى مدينة قادس وكانت المراكب لا تسافر الا قافلة وتفرغ شحنها في ميناء واحد وقد كان مسير السفن مرتين في السنة مرة الى فيركروز حيث السوق العامة لبلاد المكسيك ومرة الى قرطاجنة وبورتو بلو حيث تتموّن من هنالك كل اميركا الجنوبية حتى مستعمرة بونس ايرس . وكان اميرال القافلة وحاكم بناماهما اللذان يعينان اثمان البضائع . على ان تجار الشركات الممتازة كانت تستبضع سلع المستعمرات بارخص الاثمان وتبيع المنسوجات الاوروبية والحديد والفولاذ باعلاها بحيث تربح المائة ثلثمائة على ان هذه السفن لم تكن تكفي لتموين المستعمرات ولا ان تقوم لوحدها باستبضاع حاصلاتها ومع ذلك كان محظوراً عليها الاتجار مع الاجانب وكانوا يعدون تهريب البضائع ضرباً من الهرطقة فيحال النظر فيه الى مجلس التفتيش . ولكنهم لم يقدروا على منعه بل ظل جارياً بكثرة سيما وان المراكب الاجنبية كانت تغتنم اوقات الحرب فتاتي المين وتفرغ بضائعها فيها فنتج عن ذلك نتيجة غريبة في بابها وهي ان تجارة المستعمرات الاسبانية كانت تزداد كثيراً ايام الحروب . وفي سنة ١٧١٣ اذ غُلب ملك اسبانيا أرغم على امضاء معاهدة اوتراخت مع الحكومة الانكليزية ومن شروطها ان يمنح الانكليز حق الاتجار بالعبيد في المستعمرات الاسبانية ويحق لهم ان يرسلوا في كل سنة الى سوق بورتو بلو سفينة محمولها ٥٠٠ طن مشحونة من البضائع الانكليزية وهذه السفينة كانت عبارة عن مخزن حقيقي وكانت تقيم تلقاء هذا الميناء بينما كانت المراكب الانكليزية تُبحر لجلب البضائع من جاميكا وسان دومنيك بحيث ان السفينة الراسية كانت تستطيع مداومة تجديد بضائعها . فتجارة السفن الاسبانية بعد ان كان محمولها ١٥,٠٠٠ طن انخفض سنة ١٧٣٧ الى ٢,٠٠٠ طن

المستعمرات الهولاندية : ان الهولانديين انشأوا اسطولهم لغاية اصطياد السمك (هارن) في البحر الشمالي وفي القرن السابع عشر كان لهم من السفن التجارية اكثر مما كان منها عند اية امة اخرى من الامم الاوروبية فكانوا يبحرون عليها الى كل المين الغربية وينقلون بضائع البلاد الواحدة الى الاخرى فلقبوا بقادة البحار وكانت المستعمرات الهولاندية

(١) وفي الزمن الذي كان فيه ملك اسبانيا ملكاً على البورتغال كان محظوراً على البورتغاليين من سكان موليك الاتجار مع الفيليبين

تجارية صرفاً ومن ملك [1] الشركة الكبرى الهندية بعد ان غلبوا البورتغاليين على امرها ولقد استفادت هذه الشركة في اتجارها مع الهند من فشل الطريقة التي سلكها البورتغاليون ولذلك اتخذت منهاجاً جديداً يعاكس منهاج البورتغاليين وذلك انها هدمت المعاقل البورتغالية واقامت في المين العزلاء من غير حصون ولا جيش واحدثت بينها وبين ملوك تلك البلاد العلائق الحبية مبتعدة عن السياسة غير ساعية وراء تنصير رعاياها واستمالت التجار الوطنيين بابتياع سلعهم باغلى الاثمان وبيعهم البضائع من محصولات اوروبا باثمان رخيصة حيث كان من مبادئها الاكتفاء بالارباح القليلة ولهذا كانت تربح من تجارتها ولا تتكبد مصارف الاحتلال وحظرت على مستخدميها الاتجار لحسابهم الخاص على انها كانت تؤديهم الرواتب الكافية في اوقاتها — فلما صارت الشركة كدولة كبيرة قوية رجعت شيئاً فشيئاً الى طرق الحكومات الاخرى فابادت تقريباً كل سكان موليك وذبحت جماعة من عسكر الصين في جافا سنة ١٧٤ ودفعت بملك تارنات الى العصيان لارغامه على اقتلاع شجر كبش القرنفل من مملكته والزمت السفن التي كانت ترجع من الهند الى هولاندا ان تدور حول جزائر اوركاد عوضاً من ان تخترق المانش والسفن الذاهبة ان تمر على باتافيا لتفحص فيها وجعل مأموروها يتجرون لحسابهم فاتسعت تجارتهم اكثر من متجر الشركة نفسها اذ صاروا يملأون السفن بشحوناتهم وفي سنة ١٧٤٨ تولى ملك هولاندا امر هذه الشركة فعهد بادارتها لرجال لا يكترثون باشغالها فانتهى الامر بالشركة الى ان استدانت مبلغاً عظيماً وفي سنة ١٧٩٤ بلغت الديون عليها ١٢٧ مليوناً من الفلورين اما التي لها فخمسة عشر مليوناً فقط

المستعمرات الفرنساوية : وجرى الفرنساويون في تنظيم مستعمراتهم على شكل ترتيب ولاياتهم فلم يكن للجالية حق ادارة بلادهم وانما كان يعهد بها الناظر يخول ملء السلطة فينظر في المهام كبيرها وصغيرها كما كان لامثاله في فرانسا وقد حملوا الى مستعمراتهم الاميركية نظام مراقبة المطبوعات والتفتيش الديني بحيث لم يكونوا يقبلون في مستعمراتهم بروتستانتياً ووضعوا فيها رسم العشر للكهنة ورسم السيادة للاشراف . وبالاجمال لم يكن للجالية حرية سياسية ولا دينية انما كان شانهم في ارض الاستعمار شأن الاهلين في بلاد الدولة وزد على ذلك انها حظرت اقامة المعامل على الناس لان احتكار التجارة كان قد فتح لشركة ذات امتيازات

(١) كانت جزائر كيراسو وسانت استاش مجالا لتهريب البضائع الى المستعمرات الاسبانية واراس مرسى للسفن الذاهبة الى الهند كما ان سيرنام كانت مزارع يقوم على حرثها العبيد

فتضطر الجالية ان تبتاع اشياءها من مصنوعات معامل فرنسا وهي على الغالب نفاية المصنوع ولكنها تباع لهم باثمان عالية ولم يكونوا يستطيعون البيع والشراء الا مع وكلاء الشركة

الا ان هذه السياسة التي انتهجوها اضرت بمستعمراتهم ولم تبق واحدة منها زاهرة الا جزائر الانتيل ذات المزروعات واخص منها جزيرة سانت دومنيك حيث كان مولدو الجالية يستخدمون الارقاء من الزنوج لحراثتها اما كندا التي تبلغ مساحة ارضها سعة اوربا فلم يكن فيها من السكان سنة ١٦٨٢ الا ١٠,٠٠٠ نفس وفي سنة ١٧٤٤ الا ٥٤,٠٠٠ نفس وفي الوقت الذي افتتحها الانكليز كان عدد اهلها ٧٠,٠٠٠ على ان اهلها اليوم من الاصل الفرنساوي يناهز المليونين من النفوس وكانت صادراتها السنوية تبلغ ١,٧٠٠,٠٠ فرنك واليوم صارت ٢٨٠ مليوناً من الفرنكات

المستعمرات الانكليزية : ان انكلترا آخر من استعمر من الدول وقد كان لها بضع مستعمرات صغيرة متفرقة على سواحل اميركا الشمالية وحيث لم تكن تستورد من محصولاتها شيئاً ذات قدر وقيمة لم تكن حكومتها تنظر في شؤونها بعين الاهتمام ولو صرفت شيئاً من العناية في تنظيم احوالها وادارة احكامها وهذا الاهمال كان السبب لكثرة الجلاء اليها واستيطانها بملء الحرية — وفي الشمال كان اكثر الجالية من البورتين Puritains المضطهدين (فرقة من البروتستانت) الذين هاجروا الى اميركا على عهد شارل الاول ليقيموا فيها شعائر مذهبهم بملء الحرية فشادوا الكنائس وحرثوا الارضين واتخذوا لهم من اميركا وطناً جديداً كانوا يدعونه انكلترا الجديدة وما هي الا مستعمرة دينية وكانوا يقولون « اذا كان منا من يعتبر الدين ١٢ والدنيا ١٣ فليس له فكر حقيقي عن الانكليزي الجديد» (اي لا يعرفه) — وفي الجنوب كان يقيم المزارعون الذين كانو يعيشون كالاعيان محاطين بالعبيد من الزنوج . وكان لانجلترا هنالك ثلاث عشرة مستعمرة وكل واحدة منها تمتاز عن اختها بحكومة خاصة بها وقد قسموها الى ثلاث مراتب وهي مستعمرات المزارعين التي يملكها واحد او اكثر من الرجال الذين اخذوها منحة من الحكومة بامتياز خاص وتخلت الدولة عن المداخلة في اعمالها فكان مثلاً لثمانية رجال من المزارعين في كارولين حق تعيين ارباب الوظائف ووضع الضرائب وجباية الاموال برضى الجالية وان يشهروا الحرب ويمنحوا القاب الشرف

اما المستعمرات ذات البراآت فتختص بالشركات صاحبة الامتياز ومستعمرات التاج تختص بالحقوق الانكليزية و يتولون حكومة بلادهم بانفسهم و يضعون الضرائب و يدبرون الاشغال الدينية ولا يرتضون باحكام تصدر عليهم الا من المحكمين Jury و بالاجمال

لم تكن انكلترا تداخل في شيء من شؤونهم الا تسمية الحاكم
وكانت الزراعة حرة والارض البراح (اي التي لا مالك لها) تباع لمن يريد زراعتها فكانت عائلة بن من مؤسسي بانسلفانيا تبيع من الاملاك في كل سنة بثلاثين الف ليرة انكليزية ولذلك نشأ هنالك شعب صغير من الملاك الانكليز

وكان للجالية حتى القرن السابع عشر حق الاتجار بملء الحرية حتى مع الغرباء ومع ذلك فكان النصيب الاعظم من التجارة بيد الهولانديين الا ان البارلمان المعروف (بالطويل) اراد ان يحمل الانكليز على انشاء اسطول بحري فقرر سنة ١٦٥١ ان كل بضاعة لا تحملها المراكب الانكليزية اولم يكن ناخذاها او ربانها من الانكليز وعلى الاقل ثلاثة ارباع بحارتها منهم فلا يؤذن لتلك السفن الدخول الى المين الانكليزية وهكذا اختصت احتكار التجارة في مستعمراتها بتجار الانكليز

الهند : كانت الهند في القرن الثامن عشر اكثر سكاناً من اوربا ومع ذلك لم تكن تؤلف شعباً لان سكانها منذ عصور متطاولة لم يحكمهم الا الفاتحون الغرباء واخر من تولاها في القرن السادس عشر كان اميراً من التتر افتتح دلهي واقام فيها وفي القرن السابع عشر استتب للمغولي الكبير جمع كل البلاد الهندية الى سلطنة واحدة وفي القرن الثامن عشر تضعضعت احوال هذه السلطنة واضمحلت ولم يبق فيها الا سلطة العمال الذين استبدوا بالبلاد التي كانوا يحكمونها ومثلهم رؤساء العصابات الذين كانوا يحاربون بعضهم بعضاً بجنود مستأجرة

وكانت كل من دولتي فرنسا وانكلترا قد انشأت في الهند شركة تجارية ذات امتياز فكل من الشركتين كان ينظم شؤونه بذاته وكلتاهما امتلكتا بضع مدن على الشاطئ وعززتها بالحصون للدفاع وملأتها بالمخازن وبالمستخدمين من عمال المتجر والجند والحاكم ولهذا كانت الشركتان عبارة عن دولتين صغيرتين . وفي القرن الثامن عشر دفعتها ضرورة المحافظة على شؤونها للمشاركة في الحروب الناشبة بين الامراء الوطنيين ثم علمتا على اثر ذلك بان جيشاً صغيراً مدرباً على الطريقة الاوربية يستطيع التغلب على جيش وطني كبير وان في استطاعتها تاليف جيش منظم يكون مزيجاً من الاوروبيين والهنديين معاً فالفوا فرقة من مستأجرة الوطنيين سيباس تحت امرة قادة من الاوروبيين وسلحوها باسلحة اوروبية على ان هذا الفكر قال به اولا ديبلاكس مدير الشركة الفرنساوية وتحذته الشركة الانكليزية وعملت به

الحرب بين الفرنساويين والانكليز : وفي ابتداء القرن الثامن عشر افضت الاحوال الى حرب طويلة بين الدولتين العظيمتين في اوربا وهما انكلترا وفرانسا استغرقت من الزمن اكثر من قرن فان في سنة ١٦٨٨ تولى الملك في انكلترا غليوم اورانج فترأس اتحاد الدول الاوروبية بقصد ايقاف لويس الرابع عشر عن متابعة فتوحاته فمنذ يومئذ صارت انكلترا العدوة اللدودة لفرنسا بحيث كانت تنخرط في كل حرب اشهرت على خصيمتها . وبلغ عدد الحروب بين الدولتين حتى زمن الثورة خمساً : الحرب الاولى محالفة اوكسبورج [1] من سنة ١٦٨٩ الى سنة ١٦٩٧ الحرب الثانية الارث الاسباني من سنة ١٧٠٢ الى سنة ١٧١٣ والحرب الثالثة الورثة النمساوية من سنة ١٧٤٠ الى سنة ١٧٤٨ والرابعة حرب السبع السنوات من سنة ١٧٥٦ الى سنة ١٧٦٣ والخامسة استقلال اميركا من سنة ١٧٧٦ الى سنة ١٧٨٣ فالحروب الاربع الاولى كانت برية اشتركت فيها انكلترا كمحالفة لاعداء فرانسا (فانها حالفت النمسا في الثلاثة الحروب الاولى وبروسيا في حرب السبع السنوات) الا ان الحرب اتصلت بينهما اخيراً الى خارج اوروبا فكانت كل واحدة منهما تسعى في تدمير سفن الاخرى وافتتاح مستعمراتها

فكان للحروب البحرية والاستعمارية من النتائج مالم يخطر وقتئذ في بال فانه حين بداء القتال كانت الافضلية لفرانسا حيث بلغت عمارتها سنة ١٦٧٧ زهاء ثمانمائة سفينة غير السفن القرصانية من دنكرك وسانت مالو التي كان من شأنها زمن الحرب ان تقبض على السفن التجارية الانكليزية فلذلك خسر الانكليز بمدة حرب محالفة اوكسبورج ٤,٢٠٠ سفينة حتى آل الامر الى افلاس شركات التضمينات البحرية

وهكذا نالت فرانسا السبق في المستعمرات فانها احتلت على عهد هنري الرابع كندا والاقاليم المجاورة والارض الجديدة ولاكادي وخليج هادسون وامتلكت البلاد المجاورة لمصب نهر مسيسبي (الوزيان) وشادت حصوناً في وادي اوهايو لتوصل

(١) الا ان في النصف الاول من سني ملك لويس الخامس عشر كان من سياسة وكيل الملك في فرانسا ومن رأي الكاردينال فلاري حفظ السلم مع انكلترا

بين كندا ولوزيان وكادت تكون سيدة كل اميركا الشمالية — ففي جزائر الانتيل كانت قد استولت ليس فقط على المارتينيك والكودلوب بل على عدة جزائر مثل سانت لويس دومنيك وتاباكو وفتحت القسم الغربي من الجزيرة الكبرى من سانت دومينيك في هايتي واخذت تغرس فيها مقدارًا وافرًا من قصب السكر — وكان لها في غير موقع الكويان الفرنساوية والسنكال — وقد حاولت كثيرا استملاك الجزيرة الكبرى مداغسكر على ان النظامات التي وضعها كولبار ما طال امرها ولكن في اوائل القرن الثامن عشر صارت الجزيرتان المتجاورتان لاريفيون وايل دي فرانس مستعمرتين فرنساويتين ناجحتين — وفي اسيا كان للشركة الهندية الشرقية ابنية كبيرة في عدة مدائن . وجملة القول انه كان لفرنسا املاك واسعة كادت تكون بلقعاً ولكنها كانت منذ حينئذ متأهبة لما تدرجت فيه من كثرة السكان بحيث اصبحت لهذا العهد سلطنة استعمارية فرنساوية واسعة الارجاء

ولم يكن لانكلترا في ذلك العصر الا مستعمراتها في الجانب الشرقي من اميركا الشمالية الا انها كانت لا تستطرق الى الغرب لحيلولة الاملاك الفرنساوية فيها في الاوهايو ويعارضها في الانتيل وجود جزيرة جامايكا وفي الهند شركتا بومباي ومدراس ولم يكن يومئذ ما يستدل منه ان انكلترا ستصير يوماً من اعظم دول الارض بسطة واقتدارًا في البحر واوسعهن استعمارًا حيث لم تكن بلادها حينئذ عامرة بالتجارة زاهرة بالصناعة شأنها اليوم ولم يكن لاسطولها من المنعة ما يتفوق به على الاسطول الفرنساوي

وكان من نتائج حروب القرن الثامن عشر أن تطرق الخلل الى التوازن الدولي وآل الامر الى تسود انكلترا في البحر والاستعمار . وفي صلح اوترخت سنة ١٧١٣ تضعضع مال فرانسا واوشكت الاضمحلال اثر خسائرها في البر وامست غير قادرة على تجهيز اسطولها الحربي فتخلت عن اكادي والارض الجديدة وخليج هادسون ومع ذلك بقي لها احسن املاكها وكانت الشركة الفرنساوية قد شرعت في افتتاح الهند ومن ثم تجدد أسطولها وحارب الاسطول الانكليزي حربًا عادت عليه بالفخر

وذلك سنة ١٧٤٠ الى سنة ١٧٤٨ حين عادت الحروب الى الاصطلاء سنة ١٧٥٦

ولم يكن السياسيون في فرانسا ولا في انكلترا يحسبون حسابًا لمنافع الاستعمار لانهم لم يكونوا يومئذ يرون فيه الا استغلال الحاصلات كالقهوة والنيل وقصب السكر ولذلك كانوا يرغبون في جزائر الانتيل بخلاف اميركا الشمالية بما وسعت من الارضين الفسيحة فانهم حسبوها عديمة الجدوى ولهذا لم ترغب الحكومة في مهاجرة رعاياها الى المستعمرات بل فضلت بقاءهم في بلادها لانه لم يخطر لاحد ببال ان من صالح فرانسا ان يكون لها في الجانب الاخر من الاوقيانوس ملايين من الفرنساويين اعتبر ذلك بما قال درجاسون وزير لويس الخامس عشر « لو كنت ملك فرانسا لاعطيت المستعمرات كلها برأس دبوس » وهزأ فولتير باقتحام فرانسا وانكلترا الحرب الهائلة حبًا ببعض الافدنة من الارض المغطاة بالثلوج يريد بذلك بلاد الاوهايو

وكان لانكلترا في ذلك الحين وزير محنك وهو وليم بت اكتنه الامور وعرف مكان المستعمرات المحتقرة من النفع فمال بكليته الى صيرورة انكلترا اعظم الدول البحرية في العالم بحيث تستقل السفن الانكليزية في الاتجار وكانت يومئذ صناعات بلاده قد اخذت تتكاثر فتحتاج الى اسواق جديدة لبيع نتاجها فاعجب كبار تجار الانكليز برأي بت وعضدوه في البارلمان بالقرار على انفاق الاموال الطائلة في سبيل فتح المستعمرات الفرنساوية ومحق قوتها البحرية فتم لهم الامر اذ تدمرت بوارج الاسطول الفرنساوي واعلن وزير البحرية الفرنساوية ان السفن التي تخلصت من هول المصاب لم تبق صالحة للوقوف تجاه الاسطول الانكليزي ولذلك باعها لنفر من التجار فاصبح الاسطول الانكليزي سيد البحار وفي وسعه احتلال جزائر الانتيل الفرنساوية التي تركت من غير مدافع

وفي شمال اميركا اتحد الصيادون الفرنساويون في كندا مع الوطنيين من الهنود فكسروا في بادىء الامر عسكر الجالية الانكليزية الذين كانوا يزيدونهم عددًا ولكن ما لبث ان تواردت على اولئك الانكليز النجدات والمدد من حكومتهم بين كانت الوزارة الفرنساوية تاركة اهل كندة وشأنهم فغلبتهم الكثرة اما في الهند فقد كان ديبلكس مدير الشركة الفرنساوية قد فتح بضع ولايات فحملت الشركة على اصدار الامر اليه ان يترك فتوحاته ويكف عن تتبعها ثم يعود الى فرنسا لان الشركة تجارية لا غاية لها الا اجتناء الارباح . ولم تكن الحكومة تداخل في امرها الا بتخطئة ديبلكس سنة ١٧٥٤ وبعد اربع

سنين من هذا التاريخ شرعت الشركة الانكليزية في افتتاح بنغال والهجوم على املاك الشركة الفرنساوية فهبت الحكومة الفرنساوية للدفاع عنها ولكن قوتها لم تكن كافية — وفي معاهدة باريز سنة ١٧٦٣ ترك فرانسا لانكلترا كندا وعدداً من جزائر الانتيل ولاسبانيا لوزيان وتعهدت ان لاتقيم لها جيشاً في الهند فتخلت بذلك عن ان يكون لها سلطنة استعمارية

السلطنة الاستعمارية الانكليزية : لقد خلفت انكلترا فرنسا في اميركا وفي الهند فصارت السيدة على كل اميركا الشمالية حتى المكسيك واستمرت على الفتوح في الهند وكان ساهمو الشركة الفرنساوية لا يريدون تداخل الشركة الا في الاعمال التجارية ولذلك استدعوا ديبلكس وعنفوه لتكليف الشركة مبلغاً طائلاً في سبيل الحرب بين ان الشركة الانكليزية تركت لعمالها حرية العمل فافتتح كليف اثر موقعة واحدة كل مملكة بانغال

واصبح عمال الشركة الانكليزية اسياد بلاد عدد سكانها ستون مليوناً من النفوس يحكمونها بالجور والعسف يجمعون من سلب الاهلين الثروة الطائلة الشائنة ومن ثم يرجعون الى انكلترا ويفرشون بيوتهم بأثاث فاخر كأثاث ملك شرقي فيلقبونهم ناباب واستمر حالهم على هذه الوتيرة حتى سنة ١٧٧٣ يوم حان تجديد امتياز الشركة لان امتيازها كان لعشرين سنة فقط حافظت الحكومة على حقها في تعيين الحاكم العام ولم تبق للشركة الا حقوق حصر التجارة وظل الحكام يفتحون البلدان باسم الشركة حتى انتهى الحال بانكلترا في القرن التاسع عشر ان صارت الحاكمة الوحيدة في الهند

ولقد تظهر هذه الحوادث لاول وهلة من الغرابة بمكان لان بلاداً يبلغ سكانها مئتي مليون تفتحها شركة تجارية اجنبية وحقيقة الحال ان الهند ليست امة وانما هي مجموع شعوب منها ما كان من البراهمة ومنها ما كان من المسلمين ولا رابطة تربطهم بعضهم مع بعض سواء كان من الدين او الجنس او الحكومة ولم يكن لهم من ذريعة يتذرعون بها للاجتماع على عمل مشترك وكان معظم الشعب من الزراع المسالمين الذين اعتادوا احتمال عنف الغرباء وجورهم ولم يكن في البلاد أمة وانما كان فيها الامراء الحاكمون فكانت الشركة الهندية كملك يحارب سواه من الملوك حتى استتب لها اخضاع جميع اولئك الملوك لسلطانها لانه كان لها وحدها جيش منظم

تمرد المستعمرات الانكليزية في اميركا : ان افتتاح كندا غير الحال مع ثلاث عشرة مستعمرة انكليزية حيث لم تعد تخشى ان تهاجم من جهة فرانسا ولم تعد تحتاج لدفاع

انكلترا عنها وصارت الجالية تشعر باستغنائها عن الحماية الانكليزية وطفقت تشكو من مظالم حكومتها وكان مجلس البرلمان الانكليزي يدير تجارة المستعمرات وقد وضع تعريفة الرسوم التي يجب استيفاؤها عن كل نوع من البضائع ثم منع الاتجار ببعض البضائع من الصادرات والواردات على ان الجالية لم تعترض على حق البرلمان في ذلك ولم تكن الحكومة تسالها من قبل دفع شيء من الضرائب ولكنها لما رزحت تحت اعباء دين ثقيل كانها عقدته اثناء الحرب خطر لها ان من العدل ان تطلب المستعمرة باداء شيء من المال فابت الجالية عليها الطلب واحتجت بان العادة الانكليزية القديمة لا تجبر بلاداً على دفع ضريبة من الضرائب ما لم يكن ذلك بقرار من نوابها وحيث لم يكن للمستعمرات نواب في البرلمان فهي لا تلتزم بدفع شيء فتجاوز البرلمان حينئذ عن هذا الاعتراض وقرر وضع ضريبة خفيفة تحت اسم الدمغة timbre سنة ١٧٦٤ فامتنعت الجالية عن ابتياع الاوراق المدموغة وصارت تهين من تجاسر على بيعها ثم كسروا علب الدمغة ولما لم يكن للحكومة الانكليزية عمال في المستعمرات كان يتعذر عليها حماية جباة هذه الضريبة ولو انها ساقت احداً من الاميركيين لتحاكمه في ذلك لاطلقت القضاة سراحه فالغت الدمغة لكنها في سنة ١٧٦٧ وضعت ضريبة جديدة بشكل رسومات تدفع على بعض انواع البضائع كالزجاج والنحاس والورق والشاي لدى دخولها الى اميركا فقامت قيامة الجالية واخذت رفع العرائض وتهدد ماموري الكمارك ثم ائتمروا فيما بينهم على الاقتصاص من الانكليز ذلك ان لا يبتاعوا شيئاً من بضائعهم • وكان اكثر الناس هيجاناً سكان الشمال (انكلترا الجديدة) فاندفعوا الى التهريب علناً في بوسطن حتى ان وسقة من خمر مادير دخلت البلدة مهربة فنقلت في الاسواق تحرسها زمرة من الشبان شاكية السلاح فهمت الحكومة في ان تقيم كتيبة من الجند في تلك البلاد واذ علم اهل بوسطن بوصول فرقة من الحامية قامت قيامتهم وعقدوا الاجتماعات وقرروا انه لا يمكن للعسكر ان يقيم في مستعمرة من غير رضى اهلها فلما استقر بالحامية المقام لم يكن بالمستطاع لافرادها ان يظهروا في اسواق البلد خشية ان تلحق بهم اهانة

فتنازلت الحكومة الانكليزية عن حقها والغت الرسوم وابقت منها رسم الشاي محافظة على مبداء سنة ١٧٧٠ فارجعت المستعمرات علائقها مع انكلترا الا ان الجالية اعتادت على الهرج حتى ان مركباً كان سنة ١٧٧٢ يحرس شاطىء رود ايلند Rhode Island فارتطم في الليل سارت اليه عصابة في ثمانية مراكب فجرحوا الربان واحرقوا السفينة ومع ان العاملين

كانوا معروفين لدى الناس لم يكن من يشهد عليهم وبعد ذلك بمدة ارسلت الشركة الهندية ثلاث سفن مشحونه من الشاي فنزلت عصابة من شبان المدينة بازياء الهنود الموهوكس Mohawks وحملت السفن فاستولت عليها واخذت من الشاي ٣٤٢ صندوقاً فطرحتها في البحر فاستاءت الحكومة الانكليزية من اهانتها كثيراً وعدلت الى اتخاذ الذرائع التي من شانها اعنات المستعمرات المتمردة فاعلن البارلمان اغلاق ميناء بوسطن ثم غير دستور المستعمرة فتحزب لها سائر المستعمرات وعقدوا اكتتاباً وارسلوا لها القمح والارز وقرر مجمع المستعمرات حشد الكتائب لمقاومة الجند الانكليزي وبعث نواباً الى فيلادلفيا للاتفاق في تدبير وسائل الدفاع عن المستعمرات

استقلال المستعمرات : فجعلت الجالية الامريكانية تقاوم الحكومة الانكليزية بالقوة فحدثت المعركة الاولى سنه ١٧٧٥ ومع ذلك لم تكن كافيه لتحسب ثورة اذ كان المقصود منها ارهاب انكلترا فتسلم لهم بما يطلبون الا انهم لم يكونوا يرغبون في الانفصال عنها اذ كان من مصلحة التجار المحافظة على الصفة الانكليزية ليبقى لهم حق الاتجار في جميع المستعمرات ومثلهم المزارعون في المستعمرات الجنوبيـة والميسورون من اهل البلاد الداخلية والشمال والاغنياء جميعهم كانوا يحبون الملك ويريعهم الانفصال ولكن كان قد قام في انكلترا الجديدة حزب جديد مؤلف من عامة الامة يديرهم بعض علماء الحقوق وهم يتطلبون الحرب لانشاء الجمهورية وهـذا الحزب ولئن كان اقلية الا انه ذو همم عالية يعمل بنشاط فان عصابات كثيرة منه طفقت تجوب البلاد فتطرد القضاة وتعنف الذين هم من اشياع الدولة (وكانوا يسمونهم حزب التوري اي المحافظ tories) كما يسمون حزب الملك فكانوا يأخذون القاضي ومدير الكمارك ويطلونهما بالقير والريش على العادة الاميركيـة (١) وهكذا دخل معظم المستعمرات في شأن جديد

واجتمع مجمع النواب في فيـلادلفيا وكان مؤلفاً من حزبين متعادلين فنواب الشمال كانوا يريدون اعلان الاستقلال والانفصال البات عن انكلترا حاسبين ان الفرصة السانحة لا يتيسر لهم الوصول الى افضل منها لانه لم يزل في البلاد اقوام من الكماة الذين تمرنوا على الحرب مع كندا فيستطاع تأليف جيش كبير منهم واما نواب الجنوب والوسط فلم يكونوا يرتضون الحكم الجمهوري لذلك نهض الحزب الجمهوري وغير في حكومة المستعمرات

(١) ان كل إنسان تقع عليه هذه المعاملة يتعرى من ثيابه ويطلى جسده كله بالقطران ويلف بالريش

المقاومة للمبدأ الجمهوري حتى حصلت له الاكثرية واعلن الاستقلال سنة ١٧٧٦ في المؤتمر . وكان اعلان الاستقلال من انشاء جفرسون وقد اسند فيه رغبتهم في الاستقلال الى الحق الطبيعي معدداً مساوئ الاعمال التي اتاها ملك انكلترا هضماً لحقوق الاميركان وجعل ختام قوله انه من الواجب على المستعمرات ان تكون دولة حرة قائمة بأمرها

وكانت الحرب سجالاً بين انكلترا ومستعمراتها فطال امرها لان البارلمان كان قد قرر الانفاق على ٥٥٫٠٠٠ من الجند الا ان الحكومة كادت تكون من غير جند فشرعت تكتتب المتطوعين وتستأجر الفرق من كثير من امراء الالمان وتجند الهنود وكان يقتضي لها نحو سنتين لجمع جيش جرار يتهيأ لخوض القتال ونى لها ان تحارب في بلاد اذا اخترقت اليها الصحاري الواسعة الخالية من الطرق ومن الزاد اضطرت الى استجلاب كل ما تحتاج اليه من المؤن والزاد من انكلترا فكان القواد الانكليز يكتفون باحتلال مدن الشواطئ حتى اذا قامت فرقة وتطوحت فدخلت الى الداخلية اضناها الجوع والتعب وآل الحال بها الى الاستسلام

وكانت حكومة المؤتمر اشد من حكومة انكلترا ضعفاً لانها لم تكن ذات سلطة قانونية فلم تمكنها من تجهيز الجنود او جباية الضرائب وانما كان لكل مستعمرة شأنها في تجهيز جيشها والقيام بحاجاته وكانت ترفض في الاحايين تسليم عسكرها لخدمة المؤتمر فلم يكن للمؤتمر والحالة هذه من مصدر يستورد منه المال الا ضبط املاك حزب المحافظين (او حزب الملك) ووضع الاوراق المالية وهذه الاوراق كان هبوطها مستمراً ففي سنة ١٧٧٨ لم تكن تساوي الورقة اكثر من ١/٦ قيمتها المسماة . وفي سنة ١٧٨٠ كانت تساوي نصف ثمنها وسنة ١٧٧٧ كان عدد جيش المؤتمر ١٫٥٠٠ رجل لان الباقين هربوا بسلاحهم فقرر المؤتمر تأليف جيش قدره ٦٥٫٠٠٠ رجل فلم يقدروا ان يجمعوا الا ١٠٫٠٠٠ رجل يعوزهم كل شيء وكان معظمهم يمشون حفاة لاحتياجهم الى الاحذية فكان الناس يقتفون اثر العسكر من الدماء السائلة من ارجلهم . وحدث مرة ان العسكر بقي يومين في شهر ايلول من غير طعام وقضي عليه في شهر كانون الاول ان يقضي الليل من غير غطاء حول نار موقدة فاستقال كثير من القواد ومن كان منهم متغيباً بالرخصة لم يعد الى معسكره فكتب الجنرال واشنطون القائد العام الى المؤتمر انه « يستطاع الكلام عن الوطنية ويمكننا ان نستخرج من التاريخ القديم بعض امثلة للحوادث الكبرى التي صدرت عن سلطة هذه العاطفة ولكنهم يخدعون انفسهم اذا اتخذوها وحدها سنداً لحرب دامية تستعر نارها طويلاً ... واني لعارف

بوجود الوطنية وانها فعلت كثيرًا في الحرب الحاضرة ولكني اتجاسر ان اؤكد لكم ان الحرب الطويلة لا يمكنها الاعتماد على هذا المبدأ فقط »

وكان الاميركان غير قادرين على الثبات تجاه جيش منظم لديه زاد وجهاز فيئس واشنطون ومعظم الوطنيين من النجاح . فجاءت فرنسا لمعونة الثوار وامدتهم بالمال والسلاح وبكتائب من الجند وجعلتهم في حالة تمكنهم من مداومة القتال وساعدتهم بالدفاع عن بلادهم ولم يكن لفرانسا في هذه الحرب من منفعة خاصة . وكان اعقل وزرائها مثل تيركو وماشارب يرغبون في اجتناب التداخل فيها ولكن المؤتمر الاميركي بعث الى باريز بمعتمد بارع هو فرانكلين المشهور باختراعه قضيب الصاعقة فاكتسب الرأي العام واستماله للجمهورية الاميركية على ان فارجين Vergennes وزير فرانسا وموضع ثقة لويس السادس عشر رأى في هذه الحرب الواسطة المثلى لاضعاف انكلترا لذلك دفع بدولته لمعاضدة الاميركان

وكان على انكلترا يومئذ ان تحارب فرانسا وحليفتها اسبانيا فاقتضى لها ان تجهز جيشًا جرارًا لا يقل عن ثلثمائة الف وان تأخذ بالحيطة من نزول الفرنساويين في ايرلندا وكان معظم اعضاء البارلمان غير راضين عن هذه الحرب فالزموا الملك ان يقبل بالصلح فاعترفت انكلترا سنة ١٧٨٣ باستقلال الولايات المتحدة . على ان فرانسا التي احتملت معظم اثقال الحرب لم تطالب لنفسها شيئًا واراد معتمدو فرانسا ضمانة املاك وحرية الاميركانيين الذين كانوا يدافعون عن الحكومة الانكليزية ثم التجأوا الى معسكرها فرضي المؤتمر بتبليغ مطالبها الى حكومات المستعمرات الا انه لم يفعل شيئًا لحمايتهم وقد رفض الجمهوريون قبولهم وان يرجعوا اليهم املاكهم المضبوطة وكانوا يسيئون لمن بقي منهم مقيمًا بينهم بحيث ارغموهم على المهاجرة من بلادهم على ان الهيئة الاميركية تغيرت شؤونها اثر هذا الضبط والمهاجرة فابتعدت الاسر القديمة الغنية والميسورة من انكلترا الجديدة وقام مقامهم اقوام حديثو النعمة من تباع السنن الحديثة

فلما انتهت الحرب نالت كل مستعمرة استقلالها التام وشرعت تسلك مسلك الدولة ذات الامر ولم يبق للمؤتمر الاميركي اقل سلطة فكان يصدر الاوامر ولا يلقى بينها مطيعًا فاوشك الاتحاد ان يعتريه الانحلال الا ان القادة الراغبين في البقاء على الاتحاد الناشئ للدفاع العام عن الوطن طلبوا الى واشنطون ان يخولوه السلطة المطلقة dictature فابى ومن ثم اضطر حزب الاتحاد ان يبين لسكان المستعمرات ان من حاجاتهم البقاء على اتحادهم

حماية تجارتهم فنظمت حكومة الولايات المتحدة سنة ١٧٨٧ على ان يبقى لكل ولاية منها سلطتها وحريتها واستقلالها وان تكون ادارتها ومحاكمها مستقلة . الا ان كل تلك الولايات ترتبط بالاتحاد والحب الدائم للدفاع العام وان تتعاون ضد كل عداء يقع على واحدة منها وعهد الى المؤتمر Congrès الذي يتالف من نوابها ان يدير الجيش والبحرية وعلاقاتها مع الامم الاخرى وتجارتها وبريدها

الفصل الثالث

حركة الاصلاح باوروبا في القرن الثامن عشر

الافكار الجديدة في القرن الثامن عشر

الصنائع والتجارة في القرن السابع عشر: لم يكن يباح في العصور الوسطى الاشتغال لاحد من الناس ما لم يكن عضوًا في احدى الجمعيات المأذونة من الامير ولا يجوز له اصطناع شيء الا اذا اتبع فيه القاعدة المتبعة التي اجازها ذلك الامير وكانت الحكومات المطلقة تحافظ على تلك الجمعيات وقوانينها فكانوا يعتقدون في كل اوروبا ان من واجب الدولة ادارة المصانع بحيث لا يجوز للافراد ايجاد احدى الصنائع فبقي امتياز الاصطناع محصورًا في اساتذة الصناع في المدائن . فكان يعاقب بالسجن من اقدم على انشاء معمل في المزارع او من احدث مصنعًا جديدًا في المدينة — ولم يكن ايضًا لاصحاب الامتياز حرية الاشتغال على ما يريدون وانما كان من المتوجب عليهم اتباع الطريقة القديمة في اعمالهم وانتهاج الاسلوب الموضوع لهم وان كان رجال السياسة يقولون ان الصناع يحتاجون الى الاسترشاد من الحكومة فوضع كولبار للصناع في فرنسا نظامًا عين لهم فيه المصقل الذي يستخدمونه والطول الذي يجب ان تحاك عليه قطع الجوخ وأقام مفتشين يبحثون في المصانع حتى اذا وجدوا من الانسجة ما يخالف النظام يحجزونه او في الاحايين يحرقونه وكانت الحكومة قد اخذت على نفسها ادخال الصنائع الجديدة فأنشات المعامل وعينت للمدير والعملة بها اجورًا يتقاضونها وعلى هذا المثال انشأ كولبار صنعة الدانتيل والصباغ المعروف Gobelins وهكذا كان المبدأ في اوربا ان من واجب الحكومة ان تدبر التجارة بحيث لا يحق للافراد نقل حاصلاتها ولا ان يبيعوا او يشتروا الا باستئذان الدولة عملاً بقوانينها ومنعت

من ولاية الى اخرى او ان يدخروه حذراً من حدوث المجاعة ولئلا يخفيه المحتكرون فتتصاعد الاسعار كثيراً فنتج عن هذا المنع ان الولايات التي تجدي الارضون فيها وتقصر حاصلاتها عن حاجتها يحتار الاهلون فيها ولا يعرفون كيف يدخلون القمح اليها بين ان الولايات التي تكثر حاصلاتها و يفيض القمح عن حاجات فلاحيها يحتار سكانها فلا يهتدون سبيلاً لبيع الفائض عنها

اما فيما يتعلق بالضرائب فلم يكن ثمة نسق مطرد فكانت كل مملكة تسعى في وضع الضرائب التي تدر عليها الاموال بكثرة ولا تبالي اذا كان ذلك يعرض البلاد للفقر و يغلب ان لا توضع الضرائب على الجميع بالسواء حيث ان النبلاء كادوا يكونون معافين منها لانه كان من مصلحة الحكومة مداراتهم فلذلك كان الفلاحون يرزحون تحت اعبائها

الطريقة التجارية : كان الاتجار مع الخارج مرتباً على السنن التي وضعها سياسو فينيسيا وفلورنسا في القرن الخامس عشر اذ كانوا يقولون يومئذ ان كل دولة في تسابق تجاري مع الدول الاخرى وان كل ما يربحه شعب يخسره الشعب الآخر. والتجارة حرب وكل مملكة يجب عليها الاشتغال باغناء ثروتها مما تخسره الدول الاخرى حيث قوام الثروة بالاكثر على الذهب والفضة اذ من كان له نقود يستطيع ان يحصل بها سائر الاشياء ولهذا كانت القاعدة ان تدخل الى البلاد غاية ما في امكانك من النقود وان تخرج منها اقل ما يمكن اخراجه . وعلى هذا يجب ان نصدر (اي نبيع الى الخارج) كثيراً من البضائع بحيث يؤخذ بدلاً منها مقدار من النقد وان يستورد اي يشترى من البلاد الاجنبية اقل ما في الامكان لئلا ينفق كثير من النقود فالممالك مثل البيوت التجارية فان كل واحدة منها تثري بشراها القليل و بيعها الكثير وفي آخر كل سنة تخرج حساباً بصادراتها ووارداتها مما يعرف بميزان التجارة . ويشبهون كل دولة بصيرفي يعمل في آخر كل سنة مقابلة بين الارباح والخسائر — الميزان . واذا اصدرت الدولة اكثر مما تستورد تحققت ارباحها من النقود فالميزانية التجارية تشير الى ربحها لكنها اذا استوردت اكثر تخسر النقود وعاد الميزان كاشفاً خسارتها فالواجب اذاً ان تبذل وسعها بزيادة صادراتها لاغناء ثروتها و بتقليل الواردات سيما من المنسوجات منعاً لفقرها وعلى كل حكومة ان تسعى بمنع بيع منسوجات غيرها في بلادها لكي يستعاض عن السلع الاجنبية بمنسوجات تصنع في البلاد ولاجل ذلك وضعوا طريقتين — فاصوب الطريقتين هي منع التجار عن ادخال

اشياء عملت في البلاد الاجنبية الى البلاد . الا ترى كولبار قد حظر بيع دانتيل فينيسيا في فرانسا واوجب على الفرنساويين ان لا يبتاعوا من الدانتيل الا المحوك بمعامل فرانسا وهذه الطريقة تعرف بالطريقة المنعية Prohibitif وكان يمكنه الاكتفاء بوضع الرسوم الجمركية [1] على المصنوعات الاجنبية عند دخولها البلاد بحيث يضطر التجار الى رفع اثمانها بين تكون البضائع من نوعها المصنوعة في البلاد لا تؤدي الرسوم فتتمكن من الفوز في المسابقة فنتج من ذلك ان الرسوم التي تتقاضاها الحكومة على تخومها ترمي الى غايتين احداهما زيادة دخلها والاخرى حماية الصناعة وهذه الطريقة هي المعروفة بالحامية Protecteur

وقد اعتمدت كل دول اوروبا في القرن السابع عشر احدى الطريقتين اما المنع واما الحماية ـ فقانون الملاحة الذي سنته انكلترا سنة ١٦٥١ اعتمد الطريقة المنعية لان مؤداه حظر الاتجار مع انكلترا او احدى مستعمراتها الا على سفن انكليزية تخص ناخوذاة انكليزي ويديرها ربان انكليزي — اما كولبار فاعتمد في فرانسا طريقة الحماية اذ قال « ان الرسوم الجمركية هي العكاز الذي نتوكأ عليه الصنائع في بدء مشيها ثم تطرحه يوم تمتلك تمام قوتها » هذا هو النظام المعروف بالطريقة التجارية [2] وغايته رواج التجارة واكثار النقود في البلاد وهذا النظام يلائم كثيراً حالة المدائن الايطالية التي لم يكن يتأتى لها الاثراء الا بمصنوعاتها وتصدير تلك المصنوعات الى الخارج والتي كانت تلتزم بحماية تجارتها من المدائن المعادية . وقد كان ذلك في غاية الملاءمة لحالة القرن الخامس عشر يوم كانت النقود قليلة جداً وكثيرة الطلاب الا ان هذا الامر لا ينطبق على احوال الممالك الكبرى بعد اكتشاف اميركا الذي افاض الذهب والفضة

الاقتصاديون : انه منذ القرن السابع عشر جعل الاقتصاديون يبحثون بحثاً نظرياً في الوسائل التي تزيد في ثروة البلاد والممالك . وسموا هذا البحث بالاقتصاد السياسي

(١) ان الرسوم على البضائع الاجنبية وجدت منذ القرن الثاني عشر في المدن الشرقية فالدائرة المعينة لوضعها كانت تسمى جمركا (الكلمة الافرنسية Douane اصلها عربي) على ان الجمرك لم يكن يومئذ الا وسيلة لاستدرار المال ثم خطر لهم بعد حين ان يتخذوه واسطة لحماية الصنائع

(٢) والحق اولى ان يقال ان هذه الطريقة لم تصادف انتشاراً عمياً لا نظرياً ولا عملياً وانما اتفق الناس ان يجمعوا تحت اسم الطريقة التجارية Mercantilisme كل مبادئ ومناحي رجال السياسة في القرن السادس عشر والسابع عشر

(١) اي علم تدبير المملكة • وكان بحث الاقتصاديين في اتقان الصناعة والتجارة لانماء الفائدة منها وفي ايجاد طريقة للضرائب يكثر انتفاع الدولة منها ويخف عبئها عن الافراد وللاقتصاديين ثلاثة اجيال ومعظمهم من الفرنساويين

الجيل الاول من نهاية ملك لويس الرابع عشر فان بواكويلبار Boisguillebert وضع كتابين الواحد منهما عنوانه الشرح عن فرانسا سنة ١٦٩٧ والثاني حال فرانسا • ووضع فوبان كتاباً عنوانه العشر الملكي سنة ١٧٠٧ بحثوا فيها عن فقر فرانسا وأيدوا كلامهم باحصاءات ظهر منها ان الشعب الفرنساوي تناقص عدده وان الحكومة رغماً عن اتخاذها الشدة لم تبلغ استيفاء حقها من الضرائب والغلط في ذلك راجع الى طريقة الجباية (٢) فان هذه الضرائب وضعها الحول والمختارون على ما يخالف العدل فوجد الاغنياء في ذلك سبيلاً لاعفاء املاكهم وفلاحيهم وكانت أرض النبلاء معفاة من الرسوم فبقيت تأدية الضرائب على صغار المزارعين وحدهم وكانت الضرائب في الغالب تستغرق ثلث نتاج الارض • غير ما هنالك من مرتب العشر للكهنة ومرتبات الاعيان • ولهذا كادت البلاد تقفر من سكانها وتصبح الارضون مواتاً حيث لم يبق من منفعة للفلاح في حرثها فاقترح فوبان وبواكيلبار لمعالجة هذا الداء وضع الضرائب بالسواء على كل الارضين من غير استثناء فامرت الحكومة باحراق هذه الكتب فاحرقت سنة ١٧٠٧ ولكنها تركت القوم يفكرون بوجوب اصلاح نظام الجباية الفرنساوية

الجيل الثاني في اواسط ملك لويس الخامس عشر وضع كاسناي طبيب الملك كتاباً عنوانه البيان الاقتصادي فسر الملك به بل قيل انه كان يصلح مسوداته فصار الاقتصاد السياسي مرغوباً فيه واقبل على كاسناي جماعة الطلبة لتخرج فيه فكان بينهم بضعة من الاشراف كميرابو ومن كبار المتوظفين كالناظر كورناي على ان المبداء الذي قالوا به هو ان الله وضع من الشرائع الطبيعية ما يجلب انماء الثروة وهذه الشرائع هي كاملة وان كل شريعة وضعها الناس في هذا الشان هي دون النظام الطبيعي جودة فاحسن نظام انماهو ترك الاشياء تتبع سيرها الطبيعي وسموا مذهبهم هذا الفيز كراتي (سلطة الطبيعة) فتباع هذا

(١) اول من استعمل هذه الكلمة مون كرانيان سنة ١٦١٥

(٢) استعمل المؤلف كلمة taille وهي ضريبة كانت توضع على الاملاك والاشخاص لا يستوي الناس في ادائها — المترجم

المذهب كانوا يبحثون عن مصادر الثروة فادى بهم ذلك الى وضع (١) الاستثمار وقد ذهبوا الى ان الفضة والذهب ليس هما الثروة ولكنهما علامتها او شعارها انما الثروة الحقيقية هي الاشياء النافعة وكذلك كاسناي لم يكن يرى ثروة الا من نتاج الارض • فالارض هي المصدر الوحيد للثروة • واضاف اليها بقية الاقتصاديين نتاج الصنائع — واجمع جماعهم على مذمة الطريقة التي اتخذتها الحكومة وقالوا ان قوانينها عوضاً عن ان تسعف الصناعة والتجارة فهي عاملة على منع الصناع عن الانتاج والتجار عن التجارة وان احسن شيء تعمله الحكومة في ذلك ان تترك للتجار والصناع ملء الحرية دون ان تسعى الى حمايتهم وتدبير شؤونهم اذ ان من منفعتهم استصناع المقدار الاكثر باثمن الاوفق لانهم اعرف بمواضع نفعهم من الوزراء • وكان كولبار قد سأل يوماً واحداً من ارباب الصنائع عما يستطيع عمله لاثراء البلاد فاجابه « يا سيدي دعنا نعمل دعنا نسير » على ان هذه العبارة اثرها كورناي فاتخذها الاقتصاديون شعاراً وطلبوا الحرية التامة للصناع والتجار وكانوا يقولون ان يباح لكل واحد حرية الاستصناع وان يبطل الاحتكار والمنع اللذان يضران بالتجارة وان يخول الجميع حرية البيع والشراء لان هذه الحرية تنتج حرية التسابق بين التجار والصناع في كل الممالك وفي ذلك الخير العظيم للتجارة والصناعة حيث يلتزم الصناع ان ينتجوا أحسن مصنوعاتهم ويضطر الباعة من التجار ان يبيعوا بارخص من مزاحميهم وهكذا يصبح الجميع حباً بمصلحتهم الخاصة يشتغلون في تحسين مصنوعاتهم وتخفيض اثمانها بما يعود بالفائدة على المشترين — وقالوا ايضاً ان الدولة تعمل على خراب الزراعة لجبايتها كل الضرائب من الفلاحين وطلبوا وضع الضرائب على كل الملاكين من غير استثناء وان تلغى الضرائب غير القانونية والجمارك وقال بعضهم بما ان الارض هي مصدر الثروة الوحيد يجب ان توضع عليها وحدها الضرائب يؤديها الملاكون

الجيل الثالث : ان اشهر اقتصاديي القرن الثامن عشر هما اثنان فالاول منهما تيركو وهو فرنساوي والثاني ادم سميث وهو اسكوتلاندي وقد تفوقا على من تقدمهما في درس القضايا الاقتصادية فاوضح تيركو الفرق بين النقود الورقية والنقود المعدنية وكيف ان مبداء تقسيم الاعمال يساعد على انماء الثروة وما هي العلائق بين الاجور وراس المال • واما ادم سميث فقد جمع كل الاراء المتفرقة في مؤلف واحد باسلوب غاية في الوضوح عنوانه ثروة الامم (سنة ١٧٧٦) يقرب اهمية هذا العلم الجديد من افهام العامة وابان ان الارض

(١) وقد شرحت مباديه في كتابات ديبون دي نامور و ارسيهدي لا بريفير

ليست المصدر الوحيد للثروة واوضح كيف ان الصناعة في تحويلها المواد الاولية توجد ثروة سنوية

ولا يمكننا ان نثبت اليوم ان كل الحق كان بجانب الاقتصاديين وليس من المحقق ان الناس اذا تركوا لانفسهم يعرفون الافضل لمصلحتهم وانهم متى عرفوه عملوا به وقد يحدث غالباً للتاجر او للصانع اذا كان ميسوراً سواء كان لجهله او لكسله ان يترك الفرص تفلت من يديه ولا يستغنمها لتحسين صناعته او لتوسيع تجارته . على ان الاقتصاديين لم يلتفتوا الا للبحث في منفعة ارباب المصانع والمشترين وفاتهم ان حرية المسابقة قد لا تكون الطريقة المثلى لربح العملة وقد يحدث ان السنن الجيدة تنتج المنفعة وتوزع الثروة بعدل اكثر مما تفعل الحرية المطلقة يعني عدم القوانين . الا ان الاقتصاديين محقون في معاداتهم حكومات ازمانهم : لان عدم القانون اولى من وجود قانون مضر

الفلاسفة الانكليز : كان في اوربا في القرن السابع عشر اشهر الفلاسفة مثل ده كارت ومالبرانش وسبينوزا ولبنتز وقد انصرفوا بالاكثر لدرس الانسان درساً عاماً (مما نسميه علم البسيكولوجيا) والسعي في فهم شرائع العالم العامة مما نسميه علم ما وراء الطبيعة . وامتنعوا عن ابداء اقل فكر في السياسة قائلين ان اشغال الحكومة مطمح انظار المرشحين للاحكام . وفي القرن الثامن عشر ظهر في فرنسا عدد كبير من الكتبة البارعين لقبوا انفسهم بالفلاسفة وسموا مبادئهم بالفلسفة على انهم لم يبدوا رأياً جديداً في القضايا التي كانت محط رحال الفلاسفة وشغلهم الشاغل حتى تلك الايام . وانما صوبوا انظارهم الى المسائل العملية فدرسوا العقائد والسنن الجارية في ازمانهم وكانوا اذا ظهر لهم منها ما يخالف العقل طفقوا يحملون عليها باقلامهم و يفضحون معائبها فهم والحالة هذه كانوا منشئين اكثر مما هم فلاسفة

وكانت الهيئة الاجتماعية يومئذ في كل اوروبا قائمة علـى دعائم متشابهة هي السلطة المطلقة للحكومة والسلطة المطلقة للكنيسة . وكان الشعب قد اعتاد الطاعة للملوك وكانوا يقولون ان سلطة الملك من الله فله حق الحكم وعلى شعبه واجب الطاعة وليس لحقوقه حد فسلطته مطلقة وبناء على هذا الحق كان الملك والوزراء عارفين انه ليس لاحدٍ قدرةٌ على مقاومتهم فكانوا يحكمون غير حاسبين لرغبات الشعب حساباً ولا هم يكترثون بمنفعة البلاد فيشهرون الحرب لمجرد الطمع و يبذلون اموال البلاد ليتخذوا قصوراً فاخر الرياش في منتهى الزينة والبهرجة و يسنون القوانين الصارمة و يزجون في السجون كل من يتجرأ على انتقاد

اعمالهم ولم يكن يطبع كتابٌ من الكتب الا بعد استحصال اجازة الحكومة وكان كل وطني عرضة للتوقيف وللبقاء في السجن ما شاء خاطر الوزراء ولم يكن ثمة من مراقبة على الحكومة ولا حرية شخصية . هذا هو النظام المسمى بالحكم المطلق

وهكذا كان المؤمنون ايضاً قد اعتادوا على طاعة الكنيسة سواء كانوا في البلاد البروتستانتية او الكاثوليكية وكان من حقوق الكهنة تقرير العقائد الواجب اتباعها وتعيين الاحتفالات المفروض القيام بها . ومن واجبات المؤمنين العمل بما يقولون ومن تأخر عن ممارسة فرائض الكنيسة يعاقب كمتمرد . وكانوا لا يطيقون ان يكون في الدولة الواحدة اكثر من مذهب واحد فكانوا يحملون الوطنيين على القيام بجميع فرائض مذهب الدولة مثل الصلاة ايام الاحاد والمشاركة في العشاء الرباني والصوم في ايامه المعينة وفي الزواج والدفن وعماد الاولاد وفي البلاد الكاثوليكية يجبرون الناس على الاعتراف والقطاعة (١) هذا هو نظام التعصب الا ان الحكومة والكنيسة كانتا تتعاونان . فكانت الحكومة تقتص من الهراطقة وتوجب على الشعب اطاعة الكنيسة وجعل الكهنة اطاعة الملك فرضاً دينياً على ان هاتين السلطتين المطلقتين قد اتحدتا لتسودا

اما في انكلترا فمنذ القرن السابع عشر تطرق الضعف والوهن الى نظام مجتمعها لان الخصام الذي نشب بين الدولة والكنيسة ادّى الى ضعفهما معاً فثورة سنة ١٦٨٨ ابادت استبداد الملك ووطدت التساهل الديني فقام الى جانب سلطة الملك سلطة البارلمان وازاء الكنيسة الرسمية قامت الكنيسة المنشقة وانضم اشياع البارلمان الى تباع الكنيسة المنشقة لتعزيز الحكومة الدستورية والتساهل . وظهر من يومئذ انه يستطاع نزع سلطة الملك المطلقة وانسلاخ الكنيسة عن سلطتها من غير ان تنقرض الهيئة الاجتماعية . فكان هذا الاختبار ضربة قاضية على القول بان حقوق الملوك الهية وان الحق بوحدة المذهب . فهكذا تم لانكلترا الحصول على الحرية السياسية والتساهل وكان هناك بعض الفلاسفة من الانكليز فابدوا من الاراء النظرية ما كان مطابقاً لنتائج الاختبار العملي . ومن اشهر هؤلاء الفلاسفة لوك وقد الف كتاباً اسمه رسائل في التساهل ومثله شافتسبري و بولينبروك

فمما كانوا يقولون ان الدين المسيحي يجب ان ينطبق على العقل لان الله منحنا العقل لنصل به الى معرفة الحقائق . وان القضايا التي تختلف عليها الفرق النصرانية لا اهمية لها

(١) اي الانقطاع عن اكل اللحوم — المترجم

وانما المهم هي المبادىء العامة التي يتفق عليها الجميع وهذه البقية من المسيحية انما هي الدين الطبيعي . فاتصلوا من هذا الكلام الى القضيتين الاساسيتين وهما : وجود اله واحد يسود العالم وان للانسان نفساً خالدة

واعتقد فلاسفة الانكليز ان الله منح الانسان عقلاً يقتدر به على ادراك الحقائق الاصلية ومنحه قوة يميز بها الخير من الشر (الشعور الادبي) وان الانسان بطبيعته عاقل وفاضل لانه من صنعة الله وكلما عمله الله فهو حسن

والانكليز مفطورون على احترام العادات المتبعة ولذلك لم يطلبوا الغاء الكنيسة الرسمية فكانوا يرضون بوجود كنيسة ممتازة تؤدى لها الرواتب وتعضدها الحكومة ولكنهم كانوا يتطلبون لسائر العقائد الدينة التساهل بمعنى ان تخول حرية القيام بشعائرها الدينية جهاراً من غير اضطهاد واستثنوا من هذا الحق العقائد التي يحسبونها ذات خطر ومن تلك العقائد الالحاد والكثلكة . على ان تساهلهم هذا لم يكن نتيجة احترامهم لحرية الضمير وقصارى ما كانوا يعتقدون يومئذ ان للانسان الحق الصراح بان يدين بما شاء من العقائد . وما كان يظهر من تساهلهم انما كان ناتجاً عن تساهل مذهبهم اذ ان المذهب الانكليكاني فيهم كان قائماً مقام الدين الطبيعي

ووقع تغيير في السياسة شبيه بالتغيير الديني لان ثورة سنة ١٦٨٨ اقامت في انكلترا ملكاً نال سلطته من الشعب الذي يمثله البارلمان فوضع الفلاسفة رأياً جديداً لبيان علائق الملك مع أمته فاوضح لوك مبداء الميثاق وقال ان الحكومة نشأت على عهود بينها وبين الوطنيين الذين تتألف منهم الامة فعقدوا بينهم الشرائط للمصلحة العامة . ومن ظن الفيلسوف ان في طبيعة الناس قبل ان ينخرطوا في المجتمع ادباً كاف لتسديد سلوكهم ولتمتعهم بالحقوق الطبيعية الا وهي حقوق الانسان . وهذه الحقوق هي الحرية الشخصية وحقوق ابي العائلة وحقوق التملك وكل هذه الحقوق مقدّسة لانها مبنية على الدين الطبيعي . ورغبة في صيانة هذه الحقوق اوجد الناس الحكومة فالحكومة متكفلة بحفظ الحقوق الطبيعية وهي انما تطاع لقيامها بذلك فاذا حاولت نكث عهدها خسرت حق كيانها لانها تكون قد فسخت الميثاق الذي خولها السلطة . فاصبح من حق كل واحد من الاهلين ان يقاومها فليست اذاً سلطة الحكومة بمطلقة او كما يرتاي البعض بانها حق الهي وانما هي محصورة ضمن حقوق الوطنيين الطبيعية . ولما كان حق التملك مطلقاً فلا يحق للملك ان يضع الضرائب عليه بمعنى انه لا يسوغ له اخذ قسم من ممتلكات الوطنيين . واذا احتاج

الى المال للمصلحة العامة فيترتب عليه ان يسال في ذلك الوطنيين او نوابهم فلا يستطيع اذاً ان يحكم في امر الا بالاتفاق مع نواب الامة الذين يراقبونه ويصدونه عن استعمال السلطة المطلقة

وقد قال بولنبروك Bolingbroke في شرحه لهذه الاراء ان كل فرد يخول سلطة يميل الى جعلها مطلقة وافضل ذريعة لصد السلطات العامة عن الجور في الامة انما يكون بحفظ التوازن بينهما بحيث لا ترجح كفة الواحدة عن الاخرى

وهكذا نشأت الحرية السياسية في انكلترا فلا هي ولا التساهل الديني بنيا على مبداء عام . الا ترى فلاسفة الانكليز كيف اضربوا عن طلب تساوي الوطنيين في الحقوق وانهم كانوا يعتبرون حقوق الارث للملك في عرشه وللاعيان في مناصب الدولة وانما غاية ما طلبوه ان لا تتجاوز الحكومة حدها المعين ولا تمس الحرية الشخصية

الفلاسفة الفرنساويون : ظلت فرانسا على عهد لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر خاضعة لتعصب الكنيسة الشديد وعنف الحكومة المطلقة ولم تكن تعرف التساهل الديني ولا الحرية السياسية الا ان الناس سئموا هذه الحالة ففي اوائل القرن الثامن عشر ظهر في جماعة المتادبين منهم روح مقاومة شديدة للكنيسة والملكية وقد كان بين رجال القصر في أواخر ايام الملك لويس الرابع عشر نفر من ذوي العقول الثاقبة ممن كان يسميهم المخالفون يومئذ d'esprits forts كانوا لا يجهرون بمؤاخذة المناحي الدينية ولكنهم يظهرون عدم مبالاتهم بها (1) وكان ثمة قوم راضون عن السياسة فهؤلاء كانوا ينتقدون الحكومة والملك

وفي ايام لويس الخامس عشر تعزز عدم ارتضائهم عن الحكومة بما عرفوه من المبادىء الجديدة التي نشات في انكلترا . ولما كانوا لا يستطيعون الاجهار بتمسكهم بها من غير ان يعرضوا بانفسهم لحكم القانون جعل الكتبة من الفرنساويين يدسون تلك المبادىء في الحكايات والقصص واخبار السياح ثم ينشرونها تحت اسماء مستعارة فتايدت اراؤهم حتى ادت الى نتائج جديدة وانتهى بهم الامر الى وضع قواعد عامة والى طلب اجراء اصلاحات مهمة مما لم يخطر على بال سابقيهم الانكليز

وهكذا قام في فرانسا جيلان من الفلاسفة الاول في النصف الاول من القرن الثامن عشر قوامه موتسكيو وفولتير والجيل الثاني في النصف الاخير من ذلك القرن

(1) انظر لابروبير الفصل المعنون العقول الثاقبة

وقوامه روسو وديدرو وجماعة العلماء المعروفين بالجامعين Encyclopédistes

اما مونتسكيو وفولتير فكلاهما من اهل الطبقة العليا وكان مونتسكيو شريفاً وغنياً ورئيس حزب في البارلمان في بوردو وعضواً في الاكادمي . وكان فولتير ابن احد محرري المقالات في باريز وقد تربى عند اليسوعيين وجمع بعد ذلك من الثروة ما استطاع به ان يشتري قصر فارناي . وكان كلاهما راضيين عن المجتمع الذي عاشا في وسطه من غير ان يرغبا في انقلابه ولم يطلبا له الا الاصلاح . على ان كليهما كانا تلميذين للانكليز

وحين ارغم فولتير على ترك فرنسا اثر مخاصمته لاحد عظمائها اقام في انكلترا ثلاث سنوات تعلم في غضونها اللغة الانكليزية وتردد على كثيرين من نبلائها واهدى كتابه هنرياد الى الملكة ونشر في رسائله الفلسفية سنة ١٧٣١ كثيراً من ملاحظاته عن انكلترا واعجب بدستورها وبتساهلها الديني . وكان في خلال ابحاثه الجمة وفي عرض حكاياته واشعاره ومؤاخذاته وتواريخه وقاموسه الفلسفي يورد الشيء الكثير من الملاحظات والانتقاد على الدين والسياسة

وجملة القول انه قلما خاض في مسائل الحكومة . وكان كثيراً ما يرضى عن الملوك المستبدين على شرط ان يكون الملك تلميذاً للفلاسفة . وقد قال « انه لا يكفي ان يحدث انقلاب كما حدث على عهد لوثير ولكن القصد ان يحدث الانقلاب في افكار الذين وجدوا ليحكموا » ولم يحمل باقلامه الا على الاعمال المضادة للانسانية كالعقاب والعذاب والحجز واهم اعماله انه اصلى التعصب الديني حرباً عواناً

وكان فولتير عدو جميع الاديان الوضعية ولا يعتبر الا الدين الطبيعي (وجود الله وخلود النفس) وقد صرف حياته في الكتابة ضد التعصب في كل مظاهره من الاضطهاد والتفتيش والحروب الدينية وكان يريد تجريد الكهنة من امتيازاتهم وازداد مع الايام قسوة عليهم واصبح في آخر ايامه عدو المسيحية اللدود . وكان يجول ابحاثه فيها الى التكلم عليها ويقابلها مع غيرها من الاديان وقد اتخذ هذه القاعدة: « اسحق المعائب » (والمعائب هي المسيحية)

وما كان يريد محو الدين من اصله لانه كان يعتقد ان الدين ضروري لبقاء الشعب تحت طاعة الشرائع . وانما كان يطلب ديناً خالياً من العقائد والرموز والاسرار حيث يقتصر الكهنة على تعليم الآداب للشعب . ولم يكن لتلامذته الفولتيريين من رأي في السياسة وانما لبثوا يحملون على الدين تحت اسم العقل والانسانية

اما مونتسكيو فعلى عكس فولتير قلما اشتغل في المسائل الدينية على ان عداته اتهموه

بانه من تباع الدين الطبيعي . مع انه لم يطلب الا التساهل الديني وما هو الا كاتب سيامي وبعد ان وضع مؤلفه الاول الرسائل الفارسية طفق يجوب البلاد الاوروبية فاعجب كثيراً بالنظام الانكليزي ولما وضع كتابه روح الشرائع وصف فيه الدستور الانكليزي باسلوب جعله يظهر مثالاً للحكومة الجيدة (١) وقال ان الغاية من الحكومة صيانة الحرية وان افضل الذرائع لذلك انما هو توزيع السلطة بين الملك و بين مجلس من النبلاء نبلاء الشرف و بين جماعة من النواب يختارهم الملاكون

وهو الذي وضع المبدأ الشهير بتوزيع السلطات وقال ان افضل الوسائل لتوطيد نظام الدولة ان يكون بها ثلاث سلطات مستقلة وهي المتشرعة législatif والقضائية judiciaire والتنفيذية Exécutif وقد كان مونتسكيو رئيس مذهب حزب الاحرار في البارلمان

وما كان فولتير ولا مونتسكيو من الثوار ولم يطلبا الا الاصلاح وذلك في شؤون الدين وان تعدل الكنيسة عن اضطهاد المنشقين وغير المؤمنين وان يكون الكهنة اقل بسطة ومالاً

ومذهبه في السياسة ان لا يسوس الملك الدولة الا بالاتفاق مع النبلاء وان لا يسجن احد استبداداً وان يرضى الاعيان بتأدية الضرائب وان يتخلوا عن حقوقهم الشرعية وعن اعفاء املاكهم . وان يلغى التعذيب والعقوبات الهائلة واقامة الدعاوي السرية وان توضع الضرائب بالقسط وتجبى بالرأفة

اما فلاسفة الجيل الثاني فكانوا دون فلاسفة الجيل الاول اعتدالاً فقد كان روسو وديدرو من ابناء العامة فالواحد منهما ابن ساعاتي من جناف والثاني ابن سكاكيني من لانكر وقد عاشا عيشة الضنك في باريز ولم يستحسنا نظام هيئتها الاجتماعية على انهما قلما اهتما بالنظام الانكليزي فكانا يتخيلان مبادىء عامة و يتمنيان انشاء هيئة اجتماعية على موجبها . وما كان روسو يعتبر حكومات تلك الايام وادوانها بل كان يحكم ببطلانها جميعاً لان الناس وضعوها . وخالفت الطبيعة في اصولها وكان مبدأ ادابه ان الانسان صالح طبعاً وهو محب للعدل وللترتيب وان الطبيعة جعلت الانسان صالحاً سعيداً ولكن الهيأة الاجتماعية جائرة في حكمها اذ لا تمنح خيراتها لجميع الناس على السواء . وان حق التملك جائر لانه اخذ عن الاصل الاشتراكي الذي لا يجب ان يختص بالفرد بل بكل البشر وان

(١) ولما شرعوا في درس الدستور الانكليزي في القرن الثامن عشر عرفوا ان مونتسكيو مثله تمثيلاً لا ينطبق عليه

. الشيخ والمعتوه يقود العقلاء . الحكومة اكثر جوراً من الجميع لانها تدع الولد يحكم في الشيخ والمعتوه يقود العقلاء . يجب والحالة هذه ابادة الهيئة الاجتماعية وحق التملك والحكومة والرجوع الى الطبيعة فيتفق الناس حينئذ على تشكيل هيئة تؤسس على شروط يستحسنها الجميع الا وهي (الوثاق الاجتماعي) فينشئون حكومة تساوي بين الجميع في الحقوق وهي تنهض بكل الاعمال فيستعاض عن سلطة الملك بسلطة الشعب و يصبح الوطنيون كلهم سواء والحكومة التي تنتخب من الجميع تخوّل السلطة المطلقة فتدبر الثروة والعلم والدين ايضاً — وقد نبذ روسو الدين المسيحي وانما كان يقول بعبادة الله الكائن السامي — وكان بين تلامذته من اصحاب الطبيعة ومن الثوار اشياع المساواة

الجماعون Encyclopédists — كان ديدور من اشهر كتاب ذاك العصر قضي بدء ايامه في باريز في اشد الضنك اذ كان يعلم ويعمل في المكاتب العامة ليعيش ثم شرع يكتب المقالات الفلسفية فقُبض عليه وزُج في سجن فانسان ومن ثم خطر له ان ينشر قاموساً عاماً جامعاً لخلاصة المعارف الانسانية بعنوان الانسكلويذيا او قاموس يحتوي على المعارف والفنون والصنائع وضعه جماعة من رجال العلم ورتبه ديدور وجمع القسم الرياضي دالمبير

فاشتغل فيه معظم الفلاسفة والعلماء وكان ديدرو يعيد النظر على جميع المقالات وقد وضع فيه نبذاً شتى في الفلسفة والتاريخ والسياسة والفنون الميكانيكية واختص دالمبير بالرياضيات وخطبة الكتاب (المقدمة)

واقتضى لاتمام طبع هذا المولف عشرين سنة من سنة ١٧٥١ الى سنة ١٧٧٢ وهو في ثمانية وعشرين مجلداً وقد بذل ديدرو همة قعساء حتى اتى على اخره. على ان المراقب اوقف نشر الجزئين الاولين سنة ١٧٥٢ وظل الشرطة يحولون دون طبع الاجزاء التالية مدى ثمانية عشر شهراً و بعد بذل المساعي الجمة فاز ديدرو بالحصول على اجازة الطبع ولكنه لما بلغ المجلد السابع صدر اليه الامر بالتوقف فاقتضى توسط شوازل لكف تأثير المنع

وانتشرت الانسكلو يذيا في كل اوروبا ونشرت معها افكار الفلاسفة الفرنساويين

وكانت اراء اولئك الفلاسفة متباينة على ان السائد منها اكثره في اخريات الاجزاء من الكتاب فاشدها تطرفاً واكثرها شدة آراء هلفثيوس وهلباخ ومابلي ورينال وهم الذين عرفوهم بالجامعين وهم كرئيسهم ديدرو صاروا لا يعتقدون في الدين الطبيعي ولا بحقوق الانسان وانما شرعوا يقولون ان الانسان خلق ليتمتع بالملاذ وانه لا يعمل عملاً الا لمنفعة

ذاته وان الشرائع والاديان هي العوائق التي تحول دون حصول الانسان على السعادة فيجب عليه محوها ليرجع الى الطبيعة

على ان تباع هذا المذهب نددوا اشد التنديد بالكنيسة والدولة والنظامات القديمة للهيئة الاجتماعية كالعائلة وحقوق التملك وانكروا وجود الله وخلود النفس وجهروا بالكفر والالحاد وانهم ماديون

تأثير الافكار الفرنساوية : والسبب في قوة هذه الفلسفة هو ان الفلاسفة الفرنساويين كانوا من الكتبة المجيدين فكانوا يبرزون اراءهم في غاية الوضوح والرقة في قالب الاهاجي والحكايات والرسائل باسلوب يتمكن السذج وغير المستنيرين من الناس من تفهم معناه من غير عناء فانتشرت كتبهم بسرعة بين الطبقة العليا من الهيئة الاجتماعية وكان البارلمان قد حكم مرة على جزء من تلك المؤلفات بالاحراق ونفذ الحكم غير ان الاجزاء الاخرى ظلت بين ايدي الناس تتداولها والحكومة راضية عن ذلك . وكان عظماء الرجال يدعون هؤلاء الفلاسفة الى منازلهم وكان يلتف على الواحد منهم حلقة من الناس يدعون معه للعشاء فيسخرون بالدين و يبحثون في الفلسفة والاقتصاد السياسي

وشاع ذلك حتى انتحله الامراء ايضاً فكان بين فولتير وروسو وديدرو وبين كاترينا امبراطورة روسيا مراسلات حتى ان فردريك الثاني احضر فولتير اليه في بوتسدام ٠ وحدث في ذلك الوقت ان العامة مالت لقراءة الجرائد معجبة باراء الفلاسفة لاسيما باراء فولتير وروسو حتى ان فولتير رجع الى باريز سنة ١٧٧٨ فحمله الناس كما يحمل الظافرون

وفي القرن الثامن عشر عمت الفلسفة كل أوروبا ومع ان الفلسفة التي انتشرت كان اصحابها يختلفون رأياً في كثير من فروعها فانهم كانوا متفقين على أصولها وكان الناس حتى يومئذ يحكمون العادات ويعتقدون بالدين ٠ فكان الفلاسفة يسمون اتباع العادة زعماً prejugé والتدين superstition خرافة فاصبحت الاجتماعات هزؤاً ثقيلة الوطاة لا يستطاع القول ببقائها على هذا المنهاج طويلاً لان دولة النور قد جاءت فاستنار الناس بالعقل وعلى احكامه يجب ان تؤسس قواعد الاجتماع — على ان حكمة القرن الثامن عشر لم تكن نتيجة المعارف والملاحظة لكنها كانت نتيجة الرأي العام ٠ وقد نظر الفلاسفة قليلاً الى الهيئة الاجتماعية التي ارادوا اصلاحها فلم يكتنهوا حقيقة الناس ولا عرفوا شيئاً من شؤون الفلاحين والعملة فانهم اصطنعوا رجلاً خيالياً طبق تخيلاتهم وعروه من الدين ومن عادات الهيئة الاجتماعية وجعلوه لا يسعى الا وراء سعادة حاله

ولا يسلك الا بحكم العقل المجرد وتوهموا ان الناس سواء في كل مكان وان جميعهم عقلاء صالحون وانهم لكي يعودوا الى طبيعتهم يقتضي محو النظام الذي يثقل كاهلهم ويجور عليهم فامر واحد تصدره الحكومة يكفي لاصلاح المجتمع

وزبدة هاته الفلسفة ان المجتمع الانساني غير منتظم انتظاماً حسناً فالضرورة تقضي بتغيير ترتيبه وتوصلاً الى ذلك يكتفي برغبة الحكومة في احدات التغيير . وقد صارت هذه الفلسفة قاعدة السياسة في القرن الثامن عشر فلما اتبعها السياسيون ادت الى حركة الاصلاح في كل اوروبا

سعي في اصلاح فرانسا وفي اوربا

الامراء والوزراء المصلحون : ان بين السياسيين الذين سادوا في اوربا في النصف الاخير من القرن الثامن عشر عدداً كبيراً ممن اعجبوا بمبادىء الاقتصاديين وآراء الفلاسفة فسعوا في اعتمادها فكان منهم ملوك وامراء وحسبك جوزيف الثاني ملك النمسا وليوبولد ملك توسكانا وفردريك الثاني ملك بروسيا وكاترينا امبراطورة روسيا وامراء باد وبمار ومايانس وفيهم بضعة من الوزراء الذين كانوا يحكمون باسم ملوكهم منهم تانوشي في نابولي وبومبال في بورتغال واراندا وكامبومانيس في اسبانيا . وكان لهؤلاء الساسة منهاج جديد في تحديد وظيفة الملك ذلك انهم صاروا لا يعتبرون الدولة ملكاً خاصاً بصاحبها يتصرف فيها على اهوائه بل كان مبدأهم ان الملك ليس الا رئيس الدولة ولا يحق له صرف اموال الضرائب في سبيل ملذاته الخصوصية وانما من واجباته ان ينفقها في سبيل الاعمال النافعة ولا يحق له أيضاً ان يعهد بالوظائف الى محبيه وانما يجب عليه ان يعهد بها الى الرجال الاكفاء المثقفين الالباء الذين يعدون انفسهم خدمة الدولة فيسعون في تخفيض مصارف البلاط الملكي وفي ترتيب شؤون الادارة ترتيباً يجعلها منظمة خفيفة الوطأة وفي انماء ثروة الاهلين

ولكن الساسة كانوا كالفلاسفة يظنون كل الناس يتشابهون فمن خصائص الحكومة حملهم على ما تريد لان الناس اعتادوا طاعة حكومتهم فيكفي لاحداث التغيير في مجتمعهم ان تأمر الحكومة فتطاع . وكانوا يحسبون انهم يقدرون على محو الآثار البربرية من المملكة بمعنى ان تؤسس حكومة مستنيرة اي مؤسسة على احكام العقل فتصدر الاوامر بالاصلاح من غير ان تحتمل عناء مشورة رعاياها أو ان تحسب لعاداتهم حساباً وان يكون ذلك احياناً بالرغم عنهم وان ترصد قوة الدولة لخدمة النور ويقال لهذه الطريقة الاستبداد النيّر

جوزيف الثاني امبراطور النمسا : كان جوزيف الثاني افضل مثال للاستبداد النيّر . فانهُ منذ انتهى الملك اليه انصرف بكليته الى القيام بواجباته . فكان ينهض الى الاعمال باكرًا في الساعة الخامسة ويسرع في لبس ثيابه ويدخل الى مقصورته ويأخذ في الاملاء على كتابه . ويظل على ذلك حتى الظهر وكان هنالك قاعة معدة لاستقبال الشاكين فكان يدخل اليها ويأخذ العرائض من اصحابها وبعد ان يجول متنزهاً نحوًا من ساعتين يتناول الطعام لوحده مسرعاً ثم يضرب على الموسيقى ويعود الى شغله ويأذن للناس بمقابلته حتى الساعة السابعة . وفي الساعة الحادية عشرة يجيء مرسح التمثيل وكان في اغلب الاحايين يقرأ الرسائل قبل النوم — ولم يكن يشرب الا الماء القراح ويلبس ثياباً عسكرية زرقاء اللون ويحتذي الجزمة وينام على فراش من قش الذرة ويضع رأسه على وسادة من جلد الوعل . وكان حصانه دائماً مسرجاً ليكون معدًا للسير عليه الى حيث تدعو الحاجة . وكان كثير التجول في مملكته يسافر فيها على عجلة البريد في السبل المطروقة بسرعة عظيمة وكان اذا بلغ مدينة اقام في الفندق ومدّ لهُ فيه مائدة ليكتب عليها وجعل يقرأ ويملي ويوقع اسمهُ حتى اذا انتهى واصل السير — وكان قد وجد في بلاط فينا الغلو في الترف والاسترسال لمصطلحات دول القرن الثامن عشر . وفي الاسطبل ٢٫٢٠٠ فرس . وآنية الطعام من ذهب ثخين يزن ٢٢٥ كيلوغراماً . والمصرف السنوي يبلغ خمسة وثلاثين مليوناً من الفرنكات وحسبك بالمطبخ وتبذيره . فكانوا يأخذون برميلين من نبيذ توكاي كل سنة ليبلوا به خبز ببغاء الامبراطورة . فصرف الملك الحجاب ليأكلوا في بيوتهم وامر بسبك المسكوكات القديمة التي في المجموعة وابطل اقامة الاحتفالات والغى في الوقت نفسه سننها واتفق له في براك ان احضر الى حفلة نساء النبلاء واحدةً من نساء الاوساط فامتنعن عن محادثتها فاقتصر الامبراطور على الرقص معها دون سواها

وعملاً بمبادئ اداب الفلاسفة ابطل الامبراطور جوزيف استرقاق الفلاحين واباح لهم ان يتزوجوا وان تكون لهم ملء الحرية بحراثة الارض أو تركها الى غيرها من غير ان يبالوا برضى النبلاء اصحابها والغى التعذيب والقتل . ونسخ مراقبة المطبوعات واطلق لها السراح لتنشر ماتريد حتى المطاعن الموجهة اليه واقتصر على اذاعة منشور بين قومه يسألهم فيه ان يحكموا عليه باعماله لابما تصوره مطاعن الاعداء في رسائلهم ووطد التساهل الديني وسمح للبروتستانت ولليهود ان يجهروا بشعائر مذهبهم

وكان كالفلاسفة يسخر بالتقاليد ولا يحسب حساباً للعادات والحقوق القديمة ومما كتبهُ

قوله « ان سلطنة انولاها يجب ان تساس بما أرى من المبادىء بحيث لا يبقى اثر للزاعم الباطلة ولا للتعصب والتحزب والرق العقلي فيتمتع كل واحد من رعيتي بماله من الحق الطبيعي وكانت ممالك الاسرة النمساوية مؤلفة من بلاد كثيرة جمعتها الصدفة تحت سيادة عائلة واحدة الا انها كانت تتباين جنساً ولغة وادابا فلم يكن لها من ثم من سبب يصيرها جسماً واحداً اذ هي مجتمع شعوب مختلفة من الالمان والمجريين والكرواسيين والبوهميين والبولونيين والبلجكيين والايطاليين ومنها ما كان من الشعوب القديمة وليس من دولة في اوربا فيها من اختلاف الاجناس وتباين اللغات ما في ولايات النمسا حيث يستحيل ان يعمل من الاصلاح فيها على نسق واحد يلائم جميعها . الا ان الامبراطور جوزيف كان يسعى وراء تنظيم شؤونها تنظيماً جديداً على اسلوب واحد وابى ان يذهب ليقسم اليمين جرياً على عادة مملكتي بوهيميا والمجر ثم الغى تنسيق الولايات القديم وقسم ممالكه الى ثلاث عشرة مقاطعة وجزأها الى دوائر وكان من اماني نفسه ان يقيم فيها جميعها من الشرائع والضرائب والادارة نسقاً واحداً وامر ان تكون المحاكمات في المجر باللغة الالمانية وان يعزل القضاة الذين يجهلونها الا ان مجالس المجر اعترضت على ذلك فمنعها . وكان يعتقد ايضاً ان من حقه ان يرتب مذهب رعيته وكان يقول اني منذ وضع على رأسي اعظم تاج في العالم اصبحت الفلسفة هي المشترعة في ممالكي

وقال سنة ١٧٨٠ اني لا ارضى ان ارى اولئك الذين يهتمون بشؤون حياتنا الاخرى يحتملون عناء ادارة اعمالنا في هذا العالم ولذلك عين لجنة لالغاء كل الاديرة التي لا لزوم لها فاغلق ٦٢٤ ديراً من ٢٫٦٦٣ كانت في بلاده وضبط املاكها وجعل ابنيتها دوراً للمرضى ومدارس وثكنات ومصانع — ووجد كنائس النمسا كثيرة التزين والزخرفة فعرى انصاب القديسين من التخاريم والحلي واستولى على نذور زوار المعابد وباع من اليهود اعلامها الثمينة كالآنية وعلب الذخائر ليسكبوها وباع بالوزن المخطوطات الموشاة بالصور والخواتم والرقوق — وهدم المذابح المزدحمة في الكنائس ورفع منها الصلبان والتماثيل الصغيرة ومنع زيارة الكنائس والرياضات ورتب عدد القداديس واحتفالات الجمعة الحزينة وانشأ مدارس اكليركية يتعلم الكهنة فيها اصول الدين على الطريقة التي اختطها . وقال انه « حين يتم لي مقصدي يعرف شعوب سلطنتي واجباتهم نحو الله » فجاء البابا بنفسه الى فينا سنة ١٧٨٢ ليعترض على هذه البدع فرفض الامبراطور كل محادثة بهذا الصدد وظل محافظاً على اصلاحاته

ولم يكن يعتد بالاديان التي يستقبحها وحدث ان ظهرت بدعة في بوهيميا بين جماعة من الفلاحين النشيطين العقلاء يعترفون بوجود الله و يعرفون بالموحدين Déistes فامر

الامبراطور بمحا كمتهم وان يجلد من يقول برأيهم خمساً وعشرين جلدة ليس لانهم يقولون بالتوحيد ولكن لادعائهم امراً لا يفقهون له معنى . غير ان الجلد لم يكن كافياً لهدايتهم فامر الامبراطور بالقبض عليهم وابعادهم الى الحدود العثمانية وان يفرّقوا

وكانت رغائب الامبراطور ان يحسن ادارة بلاده وانما كان من رأيه ان الاعمال الكبرى يجب ان تعمل دفعة واحدة وكان يستخف بالاديان والعوائد التي تظهر له انها لاتنطبق على احكام العقل وصرف قواه في مناوأة العقائد والعادات فما كسب غير الوهن وادى الى اثارة البلجيكيين والمجريين عليه

واضطر قبل موته ان يذيع بين اهل المجر منشوراً ألغى به الاوامر التي سبق فصدرت وحسبها القوم مخالفة للشرائع العامة وقد استهل المنشور بهذه العبارة « انا قد ادخلنا شيئاً من التغيير على الاحكام لرغبتنا الوقادة في مايعود بالخير العام وعلى امل ان ينيركم الاختبار فترون فيه ما يسركم أما الآن فقد اقتنعنا انكم تفضلون خطة الحكومة القديمة لانكم تحسبونها ضرورية لرغد عيشكم » فتلقى المجريون هذا الامر بمنتهى المسرة واسرعوا فمزقوا رسوم التقويم واعداد البيوت ومنعوا تعليم الالمانية

ليوبولد دي توسكانا : ان ليوبولد دواتريش منذ اقام في توسكانا طفق ينظر في تخفيض مصارف مملكته الصغيرة ففض الكتائب وهدم معاقل بيزا وصرف حاشية البلاط وكان يشتغل في حجرته على مائدة عادية مصنوعة من الواح شجر الصنوبر وعليها شمعدان من التنك — وجرياً على عادة الامراء المستنيرين ابطل التعذيب ومجلس التفتيش وضبط الاملاك وانشأ بيوتاً للمرضى وكان يعودها — وكان لاديرة توسكانا منذ العصور الوسطى حق حماية اللائذين بها ولم يكن باستطاعة رجال الحكومة ان يدخلوها للقبض على المجرمين . ولهذا امست الكنائس والاديار ملاذاً للقتلة واللصوص والبلط والمجرمين الهاربين يقيمون فيها فيقلقون الراحة و يسيئون الى السابلة فقبض عليهم ليوبولد سنة ١٧٦٩ ولم يبال بتلك الامتيازات

كاترينا الثانية امبراطورة الروسيا : كانت اميرة ألمانية ومن ثم صارت قيصرة الروس أثر مقتل زوجها • على انها من فضليات النساء ألا تراها شرعت تراسل الفلاسفة وتنشىء الروايات بنفسها • وقد قال فيها ديدرو « ان لها نفس بروتوس في صورة كليوباترا »

وكانت ذات همة عالية وقادة كثيرة الاعجاب بنفسها ميالة لتحدث الناس عنها وكانت تتوق الى شيوع ذكرها في اوربا لتحسب بين الملوك المستنيرين الذين يتولون ادارة بلادهم

بحسب الاحكام الفلسفية • وكانت شديدة الاعجاب بمونتسكيو حتى قالت فيه ان كتابه روح الشرائع «يجب ان يكون للملوك ككتاب فروض الصلاة واني لو كنت مكان البابا لجعلته في مصاف القديسين»



كاترينة الثانية امبراطورة الروس

وفي سنة ١٧٦٧ جمعت لجنة عمومية لوضع قوانين يعم استعمالها كل الروسيا وهي التي تولت بنفسها نص الاوامر والقواعد التي تعين على لجنة القوانين السير بحسبها واقتبست من كتاب مونتسكيو عبارات جمة وقالت انها اختلست منه ولكن اذا تتبع اعمالها انسان من عالم آخر لا ينتقد سرقة تفيد عشرين مليوناً من النفوس • ولما تم القانون أرسلت منه الى ملك بروسيا انموذجاً وقالت «أنت ترى اني عملت مثل حكاية الغراب الذي تبرج بريش الطاووس فان لي منه التنسيق وبضع كلمات او اسطر في مواضع منه»

وكانت اللجنة مؤلفة من كل الولايات فبعد ان رفعت تقريرها بخلاصة عملها اصدرت كاترينا امرها بفض اجتماعهم ثم امرت فوضع القانون على مبادىء الفلاسفة ومها قولهم «ليست الامة للملك ولكن الملك للامة وان العفو عن عشرة مجرمين اولى من قتل

بريء واحد» وأبطلت التعذيب والعقاب بالقتل واذ لم تكن تكترث بدين من الاديان تركت للكاثوليك وللمذاهب المنشقة ملء الحرية في اقامة شعائر مذاهبهم وقبلت في بلادها اليسوعيين المطرودين من الممالك الكاثوليكية الا انها لم تتخذ من الفلسفة الا ما يلائمها • وكتبت الى ديدرو تقول «ان الذين يتبعون مبادئكم العظيمة يؤلفون كتباً بديعة ولكن يسيئون قضاء الحوائج» وأعاضت عن قصاص القتل بالابعاد الى سيبريا الا انها لم تلغ الجلد وحملت على بولونيا واعملت باهلها السيف

وفي سنة ١٧٨١ وضعت لائحة بالاعمال التي اتمتها خلال زمن ملكها (١٩ سنة) وبعثت الى الفيلسوف بالجدول الآتي :

١٩	الحكومات التي وضعت على النسق الجديد
١٤٤	المدائن التي خططت » » »
٣٠	المواثيق والمعاهدات التي ابرمت » »
٨٧	الانتصارات
٨٨	الاوامر الخليقة بالذكر المتضمنة قانوناً او مشروعاً
١٢٣	اوامر تسر الشعب
٤٩٢	الجملة

وكل هذه الاشياء امور تختص بالمملكة وليس فيها شيء خصوصي

وانه لغنيٌّ عن البيان ان كاترينا كانت تقيم الادلة على انها عملت اعمالاً شتى الا انها لم تذكر ان معظم تلك الشرائع لم يعمل بها وان عدداً كبيراً من المدائن كانت قائمة على عمد مكتوب عليها «البناية التي تشاد بسرعة يسرع اليها الخراب» على ان مرمى امال المملكة ان تعظم في اعين الكتبة والناس قدر همها وقد بلغت غايتها من ذلك حيث لقبها الفلاسفة بسميراميس الشمال

بومبال في البورتغال : كان بومبال من اشراف المقاطعات وقد ولد سنة ١٦٩٩ وبعد ان اعتزل الجندية اخذ في دراسة التاريخ والشرائع ومن ثم انخرط في سلك السياسة واقام السنين الطوال في انكلترا والنمسا وعاد الى بلاده فعهد اليه الملك يوسف الخامس سنة ١٧٥٠ بوزارة الخارجية ولم يطل الامر حتى تخلى له عن ادارة الحكومة فاصبح بومبال سيد البورتغال الوحيد حتى موت الملك سنة ١٧٧٧

وكانت البورتغال منذ القرن السابع عشر يسودها مجلس التفتيش وطغمة اليسوعيين

وكان معرّفو الملك وعائلته يتصرفون بالبلاط والحكومة على ما يريدون · وكانت البورتغال منذ عقدت المحالفة مع انكلترا قد خضعت لانكلترا خضوعاً تاماً بكما يمس الشؤون الاقتصادية لان عهدة سنة ١٦٥٦ خولت الانكليز حق توريد الانسجة الى البورتغال وفي عهدة سنة ١٧٠٣ ان خمر البورتغال عند دخوله انكلترا يؤدي من الرسم ثلثي ما يؤخذ على النبيذ الفرنساوي · وكان البورتغاليون قد اعتادوا ابتياع الانسجة الانكليزية وان يقاوضوا عليها بالخمر وبالذهب الذي يستوردونه من مستعمرة البرازيل · ولم يكن فيها تجارة ولا صناعة فكانت السفن التي تدخل ميناء ليسبون انكليزية والتجار المشتغلون في البلاد من الانكليز ثم تدرجوا فصاروا اصحاب الحل والعقد في تجارتها وما عتموا ان اغتنموا فرصة هذا التسود فاشترطوا على الاهلين ما يوافق اهواءهم بحيث اصبحوا لا يبتاعون خمور البلاد الا باثمان بخسة تكاد لا تكفي لاجرة العمل فخمدت همة الكرامين وتولاهم الفقر وآثروا ترك الارضين من غير حرث على الارتضاء بهذه الحال فكتب بومبال الى الحكومة الانكليزية سنة ١٧٥٩ يقول « ان من سفاهة الرأي التي لا نظير لها في العالم الاقتصادي انا تركنا كم تجهزوننا باللباس والاثاث وسائر الطرق وانا نؤديكم اثمانها بما يقوم باود خمسين الف صانع من رعايا الملك جورج الذين يعيشون في عاصمة انكلترا على نفقتنا »

وقد بذل بومبال غاية جهده في تحرير الحكومة البورتغالية من نير تسود اليسوعيين واعتاق الشعب البورتغالي من جور العلائق التجارية مع انكلترا

فعمل على مضادة انكلترا بان اسس شركة عمومية لزراعة الكرم في هوت دورو وحباها الانفراد في حق ابتياع الخمور لقاء ثمن مسمى وانشاء شركة تجارية · ومنحها الانفراد في حق تفويض باعة المفرق بفتح الحوانيت فكان تداخل الحكومة منصرفاً لحصر الاتجار بالخمور في رعيتها سواء كان بالجملة او بالمفرق · واستنهاضاً لهمم البورتغاليين واغراء لهم على انشاء المصانع وضع بومبال مبدأ الحماية بان منع اصدار الكتان واشباهه من المواد الاولية الى الخارج واجاز اصدار المصنوعات الوطنية (الحرير والسكر) من غير ان يؤخذ عليها بارة الفرد رسماً

اما في خضد شوكة الاكليروس فقد اتخذ بومبال وسائل اخرى اشد صرامة فسعى اليسوعيون جهدهم لخلعه عن منصبه فجهر بعدوانهم واصلاهم حرباً عواناً فنفى سنة ١٧٥٧ من البلاد معرّفي الاسرة المالكة لانهم كانوا كلهم من اليسوعيين وحظر على هذه الطغمة المجيء الى القصر من غير اجازة وشكي الى البابا سوء اعمالهم وانهم يتجرون والتمس منه

ان يصلح شؤون طغمتهم فارسل البابا كردينالاً للفحص والاصلاح · فلما صدع الكردينال بما امر صرح بان احترافهم التجارة ينابذ الشرائع الالهية والسنن البشرية وحكم عليهم بما سلبهم حق الوعظ واستماع الاعتراف

وحدث في ليل ٣ ايلول من سنة ١٧٥٨ محاولة قتل الملك فاتخذ بومبال هذه الحادثة وسيلة لمناواة اليسوعيين بيد انه لم يجد اقل دليل على اجترامهم لتلك الجناية او اشتراكهم فيها ومع ذلك ضبطت الحكومة املاكهم وعزمت على طردهم من بلادها ومستعمراتها ومن ثم سيرتهم في سفن الى شيفيتا فاكيا من اعمال مملكة البابا

وكانت المدارس البرتغالية كلها تحت ادارة اليسوعيين فعقيب ابعادهم اراد بومبال ان يجعل اساتذتها من العوام فعين منهم للاتينية واليونانية والبيان والمنطق برواتب يتقاضونها من خزينة الدولة وحباهم امتيازات النبلاء وامرهم ان يعلموا الطلبة مجاناً وانشأ في جامعة كوامبر Coimbre كليتين جديدتين لتعليم الطبيعيات والرياضيات وانشأ متحفاً للطب والكيمياء ومرصداً وانصرف بالاكثر لاحياء العلوم ولغة البلاد : وقد قال « ان الاجتهاد في تحصيل اللغة من اعظم الذرائع لتثقيف العقول الراقية » وبذل جهده في اصلاح ترتيب جامعة كوامبر وفي سنة ١٧٦٦ وجد عدد الطلبة المقيدة اسماؤهم في السجلات زهاء ستة الاف تلميذ ولكن لدى التدقيق في تلك الاسماء الموضوعة بلغ العدد سبعماية طالب فقط

وعين في سنة ١٧٧٢ ثمانمئة وسبعة وثمانين استاذا ومدرساً فمنهم ٤٧٩ معلماً لتدريس القراءة والكتابة و٢٣٦ استاذاً لتعليم اللاتينية و٨٨ لليونانية وكان يتوق لتهذيب البورتغاليين وتعليمهم ليساوي بينهم وبين غيرهم من الامم الاوروبية

الا ان هذا الاصلاح كان قصير الاجل اذ بعد موت الملك تغيرت احوال بومبال وانحط عن سودده فعادت الحكومة الى شؤونها القديمة

وزراء شارل الثالث في اسبانيا : كانت حالة اسبانيا شبيهة بحالة البرتغال من حيث خلوها من التجارة والمصانع وخضوعها لمجلس التفتيش وتسوّد اليسوعيين

على ان شارل الثالث الذي ترك مملكة نابولي سنة ١٧٥٩ ليتولى الملك في اسبانيا اخذ على نفسه انعاش مملكته الجديدة واعتاقها مما كانت عليه واستعان على ذلك في اول الامر بوزرائه الذين جاء بهم من ايطاليا مثل سكويلاس وكريملدي · ومن ثم بوزرائه من الاسبان مثل اراندا وكاميومانس وفلوريدا بلانكا

وقد اتخذوا طريقة الحماية Protectionnniste ايجاداً للصنائع في اسبانيا ووضعوا

الرسوم الجمركية على البضائع الاجنبية ومنعوا دخول بضعة اصناف منها بتاتاً ورغبة في رواج التجارة عولوا على طريقة تخالف الطرق المستعملة في تلك الايام الا وهي حرية الاتجار . ففي سنة ١٧٦٥ منحوا الحرية المطلقة لتجارة الحبوب وانتهى الامر بهم سنة ١٧٧٨ ان اجازوا لجميع الاسبانيول الاتجار مع المستعمرات مع ان ذلك كان محصوراً في تجار اشبيلية ومن ثم في تجار قادس وكانت نتيجة هذه الاعمال في منتهى الفائدة للبلاد حيث تزايدت التجارة في سنة ١٧٨٨ من ثمانية الى تسعة اضعاف عما كانت عليه قبلاً

على ان الآراء الجديدة في الاقتصاد السياسي انتشرت في جميع البلاد بواسطة الجمعيات الاقتصادية واول تلك الجمعيات اسمها الباسك Basque ومن ثم طلب اربع وخمسون مدينة الاجازة لانشاء جمعيات من نوعها وأنشأت جمعية مدريد مدارس كثيرة مجانية لتعليم البنات النسج والغزل

ولم يجسر الوزراء على الغاء مجلس التفتيش على ان ايراندا استحصل عام ١٧٧٠ على امر يمنع به مجلس التفتيش عن النظر في الدعاوي المدنية الا ان الجماعين من الفرنساويين تزلفاً لمرضاته فتق لهم خاطرهم رأياً اضرّ جداً بذلك المبدأ وهو انهم نشروا مقالة غالوا فيها بامتداح الوزير والثناء عليه وذكروا انه عامل على سحق مجلس التفتيش فهلع من ذلك ايراندا وخشي ان يحسب آلة بأيدي اعداء الدين فانقلب يحافظ على مجلس التفتيش . وحدث في عام ١٧٧٨ ان اولافيدا من عمال الحكومة حكم المجلس بضبط امواله وبالسجن ثماني سنوات في احد الاديار لانه قرأ كتاباً ممنوعاً واعتقد بمذهب كوبرنيكس . اما الحكم بالموت فأصبح نادراً جداً بحيث انه في غضون تسعة وعشرين عاماً لم يحكم باحراق سوى اربعة رجال

وقد حاولت الحكومة ادارة التعليم لتحل في ذلك محل اليسوعيين الا ان جامعة سالامانك Salamanque ابت ان تدخل اليها شيئاً من الاصلاح وبعثت بلائحة دروسها مؤسسة على فلسفة ارسطو قائلة ان مذهبي نيوتن وده كارت لا ينطبقان على الحقيقة الموحاة فتعين على المصلحين ان يعملوا ما يريدون خارج المدارس الكبرى فانشأوا في البلاد بضع جنات نباتية وغرفة التاريخ الطبيعي وقد نبغ يومئذ في اسبانيا وفي البورتغال بضعة من العلماء الافاضل واستمرت تلك النهضة حتى زمن حروب نابليون

باكورة الاصلاح في فرنسا : لم تأت الحكومة الفرنساوية زمن ملك لويس الخامس

عشر حتى سنة ١٧٧٤ الا على النذر القليل من الاصلاح (١) ولما انتهى الملك الى لويس السادس عشر وهو يومئذ شاب في طليعة العمر اراد ان يكون محسناً لاخيه فعهد بتدبير الملك الى رجلين عرفا بالنزاهة وبحب الخير العام الواحد منهما متشرع يقال له مالزرب Malesherbes والآخر اقتصادي ويسمى تيركو وظلت الادارة العمومية بيد مورابا Maurepas احد قدماء المقربين . بيد ان الملك اعلن استعداده للاصلاح واستعان على ذلك بنصائح تيركو الذي كتب اراءه في رسالة رفعها الى الملك في ٢٤ اب سنة ١٧٧٤ وقد كان تيركو مفتشاً عاماً فعهد اليه بادارة المالية وكانت فذلكة لائحته ان « لا افلاس ولا استقراض ولا زيادة ضرائب » وكان من قصده ان يقتصد في كل سنة من نفقات الدولة زهاء العشرين مليوناً فيقل نقص الميزانية حتى يتلاشى ويدفع الديون تدريجاً وتم له ذلك فعلاً اذ اقتدر في مدى سنتين على ايفاء نحو اربعين مليوناً من الدين وعلى تخفيض النقص من اثنين وعشرين مليوناً الى خمسة عشر

وكان يريد احداث اصلاح عام في الترتيب الاقتصادي :

(١) بالغاء القوانين التي تمنع بيع وشراء القمح وان يعطى تجار الحبوب ملء الحرية

(٢) بالغاء امتيازات جماعات الحرف وان تباح الحرية لكل الوطنيين بممارسة كل الصنائع

(٣) بالغاء الامتياز في الضرائب وان توضع بالتساوي على جميع الملاكين . ومن قوله لما « كانت الغاية من نفقات الحكومة انتفاع كل رعيتها فمن الواجب على الجميع ان يشتركوا في ادائها وكما تمتعوا بخيرات الهيئة الاجتماعية كما وجب عليهم ان يفتخروا بمقاسمتها اعباء تلك النفقات »

(٤) باقامة مجالس من الملاكين في المدائن والولايات لاسعاف عمال الملك على الادارة . وقال للملك « ان ليس لامتك دستور وان هي الا مجتمع من طبقات مختلفة لا تجمعها روابط متينة بل ان الروابط الاجتماعية بين افراد هذا الشعب قليلة واهية بحيث ان كل فرد منه لا يلتفت الا لمصلحته الخاصة فصار من واجبات جلالتكم القول الفصل في الشؤون

(١) كاعادة تنظيم القضاء الذي شرع فيه سنة ١٧٧٠ المستشار موبو الذي ابطل البارلمان واستعاض عنه بمجالس جديدة الا ان عمله في ترتيب القضاء لم يكن اصلاحاً بل اضراماً لشعلة الخصام . فلما جلس لويس السادس عشر أعاد البارلمان كما كان قبل سنة ١٧٧٠

تورًا او بواسطة عمالكم لينتهى لكم حسم هذا التفرق فمن اللازم وضع خطة يتحد بها الواحد بالآخر من كل احزاب المملكة »

واصبح تيركو في مركز حرج جدًا لانهُ اساء في مطالبه الى رجال القصر والى الملكة التي لم تكن تريد الاقتصاد في مصارف البلاد — واساء الى النبلاء واعضاء البارلمان الذين لم يكونوا يرتضون عن التساوي في الضرائب — واساء الى معلمي الصنائع الذين لا يرتضون عن حرية الاصطناع فلم يكن له من الراضين عنهُ الا نفرٌ من الكتبة لم يكونوا ذوي نفوذٍ عظيم

ولم يكن بخاطرهِ حمل الملك على اجراء الاصلاحات كلها دفعةً واحدة بل كان يرفعها اليه واحدةً فواحدة وكان من لويس السادس عشر ان استصوبها وقال لهُ « اني اقسم لك بشرفي ان اتمم كل رغائبك وان اعضدك في جميع المهام التي اخذت على نفسك عرضها » لذلك وضع تيركو الاصلاحات الآتية :

(١) منح حرية الاتجار بالحبوب سنة ١٧٧٤ واحتفظ بها رغماً عن المقاومة

(٢) الغى استاذية الحرف يعني بذلك امتياز جماعات الحرف واباح حرية الاستصناع سنة ١٧٧٦

(٣) وضع مبدأ المساواة بين الجميع في احتمال اعباء الضرائب . ولما عُرضت مسألة ثانوية قال « ان من الخطأ الفاضح ان نبقي على الناس ضريبة تؤدى للكهنة والنبلاء لان فيها هواناً ابدته المزاعم الباطلة » واختار ضريبة غير ذات شأن يقال لها سخرة الملكية ويقال لها لهذا العهد في فرنسا Les journées de prestation (١) وكانت موضوعة على عامة الشعب بخلاف الممتازين فانهم كانوا معفيين منها فابطلها تيركو وادال منها بضريبة تؤدى نقدًا وتفرض على جميع الملاكين بالسواء وكان ذلك سنة ١٧٧٦ ثم رفع تيركو للويس السادس عشر لائحةً لاصلاح الادارات يطلب فيها ايجاد مجالس للولايات الا ان لويس كان قد كلَّ مما لقي من المعارضة والمقاومة في سبيل عمل الاصلاح والبارلمان كان قد رفض تسجيل الاوامر الصادرة سنة ١٧٧٦ وكان البلاط والملكة وكثيرون من الناس قد تبرموا من الاصلاح وشكوا تيركو للملك قائلين لهُ « ان هذا الرجل عالمٌ نظري يعمل على خراب المملكة » فصرفه الملك عن الخدمة سنة ١٧٧٦ وسدت الامور الى من اعادها الى منشأها القديم

على ان مشروع تيركو عن مجالس الولايات اخذ به نيكار سنة ١٧٧٨ وسنة ١٧٧٩

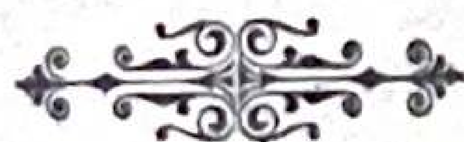
(١) تقارب معنى العَمَلة المكلَّفة في نظام الدولة العثمانية (للمترجم)

فلم يحسن الاخذ وانشأ في الباري وهوت كوين مجلساً مؤلفاً من نواب الاشراف والكهنة والملاكين وكانت الحكومة قد عينت له بضعة من النواب ولم تكن وظيفة هذا المجلس الا الاشتغال بتوزيع الضرائب وجبايتها والاعتناء بالطرق والتجارة والزراعة وان تساعد العمال على الادارة . قال نيكار « ان هذا المجلس قد اتخذ كل الوسائل الضرورية التي من شأنها ان تجعل الادارات تشعر ابدًا بالحاجة لان تكون جديرة بثقة جلالته وان ليس لها من قوة الا بما تنال من تلك الثقة هم والحالة هذه ساسة متشرفون بثقة الملك ووكلاء مفوضون منهُ لاظهار احساناته للناس والعمل بحسبها » ولم تجزم الحكومة الا سنة ١٧٨٧ بانشاء مجالس المقاطعات في كل الولايات (ماعدا التي كان لها ذلك من قبل) الا ان هذا الاصلاح جاء متأخرًا عن ابانه لان انقباض الناس كان شديدًا بحيث شرعت المجالس تخاصم العمال فادَّت اعمالهم الى المزيد من تشويش الادارة

ورغب مالزرب في اصلاح البوليس والقضاء فلم يتسنَّ له الا تحسين قليل في احوال السجون وفاز بالغاء التعذيب الذي كان يتخذ سبيلاً للاطلاع على حقائق الخصومات الجنائية الا انه لم يستطع ابطال الاوامر السرية وكان اخصامه هم عداة تيركو ولذلك فصلا عن منصبيهما معاً

ان الاصلاح الذي بدئ به في السنين الاولى من ملك لويس السادس عشر تلاشى بمعارضة الممتازين واصبحت طريقتهم اشد توطيدًا . وفي سنة ١٧٨١ اعلن وزير الحرب ان مناصب القيادة في الجيش لا ينالها الا النبلاء دون سواهم من الناس وان مناصب الكهنة والاساقفة ورؤساء الاديار لا يتولاها الا النبلاء فاصبح الاعيان في الارياف يقصدون عمال الحكومة ليحصلوا لهم الرواتب من الاهلين المتأخرين عن الاداء

وفي خلال هذه الآونة كان نقص الميزانية آخذًا بالازدياد فادَّت هذه الحالة الى الثورة



الفصل الرابع

الحكومة والهيأة الاجتماعية بفرنسا

في اواخر القرن الثامن عشر

النظام القديم : ظلت الهيئة الاجتماعية والحكومة حتى اواخر القرن الثامن عشر تنتهج العادات القديمة التي تألفت شيئاً فشيئاً منذ العصور الوسطى . واذ جعل الفرنساويون خلال هذا القرن يفكرون في المسائل السياسية و يبحثون فيها تبين لهم ان معظم الشؤون التي يعيشون وسط محيطها سيئة تضاد العقل والانسانية وهي التي عملت الثورة على محقها وعرفها الناس باسم « النظام القديم »

وآخذ النقدة هذا النظام في ثلاثة امور . الاول قيام الملك بالسلطة المطلقة من غير رقيب ولا زاجر . والثاني قيام الهيئة الاجتماعية على التفاوت بين طبقاتها . والثالث اتباع الحكومة السبل الشاذة والاعمال الفاسدة . اما الملكية والسلطة المطلقة فالمراد بها ان الملوك كانوا قد نظموا الحكومة على اسلوب جعلوا به كل السلطة تحت مطلق اوامرهم اعتبر ذلك بملك فرانسا كيف انه جمع كل السلطات في يده فكان هو صاحب السلطة التنفيذية يوظف العمال حتى افراد الكهنة و يشهر الحرب و يعقد السلم والتحالف و يحشد الكتائب و يدبر جميع المصالح . وهو صاحب السلطة التشريعية وكل امر يصدره كاف لاحداث التغيير في سنن الحكومة والقضاء ولامره قوة القانون اذ لم يكن في فرانسا شريعة مسنونة سوى العادات القديمة واوامر الملوك . وله السلطة القضائية مبدئياً وكانت الاحكام تصدر باسمه والقضاة معدون لخدمته يقيلهم من مناصبهم (١) او يسترد الدعوى منهم فتفصلها لجنة مخصوصة . وله السلطة المالية ايضاً فيعين النفقات و يضع الضرائب و يجبيها على الشكل الذي يريده .

وتوصلاً لقيامه بكل هذه السلطات كان يحتاج الى العمال فكان له في العاصمة الوزراء المؤلفون لمجلس الملك . وقد احتفظوا على الالقاب القديمة وهي المستشار للقضاء والمراقب العام للمالية والوزراء لغير ذلك من المناصب العالية . وكان لكل مقاطعة ناظر ونواب

(١) ولما كانت مراتب القضاء تباع في القرنين ١٦ و ١٧ لم يكن في وسع الملك ان يقبل احداً في الوظيفة حتى يرجع عن منصبه واذ كان الملوك يحتاجون دائماً الى المال لينتفعوا بهذا الحق فلبث القضاة في مراتبهم يستحيل عزلهم بالفعل ولكن ليس بالحق

الا انهم مجردون من كل حق ذاتي فيوظفون او يقالون من مناصبهم تبعاً لارادة الملك واختياره

وكان الملك وعماله متمتعين بالسلطة المطلقة وكانوا يقولون ان هذه السلطة لا يجب ان تكون استبدادية بل على الملك ان يحكم بحسب العادات القديمة التي يسمونها شرائع المملكة الاساسية الا ان هذه الشرائع الاساسية لم تكن مدونة فلا يتأتى لانسان ان يقول عن ثقة شيئاً من مضمونها

وفي سنة ١٧٨٧ قرر البارلمان انه لا يحق للملك وضع ضريبة جديدة من غير ان يستشير نواب الامة . وكان هذا القرار سنة جديدة اذ ان كلاً من لويس الرابع عشر والخامس عشر وضع ضرائب كثيرة حال كون النواب لم يكونوا قد اجتمعوا منذ ١٦٥ سنة وفي جلسة ١٩ نوفمبر جاء مستشار الدولة مع الملك الى المجلس وصرح فيه باسم الملك عن مبادئ السلطنة فقال ان المبادئ المقبولة من الامة جمعاء تؤيد ان للملك وحده السلطة العليا في مملكته وانه لله تعالى فقط يؤدي الحساب عن حسن قيامه بسلطته فالسلطة التشريعية محصورة في شخصه وهو لا يتابع ولا يشارك احداً فيها . فينتج من هذه السنة الوطنية القديمة ان الملك لا يحتاج الى سلطة غير عادية لادارة شؤون سلطنته وليس بوسع ملك فرنسا ان يتلقى من نواب طبقات الامة الثلاث الا الآراء الصائبة . وانه يبقى ابداً الحكم السامي لما يبدون وما يشكون . فاعترض البارلمان على الخطاب بملء الاحترام والوقار فامره الملك ان يصادق على امره بالاستقراض وطلب الدوك دورليان ان يدون في السجل ان الامر قد سجل بامر جلالته فعارض البارلمان في ذلك لانه مخالف للقانون فقال لويس السادس عشر بصوت خافت « سيان عندي » ثم اردف هذه العبارة بقوله « نعم انه قانوني لاني اريده » وحقيقة الحال لم يكن للحكومة قانون غير ارادة الملك واذا تعذر عليه النهوض بجميع سلطته كان الوزراء والوكلاء يحكمون و يستبدون في حكمهم اذ ليس من سنة محدودة ياتمرون بها ولا يشاركهم في سلطتهم انسان

وقد بقي من السلطات القديمة اثران هما البرلمان والحكومات الاقليمية في بعض الولايات ولم يكن للبارلمان من سلطة اخرى غير فصل الخصومات بين الافراد . اما الدعاوي التي كانت تقيمها الحكومة فانها تفصل في مجالس خصوصية وفي مجلس الدولة . فليس في وسع البرلمان ردع الحكومة عن مظالمها . اما المجالس الاقليمية فلم تكن قائمة الا في بضع ولايات من مثل بريطان و بوركون و بروفانس ولانكيدوك والبلاد الصغيرة من بيرانه . وقد انتهى بها الحال الى عقد جلسات تستمر بضعة ايام ليس لها في خلالها مجال

للعمل الا تقرير الضرائب العقارية وتوزيعها على الولايات

فلذلك كان عمال الملك وولاة الامر يتصرفون في جميع الامور على اهوائهم وليس للعموم ان يأتوا شيئاً ابداً حتى ولا ان يرمموا جسرًا او كنيسةً الا باجازة الحكومة وفي معظم الولايات لم يكن فوق مجالس العموم جمعية قط حتى ولا للمشورة بل لم يكن للاهلين من سبيلٍ لتقديم شيء من مطالبهم او اقتراحاتهم للحكومة

وعلى هذا الطرز كان العمال ينهضون بما اوتوا من السلطة من غير ان يشاركهم فيها احد او يكون عليهم رقيب اذ لم يكن لاحـد ان يسيطر على اعمالهم او ان يخوّل حق الوقوف عليها . ولم يكن من سابقة لاجتماع قوم يدعون للتفتيش عن ادارة احدى الولايات اوعن الحكومة العامة في المملكة . ولم يكن من شيء يحاكي مجالسنا العامة او مجالس النواب . ولم يكن من حق الجرائد البحث في احكام العمال وما يعملون لأن المراقب كان يمنعها وهب انهُ ابيح لها ذلك فلا يتاتى لها الاطلاع على اعمال كانوا يتمونها سرًّا وهـذا التستر كان شأن الوزراء واتباعهم وسائر العمال وذلك ان يفضلوا الاحكام وينهوا الاعمال تحت حجب الخفاء بحيث يستحيل على احد الاطلاع على ما يعملون . وقد قال ناكر « ان فرنسا نسَّاس في صميم الادارات » وكانوا لا يعرفون ايضاً كميـة الدخل ولا الخرج وقد ادت القحة بناكر الى ان كان يخرج جداول الحساب خالية من كل ضبط ودقة . وقصارى القول انهُ لم يكن ثمت من سلطةٍ مستقلةٍ ولا سعي بنشر الاخبار لايقاف المفاسد عنـد حدها او على الاقل للاشارة اليها ولم يكن من العمال من يخشى الرأي العام لانهم جميعهم كانوا اقوياء غـير مسئولين عما يعملون وانهم ليقتدرون على استخدام سلطتهم في ارضاء اهوائهم والاحسان الى اصدقائهم والتحامل على اعدائهم

وكان الملك يتصرف في دخل الدولة كأنهُ دخلهُ الخاص ومتى اخذ من الخزينة مالاً فكانهُ ينفق من مالهِ فينفق فضلاً عن نفقات قصوره اربعين مليون فرنك يهديها لمن شاء كانها رواتب رجال البلاط . فان عائلة بوليناك وحدها اخذت منهُ ٧٠٠٠٠٠ ليرة . وجملة القول ان كل موجودات الخزينة كانت تحت مطلق تصرفه والتوقيع منهُ على وصل يمكن حامله من قبض المال . لذلك استحال تنظيم ميزانية الدولة تنظيماً قانونياً

وما كانوا يتدبرون في المصرف بحيث يتوازن مع الدخل ولذلك فيبقى الدخل في الغالب اقل من المصرف فيسدون النقص بالاستقراض . وكان وضع الضرائب على خاطر الحكومة وفي كل سنة كان المجلس يقرر المال المرتب على كل ولاية الا ولايات الدولة فكان

في وسعها وحدها البحث في مقدار ضرائبها وفي الطريقة التي توزع بهـا على الاهلين حسب اقتدارهم المالي . اما سواها من ولايات فرنسا فكان العمال يقومون بكل الشؤون فيوزع الوكلاء والنظار الخراج على سكان النواحي وكانوا يرون عليهم تخفيفها في الاحايين عن المزارع التي لاصدقائهم فيها الاملاك واما في القرى فلم تكن توزع على حسب ممتلكات الاهلين ولا عملاً بسنن مقررة وانما قدر ثروتهم على حسب العادة القديمة . وكان للجباة حق التصديق على اقتدار المزارع وعلى الجزم بما يجب ان يؤديه كل واحد من الاهلين فيزيدون او ينقصون كما يتراءى لهم . ولهذا جعل الفلاحون يتظاهرون بالفقر والمسكنة لئلا يزيدوا اتاواتهم فيقيمون في البيوت الحقيرة ويخفون مؤنهم

اما المال المضروب على المشروبات والملح فان الحكومة كانت تعطيه بالالتزام لبعض الشركات فيجبيها عمالها ويخولون من السلطة مثل ما يخول موظفو الحكومة ويدخلون البيوت ليروا اذا كان ثمت ملح اشتراه صاحب البيت من الملح المهرب . اما المهربون (باعة الملح المزوّر) فكان يحكم عليهم بالجلد وبالابعاد فكانوا يقبضون في كل سنة على الفين او ثلاثة آلاف منهم وانتهى الامر بالحكومة في بعض الولايات انها تداركت الخلل فعينت لكل عائلة القدر الذي يحق لها ابتياعه من الملح على ان هذا الملح معدٌّ للطبخ ولا يجوز استعماله لتمليح جلد الخنزير كل ذلك مما جعل الاهلين يتبرمون ويشكون من جور هذه الضريبة

مع ان الضرائب في فرنسا لهذا العهد يربو مقدارها على خمس مرات عما كانت في القرن الثامن عشر فان الاهلين استفدحوها يومئذ واستثقلوها بما لا يشعرون بمثله اليوم لانها لم تكن ترمى على الناس بالقسط وباعتبار غنى المفروضة عليهم وكانت تجبى بالجور والعنف . وقس على هذه الضرائب قانون القرعة العسكرية فانه منذ وضعه لويس الرابع عشر يفوض امر اجرائه للعمال فيعفون منه جميع اولاد الاغنياء من الفلاحين

حرية الصحافة والحرية الشخصية : وكان جماعات البوليس الذين انشأهم لويس الرابع عشر أشد وطأة على الاهلين من سائر عمال الحكومة وكانت لجنة المراقبة تفحص كل الكتابات ويبقى حجزها متوقفاً على خاطر المراقب وهواه واذا تورطت المطابع فنشرت ما لا يجيزه المراقب اخذ اصحابها بالقصاص الصارم حتى بالسجن المؤبد (الكوريك) وتؤخذ المؤلفات المطبوعة من غير اجازة الى المحاكم فتحكم بابادتهـا . وفي الاحايين كان يحرقها المباشر اعتبر بما وقع لرسائل فولتير الفلسفية ولرسالة ديدرو عن العميان ولكتاب روسو

بعنوان اميل • وكانوا يقبضون احياناً على المؤلفين ويزجونهم في الباستيل من غير محاكمة فقد سجن فولتير فيه مرتين ولهذا هجر فرنسا وأقام في لورين وبروسيا وفارني ليكون ثمة آمناً غوائل المراقبة ومكاره السجن وقد زج مراراً في الباستيل لابحاثه عن ملوك الفرنك ولهتكه اكاذيب بعض التقاليد المروية عن منشا الملكية

وجملة القول لم يكن للمطبوعات شيء من الحرية حتى كاد يستحيل نشر الجرائد اليومية لان المقالة لم تكن تطبع حتى تعرض للتدقيق فيها • اما الجرائد المنتشرة برضا المراقبة فلم تكن تخوض في المباحث السياسية او في الاخبار غير ما تبلغها الحكومة اياه تبليغاً رسمياً • ولم تكن الاديان لتزيد في حريتها على المطبوعات لان المذهب الكاثوليكي كان الزامياً اعتبر بما لفظه لويس السادس عشر في يمين تتويجه « الي اقسم ان ابذل بكل امانة جميع سلطتي لكي ابيد من كل انحاء مملكتي كل هرطقه تشجبها الكنيسة » ولهذا لم يكن في وسع البروتستانت او اليهود الاجهار بشعائر مذهبهم • ومنذ منع المذهب البروتستاني في البلاد سنة ١٦٨٥ جعل اتباعه يجتمعون سراً في الاماكن المنفردة فاذا تأتى للحكومة الاكتشاف على احد مجتمعاتها حكم على القسوس بالقتل وعلى المجتمعين بالسجن المؤبد

ولم يكن الكاثوليك انفسهم احراراً لانه حظر على اصحاب الفنادق منهم استعمال اللحم يوم الجمعة وفي الصوم ومنع الفعلة عن العمل ايام الاحاد والاعياد

ولم تكن الحرية الشخصية مصونة فكان في وسع البوليس القبض على من شاء من الناس وزجه في السجن ما اراد من الزمن غير مسؤول عما يعمل • وكان يكفيهم ان يكون بايديهم عند القبض على احد الناس امر صادر من الملك اسمه في التاريخ «الرسالة المختومة» فمن يقبض عليه بموجب هذا الامر يزج في احد السجون التي لاسلطة للقضاة عليها واشهرها الباستيل في باريز فيبقى الرجل سجيناً فيها حتى يتلقى الحاكم الامر باطلاق سبيله • وكثيراً ما كان ينسى السجين فيقضي السنين الطوال في السجن كما حدث للاتيد الذي أقام في الباستيل خمساً وثلاثين عاماً لانه اساء الى مدام بومبادور • وكانت تلك الرسائل المختومة بين ايدي الوزراء وموظفيهم يصدرونها ليس لاعداء الدولة فقط بل لاعدائهم الخصوصيين ايضاً وبلغ بهم الامر انهم صاروا يبيعونها ممضاة على بياض فيضع المشتري فيها اسم عدوه وينفذها عليه • وكثيراً ما اتخذها الآباء وسيلة للتخلص بها من اولادهم العقوقين • وقد قال مالزرب للويس الخامس عشر سنة ١٧٧٠ « لا يأمن

واحد من اهل مملكتك على حريته ان تذهب ضحية الانتقام لانه ما من عظيم بلغ مقاماً يجعله في حرز من بغضاء الوزير وما من حقير يأمن بضعفه من بغضاء كاتب المزرعة فانحصار الملكية القديمة في شخص الملك وانفراده في ادارة حكومتها افضيا الى استفحال الطريقة الاستبدادية المطلقة التي لا مراقبة تعدلها ولا حق لاحد يصد اعتسافها

طبقة الامة والامتيازات : كانت الهيئة الاجتماعية في العصور الوسطى مؤلفة من طبقات كثيرة لا تتساوى في الحقوق • على ان الملوك لم يهتموا بالغاء هذا التفاوت ليستتب لهم تايد سلطتهم في رعيتهم ولذلك ظل اهل الطبقات العالية متمتعين بحقوقهم الخصوصية (الامتيازات) • وكانت الامة تقسم رسمياً الى ثلاث طبقات لكل منها نيابة تمثلها في مجالس الامة

فكان الكهنة اعلى الطبقات ولهم وحدهم من الاملاك الوسيعة ما يقرب من ربع ارض المملكة فضلاً عما كانوا يضربونه مسانهة من المال على الحاصلات مما يسمونه العشر ومقداره مئة وخمس وعشرون مليوناً في السنة وأما املاكهم فلم تكن تدفع من الضرائب شيئاً ولا تؤدي من الاتاوة الا نحو عشرة ملايين كل ٥ سنوات على ما يقرره مجلس الكهنة مرة كل خمس سنوات • وكان من حقوقهم مراقبة المدارس الابتدائية والمستشفيات ودور الاحسان ولهم ان يحفظوا سجلات يدونون فيها العماد والزواج والدفن واشباه ذلك من الاعمال التي كانت تنوب فيها مناب بلديات هذه الايام • فضلاً عن المحاكم الكنسية لمقاضاة رجال الكهنوت المخالفين للقانون الكنسي ولفصل قضايا الزواج

اما النبلاء فكانوا قديماً يملكون كل الارضين تقريباً وقد احرزوا كل السلطة الحاكمة فبقي لهم حتى يومئذ اثر منها • الا ان الفلاحين جعلوا يستملكون الارض شيئاً فشيئاً حتى صاروا يملكون نحو ثلث الارضين وأخذوا يحرثون الارض ومع هذا ظلوا على طاعة سادتهم الملاكين القدماء عملاً بالسنن المشروعة منذ القرون الوسطى المعروفة في القرن الثامن عشر بحقوق الاقطاع ومعظم تلك الحقوق لم تكن في حقيقتها الا اتاوي يسيرة على الاملاك تؤدي لهم مسانهة [1] الا ان بعض الاشراف كان يسرف في اعنات الفلاحين واغضابهم في مقاضاتهم رسوم الطحن وارغامهم على الاذعان لحقوق الصيد وهي توجب

---

(١) ان حقوق القضا التي كانت للشريف لا تخوله شيئاً من السلطة الحقيقية بل كان يتعين عليه ان يستعين بالقاضي

عليهم ترك الطيور تجتاح زرعهم ولا يعارضون الصيادين في مطاردتها بين تلك الزروع ولو داسوها باقدامهم

ومن ثم انتقلت السلطة من الاشراف الى عمال الحكومة الا انه كان للاشراف ميزة فكان دخولهم في المناصب ايسر منالاً لهم مما هو لغيرهم . فكل وظائف البلاط الملكي كانت تحفظ لهم لانه لم يكن دخول القصر مباحاً الا للنبلاء ولايجوز لسواهم المراتب العالية في الجيش حتى انه منذ سنة ١٧٨١ لم يعين بين الضباط الا النبيل هم وحدهم ينالون وسامات الشرف كوسام الروح القدس والقديس لويس والجدارة العسكرية . وظلوا معافين من الضرائب القديمة ومن الجزية ومن اسكان رجال الحرب

وفضلاً عن هذه الامتيازات القانونية كان النبلاء يعاملون بالاحترام في كل مكان سواء كان في ادارات الحكومة او في المحاكم (١) العمومية . ففي كنائس القرى كان للنبيل كرسي الشرف . وكانت تعطي لهم جميع الوظائف المهمة تفضيلاً لهم على سواهم وكانوا في كل المجتمعات اسياداً طبيعيين لمن حولهم من غير الاشراف — وحدث لفولتير انه تخاصم مرة مع الدوك دي روهان فبينما كان يتناول الطعام يوماً في احد البيوت واذا رجل يدعوه لشغل هام وما خرج لظاهر البيت حتى قبض عليه خدم الدوك واوسعوه ضرباً بالعصا فلم يقتدر فولتير على اخذ حقه بواسطة الحكومة ولما أذاع الخبر زجّ في الباستيل ولم يخرج منه حتى اشارت الحكومة عليه بالابتعاد عن البلاد ليتناسى ما كان

ويلي الكهنة والاشراف طبقة الاوساط التي لم تكن تعرف الا بعـددها وهي الطبقة الثالثة يراد بها جمهور الامة وتنقسم في ذاتها الى عدة درجات وبينها مراتب جمة ممتازة . فان الملوك كانوا يبيعون مراتب القضاء والمالية فاوجدوا بذلك طبقة رجال الرداء ولهم حق القضاء وجباية الضرائب باسم الملك . وكان بين هؤلاء العمال جماعة نالوا مراتبهم بالارث عن آبائهم فمن تفوّق منهم دخل في مصاف الاشراف فالمستشارون في البارلمان يصيرون من الاشراف بعد الجيل الثالث . اما غيرهم من القضاة وموظفي المالية والكتبة ومحرري المقاولات والمدّعين العموميين فانهم يظلون من غير النبلاء ولكنهم يتمتعون بالاعفاء من

(١) وكان الشائع على الالسنة ان النظام القديم يقضي على الشريف المجرم بقطع الرأس وعلى الجاني من غيرهم بالشنق وليس ذلك بالواقع فان القصاص كان يتوقف على نوع الجناية فان اللص الذي يقطع السابلة يعاقب بالشنق ولو كان شريفاً وقد جرى ذلك مراراً

الجزية ومن اسكان العسكر كما يتمتع به الاشراف فضلاً عما كان لهم من السلطة التي تخولهم اياها مناصبهم

وتجدنّ بين العملة اليدو بين الذين يؤدون الجزية قوماً حائزين على الامتياز بممارسة صنعتهم والبيع في الحوانيت كما كان ذلك الامتياز في الاجيال الوسطى بحيث ان المشتغلين بالحرفة الواحدة يجتمع اساتذتهم ولا يقبلون بينهم طالباً الا بعد مضي بضع سنين في الطلب وبعد اداء رسم يتقاضونه . وبما ان دائرة الاعمال كانت ضيقة ادى امتياز الصناع الى حصر الاعمال في ابناء الاساتذة واذا حاول واحد من الناس الاصطناع او البيع ولم يكن من الداخلين في احدى تلك الجمعيات عرض بنفسه للحبس ولضبط امواله

وقصارى القول ان الهيئة الاجتماعية كانت موسسة على التفاوت والامتياز فاصبح ذلك سبباً لاثارة خواطر الاوساط وجعلوا ينكرون اعتلاء بعض الناس عن بعض بسبب اصلهم . وشرعوا يقولون الرجل من الاوساط يماثل الآخر من النبلاء ولذلك فهم يطلبون مناصبهم

التشويش والفساد : وكان اعداء الطريقة القديمة ينتقدون على الحكومة تشويش نظامها وقسوته فان تقسيم البلاد الى حكومات ومقاطعات (١) Diocèses وولايات Généralités جرى تدريجاً عن غير خطة عامة وانما بالاضافة والالحاق ولذلك جاء مشوشاً غير منتظم الانتساق فكان بين الولايات ما اتسعت دائرته حتى انه يعادل اربعاً او خمساً من مقاطعات هذا الزمن في فرنسا بينما كنت ترى منها ما كان بمساحة ولاية واحدة فقط كمقاطعة اكد مثلاً فانها تحتوي عشرين ناحية ومقاطعة روان تحتوي على ما ينيف عن السبعمائة — ولم تكن تلك الاقسام تشترك في شؤون المصالح بل كانت كل واحدة منها تقيم اعمالها المدنية والعسكرية على حدة غير ملتفتة الى الاخرى فارتبك الحال وتشوش على شكل لا مثيل له

واحتفظت كل واحدة من تلك الولايات بعاداتها واقيستها واوزانها ومساحتها ولم يكن لها قانون عام ولا عرفت شيئاً من الحقوق العمومية فاصبحت تجارة الولايات وعلاقاتها بعضها مع بعض من اعسر الاعمال وزد على ذلك ان البلاد القائمة على الحدود كانت كانها منفصلة عن سائر المملكة لانهم ابقوا فيها بعد ضمها الجمارك القديمة التي كانت من قبل فعدم

(١) ان كلمة المقاطعة Province التي اعتادوا استعمالها للتقسيم الجغرافي القديم في فرنسا لم تكن الكلمة المستعملة قديماً لهذا المعنى

الاتساق في التقسيم والتباين اوجب التلبك في الاعمال والعاقة في تيسير الاشغال فاستاء المستنيرون وطلبوا التقسيم على هيئة متناسقة وان توحد العادات والموازين والمكاييل

وظلت السلطة في فروع الادارات المختلفة تتبع النهج القديم على ما فيه من الجور والعنف فكانت المالية توزع الضرائب على نمط يبهظ بثقله عاتق الفقراء من الناس و بقيت الجزية سائرة على نهج القرن الخامس عشر ومثلها الضرائب الموضوعة ايام لويس الرابع عشر كمال الاعتاق والخمس فانها ضربت على ان ان يشترك في ادائها الممتازون وصارت كرفيقاتها لا ترمي عليهم بالقسط وفاز النبلاء بان تخلصوا منها . أما جباية هذه الضرائب فالقي عبئها الثقيل على كاهل الآخرين فكانت بملء العنف حتى اذا ابى المكلف الاداء اقام الجابي في بيته ينفق من ماله . ولم يكن الجباة من العمال المأجورين بل من اهل القرى الذين يجبرون على تحصيل مال الضرائب مجاناً على انهم يسألون عما يتعذر عليهم جبايته وفوق هذا كان عمالها يموهون على الناس بالسلطة الممنوحة لهم من الحكومة فيأخذون منهم اكثر من المتعين عليهم . أما الدعاوي التي كانت تقام بينهم و بين سائر الناس فتنظر فيها مجالس المالية الخصوصية وتلك كان من مصلحتها الاخذ بناصر الضامنين . وكان الحشدة في الجيش يجندون الفرق بالعنف و يسمونها المتطوعة و يقيمون على تدريبهم بالشدة حتى اذا اخل الجندي بشيء كان قصاصه الضرب بالعصا

أما القضاء فظل على النسق الذي كان عليه في القرن السادس عشر فكانت مناصب القضاة تؤخذ بالرشوة أو بالارث الا ان اصحابها يضطرون الى التعرض للامتحان قبل ان يتولوها ولكن لم يعرف انه رفض في الامتحان واحد ولو كان جاهلاً غرًّا بل يستوي في حكمه الذين يعلمون والذين لا يعلمون . أما في القرى فلبث القضاء على حاله القديم بايدي الاشراف وكان قد بقي لهم من السلطة ما يكفي لاعنات المتخاصمين من غير ان ينفعوهم في شيء[1] وكان لهم اربع محاكم يعلو بعضها بعضاً بحيث يستطاع استئناف الدعوى من محكمة الى اخرى ولذلك كانت الدعاوي تستغرق السنين الطوال وكان المدعون العموميون والمحامون ومحررو المقاولات يبذلون وسعهم في اطالة مدتها حتى ان القضاة انفسهم كانوا ينتفعون من التطويل اذ يأخذون من المتداعين الاجور على قدر ما تشغل الدعوى من

(١) بقيت في فرنسا بقية من النظام القديم لانه كان من جملة الذين نهضوا بالثورة بعض المتشرعين الذين امتعضوا للاصلاح العام في القضاء على ان عداد المتشرعين قل جدا وصارت المحاكمة اكثر اختصاراً واصبح التقاضي مجاناً

الزمن وكثيراً ما كانت نفقات القضاء تستغرق قيمة الشيء المختلف عليه اما القضاء في الجنايات فعلى النهج القديم . ويبقى المتهم في السجن ما اراد القضاة و يترك للتعذيب و يحاكم سرًّا وليس له ان يعهد بالدفاع الى محام و يحكم عليه قضاة دأبهم ابداً تجريم كل متهم وظلوا على التعذيب البربري القديم كالدمغ بالحديد المحمي والربط بالعمد والجلد بالسياط والشنق والصلب والدولاب

هذه هي العادات التي اتفق لها ان اجتمعت وعرفت باسم النظام القديم[1] وفي القرن الثامن عشر صار القوم يحسبونها مظالم . ولم يقتصر حسبانها جوراً على الذين اصيبوا منها ولكن شاركهم في استفداحها الذين استفادوا منها كالأشراف والكهنة والاغنياء

الثورة

اصل الثورة : كان عداة النظام القديم يتوقعون من الحكومة ان تنهض للاصلاح من ذاتها على ان وزارة نيركو بينت لهم ان الطبقة الممتازة لن تتخلى عن امتيازاتها من غير مناوأة الذين يعملون على نزع حقوقها لذلك جعلوا يقولون بوجوب الثورة لمحو المظالم وتجديد الدولة

ولم يكونوا يعرفون في بادىء الامر باي الذرائع تحدث الثورة والناس على مراتبهم ينتفعون بصد تيار الثورة فالملك وعماله ينفعهم صدها استبقاء لتسودهم المطلق والممتازون احتفاظاً بامتيازهم وليمرحوا في تفوقهم . على ان الحكومة والممتازين كانوا قد جمعوا في ايديهم كل القوى حتى التسلط على المستائين فمنعوهم الكلام . وفي سنة ١٧٨٧ جاء فرنسا ارثور يون الجوالة الانكليزي فقال « ان الاهلين يتحدثون بشؤون بلادهم اقل مما يتحدثون عن احوال هولاندا » وما مرّ على كلامه العامان حتى حدثت الثورة فدلّ ذلك على ان سير الفتنة كان سريعاً جداً والسبب في ذلك ان الحكومة والاشراف عوضاً عن ان يتعاونوا على كبح المستائين شرعوا يتخاصمون في ما بينهم حتى تولاهم الوهن جميعاً

وكان الداعي الى اختصام الفريقين المسألة المالية وذلك ان الحكومة كانت منذ نصف

(١) ان بعض السنن من النظام القديم متصلة بزمن الاقطاع والبعض الآخر وهو القسم الاعظم منه وضع في القرن السادس عشر على عهد الملكية المطلقة الا ان المستنيرين من رجال القرن الثامن عشر كانوا يكرهون العصور الوسطى ولذلك اعتادوا ان ينسبوا اليها كلما يكرهون وكانوا يحسبون كل السيئات مهما كان نوعها من زمن الاقطاع

فرن تنفق من الاموال ما يزيد على دخلها حتى صار النقص عادة مألوفة في ميزانيتها والدين يتراكم مع الايام . ومما زاد في الطين بلة حرب اميركا الذي اتمّ تضعضع توازنها المالي اذ انفقت في سبيل تلك الحرب نحواً من نصف مليار فرنك وجملت تسدد هذا النقص بالاستقراض فاستدان ناكر في خلال خمس سنوات ٤٥٠ مليوناً فضلاً عن الاربعين من



لافاييت قائد الفرنساويين في الثورة

السلفيات وخمس وار بعين مليوناً من البيوع . واستدان خلفه كالون ٦٥٠ مليوناً فربا هذه القروض جعل الميزانية تزداد نقصاً حتى بلغ الثمانين مليوناً سنة ١٧٧٣ ومئة واثنى عشر مليوناً سنة ١٧٨٧ وكان يمكن لهذه الخطة ان تستمر جارية لو بقيت المالية بادارة مالي ماهر مثل ناكر لانه يعرف كيف يحصل على النقود حيث سبق له فاكتسب ثقة الماليين باخراجه لهم سنة ١٧٨١ ميزانية الدولة بشكل يلمح منه زيادة الدخل على النفقة (١) ولكن ما عتم ان حان الوقت فرفض الماليون اقراض الحكومة خشية افلاسها ولم يعد للحكومة من سبيل للحصول على المال اللازم لها الا بالرجوع الى طريقة تيركو وهي تخفيض النفقات

(١) كانت هذه الزيادة واهية وانما وضع الميزانية تطميناً للناس كأنه اعلان يدعوهم به لادانتها وقد كشف ميرابو عن حالة المالية النقاب في تلك الاونة

بالغاء الرواتب والوظائف التي لا فائدة منها وزيادة الدخل بوضع ضريبة يستوي في ادائها الغني والفقير . ذلك ما طلبه كالون على انه يقتضي لاتمام هذا الطلب عقد مجلس للبحث في الاصلاح فجمعت الحكومة هذا المجلس من الاعيان الذين اختارتهم حاسبة انهم يصادقون عليه ومثل ذلك زعم العامة وطفقوا يهزأون من الاعيان بان يبيعوا قطعاً خشبية القطعة منها باربعة دراهم . وهي صور متحركة ذات مفاصل تشير برأسها اشارة الايجاب

ولكن تعارضت في هذه القضية منافع الحكومة والممتازين فكان يعوز الحكومة الغاء الامتيازات المالية لتزيد ايراد ضرائبها واصرّ الاعيان ان لا يؤدوا الضرائب وقد استفدحوا امرها وتخيلوها تحط من شأنهم — وبذلت الحكومة جهدها في حفظ سلطتها المطلقة من غير مراقبة وما استشارت الممتازين الا للمصادقة على اقتراحها وكان الممتازون يغتنمون ارتباك الحكومة لمراقبة اعمالها والبحث في سياستها ولعرض مساعدتهم عليها — وكانت الحكومة تريد المساواة (على الاقل في الضرائب) مع بقاء سلطتها المطلقة وكان الاعيان يريدون نشر الحرية السياسية مع بقاء الامتياز وهكذا كان الذين يهمهم بقاء النظام القديم على حاله عوضاً عن ان يتحدوا للدفاع عنه جعلوا يختصمون وكل فريق منهم يحاول الايقاع بخصمه . وتوالى على الحكومة مقاولات ثلاث وهي :

(اولاً) ان الاعيان الذين جمعهم كالون رفضوا التصديق على مطاليبه فأقيل وأُبدل منه بلومان دي بو بان فاراد وضع ضريبة جديدة وعقد قرض جديد الا انه رغب في تأمين الدائنين وذلك يقضي بتسجيل امر الاستقراض في بارلمان باريز

(ثانياً) رفض البارلمان في باريز التصديق على القرض ما لم يؤت بالبرهان على الحاجة الماسة للاستقراض . فتجاوز بذلك حد سلطته اذ لم يكن له الحق الا بابداء شكواه الى الملك وليس له ان يحاجه في اوامره ومن ثمّ شعر المجلس بان الشعب في باريز يعضده فاعلن ان الامة التي يمثلها نوابها لها وحدها الحق بالمصادقة على ما يضع الملك من الضرائب ولذلك فهو يرجو الملك ان يجمع نواب مملكته (هذه الآراء كانت مستمدة من انكلترا الا انها لم يعمل بها في فرانسا منذ قرنين) فترددت الحكومة في اختيار الطريقة التي تنتهجها وسعت في تسكين الاستياء بوعودها لنواب الامة آخذة شيئاً من الاصلاح بان ارجعت الحقوق المدنية للبروتستانت وأنشأت مجالس المقاطعات لمساعدة النظار ومراقبتهم وحاولت ان تحمل البارلمان على الموافقة بابعاده الى ترويه ثم بحضور الملك لجلساته وأخيراً بانتزاعها منه حق التصديق على الاوامر الملكية

(ثالثاً) انحازت حكومات الولايات ومجالس المقاطعات الى البارلمان واعترضت على استبداد الوزراء وظهرت الفتن ايضاً في بريتان وبروفانس والدوفنيه وقد اثارها النبلاء لتستمر لهم الامتيازات ومع ذلك اتحد الاشراف في الدوفنيه مع الاوساط واستعادوا نظام الولايات القديم الذي الغي في القرن السابع عشر وطلبت حكومات فيزيل الحرية السياسية ليس فقط للدوفنيه بل لكل فرنسا ولهذا يمكن حسبان هذه الفتن طلائع الثورة

فزعزعت هذه المقاومات اركان النظام القديم واخذ الناس يتباحثون في هذه الشؤون في جميع مجتمعاتهم وكادت مراقبة المطبوعات ان تبطل عملها فطبع في سنتي ١٧٨٧ و ١٨٨٨ الوف من الرسائل في انتقاد السلطة المطلقه والامتيازات ونشأ عن ذلك رأي عام كان يتزايد قوة ورسوخاً واتفق ان رجع يون الى فرنسا سنة ١٧٨٨ فوجد البلاد مضطربة ومجمع الاهلين في كل مكان يتحدثون بدنو الثورة وهذه الخواطر والاحاديث سابقات لسنة ١٧٨٩ ولم تتمكن الحكومة من ايجاد المال حتى للانفاق على امس حاجاتها ولم يبق في خزينتها نصف مليون فرنك فوعدت بعقد جلسات البرلمان سنة ١٧٩٢ الا انها استدعت النواب في ٥ مايو من سنة ١٧٨٩ وتوقفت عن وضع دينها في خلال ذلك

النواب العموميون : ورغبة في الحصول على المال اذعنت الحكومة لطلب اسعاف الامة ولعقد اجتماع نوابها لكن بقي عليها حل مسألتين مهمتين :

(الاولى) هل يمثل النواب في المجلس طبقات الهيأة الاجتماعية ام الامة باسرها ؟ وهل يؤلف المجلس كسابق عادته من الطبقات الثلاث (الكهنة والاشراف والاوساط) وكل طبقة تتباحث وتقرر لوحدها ؟ فاذا تالف المجلس على هذا الشكل حصلت الطبقتان الممتازتان (الكهنة والاشراف) على الاكثرية ضد نواب القسم الثالث — أو هل يسيرون على منهاج جديد يمنح فيه نواب القسم الثالث من القوة ما يناسب اهميتهم ؟ وقد حسب اشياع حزب الاوساط ان نسبة عدد حزبهم في الامة الى عدد غيرهم من الاحزاب الاوساط كنسبة ٩٩ الى ١٠٠ ولذلك يرون من العدل ان يمنحوا من القوة ما يعادل قوة تينك الطبقتين وبهذا يكون لهم من النواب في المجلس قدر ما يكون للطبقتين معاً — ذلك ما كانوا يسمونه مضاعفة القسم الثالث وان يكون الاقتراع مشتركاً لتكون اصوات نواب الاوساط موازية لاصوات نواب الممتازين وهذا ما اطلقوا عليه اسم الاقتراع الفردي

(الثالثة) ما هي الشؤون التي يتفاوض بها النواب ؟ أفي القضايا المالية فقط ؟ ام في كل الادارة ؟ وهل يجب اقتصارهم على البحث في اصلاح الضرائب ؟ او يكون من حقوقهم

البحث في الاصلاح العام لسائر الشؤون ؟

على ان هاتين القضيتين كانتا متلازمتين فان رجال الامتياز كانوا يرتضون بقبول اصلاح الضرائب الا انهم كانوا يريدون المحافظة على مالهم من الامتياز فاذا جرى الاقتراع حسب النظام القديم تبقى لهم الاكثرية وحصروا الاصلاح ضمن الاعمال المالية . اما العامة فيريدون الاصلاح العام فاذا جرى الاقتراع الفردي صارت الادارة اليهم فاحدثوا انقلاباً . فوقع الخصام بين الممتازين ونواب الاوساط سنة ١٧٨٨ وهكذا اصبح البارلمان والاشراف الذين جاؤا ليحاربوا السلطة المطلقة يتحاربون لتعزيز الامتياز طالبين ان يستدعى النواب ليقترعوا على الطرز القديم (الانتخاب حسب الطبقات) فاستاء الشعب من ذلك ولم يرتضوا منهم

فصار من واجب الحكومة تعيين الشكل الذي يتفاوض به النواب . وكان لها اما ان تعمل على خاطرها فتحصر الاصلاح وتؤيد جانب الممتازين أو تحدث التغيير فتعضد الامة فاصبحت الحكم بين الممتازين ومن بقي من الامة . وكان عليها ان تبت الحكم فيها لاحد الفريقين ولكنها لم تكن تجسر على بث رأيها حتى انها وهي المطالبة بفض الخلاف كان الوزير ناكر يتظاهر بالحياد غير متشيع لفريق دون آخر الا انهُ عاد فمنح الاوساط حق مضاعفة نوابهم من غير ان يفصل مسألة الاقتراع الشخصي ولم يعط حكماً فاصلاً للمجلس بشيء من الحقوق

وجرى انتخاب نواب المجلس بحيث ان كل طبقة في كل بلدة او موضع انتخبت نوابها على حدة فكان الكهنة والاشراف ينتخبون نوابهم مباشرة [1] وكان انتخاب العامة لنوابها على درجتين وذلك ان يجتمع اهل كل قرية وينتخبوا عنهم نواباً ثم يأتون قصبة المقاطعة وينتخبون نواباً عنهم وكل جمعية من تلك الجمعيات تضع لائحة حسب العادة القديمة تتضمن شكاياتهم وما يطلبون للاصلاح . وكانت تلك المطالب متشابهة في كل ما يتعلق بالحكومة العامة لا سيما وان نواب المدن كانت قد تلقت مثالاً للمطالب التي يرغبون فيها وقد اتفقت الطبقات الثلاث على اعتبار النواب العموميين جمعية من وظيفتها تمثيل الامة واجمعوا على طلب اصلاح المالية وطلب دستور مكتوب يكفل للامة حقوقها ويحدد سلطة الحكومة

---

(١) للطارنة وبعض الاعيان حق بالعضوية لمجرد كونهم ممتعين بدرجتهم الكهنوتية أو بنبالتهم

وطلب نواب الاوساط فوق ذلك الغاء الامتيازات وان تجمع الطبقات الثلاث الى هيئة واحدة يكون الاقتراع فيها شخصياً أما الحكومة فلم تتخذ أقل تدبير لادارة المجلس وخصائصه . وفي ٥ مايو من سنة ١٧٨٩ فتحت الحكومة الجلسات في فارسايل من غير ان تجزم في النهج الواجب اتباعه ولا في الشؤون التي يبحث فيها

الجمعية الوطنية : فاشتبك الخصام بين الفريقين على الهيئة التي يتشكل بها المجلس فالحكومة عملاً بالعادة القديمة اجلست نواب كل طبقة على حدة فلم يرض نواب الاوساط عن هذا التفريق لانه متى عمل به جرى الاقتراع حسب الطبقات ولذلك ابوا الاشتراك بالمفاوضة قبل ان تقرر مسائل الاقتراع ورفض الكهنة والاشراف الانضمام الى نواب الاوساط والحكومة خلال ذلك تزداد ميلاً لعضد الاعيان واستمر الانقطاع عن العمل ستة اسابيع حتى نهض نواب الاوساط فاتخذوا قاعدتين فاصلتين وذلك انهم اعلنوا في ١٧ يونيو امكانهم الاستغناء عن نواب الطبقتين الاخيرتين لانهم هم ممثلو الامة وقد اطلقوا على اجتماعهم اسم الجمعية الوطنية يعنون بذلك ان حق المفاوضة باسم الشعب الفرنساوي منوط بنواب العامة . ثم استدعوا نواب الطبقتين الممتازتين الى حضور جلساتهم على ان يكون لهم حق الاقتراع بالتساوي

وفي ٢٠ يونيو اغلقت الحكومة القاعة التي يجتمع فيها نواب الاوساط فقصدوا مكان لعب الاكرة واقسموا الايمان ان لا يفترقوا حتى يسنّ دستور الدولة مؤسساً على المبادىء القويمة . وكان ذلك بمثابة تصريح انهُ لا يمكن للملك حل الجمعية . وبذلك صار نواب العامة سلطة كبرى مستقلة

وعوّلت الحكومة يومئذٍ على ان تضع بياناً للمفاوضة وكان ذلك في جلسة ملكية عقدت في ٢٣ يونيو طلب فيها الملك اصلاح الضرائب والاحتفاظ بالامتيازات . وكان الملك يريد الاحتفاظ بالفروق القديمة بين طبقات الامة الثلاث لان بها يرتبط افرادها ارتباطاً محكماً بنظام المملكة . فوجد الاوساط هذا البيان غير واف بالمقصود فبدأوا بالتمرد على الملك اذ ابوا ان يخرجوا من القاعة عقيب قراءة الاعلان

فاستفحل الخصام يومئذ بين السلطتين فعزمت الحكومة ان تنصر الممتازين والجمعية الوطنية معاً على انها كانت تستند الى التقليد والقوة المادية ومع انها مختلة فقد شعرت بتخلي الرأي العام عنها ناهيك بانحياز الباريزيين الى الجمعية الوطنية وتطرق الوهن الى اتحاد الممتازين ثم انضم بعض صغار الاعيان والكهنة الى العامة وشرعوا يجلسون معهم في

المجلس . ولذلك سلم الملك لهم وامر الباقين من نواب الطبقتين الممتازتين بحضور جلسات الجمعية الوطنية

الباستيل : وكان قد بقي للحكومة يومئذٍ القوة العسكرية وهي قادرة على استخدامها لفض الجمعية الوطنية عملاً بما اشار به الملكيون على لويس السادس عشر وخشي اشياع الثورة انصياعه لتلك الآراء لا سيما وان الحكومة جمعت الكتائب في فارسايل وتريد ان تسيرها الى باريز حيث كان الاضطراب في اقصى درجاته . وكان موسم عام ١٧٨٨ ماحلاً جداً فهرع الى باريز جماعات البائسين الجياع وعصابات اللصوص الاشقياء اتوها من الضواحي ومعهم العملة من اهل سانت انطوان وسانت مارسو وكلهم تألبوا يداً واحدة لمقاومة الحكومة



الجياع الثائرون

وخشي الباريزيون بطش الجند بهم ولذلك منعوهم من الدخول الى باريز ومن ثم تألفوا جماعات للدفاع وكان للملك في العاصمة حصن منيع عند مدخل ضاحية سانت انطوان

يقال له الباستيل جعلوه سجناً للمذنبين السياسيين يزج فيه كل من صدرت ضده رسالة مختومة فضم كثيرين من رجال العلم والكتبة المجيدين وكان السجناء في تلك الآونة قليلي العدد ولم يكن حماته الا نفر من العاجزين وآخرون من السويسيين على ان ما اتى هؤلاء من الظلم والقسوة جعلهم مكرهة الشعب ورمزاً للسلطة الاستبدادية

ومنذ تقلد الباريزيون السلاح حملوا على الباستيل وكان عسكر الدولة في باريز قد صار يومئذ فرقتين احداها الحرس الفرنساوي الذي لطول عهده في العاصمة امتزج بالاهلين حتى اذا نشبت نار الثورة عضد الثائرين بدلاً من مناوأتهم . ولهذا تمكن الباريزيون من حصر الحصن الملكي . وكان في جملة زعماء الهاجمين واحد من صغار القواد في الفرقة الملكية للحرس الفرنساوي . فلما سلم حاكم الباستيل اخذ الحصن وللحال شرع القوم يهدمونه و يرقصون طرباً بين انقاضه . وليس اخذ الباستيل في ذاته بالامر الخطير انما



الهجوم على الباستيل

مجده زعماء الثورة وحسبوه فوزاً مبيناً لانه كان رمزاً الى استظهار الامة بالقوة على الحكومة الملكية والحق يقال ان الملك احس من نفسه بالانقلاب على امره وكان يومئذ الرابع عشر من يوليو في فارسايل مع الجمعية الوطنية فجاء الجمعية في اليوم التالى وقال « ثقة مني بامانة رعيتي امرت الكتائب بالانسحاب عن باريز وعن فرسايل فافوضكم وا كلفكم اعلان سكان العاصمة بذلك »

ومن ثم انسحب وقام اعضاء الجمعية في اثره الى قصره بين تهاليل الجماهير من الخلق وعزف الموسيقي التي كانت تتغنى بانشودة مطلعها « اين يمكن ان يكون افضل لك من حضن

عائلتك » ومع ان الملك عدل عن استخدام جنده لمقاومة الباريزيين والجمعية الوطنية فان الباريزيين تقلدوا السلاح وتألفوا حرساً وطنياً تحت أمرة لافاييت من اشياع الجمعية الوطنية . فانتقلت القوة من الملك الى الجمعية

واصبحت هذه الجمعية المعززة من الباريزيين منفردة بالسلطة الحقيقية ولذلك حسب اخذ الباستيل تاريخ بدء الثورة وهو الرابع عشر من يوليو لسنة ١٧٨٩ وهي السنة الاولى للحرية

الليلة الرابعة من اوغسطوس : منذ الاستيلاء على الباستيل تداعت اركان الحكومة الملكية في فرانسا كلها وعم الخلل جميع فروعها ولم يبق من البوليس من يحافظ على الراحة وتوطيد الامن في البلاد ولذلك جعل يطوف البلاد عصابات من اللصوص للسلب وتكتب جماعات من اهل المدائن حراساً للدفاع عن شؤونهم . واذ شاع في الارياف بين الفلاحين ولا سيما في الشرق ان الجمعية الوطنية أطلقت الحرية للناس اخذ القوم بها على ما احبوا منها على ان التكاليف التي كانت تبهظ بثقلها الظهور فهي المرتبات السنوية والسخرة المعينة للاشراف وهي ما يسمونها حقوق الاقطاع

فشرع الفلاحون يهاجمون قصور الاشراف و يأخذون الدفاتر التي كانوا يدونون فيها الاتاوات والسجلات و يطعمونها للنار وفي اماكن كثيرة نهبوا القصور واساؤا الى الاشراف وتوعدوهم شراً

ولما اتصلت اخبار هذه الفتن بالجمعية الوطنية عزمت على سن قانون يتكفل بتأمين البلاد وجرى البحث في امر هذا المشروع في جلسة التأمت في الليلة الرابعة من اوغسطس بحثوا فيها بتسكين الاضطراب في الولايات وتوطيد الحرية السياسية وتأمين الملاكين على حقوقهم الصحيحة

فنهض نفر من الاشراف وطلبوا ان يعلن ان حقوق الاقطاع ستفتدى من العامة وان السخرة والرق الشخصي يلغيان من غير تعويض فقام نائب من بريتون وقال ان الشعب قد احرق القصور لتحترق فيها الصكوك المؤبدة حقوق الاقطاع وان من الواجب الاعتراف بجور تلك الحقوق التي أحرزت في زمن الجهل والظلام فاثار هذا الخطاب خواطر النواب وجعل الكثيرين من الطبقات الممتازة ينهضون الواحد اثر الآخر و يعرضون التنازل عن امتيازاتهم

فقابلت الجمعية ما عرضوه بملء التحمس وقررت الغاء التفاوت بين الوطنيين من سكان

العاصمة والولايات وبذلك ابطل الامتياز في التوظيف والغي قضاء الاشراف وحقوق الصيد وبرج الحمام وعدم حق التصرف بالملك والعشور وامتيازات املاك الدولة والمدن والقرى وابتياع المناصب بالرشوة وامتيازات اصحاب الحرف

وعملت وساماً (مدايل) احياء لذكر الاتحاد والولاء بين جميع الطبقات ولالغاء كل الامتيازات ولما ظهر من خلوص كل الافراد الذين سعوا في سعادة الامة ورفاهها فكانت الليلة الرابعة من اوغسطس قد قضت دفعة واحدة على كل الفروق الفاصلة بين الطبقات وأتيح فيها تأسيس هيئة اجتماعية جديدة على دعائم المساواة

وكتب ما تقرر من المبادىء في هذه الليلة في لائحة بدىء فيها هكذا « ان الجمعية الوطنية الغت النظام الاقطاعي الغاء تاماً »

نهاية النظام القديم : ان النظام القديم كان يشوبه ثلاث خصال

الاولى : انه كان للملك السلطة باجمعها من غير مراقبة فكان السيد المطلق

الثانية : كان اهل المملكة منقسمين الى ثلث طبقات لاتتساوى في الحقوق

الثالثة : ان اعمال الحكومة كانت جارية على السنن القديمة بما فيها من التشويش والغلطة

فالجمعية الوطنية بانتزاعها السلطة من الملك و بالغائها الامتيازات هدمت سلطة الملك المطلقة ولاشت التفاضل بين الوطنيين ومن ثم اخذت على نفسها تجديد بناء الحكومة على شكل واحد بسيط منتظم

ولما آلت على نفسها تجديد الدولة بدأت بهدم فرانسا القديمة ورغبت قبل الاخذ بترميم البناء الجديد ان تطهر الموضع من آثار الماضي فاعملت على الغاء كل النظام القديم حاسبة ذلك اولى من اصلاحه . ولذلك ابطلت كل المناهج القديمة التي ورد في مطالب المنتخبين ان فيها جورا وحيفاً ثم توجت الدستور الجديد بالبيان الآتي :

« ان الجمعية الوطنية لرغبتها في تطبيق الدستور الفرنساوي على المبادىء التي اعلنتها الغت الغاء باتاً جميع السنن التي تخدش الحرية والمساواة في الحقوق »

فلم يبق لديها ميزة للنبلاء ولا لاصحاب الاقطاع ولا للحسب الموروث ولا لاختلاف الطبقات ولا تعترف بشيء من حقوق الاقطاع ولا بالقضاء الموروث ولا بالالقاب ولا بالمقامات والمراكز الناجمة عنها ولا بنظام الفوارس ولا بغير ذلك من سيادة الاعمال الدولة حين اتمام وظائفهم . وليس ثمت من رشوة او ارث لمطلق الوظائف العمومية وليس لجماعة من الامة او الواحد من الاهلين اقل امتياز ولا خروج عن الحق العام الذي يناله كل واحد

من الفرنساويين ولا تعتبر رئاسة المهن ولا جماعات الحرف والصنائع ولا تعترف الشريعة بالنذور الدينية او بغيرها من المواثيق والعهود التي تنابذ الحقوق الطبيعية او الدستور

ومنذ سنة ١٧٨٩ بطلت كل الشؤون القديمة مثل مجالس الملك ومجلس الحكومة والنظار والبرلمان والمحاكم والضرائب والالتزام واعلن ان املاك الكهنة من جملة املاك الوطنيين وهكذا لم يبق شيء من النظام القديم

الفصل الخامس

نتائج الثورة

اعلان حقوق الانسان : عوّل مجلس التشريع عملاً برأي لافايت على نشر المبادىء التي يشاد عـلى دعائمها المجتمع الجديد قبل وضع الشرائع لتنظيم شؤون فرانسا المتجددة : فبعد البحث الدقيق وضع مواد حقوق الانسان وطبعها في اكتوبر سنة ١٧٧٩ واليك بنودها الاساسية :

« يولد الناس احراراً و يعيشون لذلك وكلهم متساوون في الحقوق . والحقوق هي الحرية والتملك والامن ومقاومة الجور . وقوام الحرية ان يستطيع الانسان العمل بكلما يريد من غير ان يضرَّ بغيره »

« مبدأ كل سلطة يرجع الى الامة »

« والشريعة هي مظهر الارادة العامة ويحق لكل الوطنيين ان يشتركوا ذاتياً او بواسطة نوابهم في سنها و يجب ان تكون سواء للكل »

« وكل الوطنيين في حكمها سواء . ولذلك يمكن لجميعهم الدخول في المناصب والوظائف على نسبة اقتدارهم وذكائهم »

« لا يمكن ان يُشكى على انسان او يقبض عليه او يحبس الا في ظروف يحددها القانون وعلى النهج الذي يسنه »

« ولا يجوز ان ينزعج احد بسبب آرائه ولو كانت دينية ما لم يكن اظهارها مضراً بالامن العام الذي ايده القانون . ولكل وطني ان يتكلم او يكتب او يطبع بملء الحرية »

« وان توزع الضرائب على جميع الوطنيين بالسواء كل على قدر طاقته »

« وان التملك حق مقدس لا يستطيع احد انتزاعه ما لم تدع المصلحة العامة اليه وتكون الحاجة لذلك قد ثبتت ثبوتاً قانونياً لا مناص منه وقد عوض عنه بثمن عادل . »

« ان من مبادىء الثورة ان تكون السلطة للامة وان جميع افرادها متساوون في الحقوق يتمتعون بالحرية ويأمنون على اشخاصهم وما يملكون حق من الحكومة . وشعارها الحرية والمساواة والاخاء »

مبادىء المجتمع الجديد : انتسخ التفاضل وصار الفرنساويون في حكم القانون سواء لا ميزة بينهم في الضرائب ولا في حق البكور ولا في حق ملاك على آخر . واضحت الشريعة لا تعترف بحقوق النسب واتيح لجميع الناس تقلد المناصب من غير اختصاص بذوي الاحسان فنال الاوساط معظمها حتى صار اكثر العمال منهم في القرن التاسع عشر . وليس بينهم شريف أو وجيه

واعتقت املاك الفلاحين من مرتبات الاشراف والمكوس الفادحة فازدادت قيمها فبيعت الاملاك التي تخلى عنها الكهنة عام ١٧٨٩ والتي حجزتها الحكومة من ممتلكات المهاجرين فاشتراها الوطنيون . وصار ثلث الارضين في فرنسا في ايدي المزارعين الصغار (١) واصبحت المهن حرة ابداً واصبح في وسع كل واحد من الناس اصطناع ما يريد على الشكل الذي يختاره . وصارت التجارة حرة وليس ثمة احتكار ولا حصر على البيع . ووزعت الضرائب بالسواء على الاهلين كل على قدر ماله واستبدل مجلس التشريع المكوس بضريبة عقارية توضع على البيوت ولا يستثنى من حكمها احد من الملاكين . واستعاض عن الجزية بمال الاعناق والمنقولات والغى الضرائب غير المقررة على الخمور وهي التي اعادها نابليون تحت اسم الرسوم الموحدة غير ان الحكومة عدلت عن تلزيمها للافراد وشرعت تعهد بجبايتها للمأمورين وشرعوا ينظمون الميزانية سنة فسنة قبل حلول زمانها بحيث يستطاع بها المعادلة بين الدخل والخرج ولا تستطيع الخزينة ان تدفع مبلغاً من غير حوالة قانونية — واصبح دائنو الحكومة في امن على ربا اموالهم يقبضونه في ابانه وجعلوا يقيدون ديون الحكومة في دفتر الديون العمومية الكبير منذ عام ١٧٩٣ بحيث لا يمكن التمييز بين الديون التي عقدتها الجمهورية والديون التي عقدتها الحكومة الاستبدادية ثم ان الثورة وضعت مبدأ مؤداه ان الامة وحدها هي صاحبة السلطة ولما كان لا

(١) ولعله يوجد في فرنسا اليوم من المزارعين الكبار قدر ما كان يوجد فيها قبل سنة ١٧٨٩ على ان ذلك مسبب عن تجديد تشكيلها سنة ١٨٠٠

يتهيأ لها ان تحكم بذاتها نتج عن هذا المبدأ طرائق شتى بحسب ما كان من تسليم الامة سلطتها للملك او للبارلمان او للجمعية تقوم بالامر لوحدها او لامبراطور — ان نابليون الاول اعظم سلطان مطاق وجد في فرنسا لم يأخذ لقب امبراطور الا بعد ان نشر اعلاناً للشعب يطالبه بذلك وهذا الضرب من الحكومة لا يضاد مبادىء الثورة

وقد ايدت الثورة الفصل بين السلطات فليس لعامل واحد او لهيئة واحدة ان تقوم بغير سلطة واحد من ثلاث . التشريع والقضاء واصدار الامر



ميرابو

وقد نسقت الثورة ادارة الحكومة تنسيقاً منتظماً فصارت تجري بأحكام كانها الآلة فان كل واحدة من مصالح الدولة ترجع الى وزارة ترفع اليها الرسائل والتقارير وتصدر منها الاوامر . وعدد القرارات يختلف لان من المصالح ما تكون احياناً مجتمعة الى غيرها في وزارة واحدة ثم تنفصل لتضم الى وزارة اخرى على انها في كل حال تبقى اعمالها غير متغيره وتلك المصالح هي الادارة . والعدلية . والمالية . والخارجية . والحربية . والبحرية والاديان . والمعارف . والفنون الجميلة . والاشغال النافعة . والتجارة . والزراعة . وعمال كل مصلحة يرجعون في امورهم الى الوزير الذى يكون على زعامة الارادة التي يعملون

فيها — ولكي يكون توزيع السلطة اكثر انتظاماً وضعوا طريقة لتخصيص اختصاص كل مصلحة وعملها تحديداً مدققاً فانقسمت كل فرنسا الى ولايات Departements والولايات الى ايالات Districts والايالات الى كور Cantons والكور الى مراكز Communes وكل عامل يقوم بعمله ضمن دائرة اختصاصه فكل ولاية يتولاها واليها ولها امين صندوق ومجلس قضاء وكل دائرة منها يحكمها نائب الوالي يعاونه الجباة والمجلس — وبالاجمال نرى كل المصالح تنتهي الى نقطة مركزية على شكل واحد فترى خصائص العمال وواجباتهم واحدة في كل فرنسا بحيث يستطاع نقل العمال من جهة الى أخرى في البلاد . والاوامر واحدة لجميعهم تصدر على شكل اعلان ولذلك لم يبق اقل اختلاف بالادارة في كل انحاء فرنسا . والوزارة في باريس تنظر حتى في جزئيات الامور وتشرع لها شرعة واحدة يعم استعمالها . فتمّ بهذا الترتيب جمع السلطة في الحكومة المركزية جمعاً تاماً . على ان الملوك شرعوا يعملون الى هذه الغاية فما نالوا منها تمام الارب فاصبحت فرنسا لا تضارع في احكام هذه السنة

ثم ان المجلس التشريعي منح حق الادارة لمجالس ينتخب الاهلون رجالها فاصبح لكل مديرية مجلس بلدي ولكل ايالة او ولاية مجلس ادارة والتفت مجلس التشريع الى الحقانية واصلحها وابقي من نظامها القديم عادة فصل الخصومات في محكمة تؤلف على الاقل من ثلاثة قضاة . على ان هؤلاء القضاة صاروا بحيث لا يحسبون مناصبهم ملكاً لهم ولكنهم يتولونها كسائر الوظائف على ان ينتخبهم الاهلون . واستعاضوا عن مجالس الاشراف الصغرى في القرى بشيخ صلح يوفق بين الخصوم فيحول اذا استطاع دون اقامة الدعوى . اما القضايا الجنائية فنزع حق فصلها من المحاكم وجعله في كل ولاية لمحكمة تؤلف على طرز الجوري الانكليزي بان يؤخذ من سكان الولاية اثنا عشر رجلاً يخوّلون الفصل في تجريم المتهم . ومن ثم ينظر القاضي في المحاكمة ويعين القصاص . واعادوا ما كان جارياً في القرون الوسطى من المحاكمة العلنية الشفهية ومنحوا المتهم حق الدفاع عن نفسه بواسطة محامٍ — والغوا كل عرفٍ كان يعتمد في الولايات وجعلوا القضاء في كل المحاكم يسير على قانون واحد وان لا يؤخذ من المتداعين مال — لا يقصد بذلك ان الدعوى لا يدفع عنها رسم ولا تتكلف مالاً ولكن القصد ان لا يأخذ القضاة مالاً من المتداعين

وقد غيرت الثورة علائق الحكومة مع الكنيسة وحتمت على مجلس الاكليروس ان

يلغي الابرشيات ويجعل رسامة المطارنة بالانتخاب والغيت الكنيسة المسيحية على ان يعوض عنها بعبادة الكائن العظيم . ومن ثم وضعت مبادىء حرية الاديان وفصل الكنيسة فصلاً تاماً عن الحكومة « ليس لاحد ان يمنع انساناً عن ممارسة طقوس الدين الذي يختاره طالما كان محافظاً على القوانين . ولا يرغم احد على الاشتراك في نفقات الدين الذي يعتقده على ان الجمهورية لا تؤدي رواتب لمذهب من المذاهب »

الدستور المدوّن : ان اهم ما ينتقد الثوريون من الطريقة القديمة استبدادها فجعلوا سلطة الحكومة محدودة ضمن قانون مكتوب شبيه بالقانون الذي يحدد علائق الافراد فيما بينهم وقد كان من مطالب الوكلاء العموميين في لوائحهم سن دستور مكتوب فانصرفت همم النواب لوضع الدستور واتخذت الجمعية اسم مجلس التشريع

وكان الرحالة الانكليزي يون يجول يومئذ في فرنسا فهزأ من عزم القوم على سن الدستور وقال « كأنهم يتخيلون وجود خطة واحدة لوضع الدستور كما يوجد طريقة واحدة لعمل طعام البودين » وكأني به قد اعتاد ان يرى في انكلترا الدستور السياسي والقانون المدني مؤسسين على العادات القديمة التي يحترمها جميع الانكليز الا انه لم يكن في فرنسا تقاليد راسخة القدم ولذلك ذهبوا بان القانون المكتوب يكون الرادع الوحيد لاستبداد الحكومة

وكانت فرنسا منذ الدستور الاول سنة ١٧٩١ قد غيرت كثيراً من شكل الحكومة ولكنها لم تخل قط من دستور مكتوب ومن ثم تحدتها كل الامم المتمدنة شيئاً فشيئاً في وضع دستورها الا انكلترا

دستور عام سنة ١٧٩١ : ان الجمعية الوطنية اخذت على نفسها ان لا تفترق حتى تضع الدستور فقضت في تنسيقه عامين ونشرته سنة ١٧٩١ حين اقسم الملك ان يحافظ عليه

والف دستور سنة ١٧٩١ جماعة من الذين قاموا بالثورة وما كانوا يخشون السلطات التي كانت حتى في تلك الايام تتسلط على المجتمع والحكومة ويستريبون من الاعيان يعني بذلك ذوي الاحساب ومن استبداد السلطة الملكية فضلاً عن انهم اتخذوا قاعدة فصل السلطات عملاً برأي مونتسكيو [1]

---

(١) يبنى هذا الرأي على معرفة ناقصة في الدستور الانكليزي فان مونتسكيو لتتبعه في ذلك فقهاء الانكليز كان يزعم ان السلطة في انكلترا مشتركة بين البارلمان والملك وان

ثم وضعوا تلك القاعدة الاساسية وهي « السلطة للامة » وبذلك هدم اساس الحكومة القديمة اذ كان الملك هو السلطان الوحيد . ولكن الامة التي تنبعث عنها كل السلطات يتعذر عليها القيام بها الا بالاستنابة عنها فلا يقوم بالسلطة كلها الا العمال المكلفون بها . على انهم يعترفون بان الملك ينوب عن الامة بحق موروث وله ايضاً حق اختيار وزرائه اما السلطات الاخرى فبالانتخاب ولكنهم لم يريدوا ان يجعلوا حق الانتخاب مباحاً لكل الوطنيين على السواء وانما يعطى ذلك الحق لمن يدفع من الضرائب مايساوي قيمة شغل ثلاثة ايام فبذلك انشطر الوطنيون شطرين شطر فعال وهو المصوت وشطر منفعل وهو الذي لا يحق له التصويت

وعملاً بنظرية مونتسكيو جعلوا السلطات ثلاثاً تشريعيه وتنفيذية وقضائية وعهدوا بالسلطة القضائية الى قضاة ينتخبهم الشعب لمدة معينة وخولوا السلطة التنفيذية للملك ليقوم بها الوزراء تحت امره وجعلوا السلطة التشريعية في مجلس يؤلف من نواب منتخبين

وقد دار البحث بينهم على مسألتين الاولى منهما : هل يجب ان تعطى السلطة التشريعية لمجلس واحد او لمجلسين كما هو الحال في انكلترا ؟ والثانية هل يجب ان يكون الوزراء من غير اعضاء المجلس ام من اعضائه كما هو في انكلترا ؟

ولقد اظهر الاختبار في قرن كامل ان المجلس الواحد معرض في ابان الهياج للسير في سبل تعود عليه بالندم العاجل ولذلك آل الحال بجميع الحكومات المتمدنة الى اتخاذ مجلسين . على ان الاختبار لم يكن حتى اواخر القرن الثامن عشر قد هداهم الى هذه الحقيقة بل كانوا يستغربون ايجاد سلطة ذات طرفين . وقد هزأ بها السياسي الاميركي فرنكلين المشهور اذ قال « ان حيةً ذات رأسين ارادت ان تشرب وكان الماء في موضعين فاراد الرأس الواحد ان يذهب بها الى الجهة اليمنى والرأس الثاني الى الجهة اليسرى فلبثت هي في مكانها وماتت من العطش » وزد على ذلك ان الذين كانوا يطلبون مجلساً ثانياً لا يمكنهم ان يمثلوه الا بمجلس أعيان وراثي كما هو الحال في مجلس اللوردات . والحال ان المجلس التشريعي لا يرغب في اسقاط مبدإ الاعيان ليقيم مبدءاً اخر مثله ولهذا قرر انشاء مجلس واحد

وظهر من الاختبار ايضاً ان الوزارة المشكلة من غير اعضاء المجلس ليس لها عليه

للملك السلطة التنفيذية وللبارلمان السلطة التشريعية فاضافوا الى هاتين السلطتين السلطة القضائية التي استمدوا الرأي فيها من البارلمانات السابقة

نفوذ كافٍ للحكم فيحدث على اثر ذلك من الشحناء ما لا نهاية له بين ان الوزارة المشكلة بالاكثرية الغالبة في المجلس تحرز ثقته وعضده لها . غير ان العمل بمبدإ توزيع السلطات سنة ١٧٨٩ حال دون تمتع نواب الشعب بحق الحكم لئلا تجتمع السلطتان التشريعية والتنفيذية . وقد سبق لانكلترا فاختبرت ذلك ولم تستصوب العمل به ونرى كثيرين من الانكليز ينكرون على حكومتهم طريقتها ويعزون اليها ما ظهر من فساد البارلمان في بلادهم أما الوزراء فرغبةً في الحصول على الاكثرية كانوا يستميلون النواب و يسترضونهم وكان بوسع الملك ان يسعى لاستمالة زعماء المضادين بعرضه عليهم منصب الوزارة ولم ينجح نصح ميرابو لاعضاء المجلس التشريعي ان يطلبوا الملك حق الاستيزار من النواب فكان كلامه ذريعة فعالة لحمل المجلس على الجزم بان لا يستوزر احدٌ من النواب لانهم كانوا يخشون ان يصير ميرابو وزيراً و بدأوا يوجسون شراً منها علائقه مع الملك . واتماماً للتفريق بين السلطات قرروا انهُ لا يحق للوزراء ان يتكلموا في مجلس النواب الا بما يتعلق في امور وزاراتهم

وكثر الجدال والبحث فيما يكون للملك من الحق في السلطة التشريعية اذ شرعوا يتساءلون هل يحق له رفض قانون اقترع المجلس عليه ؟ فطلب الملكيون ان يكون لهُ حق الالغاء . اما عداة الملكية فلم يرضوا ان يبقى للملك اقل سلطة تشريعية . ثم اتفق الفريقان ان يخوَّل الملك حق التأجيل بحيث يسوّف قولهُ الفصل الى مرور زمنين لالتئام المجلس التشريعي

وعلى هذا النمط عُهد بالحكومة الى ثلاث سلطات رتبوها على نسق يجعل كل سلطة منها مستقلةً بذاتها عن رفيقتيها . وكان المجلس التشريعي راغباً في تأييد مبدإ فصل السلطات خوفاً من عسف السلطة التنفيذية يعني بذلك سلطة الملك الذي الف الاستبداد فشرع المجلس يبذل جهدهُ في اضعاف تلك السلطة الملكية بحصرها ضمن حدود معينة فكانت النتيجة رفع كل عملٍ عن عاتق الوزارة وصارت السلطة الحقيقية الوحيدة هي المجلس

أما ما يتعلق بالادارة فقد منح المجلس التشريعي للمنتخبين في المقاطعات حق انتخاب مديريهم غير ان الناس كانوا قد احتملوا كثيراً من جور العمال وصلفهم فلم يرضوا بمنح السلطة للافراد وانما جعلوا لكل درجة من درجات السلطة مجلساً . فكان للمديريات مجالس البلديات وللايالات والولايات مجالس الادارة واقاموا ازاء هذه المجالس التنفيذية

مجالس شورية ومنحوا تلك الحكومات المحلية ليس فقط السلطة لتدبير شؤون الادارة وانما حبوها حق جباية الضرائب وتكتيب الحرس الوطني فكادت بذلك مديريات فرنسا ان تكون شبيهة بالجمهوريات المستقلة

وكان مجلس التشريع يوجس خوفاً من جور الملك ووزرائه ولذلك نظم الحكومة على شكل يضمن فيه للمجلس التسوّد على السلطة التنفيذية ويجعل الولايات مستقلة عن العاصمة بعض الشيء وهكذا اضعف دستور سنة ١٧٩١ الحكومة المركزية كل الضعف وجعل السلطات المحلية قوية حتى الفوضوية . وزد على ذلك ان مجلس التشريع بتقريره ان لا يقبل احداً من اعضائه في المجلس العام الزام المنتخبين ان يرسلوا نواباً اغراراً

دستور سنة ١٧٩٣ : ان الدستور عام ١٧٩١ ابقى على الملك والوزراء ومع انه صيرهم ضعفاء فقد حاولوا ان يعترضوا على مجلس التشريع بانهُ اراد النهوض بكل السلطة . وبحث في شؤون الكهنة والمهاجرين وحسبهم اعداء وسن القوانين بما يعاكسهم فابى الملك التصديق عليها ورفضها وقام خلال ذلك حزب جمهوري قليل الانصار الا ان لهُ الكلمة النافذة في اهل ضاحية باريز فهاج يومئذ واستولى على التويلري والزم المجلس على المناداة بخلع الملك واستدعى مجلساً جديداً وهو الكونفانسيون (في ١٠ اغسطس ١٧٩٢)

فقبض الكونفانسيون يده على الحكومة ونهض باعمالها بواسطة لجان انتخبت من اعضائه ومن ثم شرعت بوضع دستور يخلو من الملكية فكان دستور سنة ١٧٩٣ الذي وضعته اللجنة بسرعة وصادق عليه الكونفانسيون من غير بحث طويل

وكان واضعو هذا الدستور من تلامذة روسو فوضعوه على مبدائه بان السلطة للشعب وحده ويجب عليه القيام بها مباشرةً وان الشعب يؤلف من كل رجل يبلغ الحادية والعشرين من سنيه . والغى الفرق ما بين الوطنيين الفعالين والمنفعلين سنة ١٧٩٤ واوجب على المنتخبين ان يجتمعوا في مجلس ابتدائي ليس فقط لانتخاب النواب وانما للبحث في الشرائع

واستعيض عن الجمعية بمجلس تشريعي ينتخب لسنة فقط وليس من حقه سن الشرائع وانما له ان يعرض الرأي بوضعها وللمجالس الابتدائية الحق في قبولها . وكانوا يظنون تلك المجالس قبلت بالسنن . ولكن تبين ان نصف الولايات وزيادة واحدة على نصف عددها جميعاً لم يوجد فيها مجلس من عشرة يرغب فيها . واستعاضوا عن الوزارة بمجلس تنفيذي مؤلف من اربعة وعشرين شخصاً . يختارهم المجلس التشريعي من جدول يقدمه المجلس

الابتدائي باسماء المتأهلين

فابطل الدستور هذه الحكومة المركزية والجمعية الوطنية وندب كل الوطنيين لمقاومة السلطات القانونية « متى تعدّت الحكومة على حقوق الشعب اصبحت الثورة حقاً مقدساً للشعب ولكل قسم منهُ واجباً لامناص منهُ »

واذا كانت جيوش اوربا تكتسح فرنسا يومئذ اضطرت البلاد الى اقامة حكومة قادرة على الدفاع عنها فاتفق اهل الحل والعقد على ان لا يعمل بالدستور الى نهاية الحرب لانه لم يكن وقت لاجرائه وكانت الحرب لم تزل مستمرة حين خلع واضعو ذلك الدستور عن السلطة

دستور السنة الثالثة : ان الكونفانسيون قبل ان ينفرق وضع دستوراً جديداً وبذل الهمة في تجنب هفوات دستور سنة ١٧٩١ سيما في منع اشياع الملكية من القيام بالاحكام

فانتزع هذا الدستور من المجلس الابتدائي كل سلطة وحصر حقوقه بتعيين اسماء المنتخبين الذين ينتخبون النواب وحصر حق الانتخاب في مَن تدر عليه املاكهُ مئتي فرنك في العام . وكان من مؤدى هذا الدستور العدول عن اعتماد مجلس واحد والجزم باتخاذ مجلسين احدهما يؤلف من خمسمائة عضو لعرض القوانين وثانيهما مجلس الشيوخ يؤلف من مئتين وخمسين عضواً للتصديق على القوانين التي تعرض عليه . ولا يعمل بقانون لم يتفق عليه المجلسان وكلا المجلسين يؤلفان بالانتخاب وانما تجنباً للتغييرات الفجائية لا يجدد انتخابهما كل سنة وانما ينتخب ثلث الاعضاء سنوياً . وزد على هذا ان اصحاب الحل والعقد رغبوا في ابقاء الامر للحزب الجمهوري فقرروا ان يكون على الاقل ثلثا الاعضاء في المجلس الاول من جماعة الكونفانسيون

وعهد بالسلطة التنفيذية الى حكومة يُقال لها الديركتوار على ان تؤلف من خمسة رجال ينتخبهم مجلس الشيوخ من عشرة يقدم اسماءهم له مجلس الخمسمائة ويعاد الانتخاب في كل سنة على واحد من الرجال الخمسة

ومن خصائص الديركتوار ان يعينوا الوزراء ورؤساء القادة والسفراء . ويعقدون جلساتهم باللباس الرسمي ويقبلون العرائض ولكنهم ابقاء على قاعدة فصل السلطات ينبغي لهم ان يحافظوا على سلطتهم التنفيذية متجنبين المداخلة مع المجالس . على ان الوزراء لا يؤخذون من النواب . وليس من حقوق الديركتوار ان يقترحوا اشتراع شيء من القوانين

ولم يكن لاحدى السلطتين من سبيل للتأثير على الاخرى ولذلك لما اشتبك الخصام بينهما اضطرها الحال الى احداث الانقلاب السيامي . وذلك ان الديركتوار الغى انتخاب المجالس مرتين فانتهى الامر بالدستور انهُ اصبح لا يعتبره احدٌ من الفريقين

الفصل السادس

النزاع بين الثورة واوربا

النزاع بين الثورة وممالك اوربا : كانت فرنسا سنة ١٧٨٩ مسالمة لجميع ممالك اوربا وكانت الممالك الكبرى فيها خمساً اثنتان منها في غربي اوربا وهما فرنسا وانكلترا — واثنتان في القلب وهما النمسا وبروسيا — وواحدة في الشرق وهي روسيا وكلها منفصلة بعضها عن بعض بممالك صغرى ضعيفة الحول كانت الدول الكبرى تحاول ضمها والتسود عليها

وكانت النمسا تطمع الاستيلاء على بافاريا مقايضة عليها بالبلجيك . اما بروسيا فكانت تمانعها

وتريد الروسية التسود على بولونيا اما النمسا و بروسيا فترغبان في اقتسامها

واتفقت الروسية والنمسا على اقتسام الدولة العثمانية غير ان بروسيا لم تكن راغبة في اتساع النمسا وازدياد منعتها

وكانت انكلترا تسعى للتسود في البحر فادعت ان لها الحق زمن الحرب بايقاف سفن الامم المتحائدة وان تفتش فيها لترى ما ربما كان مخبوءاً في انبارها من بضائع العدو فادت بها هذه الدعوى الى مخاصمة دول الشمال البحرية وهي الدنمارك والسويد والروسية اللواتي اتفقن مع فرنسا واسبانيا على طلب حرية البحار

وهكذا كانت اسباب الخلاف موجودة بين جميع الدول الكبرى وكلهن تحاربن في غضون القرن الثامن عشر وبما انهن كن مختلفات في المصلحة فلم يكن يجمعهن مبدأ عام — وكان من امر كل دولة منهن انها تختار حلفاءها عملاً بصالح يومها . على ان حرب السبع السنوات بدّل طريقة المحالفات القديمة من مثل عضد فرنسا للنمسا عدوتها القديمة على مناوأة حليفها القديم ملك بروسيا ولم تعتمد بعد ذلك طريقة اخرى على ان كل واحدة من الدول كانت تستريب من الاخرى فاصبحن كلهن لا يستطعن الاتفاق على عمل مشترك

وكان مركز فرنسا يومئذ بفضل مراكز سواها من الدول لانها لم تكن مشتبكة في خصام ذي شأن كبير على ان بلادها وسيعة وكلها متحدة اتحاداً تاماً ولا يتاخمها الا دول صغيرة او ضعيفة الحول كالبلجيك والامارات الالمانية ومملكة سردينيا واسبانيا وكلها لا تقوى على قتالها بل هي تقوم حاجزاً حصيناً في وجه الدول الكبرى تمنعها من مهاجمتها فمن السهل عليها والحالة هذه ان تحافظ على السلام . تلك سياسة فاجين وزير خارجية لويس السادس عشر وكذلك سياسة كلٍ من ميرابو وتاليران وقد جرى عليها مجلس التشريع عقيب بحث دقيق فيها . وفي ١٢ ايار سنة ١٧٩٠ اقرَّ على ما يأتي « ان الامة الفرنساوية لا تشهر حرباً ابتغاء الفتوح ولا توجه قواتها ضد حرية شعب من الشعوب » وطبع هذا القرار في دستور سنة ١٧٩١

الا انه ليس من شان الجمعية ان تستمر على وفاق مع حكومات اوروبا فان الثورة في ذاتها تحسب ضرباً من العداء ضد السلطنات المطلقة وحقوق الانسان المعلنة من مجلس التشريع لا تنحصر باهل فرنسا بل تعم كل الناس . ثم ان فرنسا باعلانها تلك الحقوق لمواطنيها جعلت ذاتها مثالاً لسائر الدول رجاء ان ينسجوا على منوالها وهي ولئن كانت لا ترغب في ان تسير بعوثها ضد حرية الشعوب فانهُ يعسر عليها ان تمنع اسعافها عن الامم الساعية في استحصال حريتها

وكان اهل البلاد المجاورة مستائين من حكوماتهم فجعلوا يأملون التخلص من جورهن . ومن الفرنساويين قوم يحرضونهم على ذلك لانهم لا يفقهون معنى لوقوف الحرية عند تخوم بلادهم لا تتعداها

واول خصام شبت نارهُ كان مع البابا بسبب اهل افينيون Avignon الذين ثاروا عليه وطلبوا الانضمام الى فرنسا والخصام الآخر مع الامبراطور بسبب امراء من الالمان كانت لهم املاك من الاقطاع في الالزاس فاحتجوا على الغاء حقوق الاشراف

اما مجلس التشريع فتجاوز عن مسألة اهل افينيون ولكنه تمسك بحق الالزاسيين في التخلص من حقوق الاشراف عليهم . ومما ورد في التقرير المرفوع الى الجمعية « ان شعب الالزاس اتحد مع الامة الفرنساوية لانهُ رغب في ذلك الاتحاد فارادته اذاً هي التي جعلت الاتحاد قانونياً وليس معاهدة منستر » وفي ذلك قيام الحقوق العمومية على مبدأ جديد هو ان ارادة الشعب هي السائدة بين ان الحكومات الاخرى لا تعرف غير الارث والمعاهدات بين الملوك من غير اكتراث بارادة رعيتهم . الا انه يتعذر التوفيق بين هذين المبدأين

المتناقضين . غير ان لنشوب الحرب اسباباً اخرى اقرب منالاً وكان السواد الاعظم من الشعب الفرنساوي لا يرغب فيها ولذلك كانت الممالك الاوروبية مضطرة لمسالمة بعضها مع بعض قبل تشترك في مناوأة الثوار واذا بملك بروسيا قد حشد جيشاً جراراً في سيليسيا سنة ١٧٩٠ ان قاصداً شن الغارة على النمسا

الحرب : اقتضى لوقوع الحرب بين الثوار واوروبا مرور سنتين وكان ثمت حزبان فرنساويان يسعيان لاحداثها احدهما جماعة من النبلاء الفرنساويين الذين امتعضوا من الثورة فنزحوا من البلاد الى المانيا وشرعوا يستنهضون حكوماتها ويزينون لها ارسال بعوثها الى فرنسا لانقاذ لويس السادس عشر من امر الباريزيين والجمعية الوطنية

والحزب الآخر اشياع الجمهورية الذين كانوا من الجهة الاخرى يستثيرون الحرب ليحكموا لويس السادس عشر الذي كانوا يظنون به حليفاً سرياً للملوك الاجانب فالامبراطور ليوبول كان اول من سعى النبلاء النازحون في استنهاضه غير انه لم يكن ميالاً للحرب ولا راغباً فيها ومع ذلك لم يرض بالاجهار لاولئك النبلاء بما في ضميره من رفض مطالبهم لئلا ينقطعوا عن الاتصال به وفي مقدمتهم الكونت دارتوا شقيق لويس السادس عشر

وحدث انه كان في قصر بلنتيز من بلاد الساكس وفيه ملك بروسيا ومنتخب ساكس لجاء الكونت دارتوا يطلب منه المدد ويعرض عليه خطة للحرب ضد فرنسا — فاقر الملوك المشار اليهم على ان لا يدخلوا في غمار هذه الحرب ولكنهم رغبوا في ارضاء خواطر النبلاء النازحين فعزموا على طبع منشور يظهرون فيه رغائب نفوسهم باعادة الراحة الى فرنسا وارجاع الملكية اليها (في ٢٧ اوغسطس سنة ١٧٩١) ومما قالوا فيه ان الامبراطور وملك بروسيا يرجوان من سائر الدول الاوروبية الا يرفضوا معاً معاونتهما على اعادة فرنسا الى ما كانت عليه

ثم قالا وحينئذ فان صاحبي الجلالة الامبراطور وملك بروسيا قد عقدا العزيمة على ان يعجلا العمل وان يشتركا فيه بقوة جيوش جرارة تكفيهم لبلوغ الغاية المقصودة . وكأني بالعاهلين كانا يتوقعان من الدول الاخرى ان ترفض التداخل في هذه الشؤون فيتسنى لهما التملص مما تعهدا به وذلك لانهما وعدا بالعمل على شرط ارتضاء الدول بالمشاركة فيه

وقد كتب ليوبولد ان قولي «وحينئذ في هذه الحال» بمثابة الناموس والانبياء . وقال مالاديبان ان منشور بيلنتز لم يكن سوى رواية عظيمة الا ان الجالية من الفرنساويين بذلوا جهدهم في ان يبرزوها للناس كوعد وثيق فنشروا رسالة للامراء قيل فيها : ان الدول التي طلب منها المساعدة آلت على نفسها استخدام قواتها في سبيل ذلك وان الامبراطور وملك بروسيا

قد تعاهدا

فصدق اشياع الثورة اعلان الجالية واشربت نفوسهم من وساوس تألب اوروبا على اكراه فرنسا للرجوع الى الطريقة القديمة . ومنذ سنة ١٧٩١ انصرفت همم الجمعية الوطنية الى تعزيز الجيش بعد ان كانت قد اهملت التكتيب له منذ سنة ١٧٨٩ وجعلوا الى جانب الجيش القديم المحافظ على اللباس الرسمي الابيض جيشاً من المتطوعين باللباس الازرق

وآل الامر بمجلس التشريع المؤلف من النواب الشبان ان يغلبه الحزب الجمهوري على امره (الحزب الجمهوري من اهل الجيروند ومن بعض الباريزيين) راغباً في الحرب لتعويض الملكية وقد قال بريسو « ان شعباً فاز بالحرية بعد عشرة قرون من الاسترقاق يحتاج للحرب تعزيزاً للحرية وتنقية لها من ادران الاستبداد وابعاداً للرجال الذين في في استطاعتهم ابادتها »

وكان مقام الجالية من الفرنساويين على العدوة اليسرى من نهر الرين في بلاد منتخب كولون حيث الفوا جيشاً صغيراً وجعلوا قاعدة اعماله كوبلانتز فطلب مجلس التشريع الى لويس السادس عشر ابعاد تلك الجالية وكان لويس السادس عشر ووزير حربيته ناربون لا يخشيان مغبة حرب صغيرة يشهرانها على منتخب كولون فتعزز الجيش الا انهما خابرا الامبراطور وطلبا اليه ان يأمر المنتخبين الاكليركيين بطرد الجالية فرفض الامبراطور تلك المطالب ولذلك اعلن مجلس التشريع الحرب

وهكذا كانت فرنسا البادئة في محاربة ملوك اوربا حال كونها لم تكن مهددة بالغارة عليها على ان ملوك اوربا كانوا يحتسبون فرنسا الثوروية خطراً على اوربا ويرغبون في ارجاعها الى ما كانت عليه

ومنذ ٧ فبراير سنة ١٧٩٢ امضى كل من امبراطور النمسا وملك بروسيا عهدة الاتفاق والتحالف الدفاعي وكتبا في ١٧ منه الى ملك فرنسا ما يأتي : «كانت اوربا تترك الاصلاح يتم في فرنسا بسلام لو لم تكن الدسائس متجهة على كل الشرائع الالهية والانسانية فقد اضطرت الدول للاتفاق حفظاً للراحة وصيانة لتيجانها» اه

ولم يكن في هذه الحرب الاولى سنة ١٧٩٢ من الدول المناوئة لفرنسا الا الامبراطور وملك بروسيا وامراء المانيا وملك سردينيا وملك اسوج كوستاف الثالث كان يحسب الثورة الماماً بشأن الملوك . وكانت وقائع هذه الحرب مشومة على الفريقين لان الجيش الفرنساوي كان غير منظم ولا محنك وهو سيئ القيادة . انكسر لاول حملة عليه وولى

منهزماً تاركاً التخوم مفتوحة للاعداء

وكان بوسع الجيش البرومي الوصول حتى شامباني الا انه عمل بالحكمة فلم يجرأ على الزحف الى باريز بل تراجع الى الجيش الفرنساوي المخيم وراءه تحت قيادة ديموريه على انه انسحب من غير قتال. فاتخذ الفرنساويون حينئذ خطة الهجوم واحتلوا البلجيك والعدوة اليسرى من الرين وسافوا وكونتية نيس

على ان قتل لويس السادس عشر صير الحرب عامةً وفي سنة ١٧٩٣ اصبحت حكومة فرنسا جمهورية فانضم الى عصبة اخصامها المتألبين سنة ١٧٩٢ عصابة اخرى هن انكلترا وهولاندا واسبانيا والبورتغال والممالك الايطالية . وجملة القول سائر اوربا ماخلا سويسرا والدانمارك وفنيسيا . وكانت كاترينا امبراطورة روسيا قد اعلنت عداوتها للثورة الا انها رفضت ان تسير اليها الكتائب قائلة انها ابقت جنودها لمقاتلة الجاكوبيين في بلونيا .
وكانت اسوج قد انسحبت من ذلك الاعتصاب

وقد كانت هذه الحرب ضرباً من الجهاد الديني شنُّوها على الجمهور بين من اهل فرنسا اعداء الملكية والكنيسة بغية ارجاع السلطة للملك والكهنة على ان المخالفين تحينوا الفرص لغاية ان يزدادوا بسطة بما يكسبون من غلبة فرنسا أو كما قال فرنسوا الثاني امبراطور النمسا لتعويض كل الضرر الذي لنا كل الحق بطلبه. وكانت كل واحدة تسعى لافتتاح احدى المقاطعات والقيام فيها وهنا موضع ضعف ذلك الاتحاد — وكانت قوة الخصمين غير متساوية فكانت الجنود الفرنساوية غير منتظمة وقد نزح عن البلاد اثر الثورة معظم قواده القدماء ولم يكن لهم وقت كاف لايجاد غيرهم ولم يكن قد حان يومئذ للمتطوعين ان يصيروا جنوداً يصلحون للقتال. فظل الفرنساويون خلال الثمانية أو العشرة الشهور الاولى سنة ١٧٩٢ ينهزمون مرتدين حتى التخوم . على ان جنود المتحالفين عوضاً عن يزحفوا جمعاً واحداً أو متفرقين الى باريز تأخروا في الولايات يريدون اخضاع ما رغبوا في احرازه منها . وكان كبار القادة قد اعتادوا الحركات الفنية فلم يرغبوا في التقديم الى الامام قبل ان يحتلوا كل النقط الحربية ولذلك شرعوا يقيمون على حصار الاماكن المنيعة

وبهذا التأخر تمكن الفرنساويون من تنظيم شؤونهم تنظيماً حملهم على اتخاذ خطة الهجوم قبل اواخر سنة ١٧٩٣ . وكانت وقائع سنة ١٧٩٤ فاصلة اذ ارتد الجيش النمساوي عن البلجيك وانسحب الجيش البروسياني من ساحة القتال

وفي سنة ١٧٩٥ عقد الصلح مع بروسيا وعقد مع النمسا سنة ١٧٩٧

الجيش الفرنساوي : ان الثورة ضعضعت نظام الجيش الفرنساوي اذ على اثرها نزح من البلاد معظم القادة لانهم من الاشراف و يوم اشهرت فرنسا الحرب على الدول المتحالفة شرعت حكومتها في تكتيب جيشها من المتطوعين بالدعوة الوطنية شأنها سنة ١٧٩١ واعلن مجلس التشريع ان الوطن في خطر عظيم وانشئت مكاتب جمة لاكتتاب المتطوعين منها ثمانية في باريز في المحال العمومية حيث كان يتولاها عامل يتسم بشارة مثلثة الالوان و يجلس على دكة عالية لتقييد اسماء المتجندين . وكان المتطوعون يتخيرون قادتهم من تلقاء انفسهم وكانت الحكومة تأمل ان تستعيض عن المستاجرة التي تتخذ التجند مهنة بجنود وطنيين يدافعون بغيرة الواجب الوطني الا ان عدد المتطوعين سنة ١٧٩٢ لم يفِ بحاجة الجيش . والحرب التي نشبت سنة ١٧٩٢ قام بها الجند القديم ومتطوعة سنة ١٧٩١

وسنة ١٧٩٣ اتخذ الكونفانسيون طريقة الخدمة الاجبارية (ان كل الفرنساويين تحت الطلب الدائم للخدمة العسكرية حتى يجلى الاعداء عن ارض الجمهورية) وصدر الامر يومئذٍ بحشد ثلثمائة الف رجل تتمة للعدد اللازم لما واتم الديركتوار العمل بان كان يرصد مائة الف رجل في السنة واختلط المتجندون سنة ١٧٩٣ مع الجند القديم متطوعة سنتي ١٧٩١—١٧٩٢ والغى كارنو وديبوا كرانه الفرق القديمة واتخذا الفرق المختلطة L'amalgame بحيث صار كل الجند جيشاً واحداً لباسهُ ازرق اللون وجعل فرقهُ نصف كتائب كلها على طرز واحد الا انها ميزت احداها عن الاخرى بعدد خصَّ بها جرى على الترتيب كالفرقة الاولى والثانية الخ

وكانت عدة فرق الجيش قبلاً مائة وثماني وتسعين فرقة (طابوراً) من الجند النظامي وسبعمائة وخمساً وعشرين فرقة من المتطوعة فجعلت على النظام الجديد مائة وثماني وتسعين كتيبة نصفية من الجند النظامي وخمس عشرة كتيبة نصفية من المشاة الخفاف . على ان نابوليون اعاد اسم الفرق ولكنهُ ابقى الترتيب المحدث ولم يزل جارياً حتى اليوم . وجعلوا سنة ١٧٩٣ قادة الجيش من الضباط الثانويين وكان الارتقاء في درجات الجندية سريعاً جداً حتى ان هوش ذهب الى الحرب جاويشاً فعاد منها قائداً (جنرال)

فاستفادت فرنسا من حروب الثورة انها تمكنت بصرف قليل ان تؤلف جيشاً باسلاً سعى افراده باجهاد انفسهم لينالوا ماتطمح اليه نفوسهم من النجاح والتقدم

ولم يكن بوسع الجنود المتكتبة فوراً اتقان الحركات الحربية مثل الجنود القديمة ولذلك اتخذت من عندها منهجاً حربياً جديداً فكانت تقاتل على غير نظام معروف تارة تطلق النار متفرقة وآونة تتجمع وتهجم على العدو صارخة « عليهم بالحراب » واصبح القادة

لا يؤخرون ثمة زحفهم للقيام على حصار المواضع المنيعة وانما يقومون بالحرب كأنها الغارة الشعواء

ولم تكن الحكومة تمد الجيش بحاجاته من المال والقوت واللباس فقد كان يعوزهم كل ذلك ابان المواقع الاولى حتى ان الذين منهم اكتسحوا هولاندا ودوخوها في قلب الشتاء كانوا حفاة ومعظمهم يحتذون القباقيب وقد عمل كبار القادة بعادات تلك الايام في تموين الجيش بما كانوا يضربونه على اهل البلاد المكتسحة واستعاض القادة في ايطاليا عما يرمى على الاهلين بسلبهم ونهبهم وقد قال بونابرت في منشوره المشهور سنة ١٧٩٦ : « ايها الجند انتم عراة لاتقتاتون الا بلغة و يحق لكم على الحكومة الشيء الكثير غير انها يتعذر عليها ان تؤديكم شيئًا وها اني اسير بكم الى اخصب سهول العالم فيصير في حوزتكم وتحت امرتكم اوسع الاقاليم واكبر المدائن فتتمتعون فيها بالسعادة والمجد والغنى » — وكان القادة متى احتلوا مدينة ضربوا على اهلها الجزية وانتزعوا كنوز الكنائس وذخائرها وما جمع الملوك فيها من الآنية الفاخرة وتحف الصناعات ومن جملة ما كانوا يشترطون ان يقدموا لهم الصور النفيسة وبهذه الواسطة ملأ بونابرت متاحف باريز بالرسوم التي استحوذ عليها في فتوحه البلدان الاجنبية . وجملة ما اخذ الجيش من سنة ١٧٩٥ الى سنة ١٧٩٨ ما يقرب من قيمة المليارين

انتشار مبدإ الثورة : لم تكن الثورة الفرنساوية وطنية صرفًا مقتصرة على الشعب الفرنساوي كما كانت الثورة في انكلترا ولكنها نشأت عن مبادىء عامة واتخذت في سيرها نهج حركة دينية فان حقوق الانسان التي عليها مجلس التشريع لاتختص بالفرنساويين دون سواهم بل هي حقوق كل الناس وما كان الثوار بالراغبين في حصر اصلاحهم بفرنسا على مبادىء سنة ١٧٨٩ وانما رغبوا ان يحدثوا انقلابًا في كل اوربا بحيث يدكون المظالم دكًا ويشيدون مملكة العدل والمساواة على آثارها في كل مكان

وكانوا يأملون يومئذ ان تتحدي الشعوب الاخرى مثال الفرنساوي وقد كان كثيرون من الرجال المستنيرين لاسيما في المانيا يعجبون بالثورة و يستصوبونها . ولما اضطرمت نار الحرب اعلنت انها لا تقاتل الشعب وانما تحارب الظلمة الغاشمين (١) وكانت الجنود اذا دخلت

(١) ان هذا المبدأ هو الذي اوحى بمعنى هذين البيتين في المارسيلياز : ايها الجند انكم كما : بواسل فاضربوا ضربانكم واثبتوا فيها وابقوا على تلك الضحية التعسة التي شكت السلاح ضدكم بالرغم عنها

ارض الاعداء اعلن قادتها انهم اتوا لتخليص الشعب من عسف الجائرين فحيث حلوا حلت الثورة . وابطلوا حقوق الاقطاع والامتيازات وخلعوا كل السلطات وجمعوا الاهلين وحرضوهم على انتخاب بلدياتهم وقضاتهم وجعلوهم ينظمون حكومة جديدة على نهج الحكومة في فرنسا . ومن ثم يعاملون عامة الناس معاملة الاصدقاء . أما الممتازون والكهنة والوجهاء و بالاجمال كل الارستوكرات على ما يسميهم الجاكوبيون فانهم كانوا يعادونهم . وقد كتب كارنو « يجب ان تبهظوا بالجزية كاهل الاغنياء فقط فيرى الشعب انَّا محرروه »

عهدتا بال وكامبو فورميو : انما اشهرت الحرب لاخضاع الجمهورية الفرنساوية الا انه اتضح للغزاة منذ سنة ١٧٩٤ انه يتعذر عليهم بلوغ هذه الامنية واحست بعض الدول المتحالفة انهما انما تحاول امرًا جسيمًا لا فائدة منه ترجى لها فكرهن الاستمرار عليها وطلبن الصلح وكانت بروسيا السابقة الى ذلك لانها لم تكن لتجني من الحرب نفعًا وانما اندفعت اليها برغبة الملك . وفي آخر الامر غلب الساسة على رأيه وحملوه على الرجوع الى سياسة فردريك الكبير الا وهي المحافظة على السلم وابقاء النفوذ البروسياني في الممالك الالمانية الشمالية

على ان سويسرا كانت البلاد الوحيدة التي استمرت على علائقها السياسية مع الجمهورية الفرنساوية فصدر الامر الى بارتلماي معتمد فرنسا في سويسرا ان يفتتح المخابرات بالصلح مع معتمد بروسيا هنالك فتم الاتفاق وعقدت المعاهدة في بال من سويسرا سنة ١٧٩٥

فتخلى ملك بروسيا عما يملكه في العدوة اليسرى من نهر الرين ووعدته فرنسا ان تعوضه عنها في الضفة اليمنى الا ان العهدة لاتشير قط الى الواسطة التي بها يتسنى لفرنسا الوفاء بعهدها وانما قصدوا عدم التصريح في العهدة مع معرفة الفريقين ان العِوَض يكون من بلاد الامراء الاكليركيين فكانت بروسيا قدوة لغيرها في هدم الترتيب الامبراطوري القديم وفي التخلي لفرنسا عن قطعة من المانيا

وفوق ذلك جعلت المعاهدة حدًّا فاصلاً للتخوم وكان الاتفاق ان كل الممالك الالمانية الواقعة الى شمالي ذلك التخم ترتبط بالصلح مع فرنسا وكأن معاهدة بال شطرت المانيا شطرين احدهما المانيا الجنوبية وهي متحدة مع النمسا وقد ظلت محاربة لفرنسا وثانيهما المانيا الشمالية وهي على الحياد بضمانة بروسيا

وامضت اسبانيا عهدة الصلح في بال

وتخلصت فرنسا من الحرب في الشمال ومع اسبانيا وصوبت كل قواها نحو النمسا

فهاجمتها دفعة واحدة في المانيا الجنوبية وفي (سنة ١٧٩٦) الا انها ارتدت في هجومها على المانيا ونجحت في هجومها على ايطاليا وطرد بونبارت الجيش النمساوي واحتل كل الشمال من ايطاليا وزحف على النمسا من طريق الالب وسار على فينا فاضطرت النمسا ان تطلب الصلح فامضاه بونبارت ولم يحفل باوامر الديركتوار وكان ذلك صلح كمبو فورميو سنة ١٧٩٧ Compo-Formio

وتخلى الامبراطور عن البلجيك وبلاد ميلان وقد عاضهُ عنهما بونبارت بما اكتسحه من الجيوش الفرنساوية من ارض جمهورية فنيسيا واحتله رغم احتجاج مجلس شيوخها

وبما ان الامبراطور رئيس الممالك الالمانية اعترف لفرنسا بالحدود المعروفة من جمهوريتها يعني بذلك انه اعترف لها بانضمام الضفة اليسرى من الرين اليها ووعد ان يجمع مجلساً من الممالك الالمانية يحملهُ على القبول بالتخوم الجديدة وعلى البحث في التعويض من الضفة اليمنى فكان الامبراطور تمهد بخراب نظام سلطنته

وقصارى القول انه عملاً بعهده استدعى جميع السلطنة الالمانية لعقد مؤتمر في راستادت للبحث في سلم الامبراطورية فاجتمع المؤتمر واسلت اليه فرنسا نوابها للبحث في الصلح الا انهُ قبل ان تنتهي المخابرات اشهرت النمسا الحرب وعقدت حلفة مع انكلترا وقيصر روسيا الجديد سنة ١٧٩٨

تاريخ الحدود الفرنسا : ان ارض فرنسا باكتسابها دوكية اللورين صارت سنة ١٧٨٩ كانها مثلما كانت في القرن التاسع عشر (بما فيه ماحدث من التغييرات من سنة ١٧٦٠ — ١٨٧١ (١)) وحسب سياسو فرنسا يومئذ ان اتساعها كافٍ فعدلوا عن السعي في زيادته وكان من رأيهم ان مصلحة فرنسا تقوم بالمحافظة على السلام في اوربا وذلك بمساعدة الدول الصغرى ازاء الدول الكبرى وكان على تخوم فرنسا يومئذ نطاق من الدول الصغرى (كهولاندا النمساوية وثلاث بلاد لمنتخبين اكليريكيين على العدوة اليسرى من نهر الرين والبالاتنيان ودوقية ديباد وسويسرا ومملكة سردينيا) تلك كانت لها غلقاً وسياجاً من حملات الدول الكبرى

على ان حروب الثورة قضت على تلك السياسة السلمية الا ترى الجنود الفرنساوية منذ

(١) كانت فرنسا استولت سنة ١٧٨٩ على بضع معاقل متفرقة (في الشمال فيليب فيل وماربنو برج وفي الشرق لاند وسارلويس) ثم انتزعت منها سنة ١٨١٥

سنة ١٧٩٢ قد فتحت جميع البلاد المجاورة مثل سافوا وكونتية نيس والضفة اليسرى من الرين والبلجيك حتى الرين والالب واحتلتها من غير مقاومة تقريباً لان حكومات تلك البلاد كانت مختلة النظام فلم تقوَ على الدفاع واما الاهلون فقد استقبلوا الفرنساويين بكل ترحاب لانهم جاؤوهم كمنقذين يجهرون بقصدهم الا وهو ازالة المظالم

وقد قامت في فرنسا يومئذ مسألة جديدة هي ماذا تعمل الحكومة بالبلاد التي احتلتها جيوشها فقررت حكومة الكونفانسيون استشارة سكان الاقطار المغلوبة في ذلك لان لهم الحق وحدهم في تدبير شؤونهم فحملوهم على الاقتراع مستثنين من حكمه من اشربوا روح الاريستوكراتية وقد تقلدوا الوظائف على النهج القديم فتمت استشارة الشعوب بواسطة عمال فرنساويين واذا من رأيهم الانضمام بلادهم الى فرنسا فضمت جميعها حتى الرين والالب سنة ١٧٩٢

غير ان المتحالفين استردوا هذه الفتوحات وشيكاً ثم عاد الجيش الفرنساوي فاحتلها سنة ١٧٩٤ وعادت فرنسا تفكر في شأن البلاد المحتلة ونشأ في الحكومة حينئذ حزبان حزب يرجع بارائه الى اتباع سياسة لويس السادس عشر الذي كان يرى ان فرنسا متسعة اتساعاً كافياً ولذلك كان من مبدإ هذا الحزب نشر السلام والتخلي السريع عن البلجيك والضفة اليسرى من الرين وهذا الحزب يعرف (بالحدود القديمة) وكان من قوله ان فرنسا ضعفت وانتهكت من الحرب وان الفرنساويين يتمنون الصلح واما سكان البلاد المفتتحة فانهم منذ غلبوا على امرهم شرع الجنود والعمال الفرنساويون يسلبونهم حتى استنزفوا مادة ثروتهم فانقبضت نفوسهم وصاروا لا يريدون الانضمام الى فرنسا . واما الحزب الثاني فقد اتخذ سياسة الفتوح متابعين رشيليو ولويس الرابع عشر فكانوا يقولون ان فرنسا يجب ان تمتد حتى حدودها الطبيعية الا وهي الرين والالب والبيرانه وانها يجب عليها الاستمرار على الحرب حتى تستولي عليهن جميعاً

فكان القول للحزب الحربي الراغب في الامتداد ولما لم يكن لفرنسا من المال ما تستطيع به مداومة القتال جعلت تنفق على جيشها مال البلاد المغلوبة فكتبت الحكومة الى قائد جيش الرين ما يأتي : « ان من القواعد الاساسية في الحرب ان تكون نفقات الجيش من مال الاعداء فيجب عليك والحالة هذه ان تصرف ما في وسعك في سبيل تمرين الجيش » على ان هذه الطريقة لم تحبب الفرنساويين الى اهل البلاد المفتتحة ولم ترَ الحكومة لزوماً لاستشارة الاهلين في ضمهم ثانية اليها فان الحرب لها الحكم الوحيد في

نصيب البلاد
وهكذا ضمت فرنسا اليها كل ما وجدته على حدود الرين والالب واخذت من النمسا بلاد البلجيك — ومن هولاندا القطر الواقع جنوبي الرين وهو ما كانت تمتلكه منذ القرن السابع عشر — وانتزعت من امراء الالمان كل املاكهم على ضفة الرين اليسرى — ومن سويسرا مدينة جنيف — ومن سردينيا سافوا وكونتية نيس وقد امتلكت كل هذه الغنائم بصورة قانونية (١) ثم صادقت عليها المعاهدات

ولقد كانت الحدود القديمة مشوشة غير طبيعية عقيب فتوحات ملوك فرنسا فصارت يومئذ تخوماً طبيعية بسيطة وحسبك انها البيرنيه والالب والجورا والرين

الفصل السابع

حكومة القناصل والامبراطورية

دستور السنة الثامنة : — وضع الكونفانسيون دستور السنة الثالثة ولم يعمل به الا اربع سنين ونصف سنة (من سنة ١٧٩٥) الى سنة ١٧٩٩ وكانت الغاية من وضعه اطالة زمن الجمهورية فجعلت السلطة في ايدي رجال الكونفانسيون الا انه كان كلما تجدد الانتخاب ينتخب للمجلسين عوض الذين انتهت مدتهم اعضاء من اشياع الملكية او ممن كان مناوئاً للحكومة واذ شعرت حكومة الديركتوار ان الاغلبية صارت من مضاديها تخلصت من النواب المعادين فقلبت المجلسين مستعينة بفرقة أرسلت من الجيش النازل في ايطاليا ومنذ ذلك الحين لم يعد احدٌ يعتد بالدستور واخذ الحزبان بالسعي في احراز السلطة او في البقاء فيها بالغاء الانتخاب الغاء غير شرعي

وكانت الامة غير راضية من بقاء الحرب ومن حالة الطرقات وقيام اللصوص فيها ومن الافلاس واضطهاد الكهنة لذلك اصبحت قليلة الرغبة في الجمهورية غير انها كانت تخاف عودة البوربون ورجوعهم بها الى النظام القديم ولم يكن باقياً من مريدي الجمهورية الا

(١) اما جنيف فان حكومتها طلبت الانضمام الى فرنسا الا ان المذاكرة التي جرت في ذلك انما تمت والمذاكرون محاطون بشرذمة من الجند الفرنساوي

الجيش الذي كان يقاتل في سبيلها وهو كان اكثر طواعية لكبار قادته مما هو للحكومة المدنية فشعر ساسة فرنسا انه لم يعد في وسع حكومة الديركتوار البقاء طويلاً فسعوا لان يعيدوا رئاسة السلطة الى واحد من كبار القادة وكان بونابرت المشهور بمواقعه في ايطاليا ومصر قد رجع الى باريز وتواطأ مع معظم رجال الديركتوار ومجلس الشيوخ على طرد مجلس الخمسمئة بقوة جنوده فتمّ ذلك في ١٨ بروميير سنة ١٧٩٩

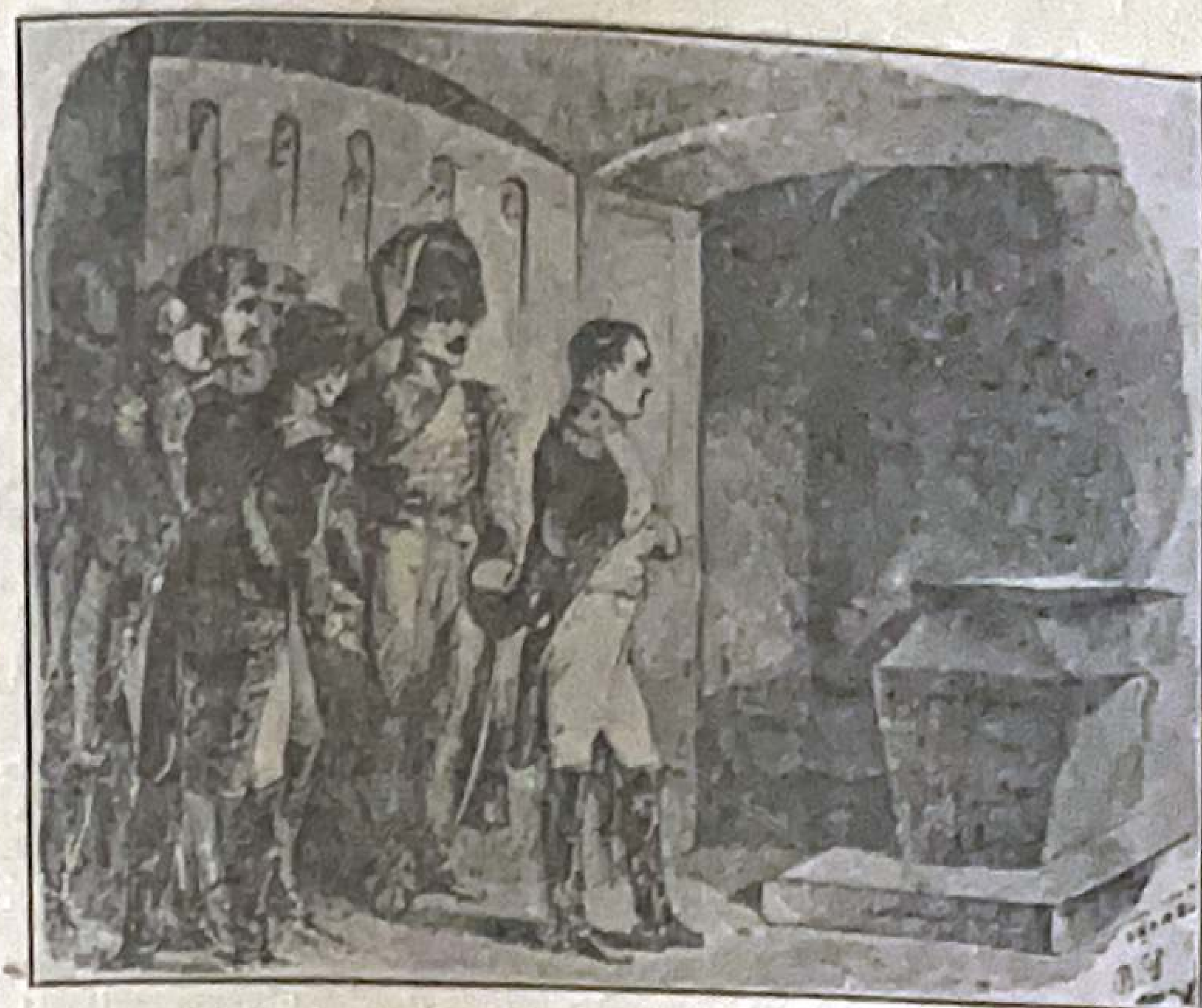
واذ الغي دستور السنة الثالثة عهد الى لجنة مخصوصة وضع دستور جديد فوضعت دستور السنة الثامنة وكان منطبقاً على خواطر بونابارت فاصبحت فرنسا جمهورية بالاسم الا انه عهد بالسلطة التنفيذية للقنصل الاول المنتخب لعشر سنين والموكول لامره تعيين كل العمال والنهوض بقيادة كل الجيش وعقد عهود الصلح والتحالف واقاموا لمعاونته قنصلين آخرين ليس لهما اقل سلطة كأن القنصل الاول صار ملكاً مطلقاً

وظلت السلطة التشريعية مستقلة عملاً بالسنة المشروعة سنة ١٧٨٩ فان سايس Sieyès الذي كان يحب الاعمال المشتركة قسم العمل في وضع القوانين على اربعة مجالس فمجلس الدولة يعد موضوع القانون ومجلس الجدل Tribunat يبحث فيه (١) فيعي مجلس التشريع ذلك البحث وهو ساكت ولكنه يقترع عليه ثم ينظر فيه مجلس الشيوخ فينفذه اذا لم يجده منطبقاً على الدستور وكان القناصل يعينون مجلس الدولة والشيوخ واما مجلسا الجدل والتشريع فيختار القناصل اعضاءهما من جداول تقدم لهم بأسماء الاعضاء لمجلسي الاعيان الذين يشير اليهم المنتخبون بانتخابات مترادفة

وكان يظهر للناس في باديء الامر ان السلطة مجزأة كثيراً فالسلطة التنفيذية بايدي القنصل الاول وزميليه الآخرين والسلطة التشريعية من خصائص القناصل والمجالس الاربعة المتشرعة لكن القنصلين المعينين لم يكن مقامهما الا صورة وكان القنصل الاول هو الذي يعين اعضاء مجلسي الشورى والشيوخ وكان الشيوخ هم الذين يقررون ميزانية الدولة ويأمرون بحشد الجند وكان لهم فوق ذلك ان يفسروا الدستور تفسيراً يقوم مقام القوانين حتى ان مجلس الجدال والتشريع اللذين يظهر كان اعضاؤهما يتولون بالانتخاب

(١) اسم هذه المجلس الماخوذ عن القانون الروماني وهو فيه اسم منصب التريبون اي المدافع عن الشعب وللمجلس المقام على اسمه في فرنسا يقصد به البحث في القانون الموضوع بحضور اعضاء مجلس التشريع — للمترجم

انما بتألفان باختيار الحكومة وبالاجمال لم تكن كل هذه الاعمال المشوّشة الا لاخفاء السلطة المطلقة التي كانت للقنصل الاول



بونابرت عند قبر فريدريك

وكان مظهر بونابرت كانه نائب الامة الفرنساوية وجهر بان السلطة للامة وحدها وكان كلما بدّل في الدستور يعرض التبديل على المنتخبين للتصديق غير ان ذلك لم يكن الا مظاهر وسمية لان بونابرت صار السيد المطلق في فرنسا منذ سنة ١٨٠٠ وفي ما مرّ من البيان زبدة دستور السنة الثامنة

الامبراطور : وقد استمرّت حكومة القناصل اربع سنين ذلك انه من سنة ١٨٠٢ تعين بونابرت قنصلاً لمدى الحياة الا ان الرجل لم يكن يقنع بسلطة القنصل ولقبه فقط انما لم يجسر في بادىء الامر على قلب الهيئة الجمهورية لاعتقاده انها بغية الامة ومرمى غاياتها سيما وان معظم كبار العمال كانوا من رجال الكونفانسيون القدماء شديدي التمسك بالجمهورية حتى بتقاليدها كالبقاء على استعمال التقويم الجمهوري واطلاق لقب المواطن Citoyen على بعضهم

غير انه بعد قتل الدوك دانجين سنة ١٨٠٣ رأى نابوليون ان يجعل سلطته وراثية من بعده احتياطاً لمساعي القتلة الذين ربما يحاولون اغتياله واراد التحلي بلقب فخيم يخوله مساواة ملوك اوروبا فعرض عليه (السنا) مجلس الشيوخ لقب امبراطور وقروه ارثاً في

اسرته فكان ذلك دستور سنة ١٨٠٤ ومع ذلك استمر اسم الجمهورية الفرنساوية حتى سنة ١٨٠٨ ومن ثم استبدل باسم الامبراطورية

اما ترتيب السنة الثامنة فتدرج الى البساطة تدريجاً اذ ان بونابرت رأى من سنة ١٨٠٢ ان بعض اعضاء مجلس الجدل يتكلمون بملء الحرية فعزلهم ثم اتصل الى الغاء ذلك المجلس برمته بضمه الى مجلس التشريع سنة ١٨٠٧ غير ان التشريع اصبح من خصائص مجلس الشيوخ شيئاً فشيئاً وكانت القضايا التي لا يجرأ الامبراطور على اجرائها باوامره الخصوصية كان يعلنها تحت اسم قرارات مجلس الشيوخ

واراد نابليون ان يجعل للسلطنة الجديدة ابهة ظاهرة تشابه فخفخة السلطنات القديمة فتخلى عن مناحي الجمهورية وعاد فانتحل مناهج الممالك الاوروبية واتخذ بلاطاً فخماً واحاط امرأته بنساء الشرف وشرع يقيم الحفلات الباهرة ويتمسك بالبلاط الفرنساوي القديم واستحضر مدام كامبان التي استخدمتها ماري انطوانت من قبل وأمر ان يكتب عنها ما تعلمه من عادات بلاط لويس السادس عشر . واذ حضر حفلة في المانيا شهد فيها رجال البلاط يمرون امام ملك بافاريا ويظهرون له احترامهم رغب ان يجري مثل ذلك في قصره وفي مدى اقامته في قصر فونتانبلو سنّ شرعة هي انه يجب على كل الامراء واصحاب المناصب ان يعينوا يوماً للاستقبال كل واحد منهم في دوره ثم رتب هذا الاستقبال ترتيباً منتسقاً بحيث تكون ايام معينة للصيد تحضره النساء بزي معين . وكان يجيء البلاط كبار القادة مع نسائهم وكلهم من ابناء الشعب تأخذهم الدهشة والاعجاب من مفاخر تلك الحفلات وفي ذلك تقول مادام دي رميزا احدى نساء الشرف عند الامبراطورة يومئذ « اصبح من الضروري ان يعاد كل شيء الى ما كان فان حرية الثورة ابعدت من البلاد كل اداب الاجتماعات فبات الناس لا يعرفون كيف يسلمون متى اقتربوا بعضهم من بعض حتى انا نحن نساء القصر وجدنا انفسنا قد اخللنا باداب تهذيبنا بما أوجب علينا من تأدية الاحترام فاستدعت كل واحدة منا المسمى دسبريو الذي كان يعلم الرقص للملكة لكي يلقي علينا دروساً بما يجب »

ولم يكن رجال الحاشية من العارفين بالاصطلاحات الخبيرين بها الا رجال القصر الملكي القديم الذين عادوا من المهاجرة ورضوا ان يقيموا في البلاط الامبراطوري وكان نابليون قد جاء بهم ليكونوا حجاباً ونساء شرف وقال انه ليس ثمت من يصلح للخدمة غير هؤلاء القوم

ومن ثم رأي ان السلطنة لاتقوم من غير نبلاء فجعل للامبراطورية نبلاءها واستعاد الالقاب القديمة مثل برنس ودوك وكونت وبارون ضارباً صفحاً عن لقب الماركيز لان الشاعر موليير هزاء به (١) واعاد ايضاً عادة انتقال الملك بالارث في البيوتات القديمة الى البكور من البنين ومنح القاب الشرف الى كبار القادة وعظماء العمال والعلماء من اعضاء الانستيتو l'institut وخصص الدوكات فوق ذلك بالهبات تمنح لهم من المدائن الايطالية التي اخذوا منها القاب اماراتهم كالدوك دي روفيكو ودي تريفس ودي فالتر الى غير ذلك وجعل هذه الالقاب وراثية مع انه كان يدعي ان امبراطوريته كانت ديموقراطية اذ قال « اني اقت الملكية بايجاد الارث ولكني بقيت في الثورة لان النبالة التي وضعتها ليست بمحصورة في فريق من الناس اصلاً والالقاب التى امنحها هي ضرب من المفاخر المدنية التى ينالها من يستحقها باعماله »

نشأة نابوليون والحكومة الداخلية : قال نابليون لما انتهت اليه السلطة الكبرى « ان الثورة قامت على مبادىء بدأ القوم بها وقد انتهت » وقال ايضاً « قد انتهينا من اقاصيص الثورة فيجب علينا عند الابتداء بالتاريخ ان لا نرى من المبادىء الا الحقيقي والممكن اتباعه هنا » ومنذ حينئذ تظاهر بانهُ عامل بمبادىء الثورة ولا يبرح قائماً بها الا ان الثورة كانت قد تضعضعت احوالها فسعى نابوليون في لم شعثها

فشرع باتخاذ وسائل الاصلاح العاجل وكانت حكومة الديركتوار قد وجدت فرانسا رازحةً تحت اعباء الخلل الناتج عن حروبها الاهلية والخارجية فما وجدت للاصلاح سبيلاً ذلك انها وجدت اولاً ان ميزانية الحكومة ناقصة والبلاد غارقة في عباب القراطيس المالية وان الناس لا يؤدون الضرائب الا من تلك القراطيس او لا يدفعون منها شيئاً فاضطرت ان تسدد النفقات بما تصدره من القراطيس فكان مقدار هذه الاوراق يزداد على مر الايام حتى بلغت قيمتها اربعين مليارًا من الفرنكات. وكانت قيمة القرطاس ٢٣٨ فرنكاً بالاسم وفي الحقيقة يساوي فرنكاً واحداً من الفضة. ومن ثم استعاضت حكومة الديركتوار عن هاته القراطيس بسفاتج على املاك الدولة فانتهى بها الحال الى هبوط قيمتها ايضاً ولما لم يكن في الخزينة مال لدفع ربا دينها اعلنت افلاسها واسقطت ثلثي ديونها مبقية عليها الثلث ديناً ثابتاً Consolidé الا انها لم تستطع تادية هذا الثلث ايضاً فاضاعت

(١) ومع ذلك طلب كثيرون من بيوتات الشرف الامبراطوري زمن التجديد الملكي لقب الماركيز اخفاء لاصلهم وسعياً بالامتزاج مع البيوتات القديمة النبيلة

من جراء ذلك الثقة المالية بفرنسا وضاقت عليها الموارد اذ لم يبق لها منها ما تسدد به نفقاتها الا المال المضروب على البلدان المفتوحة ثانياً كان الخلل قد تطرق الى ادارة الشرطة (البوليس) فرتبت حكومة الديركتوار في باريز مصلحة الحراس ليراقبوا المتهمين بنزعتهم الملكية الا ان الطرق ظلت خلوًا من الشرطة فتألفت عصابات من الاشقياء ونفر من الجند واللصوص وقطاع الطرق وجعلوا يعترضون المركبات الحوافل ثالثًا كان اضطهاد النبلاء والاكليروس سنة متبعة على ان حكومة الديركتوار لم تحظر المذهب الكاثوليكي وانما ظلت تنفي الكهنة وتطلق الرصاص على من يعود من المهاجرين الى البلاد

فاعاد بونابارت النظام للمالية بان رتب شؤون الخزينة وشرع يختار امناء الصناديق من ذوي الاقتدار المالي ويلزمهم تسليف الاموال للخزينة حين احتياجها فتوفرت بذلك نقود الحكومة وصار بامكانها اداء ربا دينها فابطل بما عمل اصدار القراطيس المالية — وتأميناً للسابلة ارصد في الطرق بعض شراذم من الجند فقطعوا دابر اللصوص باطلاق الرصاص على بعضهم ومن ثم اشتغلوا في ترميم الطرق المشعثة — وتسكيناً لخواطر الكاثوليك المهتاجة منح الكهنة حرية الرجوع الى فرنسا واقامة شعائر مذهبهم فيها فسكنت على اثر ذلك ثائرة اضطهاد المهاجرين لكنها لم تنقطع تماماً فاصدروا ايضاً سنته ١٨٠٧ جدولا باسماء الجالية

وقد امر نابوليون بهذه الاصلاحات منذ سنته الاولى وشرع في ترميم ماتشعث وظل متابعاً ترميمه الى سنة ١٨١١ ذلك انه جدد كل مناهج فرنسا ومناحيها فكان المشروع يتهيأ في ديوان الدولة في لجان تقام خصوصاً لوضعه الا ان بونبارت لم يكن يثق باحد وانما كان يتولى اعداد ما يريد من الاصلاح بنفسه وهكذا وضعت كل سنن البلاد على ما ارادها بونبارت حيث جمع فيها بين المجالس التي اقامتها الثورة وبين شيء من تقاليد النظام القديم وشيء من السنن التي ولدتها بنات افكاره

وظلت باريز بنظامه حكومة مركزية يرجع الى امرها وظلت كل مصلحة وشأنها تحت ادارة وزير يديرها كما في سنة ١٧٨٩ واوجد وزارة للشرطة (البوليس) واسترجع ديوان الدولة السلطة التي كانت له قبل سنة ١٧٨٩ وفوض اليه اعداد مشاريع الحكومة وسننها والنظر في الشكاوي التي يقيمها الافراد على الحكومة او على العمال

وابقى نابليون تقسيم البلاد الى ولايات وايالات ونواحي كما قسمها مجلس التشريع ولكنه لم يرغب في ابقاء الادارة لمجالس انتخابية على ما كان مبداء رجال الثورة قائلاً « ان العمل يقوم به شخص واحد فقط » فكانه يرجع الى طريقة النظام القديم عن النظار وجعل على كل

قسم من البلاد عاملاً بوظفه و يعزله على خاطره. فالوالي للولايات ونائب الوالي للايالة والمير maire للقضاء واحتفظ صورةً على مجلس عام يكون لدى الوالي وعلى مجلس ايالة يكون لدى نائبه الا ان هذه المجالس لم يتجدد اعضاؤها بالانتخاب ولم يبق لها شيء من السلطة الا مجالس البلدية لدى المير فتركه انتخابياً وابقى نابوليون لنفسه الادارة العامة مع النظر في المصالح الخصوصية الا انه جدد ترتيبها

واما في القضاء فابقى قضاة الصلح ومحاكم الايالات والهيئة الاتهامية والحكمين للجزاء (الجوري) في الولايات ومحكمة النقض والابرام الذي سنه مجلس التشريع واخذ من النظام القديم مبدأ المحاكم الاستئنافية التي من خصائصها اعادة النظر على الاحكام الصادرة من المحاكم الابتدائية ولم يكن يرغب في القضاة المنتخبين بل رجع الى جعل القضاة لا يعزلون كما كان قبل سنة ١٧٨٩ وارجع كل المستخدمين الذين الغت الثورة مصالحهم كوزارة النافعة (مع الرجوع الى الاسماء القديمة كمدعين ونواب) وجماعة المحامين ووكلاء الدعاوي والكتاب ومحرري المقاولات ومنح جماعات رجال القضاء نفوذاً لم يعهدوه من قبل حيث لم يبق ثمت صنوف النظام القديم الذي كان يناظرهم على ان القضاء بقي على شأنه الموضوع زمن الثورة على ان يكون مجاناً وطريقة التداعي جهرية ولم يجسر نابليون على الغاء المحلفين (الجوري)

وارجع نابليون القضاء الاداري لديوان الدولة ولمجلس المحاسبات وجعل محاكمة العمال محصورة في ديوان الدولة واقام في كل ولاية مجلساً اسمه مجلس الولاية

وشرع ان يعين جباة عموميين يرأسون جباة النواحي وان يتولى عمال الحكومة توزيع الضرائب فلم يبق ذلك من خصائص المجالس الانتخابية كما كان بعهد الثورة

وابقى الضرائب المقررة كما كانت (مثل الرسوم العقارية والمنقولات والاشخاص والتمتعات الموضوعة من مجلس التشريع والرسوم على الابواب والنوافذ التي وضعتها حكومة الديركتوار) واقام جباة لجمع الضرائب وامر ان تقوَّم العقارات ليضرب للمال بنسبة اثمانها وابقى ايضاً الكمارك المرتبة على التخوم . ولما كان دخل هذه الضرائب لا يفي بالحاجة رجع الى ما كان في النظام القديم مما كان يسمى الضرائب غير المقررة فوضع الرسوم على المشروبات تحت اسم الرسوم المتحدة ثم رسم الملح واخيراً وضع احتكار الدخان (سنة ١٨١٠) فرجعت الثقة بمالية فرنسا بعد ان تضعضعت في زمن الثورة وقد ابقوا على الدفتر الكبير للديون العمومية الذي انشأه الكونفانسيون ولكنه الغى القراطيس المالية التي وضعتها الثورة فهبطت اثمانها

ولكي يعوض عنها بقراطيس موثوقة عدل الى طريقة خبروها في زمن الملكية الا وهي انشاء بنك فرنسا فمنحه الامتياز باصدار قراطيس بنكية على شريطة ان يزدخر في صندوقه قدرًا من النقود يكفي لضمانة القراطيس التي يصدرها فكان هذا البنك من منشآت الدولة

أما النظام العسكري فظلَّ على النسق الذي وضعته حكومة الثورة مع الاحتفاظ على تقسيمها الى انصاف كتائب ولم يأخذوا عن الطرز القديم الا اسم الفرقة . وكذلك ظلَّ الارتقاء في مراتب الجندية ينظر فيه الى الاستحقاق والى قدم الخدمة من غير التفات الى الاحساب الا ان نابليون اضاف الى ذلك ايجاد فرقة مختارة عُرفت اولاً بالحرس القنصلي ثم الامبراطوري وجعل الحرس الوطني للمهام الداخلية ـ واما حشد الجيش فاستمرَّ اجبارياً تبعاً لما سن الكونفانسيون وابقى القرعة العسكرية على ما وضعت حكومة الديركتوار إما بسحب القرعة أو بالبدل كما كان الحال في جمع العسكر القديم

واما في مصلحة البوليس فعدل الى النظام القديم اذ اقام عليها رئيساً في باريز وجعل المراقبة على الجرائد والتفتيش على سجون الدولة

واما في المعاملات فابقى الطريقة المترية التي وضعها الكونفانسيون ورجع في اعتبار الشهور والسنين (الروزنامه) الى ما كانت عليه قبل الثورة واراد ان يضع رتبة الفروسية وان يجعلها تعطى لمستحقيها من غير ان تخصص بابناء الاعيان فانشأ وسام اللجيون دونير بحيث يناله كل انسان اشتهر في الحرب أو في الحكومة أو في العلوم والفنون والصنائع وجعله درجات من مثل شيفاليه والاوفسيه والكومندير الى غير ذلك. وعقب ذلك (سنة ١٨٠٦) وضع النبالة الامبراطورية

وكان نابوليون يرغب ايضاً في تنظيم الكنيسة والتعليم والمطبوعات واخضاعها لسلطته

وكانت الحكومة ايام الثورة قد تخلت عن مساعدة الكنيسة فاعاد لها نابليون شأنها القديم اذ عقد اتفاقاً مع البابا سنة ١٨٠٠ (le concordat) واتم الميثاق بما يسمى البنود الاساسية Articles Organiques وهي احكام قررتها الدولة الفرنساوية من تلقاء ذاتها وسلطانها ليس الا واوجبتها على الاكليروس الفرنساوي فادى الميثاق المعقود مع البابا الى اتفاق بين الكنيسة والدولة يحاكي ما رغب فيه مجلس التشريع من قبل وصارت الكنيسة تعتمد على الميثاق المعقود بينها و بين الدولة لا على مؤدى القوانين الفرنساوية فكان ذلك شبيهاً بحالها قبل سنة ١٧٨٩

وظلت الحكومة على شأنها من ذي قبل تسمي المطارنة والبابا يثبتهم بيد ان الكنيسة

تخلت عن املاكها فصارت ملكاً وطنياً فالتزمت ان تعين الرواتب للكهنة كما كان منها بموجب دستور سنة ١٧٩١ غير ان على الكهنة ان يحلفوا اليمين وتقرر ان تبقى حدود الابرشيات مماثلة لحدود الايالات على ان الكثلكة لم تبقَ مذهب الدولة كما كانت قبل سنة ٨٩ وانما اقتصروا على تعريفها بمذهب معظم الشعب الفرنساوي

الا ان هذا جعل الاكليروس الفرنساوي في قبضة نابليون حتى ان البابا تلكأ اولاً في قبول العهدة ولم يرتضِ بها ميثاقاً حتى توعدوه بمحو مابقي من الكثلكة في فرنسا وكان نابليون يعتبر رجال الاكليروس من عمال الحكومة فكان يقول في حديثه عنهم مطارنتي كما كان يقول عن الولاة عمالي . وقدكان يداريهم خلال السنين الاولى من امبراطوريته حتى قال يوماً سنة ١٨٠٤ لاحد رجاله انكم تجهلون ما اتممهُ بواسطة الكهنة الذين عرفت كيف اكتسبهم فان في فرنسا ثلاثين ولاية سكانها في منتهى التدين والتقى فلا اريد مخاصمة البابا حتى لا اضطر لمناوأة تلك القوة . بيد انهُ منذ سنة ١٨٠٨ حين اشتهر نزاعه مع البابا شرع يبذل قصاراهُ في ارغام المطارنة على تأليف مجمع ليكونوا فيهِ من حزبه وجعل يعزل ويقبض على كل من يقاومه منهم وادخل في الجيش كل طلبة اللاهوت الذين احتجوا عليهِ

ولقد اهتمت حكومة الكونفانسيون بامر التعليم كثيراً وسنت له نظاماً جعله فيه على ثلاث مراتب هي الابتدائية والثانوية والعالية ولكنها لم يفسح لها الوقت الا بانشاء بضع مدارس عالية خصوصية وبضع مدارس مركزية للتعليم الثانوي والانستيتو على ان تكون مجمعاً للعلماء ومنتدي لتدريس العلوم العالية الا ان نابليون جمع هذه المراتب وحصرها في مدرسة واحدة واطلق عليها اسم الجامعة L'université (خارجاً بهذا الاسم عن معناه الاصلي) وجعل على رئاستها أستاذاً عظيماً وقسم فرنسا الى اقطار وسماها Académies (اكادمي) وعهدت ادارة كل واحدة منها الى مدير له السلطة على كل الموظفين فيها وأخذ عن الكليات القديمة نظام تعليمها العالي وانشأ مدارس للتعليم الثانوي الذي يرغب فيه الاهلون (واطلق على مدارس المدن الكبرى اسم Lyceés) ورجع الى طريقة المدرسة الداخلية وجعل التلامذة يلبسون ثيابهم الرسمية ويتبعون النظام العسكري . وكان يرغب في اتخاذ الاساتذة من الاعازب شأن المدارس الاكليركية القديمة وان يكونوا تحت امرة الناظر او المراقب وهي اسماء مستعارة من مدارس اليسوعيين فهذه الطريقة عبارة عن مزيج من طريقة الاديار وطريقة الثكنات على انه لم يرتب شيئاً للتعليم الابتدائي وابى ان يحدث مدارس لتعليم النساء اذ قال ان « التعليم العمومي لا يوافقهن

لانهن ما وجدن ليعشن بين الجمهور فان الزواج منتهى غايتهن »

وكانت المطبوعات تتراءى لنابليون ذات قوة مملوءة خطراً ولذلك رغب في تدميرها فشرع في الغاء كل الجرائد الا ثلاث عشرة منها وانشأ في وزارة البوليس ادارة للمطبوعات من خصائصها مراقبة الجرائد متوعداً اصحابها بالغائها اذا خالفته ومُوجباً عليهم ان لاينشروا فيها من المقالات الا ما تجيزه الحكومة ومن ثم آل الامر به ان صار يعين مديري الجرائد بحيث جعلهم كعمال الحكومة . وقد كتب في سنة ١٨٠٤ « ان من حقنا ان نجعل الجرائد باجمعها مخلصة للدولة المالكة وان تناوىء كل من يتوق الى ذكر محامد البوربون وان تضرب صفحاً في كل حين عن نشر الاخبار التي تسيء الحكومة حتى ولا المتحقق منها لان من الحقائق مالا يفضل ليعرفه كل الناس » وكتب في ١٨٠٥ غضون الحرب الى وزير البوليس ما يأتي

« شدد على الجرائد قليلاً ودعها تنشر المقالات الطيبة الاثر وأعلن لكل من مديري الدبا والبيليست ان الوقت ليس ببعيد حين اشعر انه لم يبقَ لي من الجرائد نفع فالغيها كلها ولا ابقي الا على واحدة منها فان ايام الثورة انقضت ولم يبقَ في فرنسا غير حزب واحد فلا ارضى ان تقول جرائدي قولاً او تعمل عملاً يخالف مصالحي »

وفي سنة ١٨٠٧ امر بالقبض على كيراود لانه نشر في الماركير مقالة طعن فيها على حرية الكنيسة الغالية قائلاً « انه لايجب الاهتمام بالكنيسة الا في المواعظ » ثم ان جريدة البيبليست تكلمت عن الكونت دي ليل (لويس الثامن عشر) فقالت « انه لاول مرة تذكر الجريدة هذا الرجل أخلع عنها ادارتها

الاشتراع : كان مجلس التشريع قد وضع قاعدة هي ان يسود في فرنسا شرعة واحدة وقال « انا سنضع قانوناً في احكام المدنية يعم كل المملكة » فلم يتسن لذلك المجلس ان يعمل بالقاعدة التي وضعها لان نواب الولايات الوسطى خافوا انتزاع الحقوق الرومانية منهم والخضوع الى العرف Droit coutumer وسارت على هذا المبدأ حكومة الكونفانسيون فقالت « ان قانون الاحكام المدنية والجزائية هو واحد في كل الجمهورية » وشرعت في ٢٢ اوغسطس سنة ١٧٩٣ بالبحث في هذا القانون المعروف بسنة كامباسيريس Cambacirés وتقرر قبولها واحالتها على احدى اللجان وتكرر البحث فيها ثلاث مرات ولم يجزم بها فيصير شرعةً حتى الزمن الذي وسدت الامبراطورية فيه لبونابرت

وفي سنة ١٨٠٠ عهد الى مجلس الدولة تهيئة القانون المدني فشكلت لجنة من

المشرعين وأُخذت تبحث فيه وكان القنصل الاول يحضر احياناً جلساتها ويمدها بارائه فرأت اللجنة ان مواد هذا القانون قد اعدتها حكومة الكونفانسيون من قبل ولذلك تمكنت في وقت وجيز من انجازه واعلانه عقب مصادقة البارلمان عليه . وقد وضعت بنوده موسومة بالاعداد ليسهل التفتيش عنها واستحضارها فتبين فيه لكل الفرنساويين قوانين الحقوق العامة المأخوذة عن النظامين اللذين كانت البلاد تدين لهما قبل سنة ١٧٨٩ فكانت حقوق التملك والعقود موضوعة طبقاً للشريعة الرومانية واما الحقوق الشخصية والارث فقد جروا فيها على العادات الدارجة في باريز وفي قضايا الزواج اتبعوا في حقوق الاشتراك العرف العام وفي المهر النظام الروماني وعم هذا القانون كل البلاد وسلك بين عوائد اهلها حتى ان الاقطار التي ضمت الى فرنسا اعتادت عليه فطالبت ان تبقى على العمل به حتى بعد انفصالها سنة ١٨١٤ وظل قانون نابليون كما يسمونه نافذاً في البلجيك وايطاليا والضفة اليسرى من الرين

اما القوانين الاخرى فكانوا اقل تسرعاً في وضعها فلم يأتوا على اتمامها حتى سنة ١٨١١ حين اصبحت فرنسا حائزة على مجموعة كاملة من الشرائع الا وهي القوانين الخمسة المدني والتجاري والجزائي والمحاكمات الحقوقية والمحاكمات الجزائية

وقصارى القول ان هذه القوانين نظمت شؤون فرنسا على مبادىء الثورة : اولاً ان جميع البلاد الفرنساوية صارت خاضعة كلها لقوانين واحدة بحيث توحدت الحقوق مما كان يرغب فيه الملاك ولكنهم لم يكونوا يفوزون بايجادها . ثانياً صارت الشريعة واحدة للجميع وكلهم يستوون في حكمها لانها لا تعرف امتيازاً لاحد من الناس ـ هذه هي المساواة وهي اقسام منها المساواة بين الوطنيين الذين يستطاع قبول اي كان منهم في الوظائف وتحمل كل واحد من مجموعهم الضرائب الواحدة واخذهم باحكام قانون واحد — ثم مساواة البنين في الارث يتوزع عليهم بالسواء ولا عبرة فيه للعمر ولا للجنس — والمساواة مع الغرباء فانهم يستطيعون ان يتجروا بفرنسا وان يرثوا فيها كما هو شأن الفرنساويين انفسهم ـ والمساواة في الاديان — والمساواة في الاملاك التي صارت لا تتأثر من رق الانسان في شخصه . ثالثاً ان الشريعة صارت تحمي حرية الافراد ومنحت المتهم حق المحاكمة الجهرية وان يكون قضاته من ابناء وطنه وان يدافع عنه احد المحامين ومنحت الاولاد الحرية التامة متى بلغوا الرشد وخولت الزوج حرية الطلاق وتركت لكل انسان ملء الحرية في اختيار دينه واشتغاله بالزراعة والصناعة او ان يعطي المال بالربا هذه هي مبادىء الحرية الشخصية

فتمتعت فرنسا بالوحدة والمساواة والحرية

الاشغال العمومية : وكان نابليون كالرومانيين كلفاً بالاشغال العمومية الكبرى يحسب عملها ذريعة لاكتساب مملكته السؤدد والشهرة وتحدى الرومانيين في تمهيد الطرق العمومية لنقل جنوده ولتقريب المواصلة بين الاجزاء الجمة من امبراطوريته — تلك آثار اراد بها تخليد مفاخر اعماله

وكان اكبر تلك الطرق طريق كورنيش التي نحتت في الصخر على طول شاطىء البحر المتوسط ما بين طولون ونيس تسهيلاً لاتصال مقاطعة بروفانس بايطاليا وطريق سيمبليون التي تذهب صعداً الى اعالي وادي الرون (الفالى) وتنحدر رأس سيمبليون الى ايطاليا صوب وادي تاسين

ونصب اشهر آثاره في باريز مثل عامود الفاندوم متحدياً فيه شكل عامود تراجان في رومية وقد سبك من شبهان المدافع التي اغتنمها من الاعداء المغلوبين في وقائع سنة ١٨٠٥ ونقش على ظاهر العمود نقشاً ناتئاً يمثل مشاهد تلك الحرب ثم شاد في ساحة الكاروزل قوس نصر سماها L'arc de Triomphe du Carrousel وكانت ايضاً على الزي القديم متحدياً فيها مثال قوس النصر الذي بناه تيطوس وجعل بونابرت على اعلى قبته جوادين من الشبهان كان قد اخذهما من ساحة سان مارك في فينيسيا ولكنهما اعيدا اليها سنة ١٨١٥ ونصب قبة نصر الاتوال على اكمة تطل على غربي باريز وكانت موضوعة وضعاً مبتكراً والقصد منها احياء ذكرى حروبه وامر فكتب عليها اسماء كبار قادته ـ وكان نابليون قد عزم على بناء هيكل المجد حيث يمثل به كل عظماء قادته ـ واخذ في بناء الهيكل على شكل الهياكل اليونانية وكاد ينتهي بناؤه سنة ١٨١٤ فجعلوه كنيسة مادلين L'Eglise de la Madlène وفي غضون هذه المدة كان بناء شارع ريفولي بواجهة ذات قناطر وكذلك بنى نبع ديزه Desait ومجلس التشريع والبورس ومخازن خمور بارسي

العلوم والآداب والفنون : وكان نابليون يتوق لجعل ايام سلطنته مشهورة بالاعمال الكبرى في العلم والصناعة كاشتهارها بالفتوحات العظيمة والمشاريع الكبرى فشرع يستنهض همم العلماء والكتبة والصناع بمكافأتهم بالمال وباعلاء اقدارهم وقد قال « لو كان كورنايل في ايامي هذه لجعلته اميراً » ومنح لقب البارون لجماعة من النقاشين مثل كروس وجرار ولنفر من العلماء مثل لاكرانج ولابالاس ومونج وغيرهم وامر ان يكون تقليد وسام اللجيون دونير للعلماء والصناع كما يقلد به الجند والعمال وكان يجري عليهم الرواتب السنوية وانشأ

منح الجوائز كل عشرة سنوات بالغة مئة الف فرنك

الا انه كان يطمح لان يدير شؤون العلوم والفنون كما يدير الشؤون السياسية والحربية وكان يسعى ان ينفقه الطلبة بالعلم والفنون كما نفقه هو ولذلك شدد النكير على اشهر كتبة تلك الايام وهما شاتوبريان ومدام دوستايل وضبط مؤلفاتهما لان آراءهما لا تلائمه — واهان الطبيعي لامارك على ملاء من الناس لانه كان اشتغل بعلوم الحوادث الجوية météorologie — ورفع حمايته عن شاروبيني لانه وجد موسيقاه شديدة الضجة

وكان يتصرف في التمثيل تصرف السيد المطلق القياد يريد ان يدير شؤونه على اهوائه فمنع تمثيل روايتين من تاليف ديفال لئلا يندفع الناس على اثر استماعهما للمظاهرة ضد النبلاء او معهم وحظر تمثيل رواية بموضوع اسباني يقال لها الدون اسانش لان الاسبانيين كانوا شاغبين على حكومته فاضطر مؤلفها ان يغير اسمها و يجعله نينوس ناقلاً مكانها من اسبانيا الى اشور ولم يكن باذن بتمثيل معظم روايات كل من شانيه وليرسيه لانه لم يكن راضياً عنهما ولكنه لم يكن له من التاثير على العلوم والفنون ما تخيل اقتداره على احرازه

وظلت العلوم والفنون آخذة في التقدم في فرنسا وانكلترا على ان سيرهما في الارتقاء كان استمراراً على ماشرعا به من قبل نشأة نابوليون

ففي الرياضيات كان لاكرانج ولابلاس ومونج والفلكي لالاند حائزين قصب السبق الا ان تبريز هؤلاء فيما احرزوه من العلم كان قبل ان انقضى القرن الثامن عشر والمؤلفان المشهوران اللذان وضعهما لابلاس انما ظهرا للوجود وانتشرا بالطبع في زمن حكومة الديركتوار وكان بهما بدء النشأة الجديدة لعلم الفلك الحديث . والكتابان هما بيان نظام العالم L'exposition du Système du monde (طبع سنة ١٧٩٦) وبحث في الميكانيكيات السماوية Traité de la Mécanique céleste (طبع سنة ١٧٩٩)

واشهر رجال الفلسفة الطبيعية كاي لوزاك واراكو وذاع في الكيمياء اسم كويتون دي مورفو و بارتوله وفوركروا وفوكلين وتنار وفي العلوم الطبيعية لامارك وكوفيه وجوفروا سانت هيلار والنباتي لوران ده جسيو والفيزيولوجيين بيشا وكابانيس وكل هؤلاء العلماء من ابناء القرن الثامن عشر . ولم يكن منهم في عهد نابليون الا اتمام ما شرعوا به قبل ايام ملكه

الا ان اعمال نابليون كانت اظهر اثراً في الآداب ووضعت المكافأة الرسمية والقصد منها الابقاء على رجال الادب كما كانوا في القرن الثامن عشر سيما وان شانهم كاد ينحط لميل الناس عن طلب الآداب . فتاليف الروايات من نوع المأساة القديمة على طرز فولتير

كان يشتغل به كل من دينوارد وجوى ولوس دي لانسيفال وكان كامبيون وفونان وبريفو ودر يون وغيرهم ينظمون الشعر القصصي اما ناظمو الشعر الوصفي فهم داليل وسانت لامبار ولاكونه شاندوله واشتهر بالشعر الغنائي لابرين الملقب بينندار على ان هؤلاء الادباء لم ينشئوا في ذلك الزمن ما يخلد لهما ذكراً حسناً الا ان الادباء شرعوا منذ يومئذ في احداث الروايات التاريخية والاغاني والاقاصيص ونشا في خلال ذلك كاتبان احدهما شاتوبريان صاحب كتاب الشهداء (١٨٠٩) وكتاب روح المسيحية (١٨٠٢) وثانيهما مدام دوستايل مؤلفة كتاب عنوانه المانيا (١٨١٠) فاحدث كلا المؤلفين حركة جديدة في فن الحكايات في فرنسا (١) الا ان نابليون لم يكن براض عن هذين الكاتبين فاضطرا ان يبرحا فرانسا و يسكنا بلاداً أخرى اما الامبراطور فقد المع الى ضعفه في مناوأتهما بقوله لفونتان « ان الراضين عني هم الكتبة الصغار والغاضبين عليَّ هم الكتبة العظام »

الا ان نابليون كان اكثر حظاً بمعاملة الصناع وارباب الفنون لان ميله كان مماثلاً لذوق ابناء عصره ولذلك شرع بكافيء المهرة تجرئة لهم وتنشيطاً

وكان تقليد الهندسة القديمة في البناء جارياً منذ القرن السابع عشر وتقليدهم في الحفر منذ الثامن عشر ثم امتد هذا التقليد الى النقش والتصوير وكان اشهر المصورين (من سنة ١٧٤٨ الى سنة ١٨٢٥) المسمى دافيد ومن خصائصه انه كان يتخذ المواضيع القديمة و يصورها كالسابين ومثال ليونيداس في مضيق ثرموبيلا فشاعت طريقته وعمت اقلام المصورين في زمن الثورة وعهد الامبراطورية وكان اهم تباعه جيرارد وجيروده وكرو مصور الوقائع الحربية اما برودون (من سنة ١٧٣٨ الى سنة ١٨٢٣) فلم ينتحل طريقة دافيد ومن ثم نشأ مصوران شابان هما جريكو وانكر فانهما عملا حيناً بطريقة دافيد ثم شرعا يتركانها

اما الحفر فلم ينتج من الاعمال الكبرى الاندراً قليلاً ونشأ في فرنسا من مشاهير الحفارين كارتيليه واسبارسيه وجيرو ولكنهم مع ذلك ظلوا دون معاصريهم من حفاري الدانمرك مثل ثور والدسن او مثل الايطالي كانوفا

اما المهندسون وهم برسيه وفونتين وشالكرين و بروئيار الذين عهد اليهم نابليون بتشييد

(١) ان كاتبين فرنسا و يين من كتبة هذا العصر الا وهما جوزاف واكسافيردي ماستر كانا من اشراف سافوا ومن رعية ملك سردينيا

معالم اثاره فكانوا يقلدون الطرز القديم ولم يبدعوا شيئاً ابتكاراً
ولم ينبغ في نظم نشائد الموسيقى من يذكر غير الذين كانوا ايام الثورة من مثل ماهيل والسيبر وشاروبيني وكان نابليون يكافئ الموسيقيين الايطاليين بازيلو و بير وسبونتيني

الفصل الثامن

حروب نابليون مع اوروبا

السلام في اوروبا : وظلت الحرب مستمرة بين فرنسا الجمهورية واوروبا الملكية حتى سنة ۱۸۰۱ وكان نابليون وقد وجد فرنسا تناوىء حلقة جديدة تألبت ضدها سنة ۱۷۹۸ فانضم اليها ثلاث من الدول الاربع الكبرى الا وهي انكلترا والنمسا والروسية فضلاً عن امراء ايطاليا وكان الحلفاء قد اكتسحوا ايطاليا وفتحوها ثم حاولوا الحملة على فرنسا فلم ينالوا ارباً لانهم ارتدوا عنها قبل ان بلغوا تخومها لما لحق بهم من الانكسار في سويسرا وهولاندا سنة ۱۷۹۹

ثم ان نابليون حمل قيصر الروس على الانسحاب من الحرب وطرد النمساويين من ايطاليا ومن المانيا الجنوبية وتخلى عن حفظ مصر بالرغم عن انكلترا و بانتهاج هذه الخطة تمكن من حفظ السلم مع روسيا والنمسا وانكلترا فكان يحفظه نهاية حروب الثورة واستتب الصلح طبقاً لرغائب كل الشعوب الاوروبية واحتفظت فرنسا بكل الشؤون التي احدثتها بالرغم عن اوروبا و بالبلاد التي ضمت اليها و بالحلفاء الذين اكتسبتهم وجعلتهم تحت نفوذها (مثل سويسرا وهولاندا والبلاد الايطالية واسبانيا) وارجعت انكلترا لفرنسا ومحالفتها كل المستعمرات التي كانت قد ملكتها فتحاً ومع ذلك ظلت اكبر الدول الاستعمارية والبحرية اما الدول الثلاث الكبرى في شرقي اوروبا وهن النمسا و بروسيا وروسيا اللواتي سلبتهن فرنسا شيئاً من غربي بلادهن فانهن تعوضن عن الخسارة باقتسام بولونيا (من سنة ۱۷۹۳ الى سنة ۱۷۹٥) وفوق هذا فان النمسا شرعت تمتد نحو الادرياتيك ضامة اليها املاك فينيسيا

محاربة الدولة الكبرى : ومع هذا لم يدم السلم غير سنتين اذ ظهرت مسألتان لم

تحلهما حرب الثورة . المسألة الاولى . من يدير شؤون الممالك الصغرى القائمة في اوروبا الوسطى (اي في المانيا ام ايطاليا) ؟ ومن من الدول تكون سيدة البحر والاستعمار ؟ فتعارضت سياسة بونابرت مع سياسة الدول الاخرى الكبرى في حل هاتين المسألتين

اولاً : كانت سياسة نابليون طامحة لانفراده بالسلطة في اوروبا الوسطى بحيث يكون له وحده حق تحديد تخوم الممالك الصغرى وادارة شؤونها الداخلية فبدل بسلطته شؤون جمهوريات باتافيا والهلفتيك و ليغورنو وسيزالبين وعقد مع جميع مجاوريه محالفة دفاع وهجوم واشترط عليهم ان يضعوا ابان الحرب تحت امرته كل اساطيلهم وجيوشهم واموالهم وبهذا التحالف جعل هولاندا وسويسرا وايطاليا واسبانيا كانهن تابعات لفرنسا وشرع يتصرف ببلادها على خاطره اذ انشأ من غراندوقية فوسكانا مملكة اتروريا وفي سنة ۱۸۰۲ ضم الى فرنسا قطر بيمونت Piémont متجاوزاً في ذلك التخوم الطبيعية وهي الالب

وكان اهتمام المانيا منصرفاً للتعويض الذي وعد به الامراء بدلاً عما خسروه في الضفة اليسرى من الرين علي ان هذا العمل يتطلب مجمعاً او مؤتمراً المانيا Diète على انه كان يمكن للامبراطور ان يمنع بما له من النفوذ فناء الممالك الاكليريكية التي تؤيد في المجمع الحزب الكاثوليكي النمساوي وتكسبه الاكثرية ومع ذلك فقد آثر ان يتفق مباشرة مع الامراء العوام من الالمان وجعل كل واحد منهم يرسل الى باريز معتمداً للمخابرة . وكان ملك بروسيا والدوك دو بافيير قدوة في ذلك لسائر الامراء . فشرع نابليون يتصرف بالبلاد الالمانية كأنها ملك يمينه فلاشى تقريباً كل الممالك الصغرى كالممالك الاكليريكية والمدائن الحرة ومقاطعات الكونتية والنبلاء . ومنح املاكها الى امراء العوام المهمين في المانيا فنال هؤلاء اكثر مما وقع الاتفاق عليه من التعويض مما زاد بلادهم سعة (سنة ۱۸۰۳) ثم ذهب الى اكسلاشابال وكانت يومئذ تابعة لفرنسا فلقي من الاعتبار والاحترام ما يلقاه امبراطور المانيا عادةً الا ان حكومة اوستريا لم ترض ان تتخلى لنابليون عن ايطاليا والمانيا لان نفوذها فيهما كان امراً مقرراً منذ نحو قرن

ثانياً : اما المستعمرات والبحر فلم يطمع نابليون بالانفراد في التسلط عليهما بل كان يريد مشاركة انكلترا فيهما ولم يكن تحت امرته الاسطول الفرنساوي فقط بل الاسطولان الهولاندي والاسبانيولي اما في الاستعمار فرغب ان يرجع لفرنسا سلطنتها الاستعمارية فاسترجع لوزيانا بواسطة اسبانيا (يعني اميركا الشمالية الى غربي نهر المسيسبي) واستحوز على جزيرة هايتي اذ غلب الزنوج عليها بعد ان تحرروا منذ سنة ۱۷۹۳ وحاول ان يفتح

للتجارة الفرنساوية المستعمرات الفرنساوية والهولاندية والاسبانية — وكانت انكلترا في غضون الحرب قد احتلت مستعمرات فرنسا ومحالفيها وضعضعت قواها الحربية البحرية واوقفت تجارتها واذ كانت هي اي انكلترا سيدة البحار كانت وحدها القادرة على تسيير السفن التجارية فحصرت في نفسها تقريباً كل التجارة في اوروبا واميركا والهند ولذلك ادت الحرب الى اثراء اصحاب الصنائع والنواخذة (اصحاب السفن) من الانكليز فلما عقد الصلح وانتشر السلام نزع منهم احتكار التجارة وخفض من ارباحهم فصار الفرنساويون احرارا في مسابقتهم الى كل سوق ولم الافضلية عليهم لميل محالفيهم اليهم على ان معاهدة اميان لم تبق للبضائع الانكليزية شيئاً من الامتيازات القديمة ٠ وكان باستطاعة فرنسا ومحالفيها ان يحملوا الناس على تجنب البضائع الانكليزية بضرب المكوس الفادحة عليها فشعر السياسيون والتجار من الانكليز ان السلم اضر باعمالهم التجارية فاغتنموا اول فرصة سانحة لمعاودة الحرب فعادت سنة ١٨٠٣

التحالف على نابليون: كان نابليون بسياسته عدواً للنمسا ولمحالفيها من الدول الاخرى الا انه لم يكن لانكلترا جيش ولا للنمسا والروسية من المال ما يكفي لقيام الحرب وليس في وسعهن مناوأة نابليون الا اذا اتحدن وكانت المنفعة العامة مدعاة للتقرب بينهن فمضت عليهن عشر سنوات وهن تابعات عقد التحالف الايقاع بفرنسا وكانت انكلترا تحاربها بحراً وتمد الدول الاخرى بالمال لتشن عليها الحرب براً وهكذا اشتبكت الوقائع في الموضعين وكان القتال بينهما سجالاً الا ان هذه الحرب كانت عبارة عن مبارزة ما بين انكلترا ونابليون

فبدأت انكلترا دون محالفيها بالحرب البحرية واذ رأى نابليون ان اسطوله ولو انضم الى اسطولي اسبانيا وهولاندا لا يقاس بالاسطول الانكليزي بل يبقى دون ذاك منعة واقتداراً رام تحويل الحرب من البحر الى البر فحاول في اوغسطس واكتوبر (١٨٠٤) النزول بعسكره في ارض ارلندا ومن ثم جعل يحشد جنوده في بولوني واستعد لنقلها الى انكلترا اذ تجتمع اساطيله فتصير قادرة على تجنب السفن الانكليزية الماخرة في بحر المانش ويكفيه لاتمام النقل يومان الا ان اساطيل نابليون لم تستطع ان تفلت من ايدي العمارة الانكليزية التي كانت تقتفي آثارها وآل بها الامر الى ان دمرتها في ترافلغار سنة ١٨٠٥ فمنذ ذلك الحين عدل نابليون عن اتخاذ خطة الهجوم على انكلترا وعن الدفاع عن تجارة فرنسا البحرية فصارت انكلترا سيدة البحار

واذ خابت اماني نابليون في البحر عكف الى البر وكان قد اساء الى ملوك اوربا

وهاج خواطرهم عليه لقبضه في ارض محايدة على امير من الاسرة المالكة الفرنساوية الا وهو الدوك دانجين فأمر ان يرمى بالنار سنة ١٨٠٣ فتقرَّب كلٌّ من الامبراطور فرنسوا دوتريش وقيصر الروس اسكندر الاول وفردريك غليوم الثالث ملك بروسيا وابرموا اتفاقاً من شأنه ايقاف نابليون عند حده اذ اوجسوا منه خوف صيرورته اعظم اقتداراً منهم جميعاً

فعقد الامبراطور فرنسوا دوتريش وقيصر الروس محالفة دفاعية بجنة لم يشترك فيها ملك بروسيا (في نوفمبر سنة ١٨٠٤) وكان من قيصر الروس اسكندر انه عقد في افريل سنة ١٨٠٥ محالفة مع انكلترا من غير ان يطلع عليها حليفه الامبراطور واذا بالنمسا قد اشتبكت بحرب عوان من غير ان تتهيأ لها فتم ابرام حلفة بين انكلترا والممالك الشرقية الاوربية لمناوأة نابليون ولكنها لم تكن كاملة لان ملك بروسيا لم يجرأ على الانخراط فيها ٠ وكان يرى نفسه مهدداً من الاسكندر الرومي من صوب بولونيا اكثر مما هو مهدد من نابليون من صوب المانيا فلما عقد العزم عقيب انكسار النمساويين في ulm ألم وفي الدانوب كان الوقت قد فات لان نابليون شتت الجيش النمساوي والروسي في اوسترليتز (في يناير سنة ١٨٠٥) حين الجأ الامبراطور الى طلب الصلح

وما انتهى نابليون من قتال النمسا حتى اخذ في تثبيت قدمه في البلاد التي كانت النمسا تنازعه عليها ففي ايطاليا انتزع مُلك نابولي من اسرة البور بون وعهد به لاخيه جوزيف وجعل جمهورية هولاندا مملكة عهد بتاجها لاخيه لويس واستاصل من المانيا الامبراطورية الجرمانية القديمة وعاد تخابر الامراء الالمان العوام وفاوضهم مباشرة كما فعل سنة ١٨٠٣ ووسع املاكهم من الممتلكات الباقية للمدائن الحرة والكنيسة ومنح الامراء القاباً جديدة (واوجد ملكين وغراندوقين) وعلى اثر ذلك اعلن ستة من امراء الالمان بانهم انفصلوا عن الامبراطورية وتألبوا لانشاء حلفة الرين واعترفوا بنابليون محامياً عنهم ووليّاً لامرهم ثم واثقوه على ان ينجدوه ابان الحرب بثلاثة وستين الف رجل فتخلى فرنسوا سنة ١٨٠٦ عن لقب امبراطور المانيا وصار يُدعى من ذلك الحين بامبراطور النمسا

فاصبح نابليون سيد المانيا الجنوبية والغربية وطفق يسعى للتسود على الجهة الشمالية منها وكان منذ اوائل حربه مع انكلترا سنة ١٨٠٣ قد احتل بلاد هانوفر (من املاك الاسرة المالكة الانكليزية) وارغم ملك بروسيا على بدلها بدوقية كليف Clièves وبذلك رمى الدولة البروسيانية بمحاربة انكلترا بالرغم عنها (سنة ١٨٠٥) ومن ثم شرع يفاوض

الحكومة الانكليزية سنة ١٨٠٦ في ارجاع بلاد هانوفر اليها فكانت معاملتهُ لملك بروسيا كمعاملة امير الماني صغير ولم تعد مملكته تحسب في مصاف الممالك الكبرى حتى كادت تفقد نفوذها الذي احرزتهُ في المانيا الشمالية منذ عهد فردريك الثاني لذلك خطر لملك بروسيا ان يشهر الحرب صوناً لمملكته وحفظاً لمقامها الا ان جيوش نابليون كانت ما برحت مخيمة في المانيا ولم يكن لبروسيا وقت لعقد التحالف فاحتملت لوحدها كل اهوال الحرب حتى تبعثرت جنودها واحتل الجيش الفرنساوي معظم البلاد سنة ١٨٠٦

واحدثت سنة ١٨٠٦ تغييراً في احوال نابليون بدأ ذلك اولاً بانقطاع المفاوضات بينهُ وبين الحكومة الانكليزية ولم يعد يخطر له ببال عقد السلم مع انكلترا بل شرع يحصر مساعيه في تدميرها ثم انه كان حتى ذلك الحين مرتضياً بتسوُّده ونفوذ امره في اواسط اوربا فاصبح منهمكا بشؤون اوربا الشرقية راغباً في ان يتصرف بالمانيا الشمالية وبروسيا وبولونيا على خاطره

حصار اوربا بحراً : ولما رأى نابليون انهُ لا يقوى على اكتساح انكلترا لتضعضع اسطوله سعى الى اغتنام فرصة تسوده السانحة على بعض الممالك في اوربا لايذاء التجارة الانكليزية وقبل ان انتهى من حرب بروسيا نشر امر برلين (دسمبر سنة ١٨٠٦) الذي قرر الحصار البحري على اوربا - ذلك انهُ كان من السنن التي اجمع الاوربيون عليها انه متى كانت احدى الدول في حرب وقد حصر اعداؤها احد مينها فلا تستطيع السفن الدخول الى ذلك الميناء ولو كانت السفن لدولة متحايدة حتى ان انكلترا كانت تمنع دخول السفن المتحايدة الى المين المعادية وان لم تكن تحت الحصار فعلاً وانما بمجرد اعلانها ان ذلك الميناء تحت الحصار فاتخذ بونبارت خطة انكلترا وعممها على كل اوربا حاظراً فيها على كل اوربي ان يتجر مع انكلترا فبذلك تمتنع المين الاوربية عن قبول السفن الانكليزية كما انه لا يجوز لسفينة اوربية ان ترسو في ميناء انكليزي أو ميناء احدى مستعمراتها واتصل المنع الى البضائع الانكليزية فحظر على كل الرعايا الفرنساويين وعلى كل الاوربيين نقل تلك البضائع والا تضبط السفن الناقلة وتباع بضائعها لحساب الدولة

وكان نابليون يأمل خراب انكلترا بمنع مبيع مصنوعاتها ونتاج مستعمراتها ومعادنها ويحول دون استحصالها على الحبوب والاخشاب مما ليس بوسعها الاستغناء عنه

وقابلت انكلترا ذلك المنع بامر صدر عن قرار مجلسي تحظر فيه على سفن الامم باجمعها الاتجار مع احد المين الاوربية من غير ان تمر بميناء انكليزي والا كان القصاص ضبط

السفينة . والغاية من هذا انه منذ يومئذ يجب ان تنحصر كل التجارة في انكلترا — فاعلنت ان كل سفينة متحايدة تمرّ على البلاد الانكليزية تفقد جنسيتها وتعتبر كالسفن الانكليزية بمعنى انها تضبط

على ان هذه الاوامر غيرت كل العادات في اوربا فانها اعتادت منذ حروب الثورة تستورد من انكلترا المنسوجات والحديد وغلال مستعمراتها والقهوة والشاي والسكر . ولم يكونوا يعرفون يومئذ الا سكر القصب . فاصبح الناس وقد حرموا من كل الاشياء التي لا غنى لهم عنها . ورأى التجار سيما في هولاندا ومدائن الانسياتيك (بريم وهمبورغ) انهم حكم عليهم بالخراب والاضمحلال لان قوام عيشهم هو الاتجار مع انكلترا

وكان من المستحيل ان ينفذ امر نابليون بكل دقة وضبط فان البلاد المحكومة توّاً من العمال الفرنساويين كانت تدخلها البضائع الانكليزية سرّاً بواسطة التهريب فكان التجار يخادعون الخفراء القائمين لمنعه او يرشونهم لادخال بضائع الانكليز تهريباً او انهم يتخلصون من المنع بالطريقة الآتية ذلك انهم يرسلون الى ميناء فرنساوي سفينة مشحونة بالبضائع الانكليزية فتضبطها الحكومة وتبيعها بالمزاد فيبتاعها اصحابها التجار ويصبحون بعد ذلك احراراً في بيعها فالتزمت الحكومة لمنع هذا الاحتيال ان تأمر باحراق البضائع المحجوزة فكان الاهلون يرون بعيونهم اتلاف السلع والاشياء التي يحتاجونها اما في البلاد التي لا تختص بفرانسا فكان التهريب اكثر سهولة منه في فرانسا حيث ينال مساعدة عمال الحكومة الذين لم يكونوا يرون تضحية منافع مواطنيهم اكراماً لسياسة نابليون

فاضطر نابليون ان يخفض من شدة هذا المنع فان اصنافاً كثيرة من البضائع كانت لا تصطنع الا في انكلترا وليس في وسع فرنسا الاستغناء عنها فرخص نابليون لبعض تجار فرنسا او الاجانب ان يشتروا تلك الاصناف من انكلترا فكانت الحكومة تمنحهم الرخصة المخصوصة ولهم لقاء ذلك ان يبيعوا في انكلترا من بضائع فرنسا بقيمة تضارع قيمة البضائع التي يستحضرونها فكان التجار يتمون هذا العمل على ملء خاطرهم اذ يأخذون وسقاً من نفاية البضائع الفرنساوية حتى اذا بلغوا به الميناء الانكليزي طرحوا به الى البحر ومن ثم يرجعون الى بلادهم بالوسق المأخوذ من البضائع الانكليزية وكانوا يصطنعون في فرنسا انسجة من نوع واطيء وكذلك اصنافاً أخرى لا شأن لها فيتسنى لهم استخدامها لهذا الغرض

النتيجة الاقتصادية والسياسية لحصار أوروبا البحري : ولقد احدث الحصار

في باديء الامر ازمة تجارية لوقوع التشويش في كثير من الاعمال من جراء المنع والضبط مما تأثرت له كل البلاد

واما لم تجد المعامل في انكلترا سوقاً لبيع مصنوعاتها التزمت ان تصرف عمالها او ان تملأ اهراءها بمصنوعاتها بحيث لم تنل من وجودها اقل فائدة فكان الضيق شديداً وطفقت عصابات من العمال الذين لا شغل لهم يجوبون البلاد بعد ان حطموا آلات النسيج التي يحسبونها سبب حرمانهم من القوت ومع ذلك فقد كانت انكلترا ذات ثروة تمكنها من اجتياز زمن الازمه وانتهاء الحصار من غير عناء كبير

واما في اوروبا فكان الضيق اشد لخلوها من البضائع الانكليزية سيما من غلال المستعمرات ومن مواد الطعام وارتفعت اسعار القهوة والسكر ارتفاعاً عظيماً حتى انقطع عن ابتياعها بيوت الاوساط الذين افقرتهم الحروب الدامية على ان الهولانديين والالمان كانوا اشد الناس ضيقاً من غير ان يستعيضوا شيئاً وما رفع الحصار حتى عاودوا علائقهم مع انكلترا وقد امسوا اكثر فاقة من قبل

اما في فرنسا فارتفاع قيم البضائع التي كانوا يستوردونها من انكلترا دفعت بالصناع لاصطناع اشباهها وبعها من الفرنساويين فانشاوا معامل لغزل القطن ونسج الكتان واكواراً للحديد والفولاذ واستعاضوا عن السكر المستخرج من القصب بالمستخرج من الشمندر فالصناعة الفرنساوية التي تضعضع حالها في زمن حروب الثورة عادت فانتعشت على ان الحصر الذي منع البضائع الاجنبية ادى الى تنشيط الصناعة الوطنيه كانه من ذرائع حمايتها الا ان النسيج وحب الحديد لم يكونا ليقويا على المسابقة الحرة مع الصناعة الانكليزية لانهما نشأا عقيب المنع ولذلك جعل ارباب المعامل يطلبون بعد سقوط نابليون ان يرجعوا الى سياسة المنع وبالنظر لما كان لهم من النفوذ في اعضاء الندوة العليا نالوا بغيتهم واستمر المنع زمناً طويلاً

وكان للحصر ايضاً نتائج سياسية ذلك ان بلاد البحر الشمالي (هولاندا والمدن الكبرى الالمانية) لم تستسلم لحراب بل استمرت على الاتجار مع انكلترا وكانت حكوماتها ترتاح الى التهريب حتى ان ملك هولاندا وهو لويس اخو بونابرت انحاز الى شعب مملكته على ان نابليون تشديداً لهذا الحصار جعل هذه البلاد تحت الادارة الفرنساوية فكانه ضم الى امبراطوريته كل بلاد هولاندا والشواطيء الالمانية حتى بلاد الدانمارك متجاوزاً التخوم الطبيعية من هذا الصوب كما تجاوزها في ايطاليا وكانت هذه

الرغبة في توسيع الاراضي الداخلة في الحصار اثرت في سياسة نابليون الخارجية وادت به الى محاربة البورتغال حملاً لها على غلق اسا كلها في وجه انكلترا وسولت له نفسه ان يشترط على حليفه القيصر ان يعمل بذلك فكان سعيه السبب الاصلي لخصامه مع الروسية

تسلط نابليون على اوروبا : فمنذ سنة ١٨٠٦ شرع نابوليون يسوس اوروبا كسيد لها وقام ملك بروسيا بعد غلبه وانزوائه في شمالي مملكته يستنجد قيصر الروس فتألفت حلفة جديدة بين الروسية وبروسيا وانكلترا الا ان هذه الحلفة لم تكن كاملةً لان النمسا لم تدخلها لعجزها وانتهاك قواها فزحفت الجيوش الفرنساوية حتى الحدود الروسية في تلسيت سنة ١٨٠٧ وثمت عدل القيصر عن سياسته تاركاً بروسيا وشانها وحالف نابليون على ان يقتسم واياه اوروبا فيكون للاسكندر السياسة في الشرق وان يفتح فينلاندا من السويد ورومانيا من السلطنة العثمانية ووعد نابليون ان لا يرجع مملكة بولونيا الى سابق عهدها وتخلي الاسكندر لنابليون عن السيادة على ما بقي من اوروبا

فبدأ نابليون يسعى لجعل بروسيا من الدول الثانوية اذ استحوذ على ولاياتها القديمة والحديثة في غربي الالب واستخلص منها ولاياتها البولونية الشرقية ولم يترك لها سوى اربع ولايات (١) ثم رغب في ادخال هذه المملكة في حلفة الرين فقاومه ملك بروسيا اذ ابى ان يصير حليف نابليون او ان يتخلى عن جيشه ولما لم يستطع نابليون اخضاعه بالقوة عمل على خرابه فترك جيوشه حراساً في المعاقل وفي البلاد يضايقون الاهلين في مقاضاتهم الجزية والضرائب . ويقدرون ما اخذوه منهم بمليار فرنك . ومنع الملك من ان يكون تحت امرته من الجنود ما يزيد عن ٤٢,٠٠٠ رجل . وانشأ من بعض الولايات البروسيانية الغربية مملكة سماها وستفالي Westphalie ومن مقاطعات بلاد هس التي انتزعها من اميرها امارة سماها غراندوقية برج ومنح الاولى لاخيه والاخرى لصهره وادخلهما في حلفة الرين فاستولى حينئذ على كل المانيا حتى الالب

وفي رجوعه الى فرنسا صرف همته للتسود على شبه جزيرة اسبانيا فالزم في باديء الامر اسبانيا على ان تقتسم البورتغال معه ولما دخلت العساكر الفرنساوية الى اسبانيا اتخذ وجودها ذريعة ليسود على البلاد وكانت الحكومة الاسبانية ابداً الحليفة الطائعة الا انها كانت غير قادرة فتركت جيشها يشتت وعمارتها تدمر فخطر لنابليون انه اذا عهدت حكومتها

(١) هي براندبورج وسيليزيا وبومرانيا وبروسيا

لادارة فرنساوية جرّ من ذلك مغنماً كبيراً فاغتنم فرصة تنازع ملكها شارل مع ابنه فرديناند وحمل كليهما على التخلي عن العرش ثم منحه لاخيه جوزيف . الا ان الشعب الاسباني الذي كان من طبعه ان يحتمل من غير تذمر سوء احكام ملك اسباني لا يستطيع الخضوع لاحكام ملك اجنبي وما مر على ذلك بضعة ايام حتى قامت المدائن ثائرة تنادي بفرديناند السابع ملكاً وكان ذلك اول هياج وطني ضد نابليون . على ان جماعة المتمردين لم يكونوا مدربين وليس لديهم جهاز حرب ولا سلاح ولذلك لم يستطيعوا صد الجيش الفرنساوي عن تدويخ اسبانيا والبورتغال غير انهم أخذوا في القتال غير المنتظم (Guerillas) فشغلوا قسماً من الجيش الفرنساوي وفوق ذلك فانهم حالفوا انكلترا وفسحوا لها ان تنزل في بلادهم جيشاً انكليزياً فاقام الانكليز في البورتغال متحصنين بالمعاقل التي لا يستطيع الفرنساويون ان يخرجوهم منها

الا ان اعمال الاسبان اثارت النخوة الوطنية في رؤوس الالمان فشرعوا يتبرمون من تسود الفرنساويين عليهم وشرعوا يتهيأون للخلاص منهم سيما في بروسيا يومئذ كان الفيلسوف فيشت احد اساتذة برلين يلقي خطبه الرنانة على الالمانيين . ويومئذ شرع شارنهورست في تنظيم الجيش البروسياني وعصى فلاحو التيرول في النمسا على ملك بلغاريا لان نابليون ولاه بلادهم وكان هذا العصيان هو الثورة الوطنية الثانية (سنة ١٨٠٩) — لكنها قمعت وشيكاً وظنت الحكومة النمساوية ان الوقت قد حان لتجديد القتال وحاولت ان تستنهض هذه المرة الحماسة الوطنية فاستنهضت الامة الالمانية . الا ان هذا الاستنهاض لم يستفز الا شرذمة من المتطوعين وفرقة من الفوارس (الهوسار) البروسيان الذين من الخدمة العسكرية وساروا لمقاتلة نابليون تحت امرة الماجور شيل واتحدت النمسا مع انكلترا ولم يكن في الحلقة غيرها . اما قيصر الروس فظل حليفاً لنابليون وكان ملك بروسيا محاطاً بمئة وستين الفاً من الجيوش الفرنساوية فابى الدخول في الحرب . لذلك غلبت النمسا سنة ١٨٠٩ ودوّخ الظافر بلادها كما وقع لها سنة ١٨٠٥ واضطرت ان تتخلى عن الولايات الادرياتيكية

فاستتب لنابليون التسوّد اذ انه سحق دولتين من الدول الثلاث الاوربية الكبرى وهما النمسا وبروسيا وحالف الثالثة منهن الا وهي الروسية ومن ثم تزوّج من ابنة امبراطور النمسا فتسنى له بذلك الدخول بين الاسر المالكة في اوربا

واعاد نابليون الكرة على اواسط اوربا فقلب ظهر المجن للبابا في ايطاليا لانه رفض اطاعته وجاء به الى فرنسا وضم مملكته الى امبراطوريته وضم اليها ايضاً توسكانا وانتزع من

المانيا سواحل البحر الشمالي والحقها بامبراطوريته وكذلك نشب مخالبه في هولاندا فضمها فاصبحت الامبراطورية الفرنساوية التي يديرها بونبارت مباشرة نحواً من ١٣٠ ولاية ممتدة حتى الالب وحتى نهر التيبر (١)

وكانت كل اوربا الوسطى واسبانيا مقسومة الى حكومات صغرى كلها يسود فيها امر نابليون وكان اعظم هذه الحكومات قدراً وضخامة ممالك اسبانيا وايطاليا ونابولي ووستفالي وكلها قام على اسرتها ملوك من انسباء نابليون وهو كان يترك الحبل على الغارب لكل دولة منها في تدبير شؤونها الداخلية اذا لم يكن ذلك التدبير مما يمس سياسته . على ان كل واحدة منها كانت ملتزمة ان تقدم عسكراً ينضم الى جيشه ويخوض معه غمرات القتال وعليها ان تؤيد في بلادها مبادىء الحصر التي وضعها وفوق هذا فان ملوكها كانوا فرنساويين فاستقدموا اليها من بلادهم قوماً ليديروها على النسق الفرنساوي

اما الدولتان الكبيرتان النمسا وبروسيا اللتان كانتا تشاركان فرنسا خلال القرن الثامن عشر في سؤددها ونفوذها في اواسط اوربا فقد ظل لهما الاستقلال اسماً على انهما تجزأتا وتولاهما الضعف والوهن فاصبحتا فعلاً كأنهما من دول المصاف الثاني اذ لم يبقَ بوسعهما ان تعارضا اوامر نابليون وحسبك انه اقام في بروسيا حامية من العسكر الفرنساوي وانه اجبر امبراطور النمسا على تزويجه من ابنته

فشعر نابليون انه اصبح صاحب الامر في اوربا وامبراطوراً ليس على فرنسا فقط بل على كل الغرب حتى انه قال في الامر الذي اصدره لانتزاع الولايات البابوية من ملك الحبر الروماني انه استرجع من البابا ما منحه شارلمان ونعت ذلك الملك المشهور بقوله سلفنا . كانه اراد الا يبقى في اوربا الا دولة واحدة كبرى الا وهي الامبراطورية الفرنساوية واما سائر القارة فانها تتجزأ الى حكومات صغرى يكون لكل من امرائها قصر في باريز وان تجتمع في العاصمة كل سجلات تلك الحكومات واوراقها لتحفظ في قصر مخصوص ويبنى لها موضع بالحجر والحديد . ومع هذا كله فانه ظل في طرفي اوربا قوى تصده عن اتمام رغائبه فالانكليز ظلوا في جزيرتهم في غربي اوربا لا يخشون هجومه عليهم واستمر البورتغاليون وحكومة اسبانيا الذين باطراف اسبانيا عند قادس يذودون عن شؤونهم بمعونة الجنود

(١) وكان لنابليون فوق ذلك بلاد الباستر في شمالي الادرياتيك التي غلب النمسا عليها سنة ١٨٠٩ وجعلها ولايات سماها ايليرية وعهد بحكومتها للقواد الفرنساويين

الانكليزية وظل في الشرق دولتا روسيا والسويد محافظتين على استقلالهما وما تفتحان اساكلهما للسفن الانكليزية

وكان نابليون يريد ارغام القيصر على انتهاج طريقته في منع المراكب الاميركية الناقلة للبضائع الانكليزية من دخول المين الروسية فلم يرض الاسكندر بما طلب ولذلك اوقف نابليون عن التصرف في تركيا وبولونيا على ما يريد ونسخ معاهدة سنة ١٨٠٧ ثم اشهر الحرب على الروسية

واشرك معه في هذه الحرب الهائلة كل ممالك اوربا ولم يقتصر منها على محالفيه من الامراء الالمانيين وايطاليا واسبانيا بل وبروسيا أيضاً رغبة منه في اشغالها . ارسل اليها المعاهدة مكتوبة متممة لا ينقصها الا توقيعها . وكذلك النمسا التي كانت قد افلتت وصارت تقوى على محاربة نابليون

فكان الجيش الذي اقتحم به البلاد الروسية اوربياً اذ ان من الاثنتي عشرة كتيبة ستاً كلها مؤلفة من الجنود الاجنبية والست الاخرى كانت مزيجاً من الغرباء والفرنساويين فكان بينهم ٨٠,٠٠٠ ايطالي و١٤٧,٠٠٠ الماني و٦٠,٠٠٠ بولوني (من غراندوقية فارسوفي) و٣٠,٠٠٠ نمساوي و٢٠,٠٠٠ بروسياني

ففي سنة ١٧٩٣ اكتسحت جيوش اوربا المتحالفة بلاد فرنسا . أما في سنة ١٨١٢ فان فرنسا اتحدت مع الجيوش الاوربية وأغارت على البلاد الروسية الا ان في سنة ١٧٩٣ كانت فرنسا تحارب للدفاع عن الوطن بخلاف سنة ١٨١٢ فان اعداء الامبراطورية الفرنساوية كانوا يدافعون عن وطنهم

الفصل التاسع

رجعة الملكية في اوروبا

فشل مناهج نابليون : اكتسح نابليون البلاد الروسية بجيش يبلغ الستمئة الف رجل بينما كانت الحرب قائمة على ساقٍ وقدم بينه وبين انكلترا واسبانيا وقد زحف توًّا على عاصمة الروس متابعاً خطته الحربية . على انه قام في خلده انه متى احتلها تعرض عليه شروط الصلح وقد فاز بما امل اذ دخل موسكو في سبتمبر سنة ١٨١٢ غير ان امانيه خابت

اذ فاجأته الاقدار بما لم يكن في حسبانه . فان موسكو لم تكن الا عاصمة الروس الدينية او الوطنية اما بطرسبورج فانها كانت عاصمة الدولة بحيث ان خسارة موسكو لم تكن لتوهن الدولة او تضعضع احوالها لذلك لم يطلب الاسكندر الصلح لكن نابليون عزم على المفاتحة بالمسألة وارسل يعرض شروطها فامتنع الاسكندر عن مفاوضته في هذا الشأن او تخرج الاعداء من ارض الروسية فاضطر نابليون للانتظار الا انه لم يكن بوسعه الصبر طويلاً لان جيشه كان سيء الانتظام من اول امره لتألفه من اهل بلاد شتى وقد كثر الفل منه فدب اليه الوهن منذ شرع يجتاز السهول الخالية من المؤن ولم يكن الجيش وافر الذخيرة والزاد بل كان يضطر لقيام اوده ان يتفرق جماعات في طلب الرزق سلباً ونهباً ولذلك لم يبق منه قبل موقعة موسكوفا الا ١٥٥,٠٠٠ مقاتل يسيرون ببطء متثقلين بمركبات تقل الاسلاب وهم بذلك اشبه شيء بقبائل البربر

ولم يكن للجيش ان تنتظم شؤونه في موسكو لان الاهلين كان يريعهم منظر أولئك الغزاة المراطقة فبرحوها وفروا هاربين ولم يبق فيها الا التجار الغرباء ففي ذات الليلة التي دخل الفرنساويون موسكو علقت بها النار فاحرقتها فلم يعد بوسع العسكر ان يصرف الشتاء فيها بل قضت عليه الضرورة بالرجوع الى أوروبا . على ان نابليون لم يجزم بالعودة عنها الا بعد ١٨ اكتوبر وكان شتاء تلك السنة باكراً قبل اوانه وشديداً جداً حتى بلغ الميزان الدرجة الثلاثين تحت الصفر فاضطر الجيش ان يعود مجتازاً للاقطار التي عاث فيها فتضعضع متأثراً من البرد والجوع ولم يرجع منه الا شراذم متفرقة عاطلة من السلاح وبذلك تخلصت الروسية من شر الغزاة واصبح جيش نابوليون شتيتاً ممزقاً وانقلب الامر على صاحبه فصدمته الروسية واصبح حلفاؤه يتملصون منه . وهذه الكسرة كانت فشله الاول فان الكتيبة البروسيانية في الجيش عاقدت الروس ان تبقى متحايدة ومن ثم خرج ملك بروسيا من برلين متملصاً من مراقبة الحرس الفرنساوي بادعائه انه انما يمضي لتأهب لقتال الروسية ثم انسل الى سيليزيا ومن هنالك خابر محالف الروس والانكليز وذلك في يناير وفبراير من سنة ١٨١٣

ثم استصرخ ملك بروسيا شعبه فلبوه مكتتبين بالمال ومتجندين في المتطوعة فاجتمع لم عدا عن الجيش البروسياني فرقة اللاندوار Landwehr, التي كان جهازها ولباسها من مال الولايات وانضم الجيش البروسياني الى الجيش الروسي و زحفوا معاً الى المانيا بغية استنهاضها على نابليون وقرروا ان يخلعوا الامراء الذين لا يطاوعونهم فاكتسحوا بلاد الساكس اولاً

واتخذوها ميدان الوغى . على ان منتخب ساكس الذي اقامهُ نابليون ملكاً استمر متردداً لا يجرأ على الانضمام الى احد الفريقين اما نابليون فكان قد ارغمه على البقاء حليفاً لهُ وانجلت مواقع الربيع عن معركتين داميتين هما لوتزن و بوتزن وظل نابليون سائداً في الساكس الا انه لم يكن عنده قوة من الفرسان فطلب هدنة ثلاثة اشهر ولكن لم يحصل منها الا على ستة اسابيع وقد اظهر المتحالفون ان لديهم قوة كافية للقتال اما فرقة اللاندوار التي لم تكن تعتمد كثيراً فانها انكسرت كسرة هائلة . على ان الحكومة النمساوية التي لبثت متحايدة حتى ذلك الحين مخافة ان تفاجأ بالهجوم تشجعت لما لحق بنابليون من الخسارة وطلبت ان تتوسط بين المتحاربين فقبل نابليون وساطتها رغبة في استمالتها الا انهُ كان يستحيل اتفاقها معهُ . وكان نابليون يرتاح الى مسالمة الدول الاوروبية الا انكلترا اما المتحالفون فلم يكونوا يرضون الا بالصلح العام لانهم كانوا متفقين مع انكلترا فهي تمدهم بالمال وهم لا يبرمون عهدة لا ترتضيها ولذلك لم يكن مؤتمر براغ الا عبارة عن رواية تمثيلية كانت النمسا قد سبقت فتعهدت ان تنضم الى الحلفة اذا رفض بونابرت شروط المؤتمر ولم يقبلها لتعهدت بذلك وهي على يقين من انه سيرفض تلك الشروط . ففي اوغسطس دخل امبراطور النمسا في الحلفة فتمت به وكانت تلك هي المرة الاولى التي تحالفت بها الدول الكبرى الاربع الاوروبية على مقاتلة فرنسا قتالاً مشتركا بينهن . وكان تألب الحلفة فشلاً ثانيًا لنابليون (من مارس الى اوغسطس سنة ١٨١٣) وعول المتحالفون (وهو الاسم الذي عرفوا به منذ يومئذ) على انتزاع جميع المانيا من ايدي نابليون وعدلوا عن طريقة الحرب القانونية البطيئة التي اودت بهم الى الانكسار في سنة ١٧٩٣ واتخذوا نهج نابليون في حروبه وكان تحت امرتهم ثلاثة جيوش كبيرة تبلغ عدة رجالها ٤٨٠,٠٠٠ رجل فاقروا على ان معظم الجيش يتخذ خطة الهجوم فيزحف توًا على الاعداء ويمزق شملهم من غير ان يقف لمحاصرة اي حصن اعترضه . وقد ورد في خطة القتال المرسومة في ١٢ يوليو ان الجيوش المتحالفة تتخذ خطة الهجوم جاعلة موعد ملتقاها في معسكر العدو . فدارت رحى الحرب زمن الصيف في ثلاثة مواضع هي ساكس وسيليزيا وبراندبرج الا ان نابليون الظافر في درسد بقي محافظًا على شأنه في ساكس اما فرق جنوده الاخرى فاندحرت وارتدت عن البلاد المجاورة وفي ٩ سبتمبر قرر الحلفاء الخطة التي يتبعونها في المانيا ذلك ان يعيدوا النمسا و بروسيا الى ما كانتا عليه سنة ١٨٠٥ وان يرجعوا هانوفر الى برنسويك ثم يسلخون عن الامبراطورية الفرنساوية ما ألحق بها من الولايات الالمانية اوما منح منها الى الامراء الفرنساويين و يعيدونها الى حالتها الاولى وان

يخلوا حافة الرين . وان يوطدوا الاستقلال التام المطلق لجميع الممالك الصغرى حتى الالب والرين والقصد من ذلك كله تقويض سلطة نابليون في المانيا بمنع محالفيه عنه فكان ملك بافيريا اول من انفصل عن الحلفة النابوليونية وانضم الى تحالف الدول وكان عمله بمثابة الفشل الثالث الذي لحق بنابوليون وذلك في اوغسطس وسبتمبر من سنة ١٨١٣

وزحفت جيوش المتحالفين الثلاثة معًا الى ليبسك وهي يومئذ المعسكر العام للفرنساويين واحتدم القتال هنالك ثلاثة ايام فتخلص نابليون بمئة الف رجل الى فرنسا وانهزم الامراء الفرنساويون . اما امراء الالمانيين فانهم انضموا الى المحالفة عليه فكان في ذلك خسارتهُ لالمانيا و بالنتيجة الفشل الرابع (اوغسطس وسبتمبر سنة ١٨١٣)

واذ وصل المتحالفون الى فرانكفورت عرضوا على نابليون ان يتركوا له فرنسا كما كانت سنة ١٨٠٠ الا انهُ لبث يواصل الزحف الى الامام في غضون المفاوضة لانهُ كان قد امر بحشد ثلثمئة الف رجل فنشر المتحالفون اذاعة بقرارهم الذي عرضوه عليه من فرانكفورت ومما قالوا في اذاعتهم انهم لا يحاربون فرنسا وانما يحاربون اعتداء نابليون بتسوده جهرًا على ما وراء تخوم امبراطوريته على انهم منحوا فرنسا بقرارهم هذا سعة من الارض لم تعرفها من قبل في ايام ملوكها السابقين — ومن ثم جازت جيوش المتحالفين نهر الرين واكتسحت فرنسا قاصدة باريز من صوب فرانش كونته والسين جنوبًا وفي المارن وسطًا ومن جهة هولاندا والواز شمالاً وكان نابليون قد فرق جيوشه حماة وحراسًا في كل معاقل المانيا وحصونها ولم يبق لديه الا الحرس وبضع شراذم من الجيش ضامًا الى من معه بعض المكتتبين حديثًا وجماعة من الحرس الوطني فانشأ بهولاء الجيش الذي جعله يحارب عن فرنسا الا ان المتحالفين عرضوا عليه ثانية ان يعود الى المخابرة في شاتيلون و زبدة شروطهم ان لا يبقى لفرنسا الا الحدود التي كانت لها قبل ١٧٩٢ واوشك نابليون ان يستسلم لمطالبهم ثم عاد فرفض اقتراحهم ولذلك فض مؤتمر شاتيلون في ١٨ مارس من سنة ١٨١٤

وعلم الحلفاء من رسائل فرنساوية قبضوا عليها ان باريز لا تقوى على الدفاع طويلاً لذلك زحفوا اليها توًا فاستسلمت لهم عقيب موقعة دامت نصف نهار ليس الا فاصبحت فرنسا تحت سلطة المتحالفين وحسب هذا فشل بونابرت الخامس واخر العهد بهذه الحرب على ان المتحالفين لما شرعوا في القتال لم يخطر لهم ببال الا ابعاد الفرنساويين عن المانيا ولم يقصدوا الا تقويض اعمال نابليون غير ان النصر قادهم الى فرنسا والى تقويض اعمال الثورة

نهاية الامبراطورية : فلما اصبح الحلفاء وهم سادة اوروبا وفرنسا شرعوا يدبرون



بونابرت بعد واقعة ووترلو

شؤونهما فبدأوا بتنظيم فرنسا واذ اقروا على التخلص من بونابرت ولم يكونوا راغبين في ارجاع الجمهورية اخذوا يفتشون عن ملك بوبدتها النظام الملكي ويوطد الصلح مع اوروبا فبدت لهم ثلاث مسائل اقتضت البحث لحلها : اولها ان يكون الملك ابن نابليون من ماري لويس ولكنهم كانوا يخافون ان يتعزز بملكه سؤدد جده امبراطور النمسا . ثانيها ان يتولاها برنادوت على ان الذي اقترح تملكه كان القيصر اسكندر الرومي الا ان سائر الدول ابت ان تبحث في شأنه لئلا تتحد فرنسا وروسيا بواسطته اتحاداً مكيناً . ثالثها ان تعاد الاريكة لآل البوربون على ان الحلفاء علموا منذ وطئوا ارض فرنسا انه لم يبق فيها من يفتكر بتلك الاسرة لان الناس نسوها في مدى العشرين سنة التي قضوها في الحروب والقتال يومئذ صرحت الحكومة الانكليزية انها لاتريد ان تجبر الفرنساويين على الرضوخ لاية حكومة كانت لان من الواجب بقاء الامة ولية امر نفسها تختار لها الملك الذي تريده

وكان وزير النمسا مترنيخ نافذ الكلمة بين ساسة أوروبا فتحزب للبوربون وسعى في تولية احدهم سرير الملك فاقتبل وفودهم وحمل الدول على ان تقرر ان كل ولاية فرنساوية تحتلها الدول المتحالفة تسلم لرجال البوربون اذا صرحت تلك الولاية بتحزبها لامراء تلك الاسرة وبعد دخول المتحالفين الى باريز عوّل الملوك ان يعهدوا بالملك الى لويس الثامن عشر عملاً برأي تاليران وصرحوا ء انهم صاروا لا يوافقون نابليون ولا يخابرون احداً من أسرته وانهم يعتبرون فرنسا القديمة كما كانت لعهد ملوكها الشرعيين وانهم

يعترفون بل يضمنون الدستور الذي تضعه الامة ، والخلاصة انهم اناطوا بمجلس الشيوخ تعيين حكومة موقتة يعهد اليها بادارة الاحكام واعداد الدستور وعهدوا بذلك الى المجلسين مجلس الشيوخ ومجلس التشريع وبالاحري ان يقال الى من عرفوه من الاعضاء ممالئاً لاسرة البوربون فاجتمع من المجلسين ثلاثة وستون عضواً من مئة واثنين واربعين عضواً واعلنوا سقوط نابليون من العرش وحل الشعب والجيش من ايمان الطاعة له وأنشأوا حكومة موقتة من خمسة اعضاء واجتمع من مجلس التشريع سبعة وسبعون عضواً من اصل ثلثمئة وثلاثة اعضاء وصادقوا على قرار السناتو وكان الجيش قد انسحب الى الجنوب الشرقي من باريز فبلغته اوامر المجلسين فشرع كبار القادة (المارشالية) الذي يحيطون ببونابرت في فونتنبلو ينصحون له بالاعتزال

يومئذ تمكن البوربون من الرجوع الى الملك وقد اوعز اليهم المتحالفون ان يقيموا النظام الحر وان يقبلوا بما حدث من التغيير في فرنسا منذ سنة ١٧٨٩ وان لايستخدموا في المصالح احداً من الذين كانوا من النازحين عن بلادهم وان من الواجب على لويس الثامن عشر ان يعلم انه لم يناد به ملكا عملاً بما له من الحق الموروث بل بحكم سنة وضعها مجلس الشيوخ . ومما ورد في نص ذلك القرار ان الشعب الفرنساوي يدعو بملء اختياره لتبوء الاريكة البرنس لويس ده فرنس وقد اشترط السناتو على الملك احترام حقوق الجيش والديون العمومية ومبيع الاملاك الوطنية وبعد هذا البيان رجع لويس الى فرانسا واعترف به مجلسا الشيوخ والتشريع ملكاً عليها

عهدنا سنة ١٨١٤ وسنة ١٨١٥ : فشرعت الحكومة الجديدة تتعاطى الاعمال باسم فرانسا فوقعت فى بادىء الامر على المهادنة وبموجبها تتخلى الجيوش الفرنساوية عن الحصون التي تحتلها . ومن ثم ابرمت شروط الصلح على ان المتحالفين اوجبوا على فرانسا رجوعها الى الحدود التي كانت لها سنة ١٧٩٢ لكنهم لم يمسكوا عنها شيئاً قليلاً من التوسع . ولم يطلبوا غرامة حربية بل رفضوا ان يأخذوا ١٦٣ مليوناً من الفرنكات كانت مستحقة لبروسيا وابقوا في المتاحف الفرنساوية ما كان نابليون قد استحوز عليه من متاحف البلاد التي فتحها من نفائس التحف والطرف وتجنباً لاذلال الفرنساويين اعلنوا انهم رغبة في محو اثار زمن الشقاء والبؤس تخلت الدول عما كان بامكانها ان تتقاضاه من المبالغ الطائلة ولا يريد المتحالفون ابقاء الجند حامية في فرنسا طالما ان لويس الثامن عشر قد اذاع الدستور الجديد وانهم ليخرجون من باريز ويخلون البلاد

على انهم في سنة ١٨١٥ غيروا في هذه الشروط ذلك انه لما علم القوم في فينا ان بونابرت رجع الى فرنسا اعلنت الممالك الاوروبية « ان نابليون بونابرت اصبح منقطعاً عن كل علاقة مدنية واجتماعية مع الناس وانه بالنظر لكونه عدوًّا لدودًا ومقلقًا لراحة العالم فمن الواجب تركه لانتقام العموم » ولم يخطر للدول ببال ولو هنيهة واحدة ان يخابروه في شيء او يعاقدوه على عهد وكانت جنود تلك الدول باقية تحت السلاح لم تنصرف الى أوطانها فسيروها على الفور الى فرنسا لتكتسحها من كل جهاتها

وقد رأى المتحالفون عقب اندحار نابليون ان عهدة سنة ١٨١٤ قد فسخت على ان البوربون لم يبرهنوا ان لهم من القوة ما يستطيعون به تعزيز سلطتهم فعولت الدول المتحالفة ان تفرض على فرنسا ضمانةً وفروضاً تبقيها في قبضة يدها رهينة تصرفها وبقائها تحت امرها فاتفقت ان تتقاضاها غرامة حرب طائلة وان تعاد الى البلاد المغلوبة نفائس الطرف التي انتزعها نابليون منها وان تقيم فيها كتائب من الجند حماة للمحافظة وان تشيد على نفقة فرنسا حصونًا في بلاد التخوم ومن ثم اقتسموا البلاد الفرنساوية فيما بينهم على ان كل دولة تقيم في الولايات التي اختصت بها عسكرًا يؤدي الاهلون نفقاته فاستمر الاحتلال سنتين حتى دفعت الغرامة

واتفقوا أيضاً على تنظيم الحدود بالاقتضاب منها وكان البروسيان وبعض الممالك الصغرى الالمانية يطلبون انتزاع الالزاس واللورين من فرنسا وكذلك بلاد فلاندر وكانوا يريدون ان يؤلفوا من هذه البلاد مملكة للارشيدوق شارل وطلبت النمسا ان تقوض على الاقل المواضع المنيعة على الحدود فانكرت انكلترا وروسيا هذا التقسيم فادّى اختلاف الدول الى الاكتفاء باخذ بعض المعاقل مع الحصون وبلاد سافوا وكونتية نيس في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨١٥ ومع ان هذه العهدة لم تكن شديدة الوطأة على فرنسا فقد حسبها الفرنساويون يومئذ نكبةً فادحة ووقعها الدوك ده ريشيليو الذي سعى بتلطيف شروطها وكان ابان التوقيع عليها اقرب الى الموت منه الى الحياة وهكذا اشترت فرنسا رجوع بونابرت بمليار من الفرنكات وباحتلال عساكر الحلفاء فيها مدى سنتين ولكنها فضلت ذلك على تجزئتها وتقسيمها

مؤتمر فينا : كان على الحلفاء ان ينظموا شؤون اوروبا بعد اذ قضوا لبانتهم من تضييق احوال فرنسا فانعقدوا على الاجتماع في فينا حيث اقاموا مؤتمرًا عاماً اجتمع اليه نواب جميع الممالك (فكانوا ٩٠ نائباً دولياً و٥٣ عن الامراء التابعين للدول الكبرى) وكان اجتماع رجال السياسة بعد حرب عوان مدى سنين جمة وسيلة لاقامة الحفلات والمسرات وعينت حكومة النمسا لجنة من رجال القصر الامبراطوري وعهدت اليها القيام بكل ما من

شأنه مسرة ضيوفها اثناء وجودهم في فينا

وكان ٣٠ مايو سنة ١٨١٤ اليوم المعين لافتتاح المؤتمر ثم تعين اول يوم من اكتوبر ثم اول نوفمبر ولم يفتح ابوابه في يوم منها ولم ترغب الدول المتحالفة في مشاركة الممالك الصغرى بالبحث في شؤون اوروبا فاتفقت على تقرير المسائل فيما بينها وان تقوم لجنتان بادارة الاعمال ومن ثم تعرضان قراراتهما على المؤتمر فلا يبقى له الا التصديق عليها فاعترض تاليران معتمد فرنسا على تلك الطريقة وعلى اطلاقهم على انفسهم اسم الحلفاء (لان ليس لهذا الاسم معنى الا في زمن الحرب) ومن ثم فاز بالحصول على موعد افتتاح المؤتمر الرسمي في اول نوفمبر فطلب معتمدو بروسيا ان يكون الحكم فيه بحسب الحقوق العامة فوقف هاردنبرج واضعاً يده على المائدة قائلاً « ايها السادة لاجدوى من اعتماد الحقوق العمومية . ولماذا تقولون ان نعمل طبقاً للحقوق العمومية ؟ ان ذلك يجري من غير قولٍ » فاجاب تاليران « اذا كان العمل بموجب الحقوق العامة يجري من غير سابق قولٍ فانه يجري مجرىً احسن اذا سبق فتكلمنا فيه » فقال هامبولدت « اي شيء تعمل هنا الحقوق العامة ؟ » فاجاب تيلران « انها عملت بايجادك هنا » ومن ثم كتب الى لويس الثامن عشر ما يأتي « انهم يزعمون انا فزنا بادخالنا مبدأ الحقوق العامة فمن هذا الزعم يمكنك ان تعلم ما هي خواطر المؤتمر »

غير ان ذلك لم يكن انتصارًا الا في الظاهر لان مبادىء الحقوق العمومية لم تكن من قبل قد توطدت في اوروبا وقد جاءت الحروب الاخيرة فاتمت تضعضعها وقد اعلن تاليران باسم لويس الثامن عشر انه لا يرى حق التملك مقتصرًا على الفتوح وحده على انه هو نفسه كان ايام نابليون لا يعترف بغير حق الفتوح . ولما قعدت فرنسا عن الفتح حاول الرجوع الى المبادىء القديمة قائلاً « ان البلاد ملك ولي امرها الشرعي » يعني الملك الوارث ولذلك يجب ان يعاد الى كل امرة مالكة ما كان في ملكها الا ان المتحالفين بصيرورتهم فاتحين اقلوا من احترامهم للحقوق المشروعة وبذلك سقط المبدأ القديم من غير ان يعوضوا عنه برأي جديد . وما من أحد من السياسيين رضي باستشارة الاهلين عما يتعلق بهم بحجة ان تلك طريقة الثوار وانهم يعملون الآن على محو اثار الثورة

فلم يبق اذًا يومئذ من قانون يعول عليه الا ارادة المتحالفين ذلك ما كان يسميه القيصر بالاتفاق الاوروبي وقد جاءه يوماً تاليران يستعلم منه عن نواياه فقال له القيصر « يجب على كل واحدٍ ان يبحث عن الموافق له » فاجاب تاليران « وعلى كل ان يؤيد حقوقه » فقال القيصر « اني لاحتفظ على ما تحتله عساكري » اجاب تاليران « بل ان جلالتكم لاترغبون الاحتفاظ

الا بما كان لكم حقاً مشروعاً لان الحق اولاً ثم الموافق » فاجاب الاسكندر « ان اتفاق اوروبا هو الحق »

وحقيقة الحال ان المؤتمر لم يفتتح لان اللجان المؤلفة من نواب الدول الكبرى فقط هي التي حلت المسائل • على ان هذه اللجان كانت مؤلفة من نواب الدول الخمس (الاربع المتحالفة وفرانسا) وآونة من معتمدي ثماني دول (وهن دول الحليفات الاربع وفرانسا مع السويد واسبانيا وبورتغال) اما الدول الاخرى فلم يكن يؤخذ لهن رأي فاقتسمت البلاد بين الملوك باعتبار ثروتها وعدد سكانها غير ملتفتين لرضا الاهلين — ودوّنوا القوانين التي وضعتها اللجان بصورة معاهدات عقدت بين الدول ثم جمعت هاته المعاهدات والمواثيق في مجموعة سموها اعمال مؤتمر فينا L'acte final du Congrès du Vienne

وهكذا تسلط نابليون على كل اوروبا وبدّل في شؤونها جمعاء • على ان المتحالفين انقذوها من يده على انهم كانوا لا يقدرون على ارجاعها الى ما كانت عليه سنة ١٨٠٠ ولا هم يرغبون في ذلك فعزموا على تنظيمها من جديد وقبل جلائهم عن باريز عقدوا فيما بينهم عهدة سرية مؤرخة في ٣٠ مايو ان يعزلوا فرانسا من بينهم ومن ثم يتدبرون في تنظيم شؤون البلاد المأخوذة من فرانسا وتلك البلاد هي البلجيك والضفة اليسرى من الرين[1] وهولاندا وسويسرا والمانيا وايطاليا وغراندوقية فارسوفيا على ان المتحالفين نظروا اولاً في القضايا التي كانوا قد اتفقوا عليها وارجعوا الحكم في هولاندا الى اسرة اورانج وضموها الى البلجيك فتألف منها مملكة البلاد الواطئة — وعادت سويسرا الى محالفها والحق بها ثلاث مقاطعات جديدة هن جنيف وفاليه ونيوشاتل وجعلوا الضفة اليسري من الرين تعويضاً عما خسر أمراء الالمان - واستتب الملك في اسبانيا والبورتغال لملوكها القدماء — وعادت الشؤون في ايطاليا على حالها قبل الثورة[2] الاجمهوريتاجنوا وفنيسيا فان الاولى أعطيت غرامة لملك سردينيا والثانية للنمسا — وأعاضوا ملك السويد عن فنلاندا بنروج التي انتزعوها من ملك الدانمارك حليف نابليون

(١) وكانوا قد تركوا لفرانسا بلاد سافوا وكونتية نيس (٢) لكنهم تركوا مورات ملكاً على نابولي مكافأة له لتخليه عن نابوليون الا انهم لم يعترفوا به رسمياً وفي سنة ١٨١٥ ارجع الملك في نابولي لآل بوربون ولما حاول مورات ان يرجع الى مملكته قبضوه واطلقوا عليه الرصاص

وقد اجلت الدول البحث في ثلاث قضايا سوالحهم فيها متباينة واول هذه القضايا ترتيب المانيا (فان بروسيا كانت تريد اعادة الامبراطورية اما النمسا فتؤثر انشاء حلفة) القضية الثانية البحث في ما تعطاه بروسيا من التعويض (فان بروسيا تريد ان تضم اليها مملكة ساكس اما النمسا فكانت لاترضى ان يتاخمها البروسيان على حدودها في بوهيميا وكذلك كان الحلفاء يوجسون خوفاً من ان تصبح بروسيا ذات منعة في المانيا) القضية الثالثة غراندوقية فارسوفيا (فان الاسكندركان يريد الاحتفاظ بها ليتسنى له انشاء مملكة بولونية اما انكلترا والنمسا فانهما تأبيان ان تتركا القيصر يزداد تقدماً في اوروبا • وظلت الدول تتباحث في فينا في هذه القضايا الثلاث ولايجمعون عليها فاتخذ تاليران تنازعهم فرصة لارجاع فرنسا الى مصاف الاتفاق الاوروبي واعترض على انتزاع ساكس من ملكها الشرعي • وكانت بروسيا تعتمد على الروسية فترك لها القيصر بلاد الساكس بغية الحصول على بولونيا فاتفق تاليران مع انكلترا والنمسا فارتضوا بدخول فرنسا في اللجان وعقدت هاته الدول الثلاث حلفة دفاع وكتب تاليران الى لويس الثامن عشر ما يأتي : « مولاي لقد انفصمت عرى المحالفة انفصاماً دائماً ولم تعد فرنسا منفردة في أوروبا » يومئذ اوشك الحال ان يفضي الى احتدام الحرب ولكن ما عتم ان تم الاتفاق بين الدول بحيث نال الاسكندر بولونيا وترك بروسيا غير نائلة ارباً وابوا خلع ملك ساكس فعرض البروسياني ان يعطوه عوض بلاده مملكة جديدة ينشئونها له على ضفة الرين اليسرى اذ كان من رغائب ساسة البروسيان تجنب مجاورة التخوم الفرنساوية وكان من مصلحة فرنسا ان يحول بينها وبين بروسيا دولة ضعيفة الحول يسودها ملك محالف لها ومع ذلك رفض تاليران هذا الترتيب لمخالفته للحق المشروع وخشية ايقاع الخلل في التوازن الالماني واخيراً رضخ البروسياني بقبول التعويض باربع انحاء هي شمالي ساكس وسكانها ٧٨٢,٠٠٠ نفس وجزء من بولونيا يسكنه ثمانمئة وعشرة الاف نفس وقطعة من شمالي المانيا سكانها ٨٢٩ الف نفس وعلى الضفة اليسرى من الرين قطعة من الارض يسكنها ١,٠٤٤,٠٠٠ نفس وبذلك وجدت بروسيا بالرغم عنها متاخمة لفرنسا ساعية في التحصين دفاعاً عن الرين

وكان الوطنيون الالمانيون الذين نهضوا لمحاربة بونابرت تخلصاً من تسوده فيهم يريدون ارجاع الامبراطورية الجرمانية القديمة فعرض ساسة البروسيان ان يتخذوا امبراطور النمسا امبراطوراً عليهم على ان تقيم هاتين الدولتين الكبيرتين ادارة (دبركتوار) للحكم فيكون

الامر لالمانيا وبروسيا في الشمال والنمسا في الجنوب. اما امبراطور النمسا فرفض ان يلقب بامبراطور المانيا وابى قبول حكومة مشتركة يعرض عليه فيها اقتسام الحكم مع بروسيا. اما ملوك الممالك الصغرى فارادوا الاحتفاظ على تسودهم الذي نالوه سنة ١٨٠٦ فلم يكونوا يرتضون بانشاء سلطة اعلى ولا ان يذعنوا لملك بروسيا الذي كانوا يحسبونه مماثلاً لم

وكانت الدول الاوربية المتحالفة سنة ١٨١٣ قد وعدت الامراء الالمان بالتخلي لم عما يمتلكون من الاراضي لان الدول كانت تقصد يومئذ ادخالهم في الحلفة وهذه الحكومات السائدة لاتستطيع ان تنشىء امة لوحدها ولذلك تقاعدت عن ارجاع الامبراطورية التي قوضها نابليون واقتصرت من ذلك على انشاء حالفة (Deutscher-Bund) يراد بها عقد اتحاد دائم بين الممالك وديوان حافل (Bundestag) يكون عبارة عن مؤتمر مستمر مؤلف من معتمدي كل واحدة من الدول المتحالفة ـ هذه كانت اعمال مؤتمر فينا الذي كان حافلاً بنواب كل حكومات اوربا فاكمل نقصه سنة ١٨١٥ عقيب سقوط نابليون ثانية ولم يعمل هذا المؤتمر فقط على اتخاذ الوسائط التي من شأنها منع فرنسا من تجديد الحرب بانتزاعه منها ما استحوزت عليه بفتوحاتها واقامته لمقاومتها عدداً من المعاقل والحصون. بل حاول أيضاً ان يمنع في المستقبل كل حرب بين الملوك فان ما ترنيخ الذي كان يومئذ يسود على اراء سائر ساسة الممالك بذل قصاراه ليحملهم على قبول مبدإ لم يكن معروفاً في القرن الثامن عشر. ذلك ان يكون جميع الملوك عبارة عن عائلة كبيرة وان من مصلحة جميع الحكومات ان تتعاون وتتعاضد على رعاياها واما الخلاف بين الملوك والحكومات فمتى نشب يفصل بالتحكيم فقرروا ان يعقدوا المرة بعد الاخرى مؤتمرات يفوض اليها الاهتمام بالابقاء على اتصال العلائق الودية بين الحكومات وان ينظروا في الوسائل التي تقاوم الشعوب الغضبى

تلك ما تعرف بخطة ماترنيخ وقد جروا على هذه الخطة باطراد مدة عشر سنوات كان السياسيون خلالها يعقدون المؤتمرات الكثيرة ويخمدون بها ما يبدو من اهتياج الافكار والخواطر والعصيان بل ارسل المؤتمر ذات مرة جيشاً نمساوياً لمعاضدة ملك نابولي. وفي مرة اخرى بعث جيشاً فرنساوياً يعين ملك اسبانيا. وفي كلا البعثين كان المؤتمر يعضد الملك على رعيته

وظلت عهدة سنة ١٨١٥ اساساً للحقوق الدولية مدى اربعين عاماً (حتى حرب القرم) فلم تنشب في تضاعيفها حرب مهمة في اوربا. على ان اعمال المؤتمر اضمحلت في خلال المدة الواقعة بين سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٧٠ الا انه بقي منها اثر في اذهان رجال السياسة

عقد المؤتمرات الاوربية وانشاء محكمة المحكمين لمنع الحرب

الا وهو ما ألفوه من عقد المؤتمرات الاوربية وانشاء محكمة المحكمين لمنع الحرب

اوربا سنة ١٨١٥ : سعت الممالك الاربع الكبرى المتحالفة فارجعت الى اوربا شؤونها القديمة قياماً لمصلحتها لانه كان من غرضها ان تعاد هاتيك الممالك الى حالها قبل الثورة. لكن الحقيقة ان حكمها لم يجرِ الا على فرنسا وحدها لانها أرجعت الى تخومها التي كانت لها سنة ١٧٩٢ بينما كانت الدول الاخرى العظيمة قد خرجت من حالة التغيير اكثر اتساعاً بما الحق بها من املاك الدول الصغرى سيما من املاك جمهوريات ايطاليا. والولايات الاكليركية الالمانية التي قوض نابليون اركانها فلم ترجع الى ما كانت عليه. أما بولونيا التي تجزأت ايام الثورة فظلت منقسمة بين الدول الثلاث الشرقية الكبرى الا مدينة كراكوفي فانها جعلت مدينة حرة مستقلة في ادارتها

وأما النمسا فاستعاضت عن البلاد الواطئة التي لم تعمل على حفظها بمملكة فينيسيا وبها امتدت الاملاك النمساوية في الجنوب الشرقي حتى الادرياتيك وامتدت في ايطاليا حتى تاسين واستعاضت عن هذه الاملاك المبعثرة في الموضع المسمى بالغاب الاسود La Forêt Noire واحتفظت باسقفية سالزبورج التي تتاخمها من الجنوب الغربي

واحتفظت بروسيا على بوسناني البولونية التي حصلت عليها في تقسيم سنة ١٧٩٣ وعوضاً عن الولايات البولونية الاخرى التي كانت قد امتلكتها سنة ١٧٩٥ أعطيت ولاية ساكس وولاية الرين وبقي لها بلاد وستافلي Westphalie التي اخذتها بديلاً عن بعض الاملاك الصغرى في الضفة اليسرى من الرين فاصبح لها يومئذ اربع ولايات زيادة عما كان لها سنة ١٧٨٩ واتسعت املاكها فاصبحت وما هي كما كانت من قبل قطعاً مبعثرة وانما جسم واحد يكاد يكون متصل الاجزاء [1] ممتد في كل المانيا الشمالية من حدود روسيا حتى حدود فرنسا

واحتفظ القيصر على الولايات المتجزئة من بولونيا وعلى فينلاندا التي غاب السويد عليها سنة ١٨٠٩ واسترجع من بروسيا الجزء الذي أعطي اليها من بولونيا سنة ١٧٩٥ ليعيده مملكة باسم بولونيا على ان يكون ملكاً عليها

واما انكلترا فلم تطلب في اوربا شيئاً الا جزيرة صغيرة اسمها هلكولاند واخذت

(١) وانما بقي فيها بقعتان احداهما في الشرق مكلمبورج وثانيتهما في الغرب الدول الثلاث الصغرى الا وهي هانوفر وهس وناسو

تعويضها من مستعمرات فرنسا وهولاندا

وبقيت الاقطار الاوربية الواقعة بين بلاد الدول الكبرى وهن الثلاث الشرقية روسيا والنمسا و بروسيا والغربيتان فرنسا وانكلترا امارات وممالك صغرى . ولم تبقَ المانيا تلك الامبراطورية الكبرى الخالية من القوة المؤلفة من ثلثمائة قطر تتداخل بعضها في بعض وعلى ادارتها ثلثمائة حكومة تختلف الواحدة منها عن الاخرى وكل زعيم لها هو حاكم مستقل (١) ولكنها منذ مرّ عليها الفرنساويون زال تشويش ترتيبها وصار اقرب الى البساطة لانها تخلصت من النبلاء السائدين ومن كل الامراء الكنسيين ومن كل المدن الحرة تقريباً فصارت على الطرز الذي وضعه بونبارت حلقة امراء تعود ادارتها للنمسا

وتجزأت ايطاليا من جديد الى ممالك صغيرة فكان في الجنوب منها مملكة نابولي وفي الوسط ولايات الكنيسة والدوكيات الثلاث توسكانا وبالرم ومودان وفي الشمال سردينيا التي اتسعت بامتلاك جنوا Gênes وبالولايتين النمساويتين ميلان وفينيسيا اللتين اتحدتا تحت ادارة عامة باسم مملكة لومبارديا فينيسيا . وكانت النمسا لتسودها في وادي بو وامتلاكها الدوكيات الثلاث المختصة بامراء من النمساويين قد جعلت ايطاليا تحت سلطتها

وظلت المانيا وايطاليا على ما كانتا عليه منذ القرون الوسطى اي امماً متفرقة وكلتاهما كانتا تدينان لنفوذ النمسا التي كان من مصلحتها بقاؤهما في حالة التفرق والتجزؤ . وصارت لا ترغب في التوسع لانهُ يسهل عليها ادارة الممالك الضعيفة

وبقي على تخوم فرنسا مملكتان صغيرتان انفصلتا من قبل عن الامبراطورية القديمة الجرمانية وهما سويسرا التي اتسعت بانضمام جنيف ونيوشاتل ولا فالي فصارت حلقة مؤلفة من ٢٢ مقاطعة . ومملكة هولاندا التي تضاعفت بانضمام البلجيك اليها وصارت تسمى البلاد الواطئة وقد صرحت كلتا الدولتين الصغيرتين بانهما على الحياد ومن ثمَّ وُضعتا تحت حماية كل الدول الاوربية

اما في شرقي اوروبا فقد انقرضت مملكة بولونيا وعزلت مملكة السويد في شبه جزيرة سكندينافيا ثم اخذت مملكة نروج عن الدانمارك وضمت الى السويد

فتنظمت شؤون اوروبا سنة ١٨١٥ كما كانت في القرن الثامن عشر على نسق يحفظ

---

(١) حكامها بين ملك وامير بلقب غراندوق ودوك والكتور أي منتخب وغير ذلك (للمترجم)

التوازن بين قوى الدول الكبرى وضعف الاقطار الوسطى حيث يجب ان يتعادل فيهن نفوذ الدول الكبرى وقد استمر هذا الترتيب نصف قرن الى الوقت الذي فيه ناب عن حب التوازن الرغبة في مبدأ الوحدة بالمانيا وايطاليا

الفصل العاشر

الحكومة الدستورية في اوروبا

رجعة الملكية في اوروبا : — لما رجع ملوك اوروبا الى امتلاك ما كان لهم سنة ١٨١٤ سعوا جهدهم لاعادة الحكومة الى ما كانت عليه قبل الثورة على ان منهم من رغب في مجرد الرجوع الى الوراء كملك سردينيا الذي خطر له ان يهدم طريق كورنيش لانها كانت من عمل الفرنساويين . وعزم منتخب هس على تنزيل القادة عن درجاتهم التي نالوها في غضون تغيبه — على ان بعض الحكومات الراجعة حافظت على شيء من الشؤون التي حدثت زمن الثورة من مثل حرية الصناعة والزراعة ووحدة الشرائع وتنظيم الادارات على نسق قانوني وبالاجمال كلما بدأ به الاستبداد المستنير مما ينقص سلطة الدولة ولكنهم صرحوا بان الثورة جريمة غير مشروعة وانه من اواجب اعادة الملكية المطلقة . وكان لويس الثامن عشر يلقب نابليون بالمغتصب ويحسب سنة ١٨١٥ السنة الحادية والعشرين من ملكه

على ان رجوع الملكية المطلقة هذا يسمى برجعة الملكية La restauration ومنذ يومئذ نشأ في أوروبا نظريتان متناقضتان لتحديد الحكومة احداهما الحكومة المطلقة والثانية الحكومة الدستورية فاصبح في كل قطر حزبان متعاكسان احدهما حزب الحكومة المطلقة والثاني حزب الحكومة الدستورية (المسمى بالحر) وليس الاختلاف بين الحزبين في شكل الحكومة لان اشياع الدستور لا يؤثرون الجمهورية على الملكية وانما وجه الخلاف على مبدأ السلطة ذاتها

على ان مبدأ الحكم المطلق يقرب جداً من المبدأ القديم الا وهو الحق الالهي بحيث يكون للملك وحده كل السلطة على بلاده وان الله اودع السلطة في عائلة الملك ومن ارادته تعالى ان تنتقل من الاب الى الابن وحقوق الملك هذه متصلة به من الدين والتقليد

ولكنهُ لم ينلها من رعية ولذلك لا يلتزم باداشهم الحساب عنها بل يحكم فيهم بما يظنهُ حسناً متبعاً ضميرهُ غير مقيدٍ بشيء من السنن والقوانين فكل سلطة تصدر عنهُ فله حق الحكم واشتراع القوانين ووضع الضرائب. الا ان الرعية احتفظت في بعض الممالك على حق انتخاب نواب عنهم يؤلفون مجلساً ويغلب في الملوك ان يحكموا بالاتفاق مع ذلك المجلس الا انهُ اذا تعذر اتفاق الملك والنواب فعلى النواب الخضوع والتسليم لانه ليس للملك من خصائص الامة وانما هو من حقوق الامير

ويحسب اشياع الحكومة المطلقة انهُ لا يمكن ان يتقيد الملك بشيء من القيود ازاء رعيته ولذلك ينبذون كل دستور مكتتب ولا يعترفون بقاعدة غير ما في التقليد وارادة الملك. ولما كانوا يعتقدون ان الدين يوحي باعتبار الملك رغبوا في جعل الدين الزامياً وحفظوا لكنيسته سلطة سياسة (ذلك ما كانوا يسمونهُ اتحاد العرش بالهيكل) — واذ كانوا يخشون من الجرائد انتقادها على اعمال الحكومة رغبوا في جعلها تحت المراقبة المستمرة فكانوا في اغلب الاحايين يشايعون المراقب الذي يفحص المقالات قبل السماح بطبعها

على ان اشياع الحكومة المطلقة في كل بلاد يكونون من رجال البلاط ومن العمال ويلحق بهم القسم الاكبر من الاشراف والكهنة والفلاحين والعاطفة المتسلطة عليهم هي اعتبار الماضي وحب الترتيب

اما المبدأ الدستوري فقائم على مبدأ سلطة الامة وهو قريب جداً من مبدا الحكومة الدستورية البريطانية التي تعترف للملك بحق الملك الا انه لا يملك الا برضا الامة وبموجب ميثاق فلا يحق له سن القوانين ولا وضع الضرائب ولا اختيار الوزراء بمجرد ارادته بل لا يستطيع ان يحكم الا بالاتفاق مع المجلس الذي يمثل الامة واذا اختلف الملك والامة فعلى الملك الامتثال والتسليم لان الامة هي السائدة

وتأميناً للامة على حقوقها يضعون دستوراً مكتوباً هو الشريعة الاساسية في البلاد ويتعهد الملك ووزراؤه بالعمل به. واذا اخلوا بشيء منه فللامة الحق بمقاومتهم ويكون الوزراء مسؤولين عما يعملون ولما كان من افضل الذرائع المانعة لتجاوز السلطة حدودها هو اشهارها للناس طلب الدستوريون حرية الكلام والكتابة والاجتماع كذلك طلبوا حرية المعتقد والمساواة بين المذاهب

وكان معظم الدستوريين يقيمون في المدائن وسوادهم من الاوساط والعملة والمتشرعين والكتبة وكان شعارهم النجاح والحرية

وهكذا بدأ الخصام بين هذين الحزبين عقيب رجعة الملكية وكان معظم الخلاف في القضيتين الآتي ذكرهما :

القضية الاولى : يطلب من الحكومة وضع دستور مكتتب تقرر فيه حقوق الرعية فابت الحكومة التقيد بحقوق تمس مقام الملوك

القضية الثانية : يطلب الاحرار حرية المطبوعات وتأبى الحكومة ان تسمح بطبع الكتابات المزعزعة للاركان Subsetsifs (والمراد بها ما كانت تقدح بنظام الهيئة الاجتماعية والحكومة) فاحتفظت على المراقب

وكان اشياع الحكومة المطلقة في سنة ١٨١٥ هم ولاة الامر في كل ممالك اوربا تقريباً لذلك اخذوا يتعقبون الكتبة المنتقدين ويقيمون عليهم الدعاوي في المحاكم ويمنعون الكتب والجرائد الاجنبية ويزجون قراءها في السجون. وكانت حكومة المانيا توجس خوفاً من اجتماعات طلبة العلم فاجتمع مؤتمر كارلسباد اجتماعاً خصوصاً فقضى به بفض الاجتماع المسمى Burschenschaft وباقامة مراقبين في المدارس الجامعة حاظراً كل اجتماع يعقده الطلبة وادى ذلك الى اعتقال كثيرين من اولئك الطلبة في القلاع — فشرع الاحرار يؤلفون الجمعيات السرية. ومن ثم اخذوا يحاولون بالمؤامرات والثورات قلب الحكومة وارغامها على منح الدستور

النظام البارلماني في انكلترا : ان انكلترا هي مهد النظام البارلماني وفيها كانت نشأتهُ وعن قومها الانكليز اخذ الشعوب الاخرى مناهج الشورى

ونشأ النظام البارلماني في انكلترا في القرن الثامن عشر وقد سار في اعماله على عهد الملكين جورج الاول والثاني (من سنة ١٧١٥ الى ١٧٦٥) سيراً يقارب سيرهُ في القرن التاسع عشر ولم يكن له يومئذ دستور مكتتب كما هو شانه اليوم وانما تراه يجري على احكام العادة المتبعة وبحسبه تجدن السلطة موزعة بين ثلاث هي الملك بالارث ومجلس اللوردات الذين يتولون مناصبهم بالارث ايضاً ومجلس النواب المؤلف من اعضاء ينتخبهم الاهلون ولقد كان البارلمنت يحسب ان عمله مقتصر على سن القوانين وتقرير ميزانية الدولة ويحسب الملك ان خصائصهُ انتخاب الوزراء والقيام بالسلطة التنفيذية ولم يكن مسئولاً وما برح كذلك ويقولون انهُ اذا اتى عملاً مخالفاً فذلك لان مشيريه لم يحسنوا المشورة ولذلك فان وزراءهُ هم المسئولون دونه لدى البارلمان فكان الملك يستوزر زعيم حزب الاغلبية في مجلس النواب ويفوض اليه اختبار زملائه وان يبقى متولياً الحكم ما دامت له الاغلبية في

البارلمان وهكذا تكون السلطة برمتها للبارلمان وليس الملك واللوردات الا زينة

وقد تطرّق التغيير الى هــذا النظام على عهد جورج الثالث سنة ١٧٦٠ سيما خلال الحرب مع فرنسا فانصرف الملك الى القيام بحقوقه وشرع يختار الوزراء على مايريد ولو كانوا من غير اصحاب الاغلبية في المجلس حتى انهُ قد يفصلهم متى فازوا بالاغلبية وكان يحضر مجلس الوزراء و يجبرهم على الانصياع لما يريد على ان حزب الاحرار Whigs الذي تولى الحكم من سنة ١٧١٥ فقد خسر الاغلبية تماماً في سنة ١٧٨٣ واصبح عدد اعضائه في زمن الحرب ستين رجلاً واما حزب المحافظين المسمى The tory party اشياع الامتياز الملكي فانهم يدلون للملك بادارة السياسة وتلك كانت يومئذ قائمة بمناوأة فرنسا وقتالها فالوسائل التي اتخذت ضد الحصر البحري الاوربي لم يعمل بها بحسب القوانين بل بمجرد صـدور اوامر الملك المبنية على المشورة

أما الثورة الفرنساوية التي سفكت دم احد الملوك وزعزعت الكنيسة وضبطت الاموال الخاصة وقلبت الدستور والتاج فانها هالت الانكليز وجعلتهم يكرهون كل تغيير فمضت ثلاثون سنة تعذر فيها ادخال شيء من الاصلاح على انكلترا . وبينما كان الفرنساويون يزعزعون اركان النظام القديم لبث الانكليز محافظين على الشؤون القديمة . فلما استتب الصلح سنة ١٨١٥ بدأت في انكلترا حركة خواطر مزدوجة الغاية يراد بها ان يحصلوا من الحكومة على اصـلاح النظام القديم وتجديد النظام البارلماني بحيث يزيد في سلطة مجلس النواب ويخفض من نفوذ الملك

وكانت مطالب الاصلاح دائرة على ما يأتي :

اولاً — اصـلاح قانون الجزاء الذي كان منهُ ماسنَّ في القرن السادس عشر (وفيه الشيء الكثير من الاحكام الصارمة المملوءة بالقسوة كالعقاب بالوسم و بالربط في العامود والجلد و كذلك لحكمه بالقتل عقاباً على نحو مئتين من الذنوب . ومن جملة ما هنالك ان من الجنايات الكبرى ان يسرق الانسان ما قيمته خمسة شلنات من احد الحوانيت أو يأخذ ارنباً من زريبة او ان يقطع شجيرة) فنال الطالبون بعض الاصلاح المقصود سنة ١٨٢٠

ثانياً — اصلاح الطريقة الاقتصادية التي وضعها كرومويل وتمت خلال حروب الامبراطورية و بها يحظر على الاساكل الانكليزية قبول غير السفن الانكليزية وكانت الرسوم على البضائع الاجنبية فادحة وفي منتهى التشويش بحيث اقتضى لاستيفاء ذكرها الف ومئتا مادة ومنع ايضاً استيراد الحبوب الى انكلترا مالم تبلغ الاثمان حدّاً مرتفعاً مع

انهُ ليس في البلاد من القمح مايكفيها) فتمَّ اصلاحها بين سنة ١٨٢٣ و ١٨٢٨

ثالثاً — اصلاح الشؤون الدينية لان الاديان كانت تحت طائلة الاضطهاد المسنون في القرن السابع عشر (كان الكاثوليك يحرمون من كل الوظائف ولا ينال احدهم حق التوظيف نائباً في البارلمان لانه كان يُطلب من كل من يتقلد منصباً التصريح بما يخالف شيئاً من معتقد الكاثوليك) فتقرر اعتاق الكاثوليك سنة ١٨٢٩

رابعاً — أما الاصلاح في الانتخاب فلم ينالوهُ الا بعد مرور زمن طويل بل ظلوا على النهج القديم الموضوع منذ القرن الرابع عشر فان النواب كان ينتخب بعضهم من جمعيات المقاطعات (الكونتيات) المؤلفة من الملاكين في كل المقاطعات و ينتخب بعضهم من سكان بعض المدائن الممتازة الا انه لم يتغير شيءٌ منذ العصور الوسطى لا في توزيع انتخاب النواب ولا في الطريقة الانتخابية ولهذا كان الانتخاب كله مفاسد

كانت مراكز النواب في باديء الامر موزعة على الاهلين توزيعاً غير منتظم فان ايرلندا كانت تنتخب مئة نائب من اصل ٦٥٨ نائباً وتنتخب اسكتلاند خمسة واربعين نائباً و بلاد الغال اربعة وعشرين وترسل انكلترا وحدها ٤٨٩ عضوا حتى ان التوزيع بذات انكلترا لم يكن عادلاً مضبوطاً فالعشر المقاطعات الواقعة في جنوب انكلترا وليس فيها الا ثلثة ملايين من النفوس تنتخب ٢٣٧ نائباً بين ان غيرها من البلاد يبلغ عدد اهلها ثمانية ملايين من النفوس ينتخبون ٢٥٢ نائباً واسكوتلاندا وعدد اهلها مليونان ترسل خمسة واربعين نائباً اما بلاد كورنواليس وسكانها ثلثمئة الف رجل يمثلها اربعة واربعون نائباً واغرب ما كان من عدم التساوي كان بين المقاطعات والمدائن فالمقاطعات التي فيها معظم الاهلين لم تكن تستنيب الا ١٨٦ نائباً بين ان المدائن تنتخب ٤٦٧ نائباً وانكى من هذا ان مقاطعة ميدلسكس التي تحتوي تقريباً على كل مدينة لوندرا لم يكن لها من النواب اكثر من اولد ساروم التي لم يبق فيها سوى عائلة واحدة . ولم يكن في معظم المدائن من المنتخبين الا عدد طفيف فكان لستة واربعين مدينة اقل من خمسين منتخباً ولتسعة عشر مدينة اقل من مئة منتخب ولستة واربعين مدينة نحو مئتي منتخب وكانت اربع وثلاثون مدينة خالية من السكان منذ العصور الوسطى ولم يكن بها هيئة انتخابية فهي مدن خربة . اعتبر ذلك بمدينة بارالستون فان فيها بيتاً واحداً ومدينة كاتون صارت حديقة و بلدة و بنويش غمرتها المياه منذ عصور ومع ذلك ظلت جميعها ترسل نواباً عنها (وعادتها ان تستنيب عنها نائبين) وعلى عكس ذلك المدن التي نشأت منذ القرن السادس عشر

كليفر بول ومنشستر والتي ينيف عدد سكان الواحدة منها على المئة الف نفس فانها كلها لم تكن تنتخب احداً وقد احصوا انه في سنة ١٧٩٣ كان في مجلس العموم ٢٩٤ عضواً منتخبين من المجالس الانتخابية التي كان عدد المنتخبين فيها اقل من ٢٦٠ رجلاً وان اغلبية المجلس كانت منتخبة من اقل من خمسة عشر الف صوت

فتنتج من ذلك ان النواب و بالاولى ان يقال نواب المدن لم يكونوا بحقيقة الحال ممثلي الامة وانما كان انتخابهم برأي الحكومة او اصحاب الاملاك في المدن بحيث كان ٤٢٤ مركزاً من الـ ٦٥٨ في المجلس تحت نفوذ ٢٥٢ شخصاً من النافذين او من الحكومة بحيث اصبح اولئك النافذون سادة يتصرفون بتلك المراكز فيختارون لها من يريدون من النواب اذا لم يرغبوا ابقاءها لانفسهم او لاولادهم فيمنحونها لمريديهم وفي سنة ١٨٢٩ ارغم الدوك دي نيوكاسل (صاحب مدينة نيوراك) احد نواب هذه المدينة على الاستقالة وطلب من الاهلين انتخاب رجل يخصه وكان المنتخبون من مزارعيه ولكن تجرأ منهم ٥٨٧ منتخباً فاعطوا اصواتهم لمن كان يناظره فطردهم الدوك جميعاً من املاكه ولكن تشكى بعضهم الى مجلس العموم فاجاب الدوك على الشكوى قائلاً « الا يحق لي ان اعمل في املاكي ما اشاء واختار ؟ » — وفي الاحايين كانوا يبيعون منصب النيابة وكان في نهاية القرن الثامن عشر ان كثيرين من الانكليز اثروا في الهند (ناباب) او بالتجارة فنالوا لثروتهم منصب النيابة في المجلس اذ طمحت اليه نفوسهم كانها طرفة من الطرف فكان لنيل ذلك المنصب ثمن يصعد ويهبط حسب الاحوال

وزد على هذا ان المدن والمقاطعات التي كان منتخبوها احراراً مستقلين يغلب فيهم ان يكون عددهم قليلاً فلم يكن في كل اسكوتلاندا الا ٢٥٠٠ منتخب فتجد احدى المقاطعات تعد تسعة منتخبين بينما تجد الاخرى ذات واحد وعشرين منتخباً ولكن لم يكن يسكن القطر الا واحد منهم فقط وحدث يوماً ان عقدت جمعية الانتخاب في مقاطعة بوت Bute فلم يحضر لدي المامور Shérif الا منتخب واحد فترأس الجمعية واعلن افتتاح الجلسة واستدعى المنتخبين باسمائهم فلم يكن من جواب الا عن نفسه بنفسه ثم تكلم عن ذاته مترشحاً للانتخاب ثم للاقتراع فتم انتخابه بالاجماع ؟

وكان الانتخاب يجري على الشكل القديم ذلك ان يصعد المترشحون الى دكة عالية و يخطبوا في الناس لا يبالون بالصراخ والضوضاء اذ كان من العادة المتبعة ان يقدموا المشروبات للمنتخبين من ان يجتمع جميعهم ولو من احزاب متباينة في الخلاء و يقع الصخب

والتضارب احياناً كثيرة وقد يدخل بين المنتخبين اناس ممن لا حق لهم بالانتخاب وطريقته في ان يدعوهم المأمور للاقتراع برفع اليد ومن ثم يعلن النتيجة التي كانت كثيراً ما تعرف من قبل اذ ينحصر الترشيح في شخص واحد ولكن اذا تعدد المترشحون وطلب المتناظرون الاقتراع كتابة فياخذ كل منتخب باعلان اسم منتخبه بصوت جهوري فيدون ذلك في سجل وقد يستمر هذا الاقتراع على مدى اسابيع

وجعلوا منذ القرن الثامن عشر يشكون من فساد هذا الانتخاب وانه ازداد فساداً بازدياد الثروة وان المجلس الذي من خصائصه تمثيل الامة اصبح لا يمثل الا البيوتات النبيلة وذوي الثروة الطائلة وكان الاحرار يطلبون الاصلاح في كل سنة تقريباً من سنة ١٨٠٨ الا ان المحافظين الذين كانت لهم الاغلبية من سنة ١٧٨٣ الى سنة ١٨٣٠ كانوا يرفضون ما يطلب من الاصلاح

فانصرف الاحرار الى اكتساب الرأى العام يستميلونه الى الاصلاح وكان الاوساط حتى ذلك العهد قلما يكترثون بالسياسة وكان المجلس يعقد جلساته سراً والجرائد قليلة الانتشار الا ان تغييراً مهماً حدث في اواخر القرن الثامن عشر ذلك ان سكان المدن اخذوا في النمو السريع منذ انتعشت الصناعات وازدهت باستخدام الآلات فنشاء بين الناس رغبة شديدة في استطلاع الاخبار لذلك انشئت من سنة ١٧٦٩ الى سنة ١٧٩٢ ست جرائد كبرى يومية فشرعت تروي ما يحدث في المجلس من المباحث والاراء وفي سنة ١٧٥٣ كانت تبيع من نسخها سنويا سبع مليونات فصارت سنة ١٨٠١ تبيع ١٦ مليوناً وسنة ١٨٢١ زادت المبيعات الى ٢٥ مليوناً ونشأ سنة ١٨٠٨ وسنة ١٨٠٩ مجلتان (1) وفي سنة ١٨٠١ بدأت الصحف تنشر اعمال المجلس وسنة ١٨١٥ شرع اشياع الحزبين يهيجون الافكار العامة بعقد اجتماعات سياسية حيث كان الخطباء ينتصبون على الدكة او على المركبات (عادة اخذت عن تباع مذهب الميتوديست) ويخاطبون الجمهور بما يرون وكان يسبق عقد تلك الاجتماعات او يعقبها مرور اشياع الحزب موكباً في الاسواق حاملين الاعلام والاعلانات ومن ثم كانوا يولفون منتديات سياسية يكتتب اعضاؤها في مال يجمعونه ثم يختارون منهم رجالاً يولفون لجنة تقوم على نشر آرائهم واستمالة الجمهور للاصلاح الذى يطلبون وعلى هذا النمط تأسست عام ١٨٢٣ الجمعية الكاثوليكية لالغاء القانون الذي وضعه البارلمان سنة ١٦٧٢ ضد الكاثوليك واسمه Test Law وفي سنة ١٨٣٠ نشأت جمعية ببرمينهام

(١) انشأ الاحرار مجلة ايدنبرج والمحافظون كوارترلي

لاصلاح الانتخاب وهكذا نشأ في انكلترا قوتان جديدتان هما [١] الجرائد والرأي العام فقامتا ازاء نفوذ الملك وكبار النبلاء. وصيرتا الاغلبية في جانب الاحرار وابدتا سلطة البارلمان فاصبح الناس لهذا اليوم لا يستطيعون ان يفقهوا للبارلمان معنى من غير وجود الصحف والراى العام ويقولون عن اهم الجرائد الانكليزية الا وهي التيمس انها السلطة الرابعة وعن الراى العام انه ولي الامر

على ان هذا التغيير في العادات والمناهج ادى الى اصلاح الانتخاب سنة ١٨٣٢ لان الملك جورج الرابع الذي اصر على حفظ القديم مات سنة ١٨٣٠ فان الاحرار انضموا الى المحافظين الغضاب فنالوا الاغلبية وشرعوا يطالبون الاصلاح وكان رئيس وزارة المحافظين من القادة الطاعنين في السن الا وهو الدوك دي ولنكتون الظافر في واترلو فصعد يوما منبر المجلس وقال انه لم يتصل به برهان يوجب تغيير طريقة انتخاب النواب وزاد على ذلك ان قال اذا فوضوا اليه وضع سنة لاحدى البلاد فانه لا يجد افضل من الشريعة الحاضرة لان الطبيعة الانسانية قاصرة عن الاتيان بما يشبه سموها • وعقيب هذا الخطاب اقترع المجلس ضد الوزارة فاستقالت وخلفتها الوزارة الحرة فظلت سنتين حتى نالت الاصلاح المطلوب مع انها عرضته ثلاث مرات الا ان اصلاح سنة ١٨٣٢ تمَّ بالاتفاق لان القوم لم يكونوا يريدون وضع طريقة تؤسس فقط على عدد السكان

فاحتفظوا بطريقة التصويت العمومي ولكنهم جزموا ان لا يدوم الاقتراع اكثر من يومين واحتفظوا على عدد النواب اي ٦٥٨ وعلى ان يكونوا صنفين اي نواب المدن ونواب المقاطعات ولكنهم أخذوا من المدن بعض نوابها واعطوا الحق في انتخابها للمقاطعات • وكان ست وخمسون بين هذه المقاطعات قد ضعف حالها وقل سكانها عن الالفين عدداً فسلبوها حق انتخابها ١١١ نائباً عنها وكذلك ثمّت ثلاثون مقاطعة سكان الواحدة منها يقلون عن اربعة الاف نفس ومع ذلك كانت تنتخب عن كل منها نائبين فجعلوا لها نائباً وزعوها من جديد بحيث أعطوا منها خمساً وستين منصباً لمقاطعات كان لها من قبل اربعة وتسعون نائباً فصار لها عندئذ مئة وتسعة وخمسون منصباً وأعطوا

(١) طالما شبه الناس سياسة الانكليز في القرن الثامن عشر بما كانت عليه في القرن التاسع عشر على ان اختلافها هو ان في القرن الثامن عشر كانت الامور تجرى سرًّا اما في التاسع عشر فصارت تعمل جهاراً والذي احدث فيه انما هو المطبوعات

اربعة واربعين منصباً لاثنين وعشرين مدينة كبيرة لم يكن لها من قبل نواب عنها وكذلك خصوا عشرين مدينة متوسطة بعشرين نائباً ومنحوا باقي المناصب لايرلندا واسكتلاندا بالسوية

وظل حق الانتخاب محفوظاً في الذين لهم ريع من عقاراتهم على انهم توسعوا في ذلك فخولوا حق الانتخاب في المقاطعات لكل الملاكين الذين يبلغ دخل الواحد منهم اربعين شليناً ولكل المزارعين ممن يبلغ دخل الواحد منهم خمسين جنيهاً واما في المدائن فلكل من يؤدي عشرة جنيهات أجرة لداره

على ان هذا الاصلاح زاد في عدد المنتخبين خمسين بالمئة فقد كانوا يحسبون منتخباً واحداً لكل ٣٢ شخصاً من الاهلين فصار بعد الاصلاح واحداً لكل ٢٢ شخصاً واصبح سواد المنتخبين الحديثين من المزارعين والباعة في الحوانيت وظلَّ العملة على شأنهم الاول محرومين من حق الانتخاب

فاستاء كثيرون منهم من جراء ذلك وانشأوا جمعية كبيرة من العملة وكان قد ظهر سنة ١٨١٦ و سنة ١٨١٩ حزب الراديكال وأجرى مظاهرات يطلب فيها ان يكون حق الانتخاب شاملاً ففي سنة ١٨٣٧ اخذ العملة الغضاب لائحة الراديكال ورفعوا بمؤداها عريضة للبارلمان بينوا فيها مطالب حزبهم سموها لائحة الشعب يسالون فيها ان يكون حق الانتخاب شاملاً لكل الوطنيين وكذلك حق النيابة وان يعطى للنواب جعل وان تقسم البلاد اقساماً متساوية وان يكون الاقتراع سرياً بالاكر عوضاً عن التصريح والتسجيل — وكان اشياع حزب العامة Chartistes يتظلمون من شقاء الشعب ومما كانوا يقولون « ان الدستور الانكليزي لا يستفاد منه الا الاعمال الشاقة او الموت جوعاً » وتجمهروا جماعات كبيرة مسلحة وطافوا في الاسواق ليلاً يحملون المشاعل واعادوا هذه المظاهرة ثلاثاً (في سنة ١٨٣٩ و١٨٤٣ و١٨٤٨) ورفعوا عريضة وقع عليها ثلاثة ملايين منهم على انهم لم ينالوا شيئاً من البارلمان الا في سنة ١٨٧٢ على عهد وزارة غلادستون حين تقرر الاقتراع

وصارت المجالس الانتخابية منذ الاصلاح اكثر قبولاً لدى الرأي العام واشد اهتماماً بمصالح الامة وانشط عملاً منهم وكانت مطبوعات مجلس الامة من سنة ١٨٢٤ الى سنة ١٨٣٢ ٣١ مجلداً فصار معدلها من سنة ١٨٣٢ ٥٠ مجلداً وصار الناس اكثر اطلاعاً مما كانوا على مايدور في المجلس من البحث وعلى ما يتداولون به • أما القانون القديم الآمر

بوجوب البحث السري لم يلغ حكمه وانما جرت العادة بالاغضاء عن اخذ خلاصة مباحثه بالاختزال Sténographie بحيث تنشرها الجرائد وتوصلاً لذلك بنود كة مخصوصة للصحافيين . واما اصوات النواب فقد كانت اذاعة اخبارها محظورة الا ان المجلس نفسه شرع بذيعها منذ سنة ١٨٣٦

على ان الجرائد خفضت اثمانها منذ الغاء رسم الدمغة (اذ كانت تؤدي بنساً)وصارت بواسطة السكك الحديدية وانتظام البريد تصل بسرعة لكل مكان فيطلع الانكليز في كل قطر من بلادهم على حوادث البارلمان في ليلتهم الماضية بما تنقله اليهم الصحف في النهار ومع ذلك ظلت تلك الجرائد قليلة العدد (فان عددها في لندن لم يتجاوز السبع الى الثمان) وانما كان يباع من نسخها عدد كبير يزيد في نفوذها وكثرت الجمعيات واصبحت اشد قوة واكثر انتظاماً

على انهُ لم يحدث تغيير البتة في الشكل ولا سنوا لهم دستوراً مكتوباً واستمر المجلس يواصل اعماله على النهج الماضي والاعمال تسير على خطتها القديمة أما الرئيس فكان لا يبرح يلبس شعراً مستعاراً ويمشي امامهُ خفير يضع على المائدة عصا الرئاسة

أما النواب فظلوا يتكلمون من مجالسهم الا انه لما اصبحت الحياة السياسية اكثر نشاطاً ازدادت اهمية مجلس العموم وصار اللوردة لا يجرأون كثيراً على مقاومة النواب الذين يمثلون الامة تمثيلاً صحيحاً فصار اكثرهم يتغيبون عن حضور جلسات مجلسهم الذي كان يعقد مرة كل اسبوعين وغلب عليهم ان يقبلوا بما يقرعليه مجلس النواب من غير ممانعة اما الملك فاحتفظ بامتيازاته اذ مابرحت اعمال الحكومة تعمل باسمه وبقي له حق اختيار الوزراء وفض المجلس الا انه اصبح من العادة المحكمة ان لا يختار الملك وزراءه الا من نائلي الاغلبية في المجلس وان الوزارة تستقيل متى فقد احدها عضد الاغلبية على ان الملكة فيكتوريا منذ تسنمت العرش سنة ١٨٣٧حتى وفاتها لم تشذ عن تلك العادة ولا يخال ان يشذ عنها احد من الذين يخلفونها

فاصبحت السلطة منذ سنة ١٨٣٢ لا كثرية مجلس النواب وبالنتيجة للشعب الذي انتخبهم وصارت تنتقل من قوم الى اخرين بحسب تغييرات الرأى العام ومما يذكر انه من سنة ١٧١٥ حتى سنة ١٨٣٢ تولى منصب الوزارة كل من الحزبين الاحرار والمحافظين مدة نصف قرن من سنة ١٨٣٢ الى سنة ١٨٩٦ تناوب كل فريق منها استلام الوزارة والاستقالة منها عشر مرات وكلاهما يتبعان خطة واحدة وهي بقاء كل فريق منها عاملاً مع جميع

افراده بالاتحاد وتمام الاتفاق سواءٌ كان في مدى تربعه في دست الوزارة أو في حال اعتزالها حين يتأهب لمقاومة الحزب الآخر ولذلك يقال لهم المعارضون ولكل فريق رئيس يعرف بالزعيم يتقلد رئاسة الوزارة حين تنتهي الاغلبية اليه (١) ويكون مهيئاً من قبل من رجال حزبه من يتقلد مناصب الو[illegible]ة وهكذا تكمل في القرن التاسع عشر في انكلترا النظام البارلماني القديم الذي بدا[illegible] في القرن الثامن عشر . ومنذ حينئذٍ نشأت ثمت تلك المناحي الاساسية التي [illegible] عليها الاوربيون حاسبين انها من خصائص النظام البارلماني

وللانكليز ملك يتولى الاريكة كابراً عن كابر فتدار الشؤون باسمه ولكنه في الحقيقة ليس له من السلطة شيءٌ فيصدق فيه قول القائل (الملك يملك ولا يحكم)

أما البارلمان فيؤلف من مجلسين احدهما المجلس الذي لا ينتخب اعضاؤه انتخاباً (وهو المجلس العالي) انما ليس له من الخصائص الا التصديق على القوانين وثانيها المجلس المنتخب وهو الذي يصادق على الميزانية ويراقب اعمال الوزارة وتوصد الوزارة للرجال الحائزين على الاغلبية في المجلس ويعهد برئاستها لزعيم ذلك الحزب (فان اسم الوزارة في انكلترا ليس بالاسم المتعارف رسمياً وهي تؤلف من ثلاثة وزراء وخمسة رؤساء اقلام ومن رؤساء بعض الدوائر)

ويتباحث الوزراء في ندوة ويعقدونها للنظر فيما يريدون اتخاذه من الوسائل ومتى اقرّت اكثريتهم على شيء تعين لكل واحد منهم ان يتمسك بذلك القرار ويؤيده او يعتزل المنصب

والوزراء مسؤولون أمام مجلس النواب عما يعملون وليس في وسع المجلس فقط محاكمة الوزراء بل اذا امسكت اكثريته عن قبول مطالبهم وجبت عليهم الاستقالة وبما انهم متضامنون في المسئولية يتعين عليهم الاعتزال ولو كانت الاقلية في جانب واحدٍ منهم فقط

وعند افتتاح المجلس يتلى خطاب العرش وتشرع الوزارة باعطاء البيان الكافي باسم الملك عن حالة البلاد والسياسة التي ترمي اليها فيجيب المجلس بخطاب يودعهُ اراءهُ وخواطرهُ

وفي كل سنة يقترع على ميزانية السنة التالية ولا يمكن جباية شيء من الضرائب ما لم

(١) وتلقب حزب التوري سنة ١٨٣٢ بالمحافظ Conservateur وحزب الهويكس بالاحرار Libéral

يكن المجلس قد قدرها على ان رفض الضريبة ذريعة يتخذها المجلس للتمكن من حمل الوزارة على الاستقالة اذا رآها مصرّة على البقاء بالرغم عن فقدانها الاغلبية — وللوزارة ان تسأل المجلس التصريح بثقته فيها فتغتنم لذلك سنوح كل فرصة كعرض قانون او عقد فرض والقصد من ذلك بيان عزمها على الاستعفاء اذا لم تحصل لها الاغلبية ويمكن للمجلس حينئذ اعلان استيائه منها بالاقرار الغاء رسمية بها . والاعمال التي يبحث فيها في كل جلسة تعين في قرار الجلسة السابقة الا انه يحق لكل نائب قبل الشروع بالبحث ان يسأل الوزراء ابداء افكارهم وما يعلمون عما يعن له من الخواطر . فيختتم هذا الاستعلام باقرار المجلس على تجاوز هذا الكلام للبحث في الموضوع المرتب للجلسة

على انه يغلب في النواب ان يصرحوا برأيهم بالعبارة المألوفة « ويعدل الى موضوع الجلسة » فاذا كانت العبارة التي اوردها النواب لاترضي الوزارة تعين عليها الاعتزال

ويحق للوزارة ان تطلب الى الملك فض المجلس متى حصلت لها الاقلية وتلك وسيلة يجعلون بها المنتخبين قضاة بين الحكومة والنواب ويلبث الوزراء غضون الانتخاب في مناصبهم حتى اذا تجدد الانتخاب ولم تحصل للوزارة الاغلبية تعينت عليها الاستقالة ويحسبون فض المجلس المنتخب ثانية ازمة سياسية اذ ان الامة جددت انتخابه وهي صاحبة الامر (ان المدة المعينة في القانون للمجلس في انكلترا هي سبع سنين الا انه جرت العادة ان يفض قبل انتهاء المدة وما من مجلس تجاوز الست سنوات)

العادة الجارية هي ان الوزراء يقترحون على المجلس مشروع القوانين التي يريدون سنها الا انه يحق لكل نائب ان يقترح وضع قانون او اصلاح قانون موجود . وهذا ما يقال له الاقتراح البارلماني وقبل البحث في المجلس في أي سنة كانت تحال تلك السنة الى لجنة مخصوصة تدقق فيها (ويغلب ان يتألف المجلس كله كلجنة للبحث فيقع الجدال ولكن لا يقع عليها اقتراع) . واما اللجان الاخرى فتؤلف من بعض اعضاء المجلس الذين يشير اليهم الرئيس (١)

واذا ارادوا سن قانون عرضوه للبحث فيه ثلاث مرات بعد أن يقرأ في كل مرة وفي

(١) ان في بعض الانحاء الاوربية التي اعتمدت النظام البارلماني تنتخب اللجان من المجلس وهو مقسوم الى دوائر . وهذه هي الطريقة التي يعوّل عليها المجلس في فرنسا سنة ١٧٨٩

كل قراءة يقترعون على كل مادة منه لوحدها ذلك ما لم يقترح المجلس على الاكتفاء بقراءة واحدة للضرورة القصوى في الحصول عليه

ولا يكون البحث والاقتراع مرعياً يعمل به الا اذا كان عدد حاضري الجلسة من الاعضاء كافياً للقيام بالاقتراع

ولا يحسب قرار النواب قانوناً نافذاً حتى يصادق عليه المجلس الاعلى ويوقع عليه الملك الا انه لم يكن من عادة الملك ان يرفض التوقيع عليه

على ان كل هذه الشؤون تجري في انكلترا تبعاً لارجحية احد الحزبين على الآخر وانما جرت على خطة منتظمة لانه ليس ثمت الا حزبان وكل منهما يحترم العادات فيتخلى عن المنصب لخصمه حتى تحصل الاغلبية لذلك الخصم وهذان الحزبان عبارة عن حكومتين شرعيتين يتحيز المنتخبون لاحداهما من غير ان يكون لهم استطاعة الاستغناء عنهما جميعاً ولذلك يستحيل حدوث تبديل فجائي ومع ذلك فان كل واحد من الحزبين لا يمكنه تجاوز حدود سلطته زمناً طويلاً لان ذلك التجاوز يكدر المنتخبين ويحملهم على الصيرورة الى الحزب المخالف ولذلك يحسبون الرجحان بين الحزبين شرطاً اساسياً للنظام البارلماني

عهد سنة ١٨١٤ ورجعة الملكية الى فرنسا (Le charte) : لما رجع البوربون الى فرنسا سنة ١٨١٤ وملكوا عليها وعدوا باحترام سنن الثورة والامبراطورية وانهم لا يمسون المجتمع بشيء فيستمر ديمقراطياً ويظل الفرنساويون سواء في حكم القانون وفي تقلد كل الوظائف وتلبث الامتيازات القديمة ملغاة وتبقى الاملاك الوطنية لملاكها الحديثين ولا يمسون الادارة فتستمر على الرجوع بها الى المركز وتبقى كل المصالح العامة كالمالية والعدلية والادارة والبوليس والجيش حتى تقسيم الولايات على ما رتبت الثورة ويحتفظون على مشاريع نابوليون مثل القانون ووسام الليجيون دونير والبنك والمدارس الكلية . وكان الشعب قد تمرد على الامبراطورية صائحاً « فليسقط التجنيد والحقوق المتحدة » واوجبوا على انفسهم الغاء هاتين السنتين القبيحتين وابدالهما بالاكتتاب recrutement وبالرسوم غير المقدرة

وهكذا كانت فرنسا منذ سنة ١٨١٤ ممتعة بنظام اجتماعي واداري لم يحدث فيه تغيير منذ يومئذ وهذا الترتيب الاجتماعي صار اساساً متيناً في الحياة الفرنساوية الا انه لم يكن في فرنسا ادارة منظمة كما كان لحكومة انكلترا فاضطرت ان تحدد القواعد التي تتوزع السلطة بحسبها وان تمنح الامة دستوراً تعتاد عليه فقضت في تدبير ذلك ستين سنة (من ١٨١٤

الى ١٨٧٥) . اما الدستور الاول فتاريخه سنة ١٨١٤ على ان عداة استبداد نابليون من الملوك المتحالفين والساسة الفرنساويين اعجبوا بالنظام البارلماني الانكليزي لانهم حسبوه اكثر حرية من نظام كل الحكومات فنصحوا للويس الثامن عشر ان يدخله الى فرنسا حتى ان مجلس الشيوخ (السنا) كتب تقريرًا مبنيا على مبدإ تسود الامة قال فيه «ان الشعب الفرنساوي بملء اختياره يدعو لتبوء العرش لويس ستانيسلاس كزافيلير شقيق الملك الاخير وان الشعب لاقراره على العمل بالدستور يفرض على الملك ان يقسم اليمين على العمل به وان يوقع عليه قبل ان ينادي به ملكا» فأبى الملك الجديد المصادقة على هذا الدستور لانه رغب في بادئ الامر ان يتبوأ الاريكة فلما نودي به ملكاً اذاع قرارًا جديدًا تجنب فيه الالماع الى ذكر الدستور ولكنه استعمل بديلاً منه اسمًا مأخوذا عن العصور الوسطى الا وهو العهد الدستوري Charte constitutionnelle اما الملك فتلقب بلويس الثامن عشر بنعمة الله ملك فرنسا ثم ارخ العهد في السنة الحادية والعشرين من ملكه واستخدم عبارة الملوك المألوفة تنازلنا ومنحنا وانما عدل الى هذه الخطة ليظهر للملأ انه لا يعتبر ان حكومةً من الحكومات التي سادت فرنسا منذ وفاة لويس السادس عشر كانت شرعية وان الملك الشرعي الوحيد كان ابن شقيق لويس السابع عشر وبعد وفاته اصبح هو صاحب الملك وان السلطة التي اتصلت اليه بالارث هي حق الهي تختص به دون سواه وانها مطلقة وله وحده الحق بالتصرف فيها وتحديدها بصك منه يصدره من تلقاء ارادته يريد بذلك ان السلطة في فرنسا من خصائص الملك وليست من خصائص الامة فادى ذلك الى امتعاض الاحرار واشياعهم الا ان تحت طي هذا الشكل المطلق صدر العهد La charte سنة ١٨١٤ مشيدًا للنظام الدستوري وبه دخلت الى فرنسا المناهج السياسية التي كان يجري عليها المحافظون وذلك ان الحكومة كانت موزعة على ثلث سلطات الملك والمجلسين فكان للملك السلطة التنفيذية وحق تنصيب الوزراء واقالتهم وفض مجلس النواب وكان الوزراء مسؤولين عما يعملون اما المجلس العالي فكان يؤلف من امراء فرنسا الذين يعينهم الملك فينتقل المنصب فيهم بالارث الى اعقابهم شأن مجلس اللوردة في انكلترا ومن خصائصه التصديق على القوانين فكان مجلس النواب مؤلفًا من اعضاء ينتخبون من الامة وله اشتراع القوانين والاقتراع على الميزانية ولم يكن الامراء والنواب يؤجرون اما المطبوعات فصارت حرة كشأنها في انكلترا والخلاصة ان النظام الفرنساوي كان نسخة ثانية للنظام الانكليزي حتى في الجزئيات مثل خطاب العرش وجواب المجلس واللجان وغير ذلك .

ولقد اغفل العهد القرار على قضيتين عمليتين كان من الواجب ان يبث الحكم فيهما بالقانون القضية الاولى كيفية انتخاب النواب والثانية كيفية تنظيم حرية المطبوعات ؟ على ان القوانين اللازمة لهاتين القضيتين لم تذكر في العهد فظلت موضوعًا للبحث زمنًا طويلاً .

على ان النظام الانكليزي كان في عهد اتخاذه انموذجًا للسنن الفرنساوية غير جازم في احدى القضايا الا وهي : ما هي حقوق الملك تجاه مجلس النواب ؟ هل يفرض عليه ان يتخذ وزراءه من اغلبية اعضاء المجلس ؟ واذ لم تكن هذه القضية قد قطع القول فيها بانكلترا لبثت كذلك في فرنسا

وهكذا ظلت مباحث البارلمان دائرة من سنة ١٨١٤ الى سنة ١٨٣٥ على وضع قانون الانتخاب وقانون المطبوعات وسلطة الملك واما بما يختص الانتخاب والمطبوعات وسائر الدستور فقد اتبع الساسة الفرنساويون النهج البريطاني

على انهم لم يتنازعوا في منح كل فرنساوي حق انتخاب النواب فان الثورة اظهرت لهم الحقوق في الانتخاب العام وقام في الاذهان ان حقًا عظيم الاهمية مثل انتخاب النواب لا يجب ان يخول الا لبضعة مختارة من الرجال الاكفاء على ان تكون الثروة هي الاساس المعتمد في تخويل الانسان حق الانتخاب كما في انكلترا فيعدلون الى دفاتر الجباية وبحسبها يقررون اسماء نائلي ذلك الحق وظلوا على اعتماد تلك الدفاتر حتى سنة ١٨٤٨ على انهم منذ سنة ١٨١٤ جعلوا مقدار الجباية عالية جدًا بحيث يتعين على المنتخب ان يؤدي في كل سنة من الضرائب ثلثمئة فرنك واما المنتخب (بفتح الخاء) فالفا فرنك وطريقة الانتخاب هي ان يجتمع المنتخبون في حاضرة الولاية او المقاطعة وظل نهجهم هذا جاريًا الى سنة ١٨٣٠ على ان عددهم لم يكن يومئذ يتجاوز مئة وعشرة الاف رجل مع ان عدد الاهلين كان من ٢٥ الى ٣٠ مليونًا من النفوس وكانوا ينقسمون لذلك الحين الى قسمين احدهما عامة الشعب الذين لا حق لهم بشيء من الحقوق السياسية وثانيهما المقيدة اسماؤهم في دفاتر الجباية وهم المنفردون بحق تمثيل الامة جمعاء (ومن جراء ذلك صاروا يلقبون هؤلاء الواقعين تحت الجباية بعد سنة ١٨٣٠ بالقوم القانونيين وذلك لانهم كانوا ازاء القانون السياسي كانهم كل البلاد [1])

---

(١) ان الاختلاف الاساسي كان قائمًا على طرق اجراء المبداء العام الا وهو ان للثروة وحدها حق التاهيل للانتخاب اما حق الانتخاب عند الانكليز فقد كان حتى قبل سنة ١٨٣٢ اقل قيمة مما هو عند الفرنساويين ومع ان عدد سكان انكلترا اقل من عدد

اما المطبوعات السياسية فقد ترتبت ايضاً على نهج الانكليز على ان كل عدد منها يضعون عليه تمغه بقيمة خمسة سنتيمات وكانت اجرة البريد عن العدد الواحد عشرة سنتيمات ولم يكن يبيع الاعداد مفردةً شائع الاستعمال بل كان تصريفها محصوراً بالاشتراك فيها فظلت الجرائد كطرفه غالية الثمن لا يتمتع بها الا الاوساط وكان عدد المشتركين فيها سنة ١٨٣٠ لا يتجاوزون الستين الفاً الى السبعين واما عامة الشعب فلم يكونوا يقرأون ولذلك لبثوا في جهل مطبق لايدركون من السياسة شيئاً لان تلك بقيت من خصوصيات الاوساط وكان يتعين على من ينشيء جريدة ان يقدم كفالة مالية مهمة ولذلك لم يكثر عدد الجرائد بل كان لكل حزب من الاحزاب ثلث او اربع منها ولكل منها نفوذ عظيم على قرائها ومما زادها بسطة ان النبذ لم تكن يوقعها كتابها جرياً على الخطة الانكليزية . وحالة كون الصحف ظلت مكتنفة بكل هذه المثبطات أبيحت لها حريتها كما هو الحال في انكلترا الا انه حظر عليها ان تلم بشأن الملك او ان تنتقد الدستور

وهكذا نقل الى فرنسا النظام السياسي الانكليزي الا انهم لم ينقلوا معه العادات الانكليزية فكانت نشأة الاحزاب في فرنسا على غير المألوف في انكلترا فالنواب الفرنساويون لكيانهم اصعب مراساً لم يرتضوا ان يتألبوا حزبين بل شرعوا يجتمعون شراذم شتى وكل واحدة منها تنتهج سبيلاً خاصاً في السياسة شان الاحزاب في انكلترا ولما كانت كل شرذمة منها تتبع سياستها الخاصة وترمي للحصول على السلطة كانت طريقة الرجحان الانكليزية غير معمول بها مالم تحصل الاغلبية لشرذمة واحدة منها ولذلك لم يكونوا يعرفون اين يجدون زعيم الاغلبية ليعهدوا اليه بتاليف الوزارة ولا يمكن ثبوت وزارة اذا لم تجد من يؤيدها من الشراذم المختلفة حتى انها مهما احكمت الاتفاق لاتستطيع ان تبقى في المنصب طويلاً اذ يسهل على رجال الشراذم الخارجة عن السلطة ان يتعصبوا فيحملون على الوزارة ويسقطونها بالاقتراع ضدها فيدفع ذلك بالوزراء الى ارشاد المنتخبين او ارهابهم ليتسنى لهم الحصول على الاكثرية الغالبة وفوق ذلك ترى الحكومة الفرنساوية اقدر من الانكليزية على اتخاذ وسائل الضغط في الانتخاب ذلك لانه منذ ايام نابليون يتولى المناصب في الولايات عمال كثيرون كلهم يخضعون للوزراء

على ان النظام البارلماني يحتاج الى احزاب معتدلة تحترم العادات التي بني الدستور

الفرنساويين فان المنتخبين عندهم يزيد عددهم عشرين ضعفاً عن منتخبي فرنسا فالحياة السياسية عندهم لم تكن محصورة بالاوساط

عليها وكان الظن في سنة ١٨١٤ ان العهد يكون مقبولاً لدى الجميع لانه متسع في الحرية بالنسبة لنظام نابوليون وكان البوربون (الاسرة التي لاتنازع) قد جاؤوا بالسلام والناس في أشد الحاجة اليه والرغبة فيه فلم يعزلوا أحداً من رجال الحكومة حتى ان لويس الثامن عشر ابقى وزراء نابليون في منصاتهم وكذلك اربعة وثمانين عضواً من مجلس الاعيان ومجلس النواب برمته فظهر كان فرنسا الجديدة قد صالحت فرنسا القديمة بواسطة نظامها البرلماني

على ان غباوة البوربون وعودة نابليون صيرا المصالحة امراً مستحيلاً فان البوربون لم يمسوا النظام الجديد بسوء ولكنهم اباحوا لاصحابهم المهاجرين اتخاذ لهجة ارعبت بل جرحت قلوب جميع الرجال الذين يستفيدون من بقاء الشؤون الحديثة كالذين ابتاعوا الاملاك الوطنية واشراف الامبراطورية والعمال والقادة والفلاحين وقد اهتاج الجيش كثيراً لان قادته احيلوا على نصف الراتب ولانه اخذت الراية المثلثة من افراده وعوضوا منها بالراية البيضاء

ولذلك كان الجنود والفلاحون من انصار نابليون يوم عودته الى فرنسا فنقض النظام البارلماني المنصوص بالعهد . واستمال نابليون الجمهوريين بجعله حكومته دستورية تصادق عليها الامة بالاقتراع العمومي . على ان هذا النظام سقط بسقوطه بعد موقعة واترلو وارجع نظام العهد غيران النظام البونابرتي الذي عاش مئة يوم ترك آثاراً لا تمحى من ذلك ان اشياع الملكية اهتاجوا واخذوا في اضطهاد مريدي نابليون الذين التفوا عليه وظنوا انهم بذلك يقوضون اعمال الثورة . أما مريدو النظام الجديد من اشياع نابليون والجمهوريين فقد حملهم عداؤهم لانصار الملكية على الاتحاد معاً تحت العلم المثلث الالوان حال كون الجمهوريين كانوا يحسبون نابليون مغتصباً فصاروا يعدونه حامي الثورة من البوربون الذين يحاولون ارجاع النظام القديم

وهكذا قام في فرنسا حزبان متطرفان فالواحد منهما يعرف بغلاة الملكيين Ultra royaliste وهم الطالبون ارجاع القديم وسلطة الملك المطلقة وامتيازات الاشراف والكهنة والحزب الثاني الجمهوريون البونابرتيون (و يلقبون بالحزب الحر) وهم الراغبون في سقوط البوربون على ان كلا الحزبين لم يكن راضياً بالعهد Charte أما الاحرار فكانوا من حزب الثورة على ان مقاصدهم لم تكن تحاكي مطالب حزب الاحرار من الانكليز الذين كانوا يسعون في الاصلاحات الحرة وانما كان الاحرار الفرنساويون يعملون على قلب الملكية التي اوجدها الدستور وكان غلاة الملكيين من مريدي الرجعة لم يقتصروا في

رغائبهم اقتصار حزب المحافظين من الانكليز على رفض الاصلاح وانما ارادوا الرجوع الى النظام الذي سقط ولا يستطاع قيامه الا بالثورة

وقام من بين هذين الحزبين المتفقين على عداء الدستور حزبان دستوريان هما الملكية المعتدلة (حزب اليمين) وغايتهم البقاء على الحالة القديمة شان حزب التوري tory وحزب الملكيين الاحرار doctrinaire وغايتهم التحزب على النهج الانكليزي

وفي سنة ١٨١٥ جرى الانتخاب والناس في رعب شديد لا سيما وان الحلفاء كانوا يكتسحون البلاد فاكتسب حزب غلاة الملكيين الاكثرية في مجلس النواب الذي سموه المجلس غير الموجود فطلبوا ان تعاد الاملاك الاهلية الى الاكليرس وان ترفض الديون العمومية ويعزل القضاة الاحرار فانهم تحزبوا للملك في مضادة المجلس ابقاء على اعمال الثورة فطالب المجلس من الملك ان يستوزر من الاكثرية فيه فخالفهم الملكيون الاحرار زاعمين ان الملك حرٌّ في اختيار وزرائه وقال رويار كولار سنة ١٨١٦ « انه في اليوم الذي لا تتالف فيه الوزارة الا من الاغلبية في المجلس او حين يتقرر ان المجلس قادر على عزل وزراء الملك يكون ذلك الوقت يوم سقوط الدستور والملكية المستقلة ومنذ يومئذ تصبح وحكومتنا جمهورية » ثم ان المجلس رغب في تخفيض فيئة الجباية التي بادائها يستطيع الفرنساوي ان ينتخب لمجلس النواب وان يكون الحط منها حتى تبلغ الخمسين فرنكاً فيزيد عدد المنتخبين ويناهزون لليونين اما الملكيون الاحرار فتمسكوا بالثلثمئة فرنك فيئة مقررة للمنتخبين يريدون بذلك ان اهل الطبقة العليا من الاوساط يدافعون عن الحرية اكثر مما يدافع عنها صغار الملاَّكين فتخلص لويس الثامن عشر من غلاة الملكيين بفض المجلس النيابي بغتة واصدر امرًا ان يعمل حسب قانون الانتخاب لسنة ١٨١٤ فكان بذلك صيانة القوانين الا ان الامة ظلت بعيدة عن السياسة وبقي محتفظًا بادارة الحكومة ذلك ما حال دون قيام نظام دستوري

وظلَّ الدستور بين سنة ١٨١٦ و ١٨٢٩ جاريًا في سيره القانوني والاحرار يعملون على اثارة الخواطر في البلاد وينشئون الجمعيات السرية ومؤامرات عسكرية وشرعوا يكتبون الرسائل ويقيمون المظاهرات الا انهم لم يكن لهم في المجلس الا نفر قليل من النواب وكذلك لم يكن فيه من غلاة الملكية الا عصبة صغيرة على ان معظم النواب كانوا من حزبي الوسط الدستوريين اما الوزارة التي اختارها الملك فكانت تعزز بالاغلبية — فوزارة دبكاز عززها الاحرار الملكيون فاستمرت في منصبها من سنة ١٨١٦ الى ١٨٢٠ وقد قامت في

تضاعيف هذه المدة بالاصلاحات الحرة — ووزارة فيلال ساعدها حزب اليمين واستمرت من سنة ١٨٢٠ الى سنة ١٨٢٧ فتوقفت الاصلاحات خلال هذه الايام بل ان المجلس قرر بعض قرارات من قبيل الرجعة الى الطرق القديمة فلم يرض مجلس الشيوخ بعضها فرفضه وفي سنة ١٨٢٧ اتحد كل عداة وزارة فيلال فحازوا الاغلبية في المجلس (٣٦٠ صوتاً ضد ٣٠ صوتاً) على ان شارل العاشر لم يرض ان يقيم الوزارة من اليسار بل اختارها من حزب الوسط اليمين فاستوزر مارتينياك غير ان هذا الوزير لم ينل من المجلس الا الاقلية

بيد ان نظام الرجعة تلاشى خلال تنازع الحزبين المتطرفين ولم يكن شارل العاشر يرغب في النظام الدستوري وقد قال « اني افضل ان انشر الخشب عن ان اكون ملكاً في حالة ملك انكلترا فان الملك في فرنسا هو الذي يحكم الا انه يستشير المجلسين وينعم النظر في ارائهما وما يعرضان لكنه اذا لم يقنع بقولهما فالامر يرجع الى ارادته » وفي سنة ١٨٢٩ استوزر الملك بوليناك من حزب غلاة الملكية فاجمعت على عدوان الوزير سائر الاحزاب من النواب ورفعت عريضة ضده موقعة من ٢٣٢ نائباً فاحتفظ الملك على وزرائه وفض المجلس . وكاد يكون المجلس الجديد المنتخب سنة ١٨٣٠ اشد عداء من القديم الا ان شارل العاشر اراد ان يعمل بما نجح فيه لويس الثامن عشر سنة ١٨١٦ ذلك ان البند الرابع عشر من العهد يقول « ان في وسع الملك اصدار الاوامر اللازمة لانفاذ القانون ولتوطيد الامن في المملكة » وعملاً بحكم هذه السنة اصدر شارل العاشر ثلاثة اوامر احدها يحتم بفض المجلس الجديد قبل اجتماعه والثاني يأمر بتبديل نظام الانتخاب والثالث يقضي بتعيين مراقب للجرائد (تموز سنة ١٨٣٠) وكان الرأي العام ان الملك تجاوز حد سلطته وان الاوامر التي اصدرها ان هي الا قوانين وضعها من عند نفسه من غير ان يقررها اقتراع مجلس النواب فهي اذاً غير قانونية فنهض الصحافيون الباريزيون ووقعوا على لائحة اعتراضية وعقد النواب الذين كانوا يومئذ في باريز العزيمة على المقاومة القانونية غير ان الوسائل الشرعية لم تكن لتغلب حكومة تعززها القوة المسلحة

وكان قد قام في باريز حزب جمهوري نشأ من بين الطلبة والعملة ومع انه قليل العدد (من ثمانية الى عشرة آلاف رجل) ولم يكن له نواب ولا جرائد فقد كان منظماً تنظيماً حسناً ومسلحاً وهو الذي نهض بثورة سنة ١٨٣٠ يومئذ ثار رجاله الاشداء فتقلدوا السلاح واقاموا المتاريس في الشوارع الضيقة من شرقي باريس رافعين العلم المثلث الالوان ولم تكن الحكومة محتسبة لوقوع الهرج لذلك لم يكن لديها في باريز من الكتائب الا

... واوا رجل [1] فغلب الثائرون على المدينة في ثلاثة ايام فهلع شارل العاشر ولم يجسر على محاولة استرجاع المدينة بل فرّ هارباً من فرنسا وكان النواب حلال الواقعة قد اجتمعوا في باريز وفاوضوا شارل العاشر ثم اقروا على العهد بالملك الى اسرة جديدة ولذلك ارتضوا بالدوق دورليان ملكاً بعدان وعدهم باتخاذ العلم المثلث الالوان و بالذب عن النظام الدستوري لان العلم المثلث الالوان كان محبباً للناس مرفوعاً فوق كل المدن فلما نودي بلويس فيليب ملكاً اعترف به الناس من غير ممانعة

عهد سنة ١٨٣٠ والملكية التي تأسست في شهر تموز : قامت ثورة سنة ١٨٣٠ باسم تسود الامة فقبل الملك الجديد بهذا المبداء وتلقب بلويس فيليب الاول ملك الفرنساويين بنعمة الله وارادة الامة واذ اقتضت الظروف اشتراع دستور جديد وضعوا عهد سنة ١٨٣٠ على انه لم يعط للامة كمنحة من الملك وانما وضعته الامة نفسها وارتضاه الملك واقسم على احترامه والغي البند الرابع عشر الذي كان شارل العاشر قد توكأ عليه وكذلك الغيت مراقبة المطبوعات الغاء باتاً ومنح مجلس النواب حق انتخاب رئيسه ووعد العهد بسن قوانين للمحلفين (جوري) وللحرس الوطني وللادارة ولحرية التعليم وتم ذلك سنة ١٨٣١ بوضع قانونين ذلك ان عضوية الشيوخ كانت ارثية فجعلوها مدى الحياة والسعر الذي يؤهل الفرنساوي لانتخاب النواب كان ثلثمئة فرنك فحط الى مئتي فرنك فصار المنتخبون يومئذ مئة وخمسين الفاً (و بلغوا سنة ١٨٤٨ مئتي الف)

واصبحت الامة وهي السائدة وليس الملك وصار يخال ان النظام البارلماني توطد في فرنسا الا انه كان لم يزل في البلاد حزبان متطرفان في عدوانهم للدستور احدهما حزب اليمين وهم اشياع الملكية Légitimistes الذين لا يريدون الاعتراف بالملك لانهم يحسبونه مغتصباً والحزب الثاني نواب اليسار وهم الجمهوريون الذين كانوا يشكون من انخداعهم سنة ١٨٣٠ على ان الملك مع كل تظاهره بالانصياع لاحكام الاغلبية لم يكن يسير في شيء مسير الملك الدستوري فكان يريد اختيار وزرائه والاشتغال معهم ليدبر سياستهم على خاطره وعوضاً عن ان يسلك طبق ارادة الاغلبية كان يبذل قصاراه لاتخاذ اغلبية خاضعة للارادة الملكية

(١) وكانوا قد عملوا المتاريس في سنة ١٨٢٧ وسبق لهم ان اقاموها من قبل في زمن الفروند ولكنهم لم يستعملوها زمن الثورة (الفروند Fronde هو حرب احزاب جرت في اواسط القرن السابع عشر) المترجم

ومن سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٣٥ كان الحزبان اللذان سبق فاحدثا الثورة وهما الملكيون من حزب الشمال والجمهوريون يتنازعان على السلطة اما لويس فيليب فتزلفاً للجمهوريين النافذين في المجلس البلدي بباريز قرب اليه زعيمهم لافايت ولافيت الف وزارة مختلطة جعل فيها خمسة وزراء من الجمهوريين واربعة من الملكيين فوقع الخصام في الوزارة نفسها فكان الجمهوريون يريدون السياسة الديموقراطية والتداخل لاسعاف الشعوب الثائرة في اوروبا وكان الملكيون يريدون الاحتفاظ بسلطة الاوساط والسلم مع الدول الكبرى . اما الملك فكان متشيعاً لحزب الملكيين لذلك اراد ان يترك رجال الاحرار يتلاشون من انفسهم فابقاهم وحدهم في الوزارة يتمتعون بها وبالنفوذ في باريز (وزارة لافيت) فظن الناس ان الوزارة ستضرم نار الحرب في اوروبا لذلك استولى الرعب علي البلاد وسقط الرنت بالمئة ٣ الى ٥٢ فرنكاً و ٣٠ سنتيماً والرنت بالمئة ٥ الى ٨٢ فرنكاً و ٥٠ سنتيماً فتخلى النواب عن لافيت واتخذ الملك وزارة ملكية زعيمها كازمير باريه (سنة ١٨٣١) ففقد حزب الجمهورية كل اماله بان ينال منصة الوزارة بواسطة مجلس النواب لذلك صرف قصاراه بتجديد ثورة سنة ١٨٣٠ وذلك انه انشاء جمعيات للعملة وجريدة وشرع يحدث شغباً وهرجاً في باريز فاقتضت الحكومة من الجرائد والجمعيات السرية واعانها الحرس الوطني على قمع الفتن وفي الوقت ذاته سحقت قوة الملكيين في الغرب وفي سنة ١٨٣٥ استتب الامن عقيب المحاكمات الصارمة والعمل باحكام القوانين المسنونة في ايلول (سبتمبر) ضد المطبوعات

ومن سنة ١٨٣٥ الى سنة ١٨٤٠ اتصل الخصام الى مجلس النواب بين الحزبين الدستوري وهما حزب الوسط الايسر (تيرس) وحزب اليمين الاحرار الذي صار حزب الوسط الايمن (كيزو) على انه كان بينهما عصبة متوسطة هي حزب العامة le tiers-parti وعصبتان اخريان متطرفتان وفوق ذلك فان الملك عوضاً عن ان يعهد بالوزارة للحزب صاحب الاغلبية ويبقيه فيها حتى يصير الى الاقلية كان يستوزر اصدقاءه من غير الاكثرية او يرفت الوزراء الذين لا يتبعون سياسته . فكانت الوزارة تسقط بسرعة لقاء معاكسة المقاومين او معارضة الملك لها ولذلك سقطت ثمان وزارات من سنة ١٨٣٢ الى سنة ١٨٤٠ وكانت تلك الاونة معترك البلاغة فقد استمر الجدال على جواب المجلس للملك سنة ١٨٣٨ اثنى عشر يوماً القي خلالها ١٢٨ خطاباً . غير ان النظام البارلماني لم يفض الى اقامة حكومة ثابتة

وعقد الملك سنة ١٨٤٠ حلفة وثيقة العرى مع حزب اليمين وعهد بالوزارة الى كيزو

وكانت سياسته ترمي الى استئصال عضد المجلس له فجعل ينتخب من النواب من لا رأي لهم بحيث يتصرفون دائماً الى التصويت للوزارة فكان يستميل المنتخبين والنواب لا بمجاراتهم في مناحيهم السياسية وانما شرع يسترضيهم بما يدر عليهم من المنافع الذاتية وذلك باعطاء المنتخبين ادارات التبغ والرواتب المدرسية والوظائف و يمنح النواب المناصب اللائقة بهم وكانت هذه الوسائل فعالة لان النواب لم يكونوا يستوفون رواتب او اوجوراً عن نيابتهم فاصبح نصف المجلس من العمال الموظفين وكان من سياسة كيزو تجنب كل عمل في اوروبا وكل اصلاح في فرنسا وظلت الاحوال على هذه الوتيرة ثماني سنين والاغلبية تزداد على كرور الايام حتى بلغت منتهى قواها في انتخاب سنة ١٨٤٦ الا ان سواد الامة كان يزداد استياء فينتقدون على الحكومة سياسة الجمود وتفشي الرشوة بين رجالها ولذلك بدأوا يطالبونها بالاصلاح في الشؤون الآتية

اولا : ان يخفض سعر المال المؤهل للانتخاب وان يمنح حق الانتخاب من كان من طلبة العلم الذين كانوا قد احرزوا منذ سنة ١٨٣٧ حق الذكر في جدول الذين يختارون منهم جماعة المحلفين Jury

ثانيا : ان يحظر على النواب تقلد الوظائف

فكان فرنسا كانت قد انقسمت الى فريقين الفريق الاول مؤلف من الملك والوزارة والمجلس النيابي والمنتخبين بحق ما يؤدون من الضرائب وهذا الفريق اتحدت فروعه كلها واجمعت على رفض كل ما يطلب من الاصلاح وحسبك بهم قوة انهم مستجمعون في قبضة ايديهم كل سلطة قانونية في البلاد . اما الفريق الثاني فهم المعارضون و يؤلفون من سائر طبقات الامة ولهم في السياسة رأي الا أنهم لم يكونوا يحرزون شيئاً من السلطة لانفاذه وكانت السيادة في ظاهر الامور للنظام البارلماني البحت اذ يرى الملك كانه منفذ لارادة اغلبية مجلس النواب المنتخب الا ان حقيقة الحال هي ان حصر الانتخاب في الاغنياء وتفشي الرشوة فيه جعل المجلس عبارة عن قوم مجتمعين لخدمة الملك لا للقيام بوظيفة النواب عن الامة ومثله اصبح النظام البارلماني الانكليزي في وزارة و زير كان اصتاذاً لتاريخ انكلترا في حالة تجعل الحكومة في شخص الملك

النظام البرلماني في البلجيك : ان دولة البلاد المنخفضة التي ضمت اليها البلجيك سنة ١٨١٤ سنت لحكومتها دستوراً ناقصاً اذ ابقى الملك لذاته حق اختيار الوزراء على ان لا يكونوا مسؤولين لدى مجلس النواب . وادارة الامور السياسية وكان الملك هولاندي

الاصل فاقام في هولاندا ومال لقومه واحسن اليهم فاستاء منه البلجيكيون كل الاستياء حتى ثاروا وثاروا فطردوا الجند الهولاندي سنة ١٨٣٠ ثم وضعتهم فرنسا تحت حمايتها واتفقت مع الدول الكبرى على فصل البلجيك عن البلاد المنخفضة وان تتألف مملكة دستورية فاجتمعت لجنة من نواب تلك البلاد وانتخبت ملكاً ووضعت دستوراً لم يتغير حتى سنة ١٨٩٣ وكان المجتمع في البلجيك قد تأثر كثيراً بالمجتمع الهولاندي من تسود الفرنساويين عليهم مدى عشرين سنة بحيث اصبحت البلاد وقد سقط منها كل امتياز ولم يبق فيها اثر لاختلاف الطبقات بين الاهلين حتى ولا المقاطعات فوضع الدستور مساوياً للجميع ازاء القانون ورتبت شؤون كل المقاطعات على نسق واحد مطرد

وكان اهل البلجيك مقسومين الى حزبين هما حزب الاحرار العوام المتشيعين للحكومة الدستورية العامية وحزب الكاثوليك اشياع السلطة الكنائسية الا ان في سنة ١٨٣٠ اتحد الحزبان ونهضا بالثورة تحت لواء الحرية

ولذلك شرع دستورهم كل ضروب الحرية أي الحرية الشخصية وحرية المسكن والكلام والمطبوعات والدين والتعليم والاجتماع والتألب

وكان البلجيكيون يعجبون بالنظام البارلماني الانكليزي على خطة حزب الاحرار فاعلن المؤتمر ان الشعب البلجكي يتخذ خطة الملكية الدستورية النيابية يتولاها ملكها بالارث وجعلوا السلطة فيها مثلثة . يراد بذلك ان يكون لكل من الملك ومجلس الشيوخ ومجلس النواب سلطة . اما الملك فتتصل السلطة اليه بالارث ولا يكون مسؤولا الا انه لا يكون ملكاً سائداً Souverain وانما التسود من حقوق الامة يمثلها البارلمان وللملك ان يختار الوزراء وان يفض المجلس . اما الوزراء فمسؤولون لدى المجلس فاذا لم يبق لهم فيه الا الاقلية وجب عليهم الاعتزال . على ان للمجلس حق الاقتراع على الميزانية

واما مجلس الشيوخ فينتخبه منتخبو النواب مخالفين في ذلك النهج المألوف وكذلك يستطاع فضه وكلا المجلسين يتجددان تدريجاً بحيث ينتخب بعضهم حيناً بعد آخر . واما حق الانتخاب فكان على الطرز الانكليزي مرتبطاً بالضرائب بحيث يقيد في دفتر مخصوص لكل موضع اسماء القائمين بالضرائب وهذا الدفتر يتغير بتغير ظروف المكتتبين فيه على ان المنتخب لا يجب ان يكون ممن يؤدي اقل من ٤٢ فرنكاً في السنة

اما مسألة تنظيم الكنيسة فكانت اعسر المسائل حلاً فكان الاحرار يرغبون في ابقاء سيطرة الحكومة على الكنيسة على ماهو جار عند جميع الامم الحديثة . اما الكاثوليك

فكانوا يطلبون باسم الحرية استقلال الكنيسة استقلالاً تاماً عن الحكومة . ومما قاله احد زعمائهم في المؤتمر : « يطلب منا ان نجعل الابتداء مجيداً بان نبذل قصارانا في تقدير مبدإ من اجل مبادىء التمدن الحديث فقد وجد منذ احقاب طويلة سلطتان سائدتان وهما السلطة المدنية والسلطة الدينية وانهما تتنازعان السيادة على المجتمع الانساني كأن تسوُّد السلطة الواحدة مبعدٌ للسلطة الاخرى فقرون اوربا برمتها خاصة غمار هذا العراك الذي دعوتمونا لانهائه فامامنا عالمان وهما العالم المدني والعالم الديني فانهما وجدا معاً من غير ان يقع الالتباس بينهما اذ لا تتعارض مصالحهما في شيء ونحن انما نطلب ان تكون شرائعنا غير صالحة لمس المصالح الدينية على انه ليس ثمت من علاقة بين الحكومة والدين اكثر من علاقة الحكومة بالهندسة فهلموا بنا نترك من آثار انقلاب حالنا مبدأ كبيراً الا وهو انفصال السلطتين احداهما عن الاخرى » فسلم الاحرار له وقرر المؤتمر انفصال الكنيسة من كل سلطة للعامة Laique فكان البابا يقيم المطارنة مباشرة وهم يعينون الكهنة من عند انفسهم وتستطيع الفرق الدينية ان تقيم في البلاد فتقتني الاملاك وتقبل الهبات والنذور وليس على رجالها خطرٌ في شيء ولا تأخذهم عيون الرقباء على ان الكنيسة تحتفظ بكل الامتيازات التي نالتها من الدولة قبل الانفصال فرجال الاكليروس ياخذون الرواتب من الدولة ويعفون من الخدمة العسكرية ويكون لهم الحق بالتحية العسكرية ويبقون على امتلاك المقابر وحق ادارة المدارس وصار من ذلك الحين في البلجيك سلطتان رسميتان هما الحكومة والكهنة وكل منهما سائد ومستقل ولذلك لم يطل بهما العهد حتى اختصما

ولم تكن الاحزاب من سنة ١٨٣١ حتى سنة ١٨٤٥ قد انتظم ترتيبها لتصلح للخصام وقد شغلت بمصالح هولندا (لم يبت ذلك تماماً الا سنة ١٨٣٩) وبالخروج من الازمة الاقتصادية التي نزلت بالبلاد عقيب الثورة وكانوا يعتقدون يومئذ كالانكليز في القرن الثامن عشر انه لا يجب اقتصار الحكومة على حزب واحد فاتبعوا منهاجها في ذلك بحيث شرعوا يؤلفون الوزارة مزيجاً من الكاثوليك والاحرار يريدون بذلك ملاشاة الاحزاب لا يجاسهم منها خطراً وقد قال وزير العدلية سنة ١٨٤٠ « ان البلاد عرضة لانقسامات هائلة ستنشب مخالبها بيننا ان لم نقف عند حدها قبل استفحالها فان حزبي الكاثوليك والاحرار لا معنى لوجودهما ازاء مبادىء الحرية العظمى التي يقدسها دستورنا »

أما حزب الكاثوليك فانه كان منتظماً انتظاماً حسناً بفضل مساعي الكهنة ولذلك اغتنم الفرصة السانحة بوجود هذا النظام للاقرار على قانون سنة ١٨٤٢ الذي اوجب التعليم الديني

في المدارس الابتدائية على ان يعهد به الى الكهنة . ومما قال نوتومب « ليس من تعليم ابتدائي من غير تربية ادبية ودينية وانا لنضرب بمبادىء القرن الثامن عشر الفلسفية عرض الحائط لانها حاولت ان تجعل التعليم عاميًّا تماماً وارادت ان تشيد المجتمع على اسس عقلية بحتة rationalistes »

فاضطرب الاحرار من قوة الكهنة فنظموا ترتيب حزبهم بان عقدوا في سنة ١٨٤٦ مؤتمراً مؤلفاً من ٣٢٠ معتمداً حراً من كل بلاد البلجيك وكان اجتماعه في دار بلدية بروكسل وبعد البحث عقدوا اتحاداً ووضعوا منهاجاً لحزبهم واتخذوا لهم شعاراً مؤداه استقلال السلطة المدنية وجعلوا مطالبهم إقامة تعليم عمومي لكل الطبقات تنفرد في ادارته السلطة المدنية وان يباح لهذا التعليم كل الوسائل الدستورية التي تؤهله لاحتمال مناظرة المدارس الخصوصية وان ترفض مداخلات رجال الدين المدعين بان لهم السلطة في التعليم الذي وضعته السلطة المدنية وهذا ما يسمونه اليوم بالتعليم العامي . وقد طلب الاحرار فوق ذلك تخفيض الرسم الذي يخوّل الانسان حق انتخاب النواب والتحسين الذي تتطلبه حالة العملة

وظلّ مجلس النواب منذ سنة ١٨٤٦ منقسماً الى حزبين يتعاقبان على احراز الاكثرية الغالبة فمنصة الوزارة . فانه من سنة ١٨٤٧ الى سنة ١٨٨٤ تولى كل منهما الوزارة وسقط عنها ثلاث مرات . وكان الملك يستوزر دائماً من حزب الاغلبية . أما حزب الكاثوليك فمن اشياعه كل الارياف من الفلاماند البلجيكية والحزب الحر اكثر بهرجة ولذلك يتشيع له اهل البلجيك الفرنساوية . أما المدن الكبرى مثل كاند وانفرس فانها تتراوح بين الحزبين وبانضمامها الى احدهما تحصل له الاغلبية فالانتصار بانتخابات هاته المدن يشير بحصول الاغلبية ويقع التزاحم في كل الانتخابات سواء كان للنواب او للشيوخ او لمجالس الولايات والالوية

ويظهر ان النظام البارلماني البلجيكي قائم برجحان احد الحزبين كما هو الحال في انكلترا على ان الشقة بين الحزبين البلجيكيين أبعد مما هي بين الاحزاب الانكليزية اذ ان الثقة في الحزبين البلجيكيين بين هيئتين شبه منفصلتين بعضهما عن بعض ولا جامع بين مبادئهما لانها على طرفي نقيض . ولهذا يتعاظم عدوانهما على ممر الايام . وليس من المؤكد انهما يحترمان الدستور دائماً

النظام البرلماني في الممالك الاخرى : ان الممالك الثلاث الكبرى القائمة في شرقي

اوروبا واللاتي عقدن سنة ١٨١٥ المحالفة المقدسة الا وهن الروسية وبروسيا والنمسا ظللن حتى سنة ١٨٤٨ ذات حكومات مطلقة يختار ملوكها وزراءهم فيحكمون من غير رقيب في امم لا يمثلها مجلس انتخابي وما شأن مجالس الولايات في البلدان التي ابقوا عليها فيها الا مساعدة الحكومة في جباية الضرائب وان ملك بروسيا الذي وعد سنة ١٨١٥ اهل مملكته ان يسن لهم دستورًا مكتتبًا مات سنة ١٨٤٠ ولم يبر بوعده واعلن خليفته في اجتماع اعضاء مجالس الولايات سنة ١٨٤٧ في برلين ان هذه المجالس ليس لها شيء من السلطة وانه لا يريد وضع دستور مكتتب

وما برحت هذه الحكومات الثلاث المطلقة تظهر ان من مصلحتها تأييد الملكية المطلقة في الممالك الخاضعة لنفوذها وتحسب ان النظام الدستوري عند الامم الغربية يكون لشعوبها مثالاً شديد الخطر ولهذا كانت تبذل قصاراها في منع ملوك اوروبا الوسطى في المانيا وايطاليا عن اعطاء الدستور

وقد تأتى للنمسا منع الدستور عن ايطاليا حتى سنة ١٨٤٧ بحيث لم يكن من ملك فيها يرضى بوضع دستور او اتخاذ مجلس نيابي فلما ثار الاهلون ارغموا ملوكهم على قبول النظام الحر كما حدث في نابولي سنة ١٨٢٠ وفي ممالك الكنيسة والدوكيات سنة ١٨٣٠ وجاءت الجنود النمساوية فعززت بالقوة تلك السلطة المطلقة

اما في المانيا فقد ورد في قرار المؤتمر قوله انه سيكون في املاك الحلفة نواب عن الحكومات وورد في النص الاصلي قوله يجب ان يكون فيها نواب وجعل الاجل لاتمام ذلك سنة واحدة الا انهم غيروا بعد ذلك في النص وحرفوه فاصبح الكلام فيه شرحًا وما فيه شيء يدل على كيانه قانونًا بل لبث كل امير سيدًا في بلاده يضع لها من النظام ما يريد

الا انه في الولايات الجنوبية (ويرتمبرج وباد وبافاريا) التي صيرها استيلاء الفرنساويين عليها اكثر اتساعًا وانتظامًا وفي غراندوقية وايمار سن الامراء دستورًا مكتتبًا (من سنة ١٨١٦ الى ١٨١٩) بالرغم عن انذار الدول الكبرى فكان لكل امارة منها بارلمان يؤلف عادة من مجلسين احدهما ينتخب نوابه من المسجلة اسماؤهم في دفتر الجباية ولهذا المجلس حق تقرير الشرائع والضرائب الا ان امراءها كانوا يختارون وزراءهم من غير اعتداد بالاغلبية ولم يكن يجد المنتخبون في تلك البلاد الفقيرة كثيرين من الرجال الصالحين للنيابة نظرًا لقلة الاوساط فكانوا يعدلون لانتخاب الموظفين نوابًا حتى ان حزب المعارضين يتألف من العمال المنتخبين ايضًا لانهم عرفوا انه كان للوزارة وسيلة تمكن

بها من سحق المعارضات ذلك ان ترفض اعطاء الموظف اجازة التغيب عن عمله ليأتي خلالها فيجلس بين رصفائه النواب .

واما في الامارات الشمالية من المانيا فكان الامراء يميلون الى ابقاء الاجتماعات القديمة الارستوقراطية التي كانوا يعقدونها على قلة وفي فترات جمة وذلك متى مست الحاجة لسن قانون او وضع ضريبة جديدة

وامتنع بعض الامراء عن الانفراد بالحكم من غير ان يرغبوا في اعطاء الدستور فاهتاج الاهلون سنة ١٨٣٠ وثاروا فاضطر الامراء الى منحه الا ان النمسا مدت يدها لتعزيز السلطة المطلقة

ولذلك لم يكن النظام البرلماني ليتمكن غرسه من المانيا في تلك المدة الواقعة بين سنة ١٨١٥ وسنة ١٨٤٨ واصبح احرار الالمان وقد الفوا كراهة حكومتين النمساو بروسيا اللتين كانتا تظلمانهم وشرعوا يعجبون بفرنسا ويميلون اليها ويعتبرونها بلاد المساواة والحرية (١)

وفي الطرف الغربي من أوروبا رجعت مملكتا اسبانيا والبورتغال سنة ١٨١٤ الى الحكومة المطلقة واعادتا مجلس التفتيش مع ان التسود الفرنساوي على البلدين كان قد لاشاه فجار على اسبانيا واستبد فيها رجال حاشية الملك والكاهن معرفه وجنف على البورتغال القائد الانكليزي ونواب الملك الذي كان متغيبًا في البرازيل ومنعت الكتب الحديثة وحكم على اعضاء الجمعيات السرية كانهم مجرمون اما قادة الجيوش وضباطها فانهم لاتصالهم بالعساكر الفرنساوية والانكليزية اصبحوا من الاحرار فاهاجوا خواطر عساكرهم وشرعوا يطلبون سنة ١٨٢٠ من المملكتين ان تمنحاهم دستورًا فمنحهم ملك اسبانيا الرجوع الى دستور سنة ١٨١٢ الذي كان مأخوذًا عن الدستور الفرنساوي الموضوع سنة ١٧٩١ وفي سنة ١٨٢٢ اقر مجلس الكورتيس البورتغالي على اعتماد ذلك الدستور ايضًا . غير انه كان في اسبانيا حزب يريد الملكية المطلقة فتمردوا وهاجوا ينادون فليحي الملك المطلق وليسقط الدستور

أما الحكومة الفرنساوية فابدت مظاهرة تؤيد مبدأ الملكيين بان بعثت الى اسبانيا جيشًا وطد الحكومة المطلقة واخذ يناصر حزبها واستباحوا الاحرار بالقتل والنفي (سنة ١٨٢٣)

(١) وانك لترى الاجهار بهذه العواطف باحسن بيان في كتاب اسمه المانيا للمؤلف هين

ولما صار وريث العرش البورتغالي امبراطورًا على البرازيل بعث ابنته الى البورتغال لتملك مكانه ومنح البلاد عهدًا (سنة ١٨٢٦) فجعلت المملكة المساواة تجاه القانون واباحت الحرية (الا الدينية لانه لا يسمح بوجود غير الكاثوليك) اما الحكومة فقد ترتبت شؤونها على المثال البرلماني اي ان تكون مؤلفة من الملك ومن مجلس الاعيان الذي تنال العضوية فيه بالارث ومن مجلس النواب المنتخبين على درجتين وان يكون الوزراء مسؤولين وحق الانتخاب للمالكين الذين يبلغ ربع املاكهم ٦٠٠ فرنك واضافوا الى السلطات الثلاث المتفق عليها في سياسة العصر (التشريعية والتنفيذية والقضائية) سلطة رابعة le pouvoir moderateur السلطة المديرة وهي من اوضاع بينجمين كونستان الكاتب الفرنساوي ويراد بها حق فض المجلس واختيار الوزراء ومنح العفو والسماح وان تكون من خصائص الملك على انه قبل ان يجري مؤدى هذا العهد قام ميكل عم الملكة الفتاة وقلب الحكومة واستحوذ على السلطة المطلقة

وكان النظام البارلماني قد دخل اسبانيا والبورتغال في زمن واحد (حوالى عام ١٨٣٣) على اثر انقسام الاسرة المالكة وبسبب نفوذ الدولتين الدستوريتين العظيمتين الغربيتين الا وهما انكلترا وفرنسا وفي سنة ١٨٣٣ مات فردينان في اسبانيا مخلفًا ايزابل ابنته وكارلوس شقيقه فبحسب الشريعة السالية التي اعتمدتها اسبانيا منذ وليتها اسرة البوربون كان حق الارث لكارلوس الا ان فردينان كان قد اعاد مناهج كاستيل القديمة وسن بحسبها عهدًا يخول ايزابلا لبس تاجه ويجعل أمها كريستين نائبة عنها حتى تبلغ اشدها فلما مال حزب الحكومة المطلقة للدون كارلوس اعتمدت كريستين على حزب الاحرار وشرعت تستوزر منهم وكذلك في البورتغال لما ادركت الملكة الفتاة ماري سن الرشد أقيمت على عرشها بفتنة الاحرار الذين ثاروا على عمها ميكل فطردوه واستعرت نار الحرب الاهلية في البلدين على أثر ذلك بين رجال الحكومة المطلقة اشياع المدعين بالملك وبين الحزب الحر أشياع الملكيين وكانت الدول الثلاث الاوروبية المطلقة من أنصار المطالبين بالعرشين بخلاف انكلترا وفرنسا فانهما نصرتا الملكيين لانهما دولتان دستوريتان فتم بين هذه الدول عقد حلفة عرفت بالرباعية (سنة ١٨٣٤)

فاعادت الحكومة البورتغالية عهد سنة ١٨٢٦ وأذاعت الحكومة الاسبانية الميثاق الملكي سنة ١٨٣٤ وبه وعدت نائبة الملك بجعل مجلس الكورتيس على تقرير الشرائع موضع الضرائب والكورتيس هذا انما هو البارلمان الاسباني ويؤلف من مجلسين هما مجلس الاعيان

(Proceres) ومجلس النواب (Procuradores) الذي ينتخب أعضاؤه لمدة ثلث سنين على درجتين على ان يكون المنتخبون من المسجلة اسماؤهم واسعار رسومهم ولم يكن للنواب راتب فتعين ان يبلغ دخل واحدهم على الاقل ١٢,٠٠٠ فرنك

فغلب حزب الحكومة المطلقة في البلادين على امره واحتدمت الحرب العوان في اسبانيا خمس سنوات حتى غلب الكارلوسيون من اهل البيرنه وانقسم الاحرار المعتدلون (اشياع السلطة الملكية) وطلاب الارتقاء Progressistes (اشياع مجلس الكورتيس). وكان في البورتغال حزب العهد وجماعة سبتمبر على ان تحت هذه الاسماء خفيت اطماع زعماء هذه الاحزاب وفي غضون تسود هاتين المملكتين لم يكن فيهما من النظام الدستوري غير الرسم اذ لم يكن الوزراء بمسئولين تجاه مجلس النواب وبقي للحكومة من النفوذ في المملكتين بحيث لا يختار المنتخبون من النواب الا من ترشحهم الوزارة — وفوق هذا كان كبار القادة قد اتسعت سلطتهم عقيب الحرب الاهلية فصاروا يتداخلون في تنازع الاحزاب ويرغمون الملك على العهد اليهم بالوزارة فتولى منهم رئاسة الوزارة في اسبانيا في مدى اثنتين وعشرين سنة اي من سنة ١٨٣٣ الى ١٨٥٥ سبعة واربعون قائدا وستة وتسعون قائدًا آخرون تولوا وزارة الحربية الا ان النظام الجديد احدث انقلابين عظيمين على ان القائمين باعباء السلطة صاروا من الوزراء وكبار القادة بعد ان كانت للمقربين والمعرفين ثم ان الاحرار الغوا مجلس التفتيش واخذوا املاك الاديار لايفاء الديون الوطنية (وذلك في البورتغال سنة ١٨٣٤ وفي اسبانيا سنة ١٨٣٦) محطمين بذلك سيادة الكهنة المطلقة

الفصل الحادي عشر

الحكومة الفرنساوية من سنة ١٨٤٨ الى سنة ١٨٧٥

ثورة فبراير : وكان اعداء الحكومة في سنة ١٨٤٨ فريقين (كما في سنة ١٨٣٠) وهما حزب الشمال الملكي الطالب اصلاح الانتخاب واقالة كيزو من الوزارة وبقاء الملكية الدستورية وحزب الجمهوريين الراغب في قلب الملكية

وكان على زعامة حزب الشمال كل من تييرس وبارو فاثارة للرأي العام جعلا يولمان الولائم ويصرحان فيها بطلب الاصلاح ولكنهما لم ينسيا قط شرب الخمر على ذكر

الملك حسب العادة المألوفة . وكان الصحافيون والاوساط والحرس الوطني في باريز وبالاجمال كل من فُرض عليه اداء الجزية من اشياع هـذا الحزب وكان حزب الجمهوريين قد انتظم شأنه بعد سنة ١٨٤٠ ولم يكن يمثلهُ في المجلس غير نائب واحد (هولادر رولين) وليس له الا جريدة واحدة هي لارفورم وكان مشتركوها اقل من الفين . انما كان يعضدهُ قسم من العملة في باريز وهم تلامذة لويس بلان في طلب الاصلاح الاجتماعي فالسوسياليست (وبهذا الاسم كانوا يُعرفون) كانوا يشكون من ان العملة يضطرون في سعيهم للحصول على العمل الى قبول شروط اربابه اصحاب المعامل لذلك يطلبون من الحكومة تنظيم الاعمال بانشاء معامل لذاتها بحيث تكون هي التي تستخدم العملة . ووقع النزاع على مسألة اصلاح خطة الانتخاب غير ان المجلس رفض ذلك الاصلاح (في ١١ فبراير سنة ١٨٤٨) ومن ثمَّ منعت الحكومة إقامة وليمة اعدها حزب الشمال فاكتفى هـذا الحزب بالاجتماع ولم يزد . أما حزب الجمهوريه فانهُ شرع بالثورة كما فعل سنة ١٨٣٠ فتقلد السلاح وشرع يقيم المتاريس في احياء باريز الشرقية بينما كان الحرس الوطني النازل في القسم الغربي من العاصمة قد انقلب على وزارة كيزو وكانوا يحسبون الحرس يومئذٍ ممثلاً للرأي العام الباريزي ولم يكونوا يحسبون حساباً لانهُ سبق لهُ ان كان سنة ١٨٣٠ من حزب اسرة اورليان فعضدها وأعاد اليها الاريكة واستأهل ان يقول الدستور فيه « وليق العهد وكل الحقوق التي قرَّرها معهوداً بالمحافظة عليها لشجاعة الحرس الوطني وحبهِ لوطنهِ » فلما رأى لويس فيليب ان الحرس الوطني انقلب عليه سلم بمطالبه واقال كيزو من الوزارة واستوزر من حزب الشمال وبهذا ظفر حزب الاصلاح (في ٢٣ فبراير)

الا ان حزب الجمهورية لبث مستمرًّا على الثورة . وبينما كان يقوم بمظاهرات ليلية بُغت الجند فاطلقوا الرصاص على المتظاهرين وقتلوا منهم نفراً فحمل الجمهوريون اشلاء القتلى وطافوا بها شوارع باريز وفي صباح اليوم التالي شرع الثائرون بالهجوم فاستحوذوا على قصر التويلري وقصدوا قصر البوربون والزموا مجلس النواب على التصريح باسقاط الاسرة المالكة واقامة حكومة وقتية (في ٢٤ فبراير) فكان اتحاد حزب

الشمال والجمهوريين سبباً لفوز الجمهوريين — وكان اهل الولاية المجاورة برمتهم من مريدي الملكية ويوجسون من الجمهورية خوفاً وانما لاعتيادهم الرضوخ للحكومة بحيث كانت باريز تبعث اليهم بحكامهم فيرتضون لم يعارضوا عمل الثائرين واستسلموا للعمال الذين اليهم الحكومة الموقتة

الانتخاب العام : فالحكومة الموقتة التي نادى بها مجلس النواب كانت مؤلفة من سبعة اعضاء منهم لا مارتين وفي الوقت نفسه تألفت في الاوتيل ده فيل حكومة اخرى قوامها من الجمهوريين السوسياليست وفيهم لويس بلان (1) فاضطرت الحكومة الموقتة ان تنتقل الى الاوتيل ده فيل وان تقبل باعضاء الحكومة السوسياليستية واطلقت عليهم لقب كتبة الاسرار

غير ان الخصام مالبث ان ظهر في مقام الحكومة ذاتها بين اعضائها لان السوسياليست ارادوا جعل الحكومة جمهورية عامية (ديموقراطية) سوسيالستية (2) وان تكون الحكومة قيمة على ترتيب الاعمال وتتخذ لها شعاراً راية العملة الثائرين أي الراية الحمراء . أما الجمهوريون المعتدلون فرغبوا في انشاء جمهورية ديموقراطية لا تغير شيئاً من نظام الاملاك والمقتنى ويكون شعارها الراية المثلثة الالوان فلما تباحثوا ظفر الجمهوريون المعتدلون برأيهم في الراية فاقروا على ابقاء المثلثة الا انهم سلموا للسوسياليست بتجربة في القيام على الاعمال وتنسيقها وانشأوا مادعوهُ مصانع وطنية تديرها لجنة تعينها الحكومة ويقوم بالعمل فيها عملة تؤدي الحكومة لهم اجورهم . وكانت الثورة قد اوقفت الاشغال فاصبحت ملأى بالعملة الطالبين عملاً فجعلت الحكومة تزجهم في عملها باجرة فرنك ونصف كل يوم ولكن لم يكن عندها عمل تشغلهم به فجعلتهم ينقلون

---

(1) حدث مثل ذلك ايام ثورة سنة ١٨٣٠ الا ان الحكومة التي الفها المجلس النيابي يومئذ استدرجت فيها حكومة الاوتيل ده فيل

(2) وكانوا يطلقون عليها اسماً مقتضباً ديموك سوك . أما اعداؤهم فكانوا يسمونهم Communistes رمياً لهم بسوء المبدإ الذي نعرف بهِ الشيعة القائلة بالمشاركة في المقتنى

التراب ويجمعونه ركاماً في ساحة شان ده مارس فما عتم ان ملّ العملة من هذا العمل الشاق الذي لا فائدة منه ومالهم بالمعتادين عليه وصاروا يقيمون في مصانعهم بطالين وكان عددهم في شهر مارس نحواً من اربعين الفاً فصاروا في ١٦ افريل ٦٦ الفاً فأدّت هذه التجربة التي جرت في تلك الاحوال الى نفور الناس عن السوسياليست ومبدئهم بتنظيم الاعمال

واختلف الفريقان أيضاً في القضايا المالية وكانت الثورة قد احدثت نقصاً في واردات الخزينة فاقترح وزير المالية ان يسدد النقص بزيادة الضرائب غير المقررة فرفض بعضهم ذلك لان معظم الضريبة يعود على العملة . أما الحكومة فارادت ان تضيف على جبايتها ٤٥ سنتيماً في كل فرنك فكان من نتيجة هذه الاضافة ان كره الفلاحون الحكم الجمهوري

على ان الحزبين لا يستطيعان الاتفاق على بقاء الحكومة فاراد الزعماء القعود عن دعوة المنتخبين حتى ينتظم حال حزب الجمهوريين وقد قيل انه لا يستغرب على بلاد عنت الحكم الملكي العصور الطوال ان لا تتجاوز السنة الواحدة في الحكم الجمهوري وكان المعتدلون يريدون ان تضع الحكومة باسرع ما يكون مجلساً ممثلاً للامة

وشرع كل واحد من الحزبين يبدي من المظاهرات ما به ارعاب الحزب الاخر وكان العملة ينصرون السوسياليست اما الحرس الوطني والاوساط وطلبة العلم فكانوا انصار المعتدلين ففازوا برغبتهم وعينت الحكومة اليوم الثالث والعشرين من افريل موعداً لانتخاب مجلس التشريع وان يكون حق الانتخاب مباحاً لكل فرنساوي بلغ الحادية والعشرين من سنه ذلك لانهم لم يقفوا في اصلاح الانتخاب عند الحد الذي طلبه المعترضون وانما توصلاً لصيرورة الجمهورية ديمقراطية شيدوا حكومتها على اساس جديد الا وهو الانتخاب العام الذي كان جارياً في كل من جمهوريتي الولايات المتحدة الاميركية وسويسرا الا انه لم يعمل به في تينك الجمهوريتين الا تدريجاً وكانت فرنسا قد اختبرته في انتخاب الكونفانسيون عام ١٧٩٢ فصار من تقليدات الثورة ومن المناهج الجمهورية وانما اراده السوسياليست ليتمكن العملة به من التماس ما يرجع لمنفعتهم من الاصلاح القانوني ولكي يلجئوا الحكومة الى السعي في اصلاح شؤونهم فكان الانتخاب العام صار نتيجة لازمة

لقيام الجمهورية ولذلك اتخذوه قاعدة لا جدال فيها و يظهر ان الجمهوريين من اهل الحل والعقد لم يحسبوا حساباً لما يعمله الفلاحون متى نالوا هذه السلطة الجديدة

ويتألف مجلس التشريع من تسعمئة عضو ينتخبون بالاقتراع الجدولي Scrutin de liste في محل الايالة (على نسق الولايات المتحدة الاميركية) وحسب المنتخب ان يفوز بالاكثرية النسبية اما المنتخبون فيذهبون الى قصبة المقاطعة وهناك يعطون اصواتهم أما النواب فقد تعين لهم اجور عن كل يوم خمسة وعشرين فرنكاً

فالتأم المجلس وكانت الاغلبية الغالبة فيه للمعتدلين من الجمهوريين فجعل يناهض جماعة السوسياليست وامر بتعطيل المصانع الوطنية فامتاء السوسياليست وضموا اليهم العملة الذين صاروا عطلاً من العمل بصرفهم من المصانع ثم هاجموا قاعة المجلس في ١٥ مايو طالبين من الحكومة فضه فاشتبك القتال بين الحزبين في شوارع باريز ودامت الموقعة بينهما ثلاثة أيام (من ايام شهر يونيو) فاستولى الجيش والحرس الوطني على أحياء الشرق التي كانت للمتمردين وغلب السوسياليست على امرهم تماماً على ان العملة صاروا لا يكترثون بالجمهورية بل يلقبونها بجمهورية الاوساط

دستور سنة ١٨٤٨ : — ولما أمن مجلس التشريع شر عدائه السوسياليست التفت الى وضع الدستور

وكان المجلس راغباً في مناوأة الحزب البرلماني الاريستوقراتي من غير ان يمس الشؤون الاجتماعية وقد استهل الدستور بوضعه بياناً للحقوق قال فيه « بحضرة الله تعالى وباسم الشعب الفرنساوي يعلن المجلس الوطني ان فرنسا صارت دولة جمهورية وان الجمهورية الفرنساوية ديموقراطية (شعبية) وانها لتعترف بالحقوق والواجبات السابقة للشرائع الوضعية والسامية عليها وأن شعارها الحرية والمساواة والاخاء وأساسها العائلة والعمل والتملك والامن العام » فنهض أحد النواب من حزب الملكية وسأل المجلس عن معناه بكلمة الديمقراطية قائلاً « اريد ان تكون هذه الكلمة حاوية للمعنى الذي لا يكون علة لاطلاق الرصاص » فاجابوا « ان ما يفسر هذه الكلمة هو الانتخاب الحقيقي العام »

واعترف المجلس بكل انواع الحرية مثل حق حرية التألب وحرية العرض وحرية الطبع ثم الغى استرقاق الزنوج والمراقبة وفوق ذلك صرح بواجبات المجتمع في اعانة بنيه على التعلم واكتساب اود الحياة ومما قال « ان من واجب الجمهورية حماية الوطني في شخصه وفي عائلته ودينه واملاكه وعمله وان يكون التعليم ميسوراً لكل انسان

وتفرض عليها الاعانة الاخوية لاعالة الوطنيين المحتاجين سواء كان بايجاد اعمال يقومون بها أو بالاحسان لمن لا يستطيعون عملاً على ان كل تلك الاعانة لا تكون الا بحسب استطاعة الحكومة » بيد ان المجلس أبى ان يصرح بشيء من حقوق العمل

وأعلن مجلس التشريع ان كل السلطات العامة تصدر عن الامة وانه لا يمكن ان يناها احد بالارث فكان هذا هو تسود الشعب تحت الشكل الجمهوري

ولقد عول المجلس على رأي مونتسكيو في تنظيم شؤون الحكومة (حسب قوله في البند التاسع عشر ان انفصال السلطات لهو اشرط الاولي للحكومة الحرّة)

والخلاصة ان الشعب الفرنساوي فوض السلطة التشريعية لمجلس واحد والسلطة التنفيذية لوطني واحد هو رئيس الجمهورية فالسلطتان مستقلتان بعضهما عن بعض استقلالاً تاماً ويقوم المجلس وحده بوضع الميزانية وسن الشرائع ولا يستطاع فضه وللرئيس وحده حق اختيار وزرائه وما هم بالمسؤولين كانهم ارادوا ان يتحدّوا الولايات المتحدة في نهجها على ان يكون المجلس واحداً تنتخب اعضاؤه بالاقتراع الجدولي ولم يرغبوا في جعل المجلس مجلسين لانهم يحسبون المجلس الاخر عبارة عن ندوة اريستوقراطية اما رئيس الجمهوريين فينتخب مباشرة من الامة بالانتخاب العام ويستمر في المنصة اربع سنين على ان الاقلية اقترحت ان يكون انتخاب الرئيس من المجلس لان من الخطر ايداع هذه السلطة بيد المنتخبين الاغرار وكان لويس نابليون ابن شقيق نابليون الاول قد انتخب نائباً فكانوا يوجسون خوفاً من سعيه في احراز السلطة الا ان لامارتين استمال المجلس بخطاب بليغ قال ولئن انتخب الشعب من اخشى انتخابه لسوء ظني فيه فقد استقسمنا بالازلام والامر لله ثم للشعب فعلينا ان نترك للعناية الالهية سبيلاً ونضرع اليها ونسترحم منها انارة اذهان الشعب وانخضع لحكمه فاذا خدع الشعب او اذا أراد اطراح اسباب أمنه ومقامه وحريته وتسليمها لايدي من يعيد ذكرى الامبراطورية فليكن ان الشعب يكون قد جنى على نفسه ولا نكون نحن الجانين بل هو الجاني الخالي من الثبات والشجاعة » فاكتفوا بان يضيفوا الى ذلك انه لا يجوز اعادة انتخاب الرئيس

وتعين لانتخاب الرئيس اليوم العاشر من كانون الاول من سنة ١٨٤٨ فاستدعي المنتخبون وكان مرشح المعتدلين كافنياك ومرشح السوسياليست لادري رولين . واما الفلاحون الذين كانوا بمعزل عن السياسة فلم يكونوا يعرفون غير اسم نابليون لذلك اجمعوا كلهم على انتخاب لويس نابليون بونابرت فحصل على خمسة ملايين ونصف

مليون من الاصوات (من اصل سبعة ملايين تقريباً) فاصبح نابليون سيد السلطة التنفيذية وقبض على الوزارة والعمال والجيش

فانتخب المجلس التشريعي يوم عدل الناس عن الاعتقاد بالجمهورية فتألف من خمسمائة عضو ملكي ومائتين وخمسين عضوًا جمهوريًا منهم سبعون فقط من المعتدلين واتحدت الاغلبية من حزب الملكية مع الرئيس فاستوزر من جماعة الاورليانيين Orléanistes وشرعوا يناوئون حزب المونتاين وسير الرئيس بعثًا من الجيش الى رومية لتأييد سلطة البابا مخالفًا بذلك رأي الجمهوريين وقرر قانون سنة ١٨٥٠ الذي اوجب ان يعلم التعليم المذهبي في المدارس الابتدائية وقانون المطبوعات و به طُلب تقديم الضمانات وقانون ٣١ مايو وبه انتزع حق الانتخاب من نحو خمسي المنتخبين بحيث فرض على المنتخب ان يكون قد قضى ثلاث سنوات ساكنًا في البلد الذي انتخب فيه وان يكون في جملة الذين يؤدون الجبايات

فلما ظفرت الاغلبية سنة ١٨٥١ بالحزب الجمهوري شرعت تقاوم الرئيس الذي ملّ من النظام البارلماني وجعل يسعى جهده لاحراز السلطة المطلقة ثم فصل وزراءه الذين من حزب الاورليانيست واستبدلهم بنفر من اصحابه الاخصاء وكان قد استمال اليه الكثيرين من القادة وجعل يتغاضى في استعراض الجيش عن المناداة له « فليحي الامبراطور » وكان قد قال في مأدبة حضرها (في يونيو سنة ١٨٥٨) ان فرنسا لا تهلك بين يدي الا ان مدة سلطته كانت على وشك النهاية أي في سنة ١٨٥٢ فاراد تجديد انتخابه مرة اخرى وكان الدستور مانعًا فطلب من المجلس اعادة النظر فيه لاصلاحه وفاته ان القرار على ذلك لا يتم الا باتفاق اراء ثلثي المجلس ولم يكن احراز ذلك العدد ميسورًا له فاوجس نواب الملكية خوفًا وطلب ضباط المجلس ان يمنح رئيس المجلس الحق باستدعاء القوة لحماية النواب الا ان حزب المونتاين اتحد مع اشياع نابليون ورفضوا هذا القانون فالسلطتان اللتان اوجدهما الدستور اصبحتا في تنازع وخصام وليس فيه من سبيل لايقاف مثل ذلك الخصام عند حده أما الرئيس صاحب السلطة التنفيذية يعني بذلك القوة فانه استخدمها لقلب الحكومة في ٢ كانون الاول من سنة ١٨٥١ واعلن فض المجلس وتجديد الانتخاب العام وطلب الى المنتخبين ان يقترحوا دستورًا يمنح الرئيس السلطة المطلقة لعشر سنين

وكان الدستور قد احتسب لوقوع مثل هذا الحادث فقرّر انه متى انتزعت السلطة التنفيذية من الرئيس تعود الى المجلس وجعلت لمحاكمته محكمة عليا تتألف سريعًا غير ان نابوليون كان مالكاً امر الجيش وجماعة البوليس وكان قد قبض على زعماء الاحزاب واجتمع

من نجا من النواب للنظر في تنفيذ مؤدى الدستور فابعدهم الجد ولم يبق للمدافعة عن الدستور الا الجمهوريون من حزب المونتانين فاتخذ الرئيس هياجهم فرصة ليظهر فيها انه بدافع عن الامن من عيث الحمر rouges فقيمت الاحكام العسكرية (العرفية) في اثنين وثلاثين مقاطعة وانشئت المحاكم الخصوصية وهي اللجان المختلطة تحكم على الجمهوريين بالاشغال الشاقة والنفي والابعاد والسجن واحصوا المحكومين فكانوا عشرة الاف منهم ثلاثة الاف واربعمائة رجل ابعدوا الى الجزائر

أما المنتخبون الذين استشارهم في شأن الدستور فاجابوا بالقبول . ولذلك ظل نابليون سيد فرنسا المطلق

الامبراطورية : تحدى دستور ۱۸۵۱ نهج دستور السنة الثامنة فمنح الرئيس كل السلطة مثل اعتماد خاطره في حق تعيين الوزراء والعمال واشهار الحرب وعقد العهود ووضع البلاد تحت الاحكام العرفية وانه مسؤول ولكن للشعب فقط لانهم كانوا على تمام الثقة ان المنتخبين لا يجرأون على الاقتراع ضد رئيس حكومتهم . واما الوزراء فليسوا مسؤولين لدى المجلس على انهم لا يكونون من النواب

وقد عهدت السلطة التشريعية في الظاهر لثلاثة مجالس هي مجلس الدولة الذي يعد القوانين فتبحث فيها وتقررها هيئة تشريعية ومجلس الاعيان يؤلف من كل مشاهير البلاد وهم الحافظون للشروط الاساسية وللحرية العمومية . ومجلسان من هاته المجالس وهما مجلس الدولة ومجلس الاعيان يعين الرئيس اعضاءهما مباشرة . واما المجلس التشريعي فينتخب اعضاؤه بالاقتراع العمومي من غير تسمية و يكون ذلك في قصبة الايالة . وهذا المجلس التشريعي لا يحق له ان يقترح وضع السنن لان حق الاقتراح لرئيس الجمهورية وتنحصر صلاحية المجلس في الاقتراع على القوانين التي تعرض عليه على ان لمجلس الاعيان كل السلطة لالغاء الاحكام الاستبدادية او التي لا تكون موافقة للقانون

فكان هذا نظاماً ديمقراطيًا استبداديًا الا ترى نابليون يقول ان خلاصة الديمقراطية هي ان تكون متحدة في الفرد

وفي سنة ۱۸۵۲ قرر مجلس الاعيان صيرورة نابليون امبراطورًا ووراثيًا فنودي به باسم نابليون الثالث امبراطور الفرنساويين و بذلك تجددت الملكية في فرنسا ولكنها كانت ملكية ديمقراطية لان الانتخاب العام لم يعرض للبحث

وقوام الحكومة الامبراطورية هو ايداع السلطة المطلقة للامبراطور ووزرائه على ان

تراعى هيئة النظام النيابي وكان قد تقرر مبدأ تسود الشعب فطلب منه التصريح بارادته بالانتخاب العام Plebiscites انما كانت الحكومة هي السائلة عن رغبة الناس في الامبراطورية فلم يسع المنتخبون الا الجواب ايجاباً — وكان ثمت مجلس منتخب ولكنه لم يكن له حق بانتخاب رئيسه ولا ان يضع لنفسه قانونًا ولا ان يقترح تنقيحاً او تغييراً في مايعرض عليه للمصادقة من القوانين ولا ان يقرر ميزانية بل كان الواجب عليه ان يقبل الميزانية التي تعرضها عليه الوزارة بجملتها او ان يرفضها كلها ولم تكن مباحثه تشهر الابصور وقائع رسمية اما جلساته فلا تستمر الا مدة ثلاثة شهور

فكان المنتخبون هم جميع الوطنيين الا ان الحكومة استحفظت على حق ارشادهم فكانت تعرض مرشحها الرسمي في كل دائرة من دوائر الانتخاب فيلتزم الوالي ورئيس البلدية ان يسعيا في انتخابه بحيث لا يبقى من وسيلة لفوز نظرائه المرشحين من الحزب المعارض سيما وانه حظر على الناس عقد الاجتماعات الانتخابية بحجة انها تسلب المنتخبين حريتهم ولم يكن بالامكان توزيع النشرات جهارًا ومن سنة ۱۸۵۸ صار من الواجب على كل مترشح ان يقدم قبل الانتخاب كتابة تتضمن يمين الامانة للامبراطور وجعلت دوائر الانتخاب تعين لخمس سنوات بامر من الحكومة وترتب على طرز يضمن حصول الاغلبية للمرشحين الرسميين وثمت مدينتان ظن بهما من حزب المعارضين فقسموا كلاً منها شطرين وكان الانتخاب يقام في حاضرة المقاطعة و يبقى يومين والحاكم هو الذي يعين المكتب الذي يجري فيه الانتخاب وفي مساء اليوم يأخذ رئيس البلدية صندوق الاقتراع معه

وكانت الجرائد السياسية لم تزل موجودة الا ان الحكومة لم تترك مجالاً لحرية الكلام جهرًا وكان يقتضي لانشاء جريدة جديدة رخصة من الحكومة على ان كل الجرائد كانت تخضع للحكام مباشرة فمتى نشرت مقالة اغاظت الحاكم بعث اليها بالانذار فان انذرت ثانية يستطاع ايقافها عن النشر فان اقيمت الدعوى على الجريدة لما كتبت تعطل وقد صدر في اربعة عشر شهرًا (۱۸۵۲ و ۱۸۵۳) نحو من واحد وتسعين انذارًا و يصدر الانذار عادة لاقل تعريض او انتقاد . من ذلك ان احدى الجرائد انذرت مرة لانها كتبت مقالة قالت فيها ان نابليون الاول كان رسول الثورة فقيل « ان تلك المقالة شوهت الحقيقة ونددت بالبطل المشترع الذي تعترف فرنسا له بالجميل لان السلام فيها راجع اليه »

وحدث مثل ذلك مرة اخرى لجريدة انتقدت امرًا صارماً اصدرته الحكومة عن السكر وأنذرت جريدة لودباك لبحثها في السماد الصناعي وقيل لها ان ذلك البحث يؤدي

الى الحط من ثمنه والى الاخلال بالوسائط التي تتخذها الحكومة للتحقيق عنه وليس له من ثمرة غير ادخال الريبة في افكار المشترين . وكذلك اوعز لجريدتين غيرها من جرائد الدوار السفلي لانهما تجاوزتا حد اللياقة

اما الحرية الشخصية فمباحة في الدستور الا ان جماعة البوليس كانوا يراقبون غير الراضين عن الحكومة ويلقون القبض عليهم لاقل شبهة من ذلك انهم زجوا في السجن غرامي الممثل الهزلي لانه قال يوماً في احدى القهوات وقد ابطأوا عليه باحضار غذائه « زماننا هنا كانا في سباستبول لايمكننا ان نتناول طعاماً » وفي سنة ١٨٥٨ عقيب جناية اورزيني الايطالي ارغمت الحكومة مجلس النواب على وضع قانون يخولها الحق ان تسجن من غير محاكمة كل انسان يظن به جمهورياً من الناشئين بين سنة ١٨٤٨ الى سنة ١٨٥١ وعين الجنرال اسبيناس وزيراً للداخلية لانفاذ هذا القانون فصدر امره الى الولاة بالقبض على عدد من المشتبه بهم في ولاياتهم (من اربعة الى عشرين رجلاً) فاستولت الحكومة بهذه الوسائل على البلاد حتى انه لم يكن في مجلس الامة من سنة ١٨٥٧ الى سنة ١٨٦٣ الا خمس من النواب المعارضين فسموهم النواب الخمسة فكان الوزراء والولاة يحكمون البلاد دون اقل سيطرة عليهم فكان انتخاب النواب على اهوائهم وصارت الصحف لا تنشر من الاخبار الا ما يجيزون لها نشره

غير ان الحروب التي قام بها نابليون الثالث بدلت شيئاً فشيئاً نهج سياسته الداخلية فانه كان حتى سنة ١٨٦٠ يعتمد على الكهنة في حمل الفلاحين على انتخاب المرشحين الذين تريدهم الحكومة الا انه بايجاده دولة ايطالية معادية للبابا اغضب الحزب الكاثوليكي فشرع هذا يعمل على معارضته

فاعتمد الامبراطور على حزب الاحرار المعتدلين ليوازن به الحزب الكاثوليكي ولهذا صفح عن المحكوم عليهم بعفو سنة ١٨٥٩ وجعل من سنة ١٨٦٠ الى سنة ١٨٦٧ يمنح الامتيازات ليزيد قليلاً في سلطة النواب ومن ثم خفف وطأة المراقبة عن المطبوعات

فنشأ يومئذ الى جانب الحزب الجمهوري حزب المعارضين الاحرار مؤلفاً من الملكيين مريدي النظام البارلماني حتى انه وجد في المجلس المنتخب سنة ١٨٦٩ مئة وستة عشر نائباً وقعوا على عريضة يلتمسون بها العمل بالنظام البارلماني ولو تسنى لهم الانضمام الى الاربعين نائباً جمهورياً لصارت لهم الاغلبية في المجلس

فاذعن نابليون الثالث واصدر مجلس الاعيان قراراً مؤرخاً في ٦ سبتمبر بدل فيه

النظام الامبراطوري بالنظام البرلماني وصار للنواب الحق في اختيار موظفيهم ووضع قوانينهم وتقرير الميزانية قسماً فقسماً وان يكون الوزراء منهم على النهج الانكليزي بحيث يترأس الوزارة وزير مسؤول تجاه مجلس النواب

ولم يعد مجلس الاعيان حافظ الدستور بل اصبح مجلساً للنبلاء من خصائصه التصديق فقط على الشرائع التي يسنها مجلس النواب واصبحت السلطة التشريعية بايدي المنتخبين مباشرة وقد عرض عليهم الدستور الجديد لينال مصادقة الراي العام (في ٦ مايو سنة ١٨٧٠) فاجازه اجتماع سبعة ملايين ونصف من المصوتين

وعرف هذا النظام الذي اعاد الدستور للنواب بنظام الامبراطورية الحرة وبداه فيه رجال حديثون وصار رئيس الوزارة واحداً من الخمسة وهو اميل اوليفيه . الا ان حزب الجمهوريين ابى قبول هذا التغيير فاقترعوا في التصويت العام ضده واظهر نوابهم عدم ارتضائهم عنه وشرعوا يتظاهرون باثارة الفتن في شوارع باريز

جمهورية سنة ١٨٧٠ : كان الجند معتمد الامبراطورية ودعامتها فلما اشتبكت الحرب مع بروسيا زجته الامبراطورية في معمعانها فتقهقر وشتت شمله الا ان قسماً منه لبث محصوراً في متس واسر القسم الباقي في سيدان مع نابليون الثالث (في ٢ سبتمبر سنة ١٨٧٠) فثار الحزب الجمهوري في باريز واقتحم مجلس النواب (في ٤ سبتمبر) ولم يدع له وقتاً لتقرير سقوط الامبراطور بل نادى بانشاء حكومة الدفاع الوطني مؤلفة من نواب باريز ثم بتأسيس الجمهورية فاعترفت بها جميع البلاد من غير مقاومة

وظلت حكومة الدفاع الوطني يحصرها الالمان في باريز ويناهضها فيها حزب من ثوار السوسياليست الذين كان شعارهم العلم الاحمر وقد قاموا بفتنة شعواء في ٣١ اكتوبر واستولى معتمدو الحكومة في الولايات على السلطة فبدلوا عمال الامبراطورية برجال من الجمهوريين وكان غامبتا اعظم معتمدي الجمهورية واكثرهم نشاطاً فشرع يدير اعمال الادارة والحرب

وبعد تسليم باريز عقدت الهدنة مع الالمان ليتمكن خلالها الفرنساويون من انتخاب جمعية وطنية فصار الانتخاب على الطريقة المشترعة سنة ١٨٤٨ اي بالاقتراع الجدولي وان يكون ذلك في المقاطعات الا ان الفلاحين استرابوا بالحزب الجمهوري الذي يسوده غامبتا واوجسوا خوفاً من استمراره على الحروب المائلة الى النهاية ولذلك انتخبوا الجانحين للسلم فتالفت الجمعية الوطنية من الملكيين والجمهوريين من المعتدلين ولكن كانت الاغلبية فيها للملكيين فانتخبت

الجمعية تيبرس رئيساً للسلطة التنفيذية (تجربة استعمال اسم الجمهورية)

الا ان حزب السوسياليست في باريز رفض الاعتراف بسلطة الجمعية فخلع الطاعة في ١٨ مارس سنة ١٨٧١ وقام حكومة على نموذج جديد تلك هي حكومة La Commune الكومون فكان نظامها شبيهاً بكل نظام وضعه او تصوره حزب السوسياليست اعني انه نظام حكومة ثورية معادية للاوساط وغايتها اصلاح حقوق التملك بما يجر المنفعة للعملة الا ان الترتيب كان مختلفاً لان السوسياليست كانوا حتى ذلك العهد يطلبون انشاء سلطة مركزية في غاية المنعة بحيث يمكنها اجراء الاصلاح الاجتماعي بالقوة في كل البلاد غير انها في سنة ١٨٧١ صرحت بان الامر فيها لحكومات الكومون وانما فعلت ذلك تأثراً من الثوار الغرباء وعملاً باراء تلامذة برودهون Proudhon فشرعت كل واحدة من تلك الحكومات تدير ذاتها لكنها تالبت لعقد حلفة في ما بينها . فنتج من ذلك تسميتها بالحلفاء وورد في قانون ١٩ افريل سنة ١٨٧١ « ان استقلال الكومون الاداري لا حد له الا حقوق الاستقلال المتساوي لكل واحدة من حكومات الكومون الاخرى الداخلة في التحالف بحيث يكون تالب الجمع ضامناً للوحدة الفرنساوية »

وعلى هذه المبادىء قامت حكومة الكومون في باريز على ان يقوم بادارتها مجلس منتخب ثم اتجهت خواطرهم لتنظيم حكوماتهم في ليون ومرسيليا وبعض المدائن الكبرى على هذا النسق لكن الولايات لم ترض لاول وهلة عن الثورة الناشبة في باريز . اما الحكومة والجمعية الوطنية اللتان لجأتا الى فرسايل فقد جهزتا جيشاً ارصدوه لمحاصرة باريز وفيها الحرس الوطني يدافع الجيش عنها حتى غلب الحرس وانتصر الجيش ودخل العاصمة عنوةً فجعلت الحكومة تنكل بالعصاة وتنزل بهم العقاب شديداً قتلاً بالرصاص او ابعاداً عن الوطن بحيث اصبح حزب العلم الاحمر لا يقوى على النهوض بالثورة ثانية والغي الحرس الوطني الغاء باتاً

فاعقب ذلك احتدام الخلاف في الجمعية الوطنية بين الاغلبية من الملكيين والاقلية من الجمهوريين ذلك لان الاغلبية ادعت ان الجمعية الوطنية لم ينتخب اعضاؤها الا بقصد ان يؤلفوا دستوراً و بالرغم عن تقديم العرائض مكررة بطلب فض الجمعية لبثت قابضة على السلطة الى سنة ١٨٧٦

دستور سنة ١٨٧٥ : وكانت الاغلبية الملكية مزيجاً من ثلاثة احزاب هم الملكيون القانونيون Légitimistes اي اشياع الكونت دي شامبور المنتحل اسم هنري الخامس على

انه حفيد شارل العاشر . والاورليانيون وهم اشياع الكونت دي باري حفيد لويس فيليب . والبونابرتيون وهم اشياع ابن نابليون الثالث . ومثلهم كانت الاقلية الجمهورية منقسمة الى ثلاث شراذم هي حزب الوسط الايسر والجمهوريون والراديكال

وكانت ادارة الحكومة تتوقف على الهيئة التي تتألف منها بحيث ظلت نحواً من سنتين في حال التردد لا تستقر على نهج سوي وكان حزب الوسط الايمن اي الاورليانيون قد تحوّل مع حزب الوسط الايسر (الجمهوريين) على معاضدة حكومة تيبرس فكانت تلك سياسة اتحاد احزاب الوسط ومن ثم اوجس حزب اليمين خوفاً من حزب الراديكال لان الحكومة لم تكن تقاومه بكل جهدها ولا تأخذ بناصر الكهنة فاتحدت مع الاحزاب الملكية الاخرى واقترعوا ضد الوزارة . على ان تيبرس لم يرض ان يبقى رئيساً للسلطة التنفيذية فاستقال (في ٢٤ مايو سنة ١٨٧٣) فانتقلت السلطة الى احزاب اليمين المتحدة . وظلت لها حتى سنة ١٨٧٦

وكان على الجمعية الوطنية ان تهتم في وضع الدستور فحاولت احزاب اليمين اعادة الملكية وكان الكونت دي باري قد اعترف بالكونت شامبور ملكاً على فرنسا فادى هذا الاعتراف الى اتحاد الحزبين الملكيين (وهما الاورليانيون والملكيون القانونيون) على ان الكونت دي شانبور الذي اجمعت الاغلبية على تمليكه جعل حل المسألة من المستحيلات اذ اشترط ارجاع العلم الابيض (في ٢٧ اكتوبر سنة ١٨٧٣)

ولما لم ينالوا الملكية قررت الاغلبية ان يقام رئيس السلطة التنفيذية لمدة سبع سنين ومن ثم شرعت في وضع الدستور ولم تكن لترضى بالحكم الجمهوري الا انه حدث بعد جدال طويل ان انفصل عن حزب الوسط الايمن شرذمة قليلة العدد وانضمت الى الجمهوريين فنالوا بها اغلبية صوت واحد في قرار ابتدوه وفيه قولهم « رئيس الجمهورية» فاثبت الدستور عرضاً ان الحكومة الفرنساوية اتخذت الشكل الجمهوري

وجاء دستور سنة ١٨٧٥ مقلداً نهج الممالك البارلمانية — فينتخب البارلمان رئيس الجمهورية لسبع سنين يتمتع خلالها بحقوق الملك الدستوري فيختار وزراءه والوزارة تتباحث في جلسات تعقدها وتكون مسؤولة بالتضامن تجاه المجلس بمعنى ان الوزراء متى صاروا الى الاقلية في المجلس يستقيلون جميعهم من مناصبهم ولرئيس الجمهورية حق فض المجلس بالاتفاق مع الاعيان والسلطة منوطة بمجلسين هما مجلس النواب ومجلس الاعيان وراتب العضو فيهما خمسة وعشرون فرنكاً كل يوم وينتخب اعضاء مجلس النواب بالانتخاب

العام بالاقتراع في الولايات (وذلك من سنة ١٨٨٥ الى سنة ١٨٨٩ بالاقتراع الجدولي) ومن خصائصه وضع الشرائع والاقرار على الميزانية — واعضاء مجلس الاعيان يلقبون الشيوخ عددًا وهم على قسمين قسم عدده مئتان وخمسة وعشرون عضوًا ينتخبهم اولو الشأن وهم معتمدو مجالس البلدية والنواب والمجالس العمومية للايالات والمقاطعات على ان يكون اجتماعهم لذلك في قصبة الولاية . والقسم الثاني عدده خمسة وسبعون عضوًا تنتخبه الجمعية الوطنية ومن ثم المؤتمر . والقسم الاول يتجدد انتخاب ثلث اعضائه كل ثلاث سنين والقسم الثاني ينتخب على مدى الحياة وخصائص مجلس الاعيان هي ذات خصائص مجلس النواب من تقرير الشرائع والميزانية وانما الميزانية تمرّ اولاً على النواب ومن ثم تصل اليه . ولكن الوزارة لا تستقيل اذا اقترع الاعيان ضدها . فينتج من ذلك انهم خصصوا السلطة بالنواب وذلك لان الوزراء يخرجون منهم ولكل نائب وعضو من الاعيان الحق الصراح ان يطلب تعديل قرار وان يعرض وضع قانون او ان يسأل الحكومة عن اي امر اراده

واذا وقع الخصام بين رئيس الجمهورية والنواب يكون لمجلس الاعيان حق الفصل بينهما فلك لأنّ من حقوقه فض مجلس النواب لدى طلب الرئيس

وكانوا قد اقروا على اجتماع المجلسين واقامة الحكومة المركزية في فرسايل لحركة الشعب في باريز . الا ان الحزب الجمهوري اقرّ على ان يكون ذلك في باريز

ولا يستطاع التغيير في الدستور الا باتفاق المجلسين بحيث يقتضي ان يقرر كل واحد منها على حدة « ان في الدستور مواضع يجب اعادة النظر فيها » فينتهي ذلك باجتماع المؤتمر يعني به اجتماع الشيوخ (السنا) والنواب

وهكذا نرى ان النظام الموضوع في دستور سنة ١٨٧٥ انما اتبعوا فيه النظام الدستوري لممالك الحرة مع ان البلاد صارت ديموقراطية

ومما تبين في الدستور انهُ جعل السلطات ثلاثًا كما هو الحال في كل نظام دستوري فرئيس السلطة التنفيذية ينوب مناب الملك على ان لا حق لهُ الا ان يختار الوزراء ويفض المجلس . واما السلطة العليا فمن خصائص البارلمان المؤلف من المجلسين وهو الذي يقترح سن الشرائع ويقرر الميزانية ومجلس النواب المنتخب من الامة مباشرة يدبر السياسة الداخلية والوزارة مسؤولة لديه بالتضامن على انهم اضطروا الى اشتراع سنن جديدة ديمقراطية هي :

اولاً : لا يمكن ان تكون رئاسة السلطة التنفيذية وراثية فان البارلمان هو الذي

ينتخب الرئيس لسبع سنين

ثانيًا : لم يرغبوا ان يمنحوا الرئيس وحده حق فض مجلس النواب فصار لا يتأتى لهُ ذلك الا بالاتفاق مع مجلس الشيوخ

ثالثًا : ان مجلس النواب لا ينتخب من المنتخبين الممتازين فقط بل من كل الوطنيين

رابعًا : حبًا بتمهيد السبل لاي شاء من الناس في احراز منصة النيابة تعين لكل من اعضاء البارلمان راتب مسمى

خامسًا : لما لم يكن في الامكان تأليف مجلس السنا (الشيوخ) من الاعيان (الارستوقراط) جعل تأليفه بالانتخاب كمجلس النواب على ان يكون النواب ممثلي الاهلين والشيوخ يمثلون البلاد وقد قال غامبتا « ان مجلس الشيوخ مجلس كبير الولايات في فرنسا »

سادسًا : ان مجلس الشيوخ يقوم بمهام هي اعظم شأنًا من مهام مجلس الاعيان اذ ليس عليه فقط مراقبة النواب وانما الانضمام اليهم للعمل معًا وله من الحقوق اكثر مما لامثاله مجلس الاعيان عند الامم الاخرى كحق تقرير الميزانية وفض المجلس النواب

فهذه هي هيئة المملكة الدستورية وبها رجعت حكومة البلاد للمجلس الديمقراطي

الفصل الثاني عشر

انقلاب اوروبا منذ سنه ١٨٤٨

الجنسيات :ــ لقد نشأ من مبداء تسود الامة عدا عن المبدأ القديم الدستوري مبدأ جديد هو الجنسيات وذلك انه لما تقرر الحق للامة وحدها ان تحكم نفسها اصبح من حقها ايضًا ان لا يحكمها الاجانب عنها او ان تنضم الى امة غريبة ولا ان تتجزأ بين حكومات جمة بل يجب ان تكون كل امة مملكة مستقلة وان تنضم كل اجزائها فيتألف منها دولة واحدة هذا هو مبدأ الجنسيات

ولم يكونوا حتى القرن التاسع عشر يعيرون هذه الاراء التفاتًا او يحسبون لها حسابًا على ان الممالك التي نشأت في الماضي انما تالفت اتفاقًا وتضامت اجزاؤها اما بحقوق الارث او الفتوح فيضمون تارةً شعوبًا مختلفة في ارومتها ولغاتها وعاداتها ويجزئون احيانًا شعبًا واحدًا الى حكومات شتى وهم لا يكترثون حتى انك لتجد ساسة اوروبا المجتمعين سنة ١٨١٤ في

مؤتمر فينا انتهجوا المنهج القديم معتمدين في احداث التغييرات التي عزموا عليها على اعتبار عدد النفوس في الاقطار التي يريدون ضمها الى غيرها كانهم لم يراعوا الا ثروة البلاد وعدد اهليها. وحسبك ان في اوروبا ممالك جمة مؤلفة من امم شتى بل لايخلو ان يكون بينها عدوان كما هو الحال في السلطنة العثمانية وفي مملكتي بروسيا والنمسا وهناك شعوب مجزأة بين حكومات جمة (شأن المانيا وايطاليا)

و بعد مرور زمن قليل من الرجعة الملكية جعل الوطنيون يهتاجون على الحكومات لان الجماعات الذين انفصلوا عن مجموع امتهم وألحقوا بدولة كبيرة اجنبية عنها (كما هو الحال في السلطنتين العثمانية والنمساوية) شرع الوطنيون منهم يبذلون قصاراهم في سبيل فصلهم عن الدولة الكبيرة السائدة عليهم. وحيثما كانت الامة الكبرى مجزأة الى حكومات شتى (شأن المانيا وايطاليا) جعل الوطنيون يسعون وراء تقويض اركان الممالك الصغرى التي تحكمهم ليؤلفوا من لفيف امتهم دولة واحدة شديدة الحول بتألبهم فكانت حركة الافكار والمساعي جارية في وجهتين متعاكستين منها صوب الانفصال ومنها وجهة الانضمام تلك تقصد التحرير وهذه تطلب الوحدة

فاصبحت كل الاقطار من جراء ذلك في هياج عظيم وحسبك في اماني السرب واليونان ورومانيا والبلغار ان يتحرروا من السلطنة العثمانية وفي آمال المجر و بوهميا ولومبارديا وكرواسيا ان يتخلصوا من النمسا ومثلها ايرلاندا من انكلترا والبلجيك من هولاندا و بولونيا من الروسية. وعلى عكس ذلك كان القوم في المانيا وايطاليا يسعون حثيثاً للوحدة التي لم تكن معروفة الا في فرنسا واسبانيا ولذلك نجتا من الهرج

والمبدأ العام الذي اعتمدته الاحزاب الوطنية هو انه يجب ان يفهم من اسم كل حكومة الدلالة على امتها الا ان القوم في اوربا لم يتفقوا على تحديد معنى الامة بل نشأ لهم رأيان في مفهومها فذهب فريق الى ان الامة هي جماعة من الناس يرغبون في ان يكونوا جزءاً من الدولة وعلى هذا التعريف يكون الحق للاهلين في ان يختاروا لانفسهم الدولة التي يقومون على طاعتها و بذلك لا تكون الامة امة الا في ارادة ابنائها. والمذهب الثاني يعتبر الامة مجتمع ابناء الارومة الواحدة وما هي في شيء من ارادة ذويها. على ان من الواجب جمع افراد امة ولو لم يرغبوا في التألب على ان الرأي بالوطنية الاختيارية فرنساوي النشأة فان فرنسا عملت به سنة ١٨٦١ قبل ان ضمت سافوا وكونتية نيس فانها حملت الاهلين على طلب الانضمام اليها بالاقتراع وانك تجدن مبدأ الجنسيات والارومة متفشياً كثيراً

بين الالمان والروس وله فيهم اشياع وتباع فيعرف الراغبون في انضمام جميع الجنس الالماني الى مملكة واحدة باسم بانجرمانيست Pangermanistes و يعرف الراغبون بجميع الامة السلافية باسم بانسلافيست Ponslavistes وقد جرت المانيا على هذا المبدإ حين الحاقها الالزاس بها بالرغم عن الاهلين. وانما فعلت ذلك لانهم من ارومة جرمانية وقد شنقت الحكومة الروسية نفراً من العسكر البولوني غضون حرب البلغار سنة ١٨٧٧ لانها اعتبرتهم خونة يحاربون ابناء ارومتهم السلافية وهم في خدمة اعدائهم العثمانيين على انه يظهر ان شأن هذا المبدإ قد ضعف في الروسية لان تلك الدولة نفسها اعانت الشعوب السلافية الصغرى في البلقان على ان تتألف دولاً مستقلة

وفي كل مكان تقريباً كانت الاحزاب الوطنية تنضم الى الاحرار فيناوئون الحكومة معاً و بذلك اتخذت حركة الخواطر شكلاً وطنياً ودستورياً واستمرت على ذلك نصف قرن اتخذت في خلاله مظاهر شتى تارة يظهر اصحابها بمظهر العصاة (كما كان في بلاد اليونان ولومبارديا والبلجيك و بولونيا وايرلاندا والمجر) وآونة يظهرون بمظهر المعارضة في مجلس النواب (كما كان في بوهيميا والمجر وكرواسيا وايرلاند) وحيناً يلجأون الى دولة اقوى من دولتهم يستعينون بها على وحدتهم

وفي معظم الاحايين كان الحزب الوطني يفوز برغبته فاستقلت السرب واليونان والبلجيك بالثورة. واما استقلال رومانيا و بلغاريا ولومبارديا فكان بمساعدة الدول الاجنبية وكان استقلال بعض البلاد النمساوية باتفاقها مع الدولة السائدة. أما في المانيا فقد نال الوطنيون اربهم بتجمعهم حول راية بروسيا فنصرتهم ومنحتهم مطلبهم ومثل ذلك في ايطاليا فانهم تألبوا حول مملكة سردينيا ففازوا. ولم يبقَ الا بولونيا وايرلاندا فانهما لم تفوزا بطائل وما برحتا تهرجان

تأليف الوحدة الايطالية :- كانت ايطاليا قد انحطت سنة ١٨٨٥ الى الحالة التي كانت عليها قبل الثورة والتي كانت فرنسا قد انتشلتها منها وذلك انها قسمت الى سبع ممالك صغرى فكان في الشمال مملكة سردينيا ومملكة لومبارديا — فينسيا. وفي الوسط دوقيات بارم ومودان وتوسكانا وولايات البابا وفي الجنوب مملكة نابولي والغى اسم ايطاليا الذي اطلقه نابليون على المملكة الشمالية الكبرى. واذ كانوا يوماً يحدثون مترنيخ ذكروا اسم ايطاليا فقال لهم « ان ذلك اسم جغرافيّ ليس الا »

وكانت الممالك الايطالية الصغرى ذات حكومات مطلقة يستبد في حكمها وزراء

الملوك ويجنف على اهليها جماعات البوليس وكان البابا قد اعاد مجلس التفتيش ومنع كل الجمعيات وحظر على الناس مطالعة الكتب الاجنبية بل ابطل الاضواء في شوارع رومية ليلاً لانها من عمل الفرنساويين وشدّد ملك سردينيا في مراقبة المطبوعات حتى حرّم على الناس ان يكتبوا كلمة الدستور وشرع يعزل العمال الذين تحرمهم الكنيسة و يفتش المدارس الجامعة والكليات . وامر فاتلفت حديقة النبات في تورين لانها من منشآت الفرنساويين وابطل ملك نابولي دستور سيسيليا القديم ووعد النمسا ان لا يدخل اليها من السنن ما يعارض قوانين لومبارديا يعني بها السنن الحرة . وقصارى القول ان ايطاليا عادت للحكم المطلق فلم يأتها ذلك بشيء من الراحة حتى ان حكومات الجنوب والبلاد الوسطى لم تكن قادرة على كبح جماح المفسدين فيها وكانت مملكة نابولي وولايات البابا غنيمة باردة لعصابات اللصوص فكان في نابولي سنة ١٨١٧ ثلاثون الف لص . وجعلوا في ولايات الكنيسة جائزة لمن يأتي لهم برأس من رؤوس سبعة وخمسين لصًا

وفي شمال ايطاليا مملكة لومبارديا - فنيسيا مؤلفة من ميلانيا ومن املاك فينسيا القديمة وهي خاضعة للنمسا فكانت ترسل اليها الجنود والعمال النمساويين وزد على ذلك ان النمسا كانت تسود الدوقيات الثلاث لان اصحابها كانوا من الامراء النمساويين على ان النمسا كانت تحمي البابا وملك نابولي من عصيان رعاياهما وكادت تفوز بحمل الامراء الايطاليين على عقد حلفة تحت ادارتها وبها كانت ايطاليا تحت سلطة الغرباء

وظلت حالة ايطاليا على هذا المنوال حتى سنة ١٨٤٨ على انه ظهر فيها ثورتان تمثلاً بالامم المجاورة . فان سنة ١٨٢٠ نهض القادة اقتداء بالقادة من الاسبانيول يريدون اجبار ملكي نابولي وسردينيا على منح الدستور فقبل ملك نابولي ان يمنح دستوراً شبيهاً بالاسباني . وفي سنة ١٨٣١ نهض الاحرار اقتداء بالفرنساويين فارغموا البابا وامراء الدوقيات الثلاث بارم ومودان وتوسكانا على اتخاذ النظام الحر الا ان هذه الحركة لم تحدث الا في قسم من ايطاليا ولذلك كان الجند النمساوي يجيء في كل مرة و يعيد الحكومة المطلقة

وكان قد التجأ الى فرنسا ثائر ايطالي يسمى مازيني Mazzini فانشأ فيها جمعية سرية لقلب الملكيات في اوربا وان يقام لكل شعب جمهورية مستقلة تجتمع الى الجمهوريات الاخرى برابطة الاخاء وشعار هذه الجمعية « الحرية والمساواة والانسانية والله واحد وملك واحد والشريعة الالهية » وتسمى هذه الجمعية اوربا الفتاة فشرع كل شعب يقيم فرعاً من هذه الجمعية يسميها مثلاً ايطاليا الفتاة بولونيا الفتاة والمانيا الفتاة

الى غير ذلك . أما ايطاليا الفتاة فنشأت سنة ١٨٣١ وكان معظم اشياعها في جنوا ورومية وقد اشتهرت بالمؤامرات والفتن في سنتي ١٨٤٤ و١٨٤٥ وغايتها ان تجمع كل ايطاليا تحت حكم جمهورية واحدة

وحوالي سنة ١٨٤٣ نشأ بين الكتبة حركة خواطر اخرى سماها الايطاليان بالبعث (risorgimento) غايتها انتشال ايطاليا من البؤس والخلل بمنحها ادارة حرة وتحريرها من تسلط الغرباء عليها وتخليصها من النمسا وكان زعماء هذه الحركة بالبو وماكسيم دازجليو ودوراندو وجيوبرتي (١) ولم يكن يخطر ببالهم قلب الامراء الايطاليين وانما بالعكس توسلوا اليهم ان يمنحوا الدستور لشعوبهم وان يتحدوا لينشأوا امة ايطالية ولو فعلوا لاتخذت ايطاليا شكل حلفة بين ممالكها الدستورية

فعزم ثلاثة ملوك منهم على الدخول في الحركة الوطنية وقبول المبادىء الحرة وهم ملك سردينيا والدوق دي توسكانا والبابا بيوس التاسع المنتخب سنة ١٨٤٦ وفي سنة ١٨٤٧ منح كل من البابا والدوق رعاياهما تخفيف وطأة المراقبة وتأليف حرس وطني وانشاء مجالس الدولة من شانها اصلاح الشرائع . وعقد الملوك الثلاثة عهدة بينهم لتوحيد الجمرك في ممالكهم فقابلتهم النمسا بعقد حلفة اخرى مع اميري بارم ومودان

فاصبحت الممالك الايطالية حزبين هما الحزب النمساوي والحزب الوطني . اما امراء الحزب الوطني فكانوا يصرحون برغائبهم وهي طرد الغرباء . وكان الايطاليون يحسبون انفسهم مقتدرين على طرد النمساويين من بلادهم من غير ان تنصرهم دولة اخرى . وحدث ذات مرة ان شارل البرت ملك سردينيا كان يحدث دازجليو فسأله هذا كيف يتسنى له انقاذ ايطاليا من سيادة الاجنبي فاجاب الملك « ان ايطاليا تفعل ذلك بنفسها»

وفي سنة ١٨٤٨ تبدلت الاحوال في كل الممالك باتخاذ النظام الحر دفعة واحدة ففي شهر يناير ثار الاحرار في بالرم من مملكة نابولي وفازوا بالنظام الحر وحدث مثل

---

(١) وأما المؤلفات السياسية التي وضعها رجال هذا الحزب فهي تسود الايطاليان الادبي والمادي لجيوبرتي (١٨٤٣) والجزويت الحديث له أيضاً (١٨٤٤) — وآمال ايطاليا لبالبو (١٨٤٤) — وحوادث رومانيا الاخيرة لدازجليو (١٨١٦) — وايطاليا الوطنية لدوراندو . أما الجرائد في ايطاليا فنشأ منها سنة ١٨٤٦ الاوب في فلورانسا والروزر يكسيون في تورين

ذلك لمملكة سردينيا في شهر فبراير وفي مارس منح البابا وامير توسكانا كل منهما بلاده ما ترغب فيه من الحرية من تلقاء نفسيهما . وبهذا منح الدستور في الحكومات الاربع المذكورة واتحد اصحابها يدًا واحدة لطرد الاجانب وكانت الحكومة النمساوية يومئذ مضطربة اثر ثورة سنة ١٨٤٨ ومنهمكة لنهوض كل شعوبها ضدها

وقد كتب الكونت كافور في جريدة تورين ما يأتي : « يظهرانهم احسنوا اغتنام الفرصة فان الساعة قد دقت لتنبيه مملكة سافوا فهي ساعة الفصل التي يتوقف عليها وجود الدولة فنحن رجال العقل الرازن الذين اعتدنا الانصياع لاحكام العقل اكثر من الاذعان لاوامر القلب نعلن جهارًا للامة والحكومة والملك : انا نريد الحرب ـ الحرب حالا » فوقعت الحرب وكانت وطأتها شديدة على النمسا ذلك انه ثار عليها الايطاليان من اهل لومبارديا وفينيسيا واحتلت العساكر السردينية كل لومبارديا بعد ان اخلاها النمساويون وعمل الاهلون اقتراعًا عامًا تقرر فيه بقوة ٥٦٠ الف صوت ان تضم لومبارديا الى مملكة سردينيا اما العصاة في فينيسيا فقد نادوا بالحكم الجمهوري ثم عقد اجتماع مؤلف من ١٧٢ نائبًا عن البلاد فقرروا الانضمام الى سردينيا ايضًا وكان الجيش النمساوي قد تجمع في قلب البلاد في المربع القائم بين الحصون الاربعة الا وهي مانتو ولجناكو وباشيرا وفيرون وموقع هذا المربع يفصل بين فينيسيا وسائر ايطاليا

الا ان الجيش الايطالي لم يكن كافيًا لمقاومة الجيوش النمساوية فضلاً عن ان من الايطاليان قومًا لم يكونوا يرغبون في العمل يدًا واحدة لانهم ولئن كانوا متفقين في الرأي على طرد الاجانب من البلاد فانهم كانوا يختلفون في الخطط التي يجب اتباعها في تنظيم شؤونهم بعد الظفر فكان الاحرار الملكيون يريدون انشاء حلفة بين الامراء اما الجمهوريون من بعد متسيني فكانوا يطلبون جمعية وطنية ينتخبها كل الايطاليين فتؤسس لهم جمهورية ايطاليا على ان حزب الحلفة الملكي كان سائدًا في الشمال حيث يعززه الجيش السرديني اما حزب الاتحاد الجمهوري فكان الفائز في وسط البلاد . ثم ان مجلس التشريع المنتخب من رعايا البابا نادى بالجمهورية الرومانية (في فبراير سنة ١٨٤٩) وعهد بالسلطة الى ثلاثة منهم ماتسيني وغاريبالدي . واما دوكية توسكانا فنظمت على نسق جمهوري

وفي الجنوب استرجع اشياع السلطة المطلقة كلمتهم النافذة اذ الغى ملك نابولي الدستور واستحوذ على صيقليا عنوة واقتدارًا واطلق المدافع على مسينيا فتلقب من جراء ذلك بملك القنبلة وشرع يرسل الاحرار الى المنفى

وولجت الجيوش الغربية قلب البلاد وشماليها لمناوأة الاحزاب الحرة والوطنية واوجس البابا خوفًا من الثورة فانقلب وصار من مريدي الحكومة المطلقة ثم استنصر الممالك الكاثوليكية الاوروبية على قمع الجمهوريين فسير ملوك نابولي وفرنسا والنمسا واسبانيا جيوشهم واحاط الجيش الفرنساوي على حصار رومية واحتل الجيش النمساوي روماني وارجع النظام القديم الى ولايات البابا

وظل ملك سردينيا وحيدًا تجاه النمسا فغلب على لومبارديا سنة ١٨٤٨ ولكنه سعى باسترجاعها سنة ١٨٤٩ حين انهاك النمسا بمحاربة المجر فتشتت شمل جيشه في نوفار واضطر ان يتنازل عن عرشه ولبثت فينيسيا منفردة تدافع عن بيضتها حتى شهر اوغسطس سنة ١٨٤٩

فارجع النمساويون واشياع السلطة المطلقة الفائزون ذات نظام سنة ١٨١٥ وقنط الاحرار من النجاح فكتب دازجليو « كل شيء في هذا الوقت قد انتهى الا ان الانسان اذا قضى حياته كلها موجهًا افكاره الى غرض واحد من غير امل بسنوح فرصة نيله ثم سنحت الفرصة ودنت دنوًا لم يكن منتظرًا قط شعر ان كل ذلك البناء قد تداعت اركانه للسقوط فاضمحل في يوم واحد وبعد هذا كله لا يبقى لذلك الانسان من الحياة الا خواطرها ـ فتراني لا ارى سبيلاً لعمل شيء الآن ولا بأس علينا من الانحدار الى اسفل الهاوية لنرى موقفنا منها ولنعرف ثمت بعضنا بعضًا وحينئذ نجدد العمل ولكن لست انا الذي اجني ثماره »

ومع ذلك فقد بقي من نتاج حوادث عام ١٨٤٨ مامنح ملك سردينيا شارل البرت اهل مملكته في فبراير من تلك السنة اريد به النظام البارلماني شبيهًا بالنظام البلجيكي فجعل الوزارة مسؤولة وانشاء مجلسًا للاعيان ومجلسًا تنتخب الامة اعضاءه والمنتخبون من كل من تسجل اسمه من الاهلين فنال حق الانتخاب . ومن خصائص المجلس تقرير الشرائع والميزانية على انه منح ايضًا حرية المطبوعات أما النمسا فعرضت على ملك سردينيا الجديد فيكتور عمانوئيل ان يعقد معه افضل مايمكن من شروط الصلح على ان يلغي النظام البرلماني فرفض مطالبها وظلت سردينيا الدولة الوحيدة الدستورية الحرة بين ممالك ايطاليا وكانت ايضًا المملكة الوحيدة الايطالية الحقيقية . فابقى ملكها العلم المثلث الالوان (اخضر وابيض واحمر) الذي كان علم الحزب الوطني سنة ١٨٤٨ وجعل رئيس وزرائه داجليو احد زعماء الثورة الوطنية وشرع يجمع اليه الوطنيين الاحرار الفارين من بلادهم فاصبح في ايطاليا

دولة حرة وطنية يحوم حولها ويجتمع تحت لوئها الوطنيون الاحرار

على ان فشل الايطاليين عام ١٨٤٨ كبهم الاخبار فعلموا ان مساعيهم خابت لانهم لم يتفقوا لخاضوا غمرات الحرب منفردين ورأوا انه يعوزهم الاتفاق العام والعمل المشترك ثم السعي في اكتساب مساعدة دولة اجنبية ٠ فنهض الكونت كافور وزير سردينيا عام ١٨٥٠ يمهد السبيل لنيل المطلوب ٠ وكان كافور هذا نبيلاً من بيمونت فهو بالكاد ايطالي ولم يكن يتكلم الا الفرنساوية ولغة بيامونته العامية (Patois) وخدم في صباه في الجيش فصار قائداً في فرقة المدفعية ثم استقال من الخدمة وانزوى في املاكه يزيدها تحسيناً حتى استأهلت الانتساب اليه وبعد هذا طاف فرنسا وعجب بالملكية الحرة وساح في انكلترا فاصبح من القائلين بحرية التجارة وسنة ١٨٤٨ كان على مذهب المحافظين لاحتقاره الجمهورية الا انه منذ سنة ١٨٥٠ اتحد مع حزب الوسط الايسر على قلب وزارة دازجليو فقامت وزارة جديدة من حزب الوسط الايسر (كان زعيمها اولاً الوزير راتاري) واجرت اصلاحات جمة اذ ابطلت المجالس الكنسية سنة ١٨٥٠ وصيرت ثلثمئة دير سنة ١٨٥٥ عامية ٠ (وقد كان في هذه المملكة الصغيرة ٤١ مطراناً و١٤١٧ كاهناً و١٤٠٠٠ راهب) وانشأت بنكاً وعقدت معاهدات تجارية ونظمت الجيش على طرز الجند البروسياني

وشرع الوطنيون من الايطاليان ينضمون شيئاً فشيئاً الى دولة سردينيا وكان مانين رئيس جمهورية فينيسيا القديمة قد فر الى باريز واقام فيها فكتب سنة ١٨٥٤ لرجل من ساسة الانكليز جواباً يشف عن رأيه في التسليم للسلطة النمساوية التي اصبحت اقل عسفاً وجوراً قال مانين « ان الاستسلام للامة الاجنبية السائدة لهو الدناءة بعينها فنحن لانطلب من النمسا ان تحكم فينا بالتؤدة والرفق وانما نطلب منها الجلاء عنا » ولما رأى انه يستحيل قيام الحكم الجمهوري لان ملك سردينيا لايرضى به وان لا سبيل لنيل المراد الا بالاتحاد تحت امرة الملك كتب قائلاً « ايها الامراء من آل سافوا اعملوا ايطاليا وانا معكم ليكن شعارنا الاستقلال والاتحاد » فضعف بذلك حزب مانين الجمهوري ونشأ حزب وطني يطلب اتحاد ايطاليا تحت حكم ملك سردينيا وانشأ هذا الحزب جمعية الاتحاد الوطني فانتشرت في كل ايطاليا وكانت سرها يومئذ لافارينا من صيسيليا فكان يذهب في الصباح الباكر ويجتمع خفية بالوزير كافور الذي قال له « افعلوا ماتستطيعون عمله وانا انكركم قدام الناس كما انكر بطرس المخلص »

وكان يقتضي لاشهار الحرب على النمسا محالفة دولة قوية ومن المأثور عن كافور قوله « كان الناس يعجبون بمحالفات البيامونت ويهنؤننا بها ولكننا لم ننل من ذلك شيئاً لاعتزالها » وكان يعرف جيداً انه لا يمكنه الاعتماد على انكلترا فشرع يبذل قصارى جهده لاستمالة نابليون الثالث وارضاء لخاطره حمل دولة سردينيا على محاربة روسيا بالرغم عن ارادة تجار جنوا فسيرت سردينيا الى القرم خمسة عشر الف محارب حتى اذا عقد مؤتمر الصلح في باريز سنة ١٨٥٦ اتيح لسردينيا ان تبعث اليه معتمداً من قبلها يجلس فيه الى جانب معتمدي الدول الكبرى وثمت شرع يرفع الى المؤتمر باسم ايطاليا شكواها من النمسا ٠ وابقاء على مرضاة نابليون جعل كافور بعد جريمة اورزيني (١٨٥٨) يعارض الجرائد المعادية لنابليون غير مكترث بمعارضات الاحرار

وسنة ١٨٥٨ اوجس نابليون خوفاً من مكيدة اورزيني لان الرجل اقدم عليها لإخلاف نابليون عهده وذلك ان الامبراطور كان في سنة ١٨٣١ قد صار عضواً في جمعية سرية ايطالية غايتها تحرير ايطاليا ٠ فاستقدم نابليون كافور الى بلومبير وعاقده على التحالف واعداً دولة سردينيا بتحرير ايطاليا حتى الادرياتيك على ان ينال بدلاً منها لفرنسا سافوا وكونتية نيس ثم شرع القوم في توحيد ايطاليا لكنهم لم يوفقوا لاتمام الوحدة الا بعد مرور احدى عشرة سنة اذ بدأوا بذلك سنة ١٨٥٩ وما اتموه الا سنة ١٨٧٠

ففي سنة ١٨٥٩ اعلن نابليون الحرب على النمسا وطرد النمساويين من لومبارديا الا انه عوضاً عن ملاحقتهم الى الادرياتيك عملاً بالاتفاق توقف ازاء مربع القلاع لان جيشه قد اختل نظامه وخشي هجوم البروسيان عليه فاكتفى بتنازل النمسا عن لومبارديا واعطائها لدولة سردينيا وبقي للنمسا فينسيا فيئس كافور واراد مداومة القتال غير ان بيامونت لا تستطيع الحرب لوحدها فجنحت للسلم

وفي غضون الحرب كان اشياع الوحدة الذين كان يدير اعمالهم اعضاء الاتحاد الوطني قد اثاروا اهل ثلاث دوقيات وهي توسكانا و بارم ومودان فضلاً عن سكان روماني احدى ولايات البابا فاقاموا في كل واحدة منها حكومة موقتة تقوم بالامر باسم حكومة سردينيا وجعلت حكومات روماني و بارم ومودان بلادها مجتمعة باسم اقاليم اميلي الملكية واتخذت الدستور السرديني وابطلت الجمارك من على حدود مملكة سردينيا وسلمت مصالح البريد لموظفيها ثم اتحدت البلاد الاربع وطلبت الانضمام اليها الا ان نابليون كان يفضل بقاء توسكانا دوقية مستقلة وحباً بقطع الجدال في ذلك احال الامر لراي شعبها

فاجابوه بالايجاب اذ نال رأيه في توسكانا ٣٦٦،٠٠٠ صوت ضد ١٥،٠٠٠ صوت وفي اميلي ٤٢،٠٠٠ ضد ٧٥٦ صوتاً وبعد هذا طلب ولاية سافوا وكونتية نيس فعزم كافور على تسليمهما اليه اذا رضي اهلوهما عن ذلك فقبلت سافوا الانضمام لفرنسا بمئة وثلاثين الفاً ضد اثنين وارتضت نيس بخمسة وعشرين الف صوت ضد ١٦ وفي سنة ١٨٦٠ استدعى الشام مجلس نواب مملكة سردينيا التي اتسعت ولم يكونوا قد وجدوا اسماً لمجلسهم فسموه جنتلز البارلماني الوطني



غريبالدي

وكان ملك نابولي والبابا اعداء الحركة الوطنية ولم يكن عندهما قوة لتأييد رأيهما الأ بعض كتائب سويسية مختلة النظام . وكانت حكومة سويسرا قد كرهت ان ترى مواطنيها مستأجرة في خدمة الاجانب فانتزعت منهم علمها الوطني ومع ذلك لم تجسر حكومة سردينيا

ان تهاجم البابا ونابولي فتركت الجمهور بين الايطاليين يشهدون الحرب مظهرة عدم رضاها عنهم فركب غريبالدي البحر الى سيسيليا بشرذمة من المتطوعة عدتهم ١٠٦٧ رجلاً فصدر امر الحكومة الى والي جنوا الا يرى غريبالدي ورجالهُ يركبون البحر وكتب كافور الى اميرال البوارج السردينية يقول « ابذل يا سيدي الكونت وسعك بالوقوف بين سفن غريبالدي والبوارج النابولية واملي انك فهمت عبارتي » فاجابهُ الاميرال « يا سيدي الكونت اظنني فهمت معناك واذا مست الحاجة اعتقلني سجيناً في صحن فنسترال » ففتح المتطوعة سيسيليا من غير مخالفة ودخلوا منها الى مملكة نابولي ففر ملكها هارباً وكان ضباط البحرية من اشياع حزب الوحدة فتناسوا عمداً ان يأخذوا معهم دفة سفينتهم وبرح ايضاً عن بالهم ان يملأوا خلاقينهم بالماء فصارت كل نابولي في قبضة غريبالدي ونودي به ولياً لامرها (دبكتاتور)

وكان يدافع عن ولايات البابا جيش كاثوليكي مؤلف من عشرين الف متطوع جاءها من جميع الاقطار الا ان معظمهم كانوا من الفرنساويين . فزحف الجمهوريون من تباع غريبالدي من الجنوب يريدون الفتح لكن حكومة سردينيا سبقتهم فنكلت بالجيش الكاثوليكي وشتتت شمله واحتلت ولايتي مارش واومبري ولم يبق للبابا الاولاية رومة وبعد هذا مثلت جميع الاقطار التي غلب عليها غريبالدي وجيش سردينيا عما يريدون فاجمعوا بالاقتراع على طلب الانضمام فكانت الاصوات الطالبة الانضمام في سيسيليا ٤٣٠،٠٠٠ صوت ضد ٧٠٠ وفي مملكة نابولي ١،٣٠١،٠٠٠ صوت ضد ١٠،٠٠٠ صوت وفي مارش واومبري ٢٣٠،٠٠٠ صوت ضد ١،٦٠٠ صوت وفي سنة ١٨٦١ فتح في تورين البارلمان الايطالي الاول ونودي بفكتور عمانوئيل ملكاً على ايطاليا بنعمة الله وارادة الشعب ومن ثم صرح البارلمان انه يجب ان تكون رومة عاصمة ايطاليا الحقيقية

وظلت الدولة الجديدة معززة بجيش قوي ادى الى نقصان ميزانيتها ومع ذلك كان الايطاليان يلحون في طلب اتمام الوحدة الا انه اصبح لا يمكن الاعتماد على فرنسا في شيء من ذلك لان نابليون لم يكن راغباً ان ينتزع من البابا آخر ما بقي له من السلطة الزمنية وكان قد ارصد لحمايته جيشاً فرنساوياً ولم يرض ان يأمر برجوع الجيش الا اذا تعهدت له ايطاليا ان لا تهاجم البابا فمال كافور الى جهة الحكومة البروسية التى عرضت عليه الاتفاق على مقاومة النمسا فحاول الفريقان الاتفاق مرتين سنة ١٨٦٢ او ١٨٦٥ عن غير جدوى واخيراً تم لهما التحالف سنة ١٨٦٦ على ان يكون اجله ثلثة اشهر ليس الأ

كان هذا الوقت كافياً لحمل النمسا على طلب الصلح لان الجيوش البروسية اكتسحت بلادها ومع ان النمسا انتصرت على الايطاليين فانها تخلت عن فينيسيا لنابليون فاعطاها لدولة ايطاليا

بقي الكلام في ارث القديس بطرس يعني املاك البابا فالغريبالديون حاولوا الاستيلاء عليه فانكسر امامهم عسكر البابا الا ان فرنسا ارسلت سنة ١٨٦٧ بعوثها فطردت الغريبالديين وجعلت من عسكرها حامية في رومة فاصبحت الحكومة الايطالية لا تجسر على شيء

فكان الفصل في اطلاق يد ايطاليا في العمل عائداً لبروسيا وذلك ان فرنسا عقيب خسائرها الاولى في حرب سنة ١٨٧٠ سحبت عسكرها من رومية فاحتلها الايطاليون من غير مقاومة بعد ان ثغروا الحصون بطلب البابا اشارة لامتلاكهم البلد عنوة . ثم اخذ رأي اهل رومة فاقترعوا على الانضمام بقوة ١٣٠,٠٠٠ صوت ضد ١,٥٠٠ صوت فصارت رومة عاصمة لمملكة ايطاليا وظل البابا في قصره بالفاتيكان مكتنفاً بكل ابهة الملوك من اتخاذ الحرس واستقبال السفراء وعرض عليه راتب تبلغ قيمته ثلاثة ملايين فرنك فرفضها

فتمت الوحدة الايطالية التي عجز الجمهوريون والمخالفون عن نيلها لان ممانعة النمسا قصرت قوتهم على انفسهم ولكنهم لم ينالوها الا بعد ان جاهدت مملكة سردينيا احدى عشرة سنة مستعينة في بادىء امرها بفرنسا ثم ببروسيا

ومنذ سنة ١٨٧٠ قام في ايطاليا حزب يطلب ان يضم الى المملكة كل بلاد يتكلم اهلوها بالايطالية . من مثل التيرول وتريستة وكلتاهما بيد النمسا ومثل كورسيكا ونيس التين لفرنسا ومالطة التي لانكلترا ومقاطعة تاسين لسويسرا ورجال هذا الحزب يسمون هذه البلاد بايطاليا غير المسترجعة Italia irredenta فاشتق من ذلك اسمهم Irrendentistes

نشأة الوحدة الالمانية : — لقد كانت المانيا سنة ١٨٤٨ مثل ايطاليا اسم جغرافي ليس الا . على انها كانت مجزأة اقساماً شتى تزيد كثيراً عن تجزؤ ايطاليا لان اقسامها بلغت ستة وثلاثين قسماً وفي كل قسم منها حكومة قائمة بذاتها وكلها مترابطة برباط الحلقة فقط بحيث لم يكن من سلطة عامة الا لندوة (Diete) فرانكفور وهي عبارة عن مؤتمر دائم يجتمع فيه رجال السياسة اذ تعين كل مملكة فيه معتمداً لادارة الاشغال العمومية فيضطر كل منهم للعمل بالاوامر التي تصدر اليه من حكومته فيجري في كل قضية

على ما يؤمر به ويصبحون ولا يستطيعون قطع الجدال ببت شيء من القضايا الخطيرة التي تعرض لهم الا اذا اتفقت اراؤهم جميعاً وانهم لكذلك حتى في المسائل التي ليست بذات شأن كبير فانهم ينتظرون رأي حكوماتهم جميعاً ليبرموا احكامهم باجماعها فاذا رغبت احداها في عرقلة احدى القضايا استطاعت ذلك بان تسوف ابداء رأيها فتضطر الندوة الى انتظاره ولو طويلاً . على ان حكومات الدول الصغرى لحرصها على حقوق سيادتها كانت تسعى جهدها لعرقلة اعمال الندوة فاصبح بطوء اعمالها مضرباً للامثال وحسبك ان الحاضرين في المجلس القديم الامبراطوري كانوا يطلبون رواتبهم المتأخرة منذ سنة ١٨١٦ فلم يحصلوا عليها الا في سنة ١٨٣١ وديون الحروب التي نشبت بين سنة ١٧٩٢ وسنة ١٨٠١ تسوفت فما استوفاها اصحابها الا سنة ١٨٤٣ اما ديون حروب الثلاثين سنة فانها لم تسدد الا في سنة ١٨٥٠ . وكذلك لم يضعوا نظام جيش التحالف الا سنة ١٨٣١ ولم تنظم فرق جيوش الدول الصغرى الا بين سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٣٦ ومثل هذا تقرر سنة ١٨١٥ انشاء قلاع وحصون للمحالفة فلم تبن الا في سنة ١٨٢٥

على ان هذا التحالف لم يكن من روح الامة الالمانية لانه لم يعقد بين الشعوب الالمانية بل بين الملوك والامراء حتى انه دخلها اميران غير المانيين احدهما ملك الدانمارك لانه كان دوق شالسويك وهولستين وثانيهما ملك هولاندا لانه كان دوق ليكسمبورج ودخلها ايضاً ملكان كانا يسودان اقطاراً غير المانية كملك بروسيا فان لهُ ولاية بوزان وكامبراطور النمسا فانه صاحب ممالك المجر وغاليسيا ودالماتيا ولومباردبا - فينيسيا وجعلوا حلقتهم شاملة من غير ان تنفصل منها البلاد الاجنبية عنها لا بحكومة مختلفة عن حكومتها ولا بتخوم فاصلة

على ان الحروب التي نهض بها الالمان ضد نابليون سببت قيام حزب الماني يريد جمع الشعوب التي تتكلم الالمانية الى امة واحدة لتدافع عن البلاد والمصالح الالمانية وترد عنها عسف الممالك المجاورة سيما فرنسا وتألف معظم هذا الحزب من جماعة الطلبة والكتبة وتصوروا ارجاع الامبراطورية فجعلوا شعار علمهم اسود واحمر وذهبي اللون[1] على ان كل الحكومات صارت تقاومهم كانهم من الثوار ولذلك انضموا الى الحزب الحر ولهذا انصرف المنتبهون من الالمان الى الحصول على النظام الحر اكثر من انصرافهم الى انشاء الوحدة الجنسية وظل ذلك شأنهم الى سنة ١٨٤٠

(١) ان الطلبة وضعوا العلم تمثلاً باللباس الرسمي لفرقة حملة البنادق الاحرار سنة ١٨١٣ وهي فرقة هوسار لونزو

واخذ بعض الكتبة يذكرون الوسائل الآيلة لجمع الامة الالمانية قائلين ان المحالفة ليست هي الا عبارة عن تحالف دولي بحيث يظل كل ملك فيها سائدًا في بلاده فيجب تحويلها الى حلقة وطنية فتصبح كل حكومات الامة خاضعة لسلطة مركزية سائدة. فانتشر ما بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤٨ (١) في عالم الكليات مبدأ الوحدة الالمانية وفي سنة ١٨٤٦ عقد مؤتمر اجتمع فيه علماء الالمان فكان اول مؤتمر وطني في حقيقة الحال

ثم حدثت ثورة سنة ١٨٤٨ فالقت الخلل والمرج في الحكومات ووقعت الفتن في مارس بفينا وبرلين فاوجس الملوك خوفاً ومنحوا الدستور الحر وشرعوا يستدعون اعضاء المجالس التشريعية لعقدها فاغتنم الاحرار في جنوبي المانيا الفرصة واجتمع ٥١ وجيهاً من الحزب في هيدلبرج

واستدعوا الى فرانكفور كل نائب سبق له فجلس في مجالس غير واحدة من الحكومات الالمانية ليتألف منهم مجلس نواب أعدادي . فكان معظمهم من المان الجنوب . فقرروا ان يجمعوا مجلس نواب حقيقي من كل البلاد الالمانية ليكون مجلس تشريع وان ينتخب النواب بالاقتراع العام باعتبار واحد لكل خمسين الفاً من النفوس وان يكون لبروسيا وبوهيميا نواب فيه فقبلت الندوة وشرعت الحكومات باجراء الانتخاب

أما بارلمان فرانكفور (مايو سنة ١٨٤٨) الذي كان يديره بعض الكتبة والاساتذة فكان يريد جعل المانيا حكومة متحدة حرة وان يكون شعارهم علم الاحرار الملون بالاسود والاحمر والذهبي الا انه لم يكن لهم تجاه الحكومة القديمة المعززة بالقوة من نفوذ غير النفوذ الادبي وليس عندهم ثمت من وسيلة لاجراء مقاصدهم فكانهم مؤتمر من العلماء اجتمعوا للبحث في افضل دستور يمنح لالمانيا فجعلوا لدولتهم خطة هي ان يعهدوا بادارتها لموظف يسمونه مدير الامبراطورية وان ينتخبوا لها ارشيدوقاً نمساوياً ليؤلف وزارة الامبراطورية ومن ثم شرعوا بالاقتراع على الدستور

على ان الاتفاق على المبادىء سهل ولذلك نظموا حقوق الوطنيين الاساسية على طرز النظام الحر وصرحوا بالمساواة تجاه القانون وكل فروع الحرية وباستقلال القضاء وان من حق الشعب ان يختار عنه نواباً واتفقوا على قيام حكومة متحدة الاجزاء لكن

(١) حدث حوالي سنة ١٨٤٠ في الحين الذي كانت فيه وزارة تيرس تبحث في محاربة فرنسا لاوروبا ان الفت اغنيتان وطنيتان شهيرتان يعرف مطلع احداهما بالرين الالماني ومطلع الاخرى الحرس على ضفة الرين

بقي عليهم الاتفاق على القضايا العملية ومن جملتها قضيتان استحال عليهم الاتفاق فيهما

القضية الاولى : ما هي الاقطار التي ينبغي ان تتألف منها الامبراطورية الالمانية ؟ على ان تخوم البلاد الالمانية لم تكن قط مقررة تقريراً باتاً الا ترى انهم منذ سنة ١٨١٥ كانوا يحسبون المانيا تشمل كل قطر يتكلم اهله بالالمانية (١) والحال ان في بلاد الدولتين الكبيرتين من الرعايا من لا يتكلم اللغة الالمانية فان بوسنانيا احدى ولايات بروسيا (٢) هي بولونية وثلاثة ارباع ولايات النمسا سلافية ومجرية او رومانية . فما القول بكل هذه البلاد الغريبة ؟ تقرر البارلمان ان هذه الاقطار لا تحسب في عداد الامبراطورية وانما تتحد بالولايات الالمانية الخاضعة لملكها اتحاداً ذاتيا ليس الا . فرفضت النمسا ذلك راغبة ان تنضم الى الاتحاد والامبراطوري الجديد بكل ولاياتها

القضية الثانية : هي اي ملك من الملوك يعهد اليه ادارة هذه الامبراطورية ؟ وكان يمكن للدولتين الكبيرتين النمسا وبروسيا ان تستمر كل واحدة منهما على حالها لو استمرت الحلقة ولكن الاتحاد يقضي بتسليم الادارة الى احداها فلمن منهما تسلم للنمسا او لبروسيا ؟ وهذه المعضلة جزء من القضية الثانية ومرتبطة بها فان أغضي عن النمسا انتهت رئاسة الامبراطورية الى ملك بروسيا

فانشطر البارلمان حزبين حزب يطلب البقاء على الاتحاد مع ثمانية ملايين من المان النمسا وعقد اتحاد عظيم يسع دخول الامبراطورية النمساوية وبهذه تكون السيادة للنمسا (ويطلقون على القائلين بهذا اسم حزب المانيا الكبرى) والحزب الثاني يرغب في التخلي عن الالمان النمساويين فينشئون بتألب الدول الاخرى امبراطورية اصغر من تلك ولكنها امنع جانباً واكثر انتظاماً تقوم بادارة ملك بروسيا (ويسمى حزب المانيا الصغرى)

فانتصر الحزب البروسياني بقوة ٢٦١ صوتاً ضد ٢٢٤ صوتاً ثم قرر البارلمان ان تكون الامبراطورية ارثاً لاعقاب صاحبها وانتخبوا ملك بروسيا امبراطوراً . الا ان هذا الملك لم يكن ليرضى بالدستور الحر ورفض قبول تاج يقدم اليه من الشعب (فهو تاج من الوحل والخشب) وقد قال « اذا كان ولا بدَّ من منح تاج الامة الالمانية فحق منحه محصور بي وبامثالي »

(١) وهذا الرأي يؤخذ من الاغنية الوطنية الشهيرة ومطلعها ما هو الوطن الالماني

(٢) وكانت هذه الولاية البروسية وراء حدود الامبراطورية القديمة الا انها صبغت بالصبغة الجرمانية

فلما رفض اهتاج الجمهوريون وأمر الامراء رعاياهم بالانسحاب من البارلمان ولم يبق فيه الا مئة وخمسة من النواب الجمهوريين فالتجأوا الى ستوتكار واجتمعوا فيها فكانوا بقية الحماة عن الدستور. بين كان الجند البروسياني يزحف لسحق الجمهوريين في ساكس وباد وكل البلاد الالمانية. وهكذا خابت المساعي في انشاء الوحدة الالمانية وذلك بقوة حكومة متحدة حرة وزادت الحكومات المستقلة بان ابت الاعتراف بالدستور وشرعت تعامل كل من حاول العمل به من رعيتها معاملتها للعصاة الناشذين

وشرع كل من امبراطور النمسا وملك بروسيا يعمل على حدة لدى الملوك الصغار على تجديد الحلقة التي اضمحلت سنة ١٨٤٨ وسعيا وراء استلام الادارة الكبرى فانشأ ملك بروسيا اتحاداً مع رئيس عسكري ومجلس من معتمدي الحكومات وبارلمان انتخابي فدخل ذلك الاتحاد سبع عشرة دولة من الممالك الشمالية الصغرى. فاجتمع البارلمان في ارفهورت (مارس سنة ١٨٥٠) وترتبت الحكومة في برلين تحت ادارة ملك بروسيا على ان امبراطور النمسا لما انتهى من حرب المجر اتحد مع أمراء الممالك الصغرى (بافاريا دوارتمبرج وساكس وهانوفر) الذين لرفضهم الاتحاد مع ملك بروسياني لم يستطع ملك بروسيا ان يجعلهم يرتضون عن خطته بل اتفقوا مع النمسا على تجديد الحلقة كما كانت قبل سنة ١٨٤٨

أما ملك بروسيا فلانفراده خاف عاقبة الحرب لذلك سلم بما كان ودخل الحلقة (١٨٥٠) غير ان الناس كانوا يعلمون انه لا يمكن لالمانيا ان تكون امة واحدة طالما هي تحت امرة زعيمين فان المنافسة القائمة بين بروسيا والنمسا تبقيها على تجزؤها وليس في وسعها البقاء طويلاً وهي على حالة ادنى الى العداء منها الى الموالاة فبات القوم يتوقعون ظفر الواحدة بالاخرى ليتسنى للظافرة ترتيب احكام المانيا على هواها وكانوا يظنون ان النمسا ستكون الظافرة على بروسيا في حومة هذا النزال لان بلادها اوسع مساحة وسكانها يزيدون ضعفاً على عدد اهل بروسيا (لانهم ٣٦ مليوناً ازاء ١٨ مليوناً في بروسيا) فضلاً عن ان للنمسا مكانة في عيون أمراء الالمان يحسبونها المدبرة الطبيعية للمحالفة الالمانية باعتبار ان امبراطور النمسا هو الوريث لامبراطوري الجرمان القدماء

وكانت اوروبا تحسب بروسيا اضعف بأساً من النمسا واقل منها منعة واقتداراً ومع ذلك فلملك بروسيا مزيتان يفضل بهما مناظره اولهما انه اكثر نفوذاً من النمسا في الاشغال الالمانية لان كل ولايات مملكته المانية ماخلا ولاية واحدة وثانيهما انه يستمد من رعيته مالاً

ورجالاً اكثر مما تستفيد النمسا من بلادها لان بروسيا نسقت تنسيقاً يجعلها متاهبة لخوض غمار الحروب وينتهي هذا الترتيب الى زمن تسود نابليون ايام اصبحت البلاد لا تعد الا اربع ولايات عدد نفوسها خمسة ملايين ليس الا . فاستوزر الملك يومئذ جماعة من الوطنيين الالمان (شتين من ناشو وهاردنبرج وشارنهورس من هانوفر) ورأى الملك ان ينصرف بكلية حكومته لاصلاح مابقي من المملكة اصلاحاً يتكفل ببقائها محافظة على مقامها بين الدول الكبرى فطلبت الحكومة من رعاياها ان يمدوها بالمال والرجال وسهلت عليهم عناء هذه الاعباء الجديدة باصلاحها القوانين [1] وانشاء ادارة اكثر رجوعاً الى المركز من سابقاتها وبالغاء كلما يحول دون تقدم الزراعة والتجارة واوجدوا مصادر جديدة للاموال الميرية وتجددوا مثال فرنسا في وضع الضرائب (كرسم التمتع الشخصي ومال الاعتاق) فضلاً عن رسوم ضربوها على الطرق واسباب الترف وانشئت الضابطة برأي هاردنبرج ومن ثم وضعوا نظاماً عسكرياً بمساعي شارنهورست

فكان المبدأ الذي جروا عليه هو ان كل من اقام في المملكة يحسب مولوداً للدفاع عنها واحيا شارنهورست عادة العصور الوسطى وكلمتها القديمة لاندوار Landwehr (الدفاع عن البلاد) بحيث تكون الخدمة العسكرية واجبة على كل بروسياني ولكن لما كان نابليون قد حظر على ملك بروسيا ان يحشد اكثر من ثلاثة واربعين الف جندي خفض مدة التجنيد الى ثلاث سنين وشرعوا كلما انقضت المدة يطلقون سراح الجند المنتهي على ان يلبي النداء اذا استفز للحرب اما القادة فكانوا يلازمون مراكزهم وبذلك لم يبق الجيش عبارة عن قوم يحترفون الجندية منفصلين عن سواد الامة وانما صار الجيش عبارة عن مدرسة عسكرية يدخلها كل الشبان فاذا حمي وطيس الحرب انقلب الجيش فصار مجتمعاً لسواد الامة تدخله وتزيده عدداً وبأساً وعلى هذا النسق انقسم الجيش الى قسمين عامل واحتياطي ورغب شارنهورست في انشاء اللاندوار من الرجال الاشداء الذين لم يخدموا في الجيش ولكنه لم يتسن له تنظيمه الا في سنة ١٨١٣

وجعل لباسه الرسمي غاية في البساطة هو Litevka (ضرب من اللباس الازرق

(١) انما تم الاصلاح في فرنسا (١٧٨٩) بتحسين حالة الشعب الذي اعترفت الحكومة له بانه صاحب السيادة والامر اذ سبق ذلك اعلان حقوق الانسان . اما بروسيا فعلى عكس ذلك ظل التسود للملك وهو يقوم بالاصلاح باصدار اوامره الملكية يريد بذلك ان يزيد في شان الدولة وقوتها ولذلك لم يذكر في تلك الاوامر شيئاً غير واجبات الرعايا

الاون) وخوذة على راسه • على ان هذه الفرقة التي انشئت للحرب فقط ما عتم ان ابقوها في زمن السلم ايضاً وهكذا لم يكن لبروسيا من العسكر العامل المستمر تحت السلاح لا ١١٥ الفاً الا انه بفضل خدمة الثلاث السنوات حين يصبح العامل احتياطياً وبفضل فرقة اللاندوار اصبحت وهي قادرة على تثليث هذا العدد زمن الحرب • ورفض ملك بروسيا قبول البدل عن الشبان الاغنياء وانما سمح للذين اكملوا دروسهم ان يخدموا سنة واحدة في الجندية وان يناموا خلالها في بيوتهم ومع ذلك فقد احتفظوا على المبداء القائل بانه يفرض على كل بروسياني ان يقوم بالخدمة الجندية • ثم تنظم اللاندوار على طرز لايبعد كثيراً عن تنظيم الجيش وكان يدرب على الحركات العسكرية تدريباً يمكنه من الاسراع في دخول ساحة الوغى فصارت بروسيا اكثر دول اوروبا عسكراً بالنسبة لعدد اهلها

ورأت الحاجة ماسة لترتيب ماليتها لان الحرب سامتها ما لا يطاق حتى اشرفت سنة ١٨١٥ على الخراب سيما وقد محلت المواسم فجرّت المجاعة والبؤس وكانت البضائع الانكليزية قد تراكمت في البلاد غضون الحصار البحري فصارت تباع في المانيا بابخس الاثمان بحيث اعجزت الصناع من البروسيان عن مجاراتها وكان نظام الكمارك يومئذ في بروسيا في غاية التشويش كنظامها في سائر الممالك لان ثمت ٦٧ تعريفة تختلف الواحدة عن الاخرى باختلاف الولايات فضلاً عن ان البلاد البروسية كانت داخلة باملاك بعض الدول المجاورة بحيث يتعذر على الادارة ان تطوقها بنطاق من عمالها تطويقاً منتظماً

فعزمت حكومة بروسيا ان تضع تعريفة واحدة منخفضة الرسوم و بسيطة التركيب بحيث تكون بالمئة عشرة على المنسوجات و بالمئة ٢٠ على نتاج المستعمرات وان تستوفى كلها بالوزن فكانت تلك احسن النظامات التجارية المعول عليها في اوروبا يومئذ . على انها ما عتمت ان رفعت شان البضائع البروسية وجعلتها معدة للتفوق على تجارة المانيا بامرها فنهضت الامارات الصغرى التي تلاصق بروسيا لمعارضة خطتها الجمركية . فعرضت عليهم الحكومة البروسية ان تقتسم واياهم دخل الجمارك على نسبة عدد الاهلين وابقت لنفسها الادارة ونشر التعريفات وعقد المعاهدات التجارية و تعيين عمال الجمارك وعقدت اول معاهدة من هذا النوع سنة ١٨٢٧ وجعلتها انموذجاً لسائر المعاهدات مع الممالك الصغرى المكتنفة بلادها وفي سنة ١٨٢٨ طلبت اليها مملكة هس درمستادت وهي اكثر خطارة في شأنها من تلك الامارات وليست بلادها مكتنفة ببروسيا ان تعاقدها على مثل تلك العهود فنالت منها عدا عن اقتسام الدخل بنسبة عدد سكانها حق تسمية عمال الجمارك التي على تخومها الا ان

بروسيا احتفظت على حق تنظيم التعريفة على البضائع وصارت هذه المعاهدة مثالاً للمعاهدات الاخرى التي عقدت مع الدول التي تكتنفها بروسيا وهكذا بدأ الاتحاد الجمركي الالماني (Zollverein) وتدرج متمهلاً

وعقد اتحادان آخران احدهما بين الممالك الجنوبية وثانيهما بين الممالك الوسطى فاشتبك الخصام بين المحالفات الثلاث واذ كان الاتحاد البروسياني اقوى وامنع من غيره جذب اليه الآخرين

وفي سنة ١٨٣٦ انخرطت في الاتحاد البروسياني كل الممالك الالمانية الا هانوفر ومجاوريها والا النمسا . وفي سنة ١٨٤١ تجدد الاتحاد الجمركي الى اثني عشرة سنة وفي ابان تجديده سنة ١٨٥٢ سعت معظم الدول الالمانية لادخال النمسا في سلكه غير ان بروسيا لم تكن ترغب في ادخال النمسا لانها تجر معها بلادها السلافية والمجرية بل مالت نحو هانوفر وجوارها وهي الاقطار الباقية خارجة عن الاتحاد لحسبانها مدة الرسوم باهظة واستمالتها وانضمت الى الاتحاد وعدلت سائر الممالك عن الاتفاق مع النمسا لسبب اوراقها المالية ودخلت في الاتحاد الجمركي الذي تجدد الى سنة ١٨٦٥ وعمّ كل المانيا ما خلا النمسا فقبضت بروسيا بيدها على التجارة الالمانية

وكانت السياسة في المانيا من سنة ١٨٥٠ الى سنة ١٨٦٠ في منتهى الضعف لايجاس الحكومات خوفاً من حركة سنة ١٨٤٨ فقمعت المظاهرات الجنسية الحرة وفي سنة ١٨٦٠ اصبح الراي العام بعد انخذال النمسا يقول ان المحالفة غير كافية

وكان الامراء ورعاياهم يخافون من نابليون الثالث ان يسعى لانتزاع ضفة الرين اليسرى من المانيا فاتفقوا على طلب اتحاد متين يقوى على مقاومة الاجانب الا انهم اختلفوا في الاصلاح المطلوب عمله

فعرضت النمسا انشاء مجلسين احدهما للاتحاد والآخر للمشورة وهذا يؤلف من نواب الحكومات وان تمنح الادارة العامة للممالك الكبرى مناوبة . فبحث الامراء في ذلك في ندوة فرانكفورت فادى البحث بهم (١٨٦٣) الى انشاء مجلس مؤلف من ٢١ معتمداً واقامة حكومة ديركتوار من ستة اعضاء يعاونها بارلمان مؤلف من ٣٠٢ نواب على ان هذا الاتفاق نال مصادقة اربعة وعشرين اميراً وانتهى الملك في بروسيا سنة ١٨٦١ الى غليوم فعهد بالحكومة الى بسمارك وهو رجل نبيل من بيت قديم وكان ينفر من الدستور الحر ومن وجود برلمان و يرغب اشد الرغبة في ان تكون الحكومة للملك على انه يحب كثيراً بالسنين

بفرانكفورت Diete البروسيانية ولقد كان ينوب عن حكومة بروسيا في الدوة فقضى ثمت بضع سنين على انه خرج من نيابته يصعر خده للندوة وللتحالف وللنمسا على السواء وقام في ذهنه ان مصلحة بروسيا ملاشاة التحالف والا استمرت النمسا حائلة دون نجاح بروسيا وتقدمها فظلت بقية الممالك تحسدها . ولهذا راى ان يبدل هذا التحالف باتحاد وثيق العرى وبارلمان منتخب وان يكون ملك بروسيا قابضاً على ادارته التجارية والعسكرية على ان تخرج النمسا منه بتاتاً

فنصح منذ سنة ١٨٦٢ لحكومة النمسا ان تترك المانيا وشأنها وان تجمع قوادها في بودابست فتتخذها قاعدة اعمالها الا انه راى ان النمسا لا تخرج من الحلقة مختارة ومن غير حرب نصلاها فتأهب لاضرام نار الحرب واعمل الفكرة فرأى الضرورة ماسة لامرين خطيرين اولهما تعزيز الجيش البروسياني فكان ذلك محور سياسته الداخلية وثانيهما الوثوق من محالفة الدول الاوروبية او على الاقل حيادها وكان ذلك محور سياسته الخارجية

وكان الجيش البروسياني حتى سنة ١٨٦١ على شأنه سنة ١٨١٥ الا ان عدد الاهلين كان قد ازداد فلم تبق الخدمة العسكرية شاملة كل الرعية لان عدد المكلفين للتجند بلغ ثلثة وستين الفاً سنوياً ولكن المأخوذ منهم لم يتجاوز الاربعين الفاً

وصاروا منذ سنة ١٨٤٠ لا يقيمون تحت السلاح الا سنتين فقط اما اللاندوار فكان على طرز سنة ١٨١٥ اي يستمر الجند فيه خمسة عشر عاماً يدخله في الخامسة والعشرين حتى الاربعين من عمره فلا يكون الجند الاحتياطي الا من الذين خدموا سنتين . فاحدث الملك غليوم ثلاثة اصلاحات فيه وذلك انه اعاد التجنيد العام وارجع المدة الى ثلاث سنين واطال مدة الخدمة الاحتياطية الى عمر ٢٧ سنة على انه قصر خدمة اللاندوار الى ان يبلغ صاحبها الثانية والثلاثين وهكذا صار عدده في زمن الحرب ٤٤٠٠٠٠ رجل من العسكر العامل والاحتياطي عوضاً عن ٢٠٠٠٠٠ رجل وانشأ فرقاً جديدة لتسع هذه العساكر المتزايدة فزادت نفقاته وتغيرت الميزانية . ولقد كان في بروسيا منذ ثورة سنة ١٨٤٨ مجلس انتخابي يقال له لاندتاك Landtag ظل جارياً في سبيله بالرغم عن الرجعة سنة ١٨٤٩ على ان هذا المجلس لم يكن مثل البارلمان في البلاد الدستورية اذ لم تكن الوزارة مسؤولة لديه ولا يحق له الا تقرير القوانين والميزانية حال كون الحكومة اعتادت ان لا ترفع اليه الميزانية الا بعد ان تكون قد انفقت المال اللازم لها بحيث اصبح مسيطراً عليها بالوهم فقط . واخيراً لم يبق له من السلطة الا رفض القوانين الجديدة وزيادة الضرائب ولكن الحكومة صارت لا تعبأ به

ولا تحسب لوجوده حساباً وقلما كانوا يعتبرون النواب فكان مقام الواحد منهم في الحفلات الرسمية وراء الضابط في الجندية من رؤساء المئة (اليوزباشي)

على ان اصلاح الجندية اتاح للنواب لاول مرة من وجودهم ان يعارضوا حكومتهم معارضة شديدة مع انهم ظلوا من سنة ١٨٥٨ الى سنة ١٨٦١ لا يجسرون ان يرفضوا المصادقة على انشاء الكتائب والفرق التي رتبها الملك فقرروا العمل بذلك وقتاً وفي سنة ١٨٦٢ صارت الاغلبية لحزب جديد هو حزب التقدم وكانت سياسة هذا الحزب اجتناب الحرب والاخذ بالاقتصاد واذ وجد عدد الجيش عظيماً اراد ارجاع الخدمة العسكرية الى سنتين فرفض التصديق على الزيادة فاعلن الملك ان من خصائصه الدفاع عن البلاد فهو وحده الحكم بما يحتاجه الجيش وان المبالغ المدونة في الميزانية ضرورية له ولا يحق للمجلس رفض ما يراه الملك لازماً لاجراء اعمال الدولة فاجابه المجلس انه اذا كان يتوجب عليه التصديق على كل مبلغ يحكم الملك بلزومه تصبح مفاوضات النواب اشبه شيء بتمثيل رواية ولا يبقى لهم مزية مجالس النيابة بل مجالس مشورة ليس الا

وانما حدث هذا الاختلاف في المجلس لانه اخذ سنة ١٨٤٨ عن البلاد الاجنبية والبلاد التي اخذ عنها تعترف بسيادة الامة فلا يصح ادخاله في بلاد مملكة عسكرية قائمة على تسود الملك فيترتب على ذلك احد امرين اما ان يرغم المجلس الملك على التنازل عن حقوقه يعني ان يعترف بسلطة الشعب الذي يمثله المجلس او ان يرغم الملك المجلس والشعب على الاعتراف بتسود الملك . فلبث هذا الخلاف محتدماً من سنة ١٨٦١ الى سنة ١٨٦٦ وفي غضونها فض المجلس مرتين وأعيد الانتخاب وكلما التأم مرة رفض التصديق بتاتاً الا ان الملك أصر على عدم التنازل عن حقه وفي سنة ١٨٦٢ عهد الى بسمارك بالوزارة الاولى فكان نصيراً للملك وصرّح انه لا يستطاع تأليف الوحدة الالمانية الا (بالحديد والدم) وقال للمجلس « انا نحب ان نحمل سلاحاً كبيراً على جسمنا النحيف فيجب ان ننتفع منه فاقدم بجزم على مناضلة المجلس » وقد قال « يوماً ان الحياة الدستورية هي عبارة عن سلسلة اتفاقات فاذا لم يبق من الاتفاق فائدة كأن تريد احدى السلطات تأييد ارائها وتسعى الى ذلك بضرب من الاستبداد القانوني تصبح سلسلة الاتفاقات وقد انقطعت وينوب الخصام مناب الاتفاق وبما ان حياة الدولة لا يمكن ايقافها يصبح التحكم بالخصام منوطاً بالقوّة والذي بيده القوة يسير الى الامام على ما يرغب فيه » وكانت القوة بجانب الملك وبسمارك فاحتفظا على الكتائب واستمرا على جباية الضرائب كأن المجلس صادق عليها

وفي غضون ذلك كان بسمارك يعمل على جعل النمسا منفردة فاستمال قيصر الروسية باسعاده على اخضاع بولونيا التي ثارت سنة ١٨٦٣ واستمال نابليون الثالث بان جعله يعتقد بمساعدة بروسيا له على البلجيك او ضفاف الرين وجذب اليه ايطاليا بان وعدها بالحاق فينيسيا بها. اما انكلترا فعرف انها لا تستطيع شيئاً ثم ثبتت قضية الوحدة كما تنبأ بسمارك عنها بالحديد والدم وذلك عقيب ثلاث حروب ففي سنة ١٨٦٤ اشهرت بروسيا والنمسا معاً الحرب على ملك الدانمارك لغاية ان ينتزعا منه دوقيتي هولستين وشالسويك ولكن عوضاً عن ان ترجعاها للوارث الالماني اقتسمتاها موقتاً فكانت هولستين للنمسا

وفي سنة ١٨٦٦ احتلت بروسيا هولستين بعلة ان النمسا تغري ثوار تلك الولاية فاستنصرت النمسا الندوة فحكمت لها بصحة طلبها فصرحت الحكومة البروسية بأنها تعتبر الحلفة منفضة واعلنت الحرب وقد قال بسمارك سنة ١٨٦٥ لوزير بافاريا « ليست هذه الحرب الا مبارزة تنتهي سريعاً اذا استمرت المانيا محايدة اذ ليس للنمسا جيش ولا وسائط عندها للتسليح فيكفيها معركة واحدة » وكان قد فاز بمحالفة ايطاليا لاضرام حرب في سنة ١٨٦٦

وجعل الالمان ينقسمون بميلهم الى احد الخصمين اما الملوك فكانوا يؤثرون النمسا لانها لا تقصد انتزاع السيادة من ايديهم اما الوطنيون فكانوا يعلقون امالهم بنيل الوحدة على مساعدة بروسيا فنسجوا على منوال ايطاليا وانشأوا لهم جمعية سنة ١٨٥٩ سموها الاتحاد الوطني وصرحوا ان غايتهم منها ان يدفعوا بروسيا للسير في السبيل القويم . فما لبث ان بلغت عدة اعضائها عشرين الفاً الا انهم لما رأوا الحكومة البروسية بيد بسمارك وهي منهمكة في مخاصمة المجلس النيابي امتعضوا وانشأوا سنة ١٨٦٢ جمعية اخرى سموها جمعية الاصلاح اعادوا اليها خطة المانيا الكبرى فاصبحت النمسا مطمح انظار الناس حتى اذا جاء الامبراطور الى فرنكفورت سنة ١٨٦٣ لقي فيها ترحاباً حماسياً وحتى انه لما كانت سنة ١٨٦٦ تحزبت كل الممالك الالمانية للنمسا ضد بروسيا . فانجلت حرب سنة ١٨٦٦ بعد معركة واحدة عن ثلاث نتائج :

اولها : ان النمسا تخلت عن الحلفة تاركة لبروسيا السيادة على المانيا وتخلت لها ايضاً عن دوقيتي شلسويك وهولستين

ثانيها : ضمت بروسيا اليها هاتين الدوقيتين والممالك الالمانية الشمالية التي كانت قد احتلتها زمن الحرب (وهي هانوفر وهس وناسو وفرانكفورت) فلم يبق بهذا الانضمام تداخل في ارضها واحتجت على ضم هذه البلاد اليها بقولها « ان هذه الحكومات رفضت ما عرضت

عليهن بروسيا من البقاء على الحيادة او محالفتها فاعتصبن للنمسا واشتركن في الحرب ضد بروسيا فجلبن على انفسهن و بلادهن ويلات الحرب ومضارها فعادت عليهن تلك الويلات بسماح الله تعالى وبالاً وقضت الضرورة السياسية ان لا نرجع اليهن السلطة التي نزعتها من ايديهن جنودنا الظافرة اثناء زحفها على انهن لو بقين على استقلالهن لا قتدرن بسبب مركزهن الجغرافي ان يحدثن للسياسة البروسية من الصعاب والاشكالات ما يربو على مبلغ قوتهن واهميتهن » على ان المجلس النيابي البروسياني اشار باتخاذ ذريعة اخرى لذلك الضم غير القوة البحتة لان القوة صارت لهذا العهد غير كافية لاقامة الحقوق ولتأسيس الدول فاجاب بسمارك ان ذلك الحق موجود في ضمن ما للامة الالمانية من حق الحياة والنفس والاتحاد ومن ضمن حقوق بروسيا وواجباتها ان تعطي للامة الالمانية الاساس الضروري لوجودها

وثالثها : ان بروسيا عقدت مع البلاد الالمانية الشمالية الاخرى التي ظلت مستقلة حلفة المانية وبروسية معاً ورتبت مؤتمراً من معتمدي الممالك وبارلمان ينتخب نوابه انتخاباً بالاقتراع العام فجعل المؤتمر والبارلمان ينظران في وضع الدستور بالاتفاق مع الحكومة البروسية

واحتفظت كل واحدة من ممالك الحلفة الالمانية الشمالية بحكومتها الخاصة ولكنها جعلت من فوقها حكومة الحلفة العامة على ان تكون السلطة التنفيذية فيها لملك بروسيا ولخلفائه من بعده لانه رئيس الحلفة ولوزير واحد يكون مسؤولاً بذاته وهو مستشار الحلفة يستوزره ملك بروسيا من الوزراء البروسيانيين وتناط السلطة التشريعية بمجلسين اولهما مجلس الحلفة يؤلف من معتمدي الحكومات الذين يعطون اصواتهم حسبما تامرهم حكوماتهم وثانيهما الرشستاغ يؤلف من نواب ينتخبهم جميع الاهلين فعضد بسمارك الاقتراع العام على انه رفض ان تعطى النواب الرواتب وان تؤلف وزارة للامبراطورية

وقد انقسمت السلطة بين حكومة الحلفة والحكومات المحلية على ان يبقى لكل مملكة حق الادارة والقضاء والبوليس والمالية والمعارف والاديان وخصت حكومة الحلفة بما ياتي :

١ً الجيش والبحرية : على ان يكون ملك بروسيا رئيس كل الجيوش وعلى كل دولة ان تتبع النظام الجندي البروسياني (الخدمة الاجبارية لثلاث سنين) والتدريب البروسياني

٢ً العلائق الدولية : يعقد ملك بروسيا الصلح ويشهر الحرب ويبرم المعاهدات ويعين كل رجال المناصب

٣ً ومن خصائصه الامور التجارية ووسائل الاتصال والجمارك وضرب السكة والبنك والاوزان والمكاييل والبريد والتلغراف والسكك الحديدية



فليوم الاول امبراطور المانيا

٤ وله التشريع في القانون التجاري والجزائي وأصول المحاكمات وفي الصحة العمومية وانشاء ميزانية للانفاق على حاجات حكومة الحلفة يقوم بها دخل الجمارك ومال يفرض على كل واحدة من الدول المتحالفة وتقرر هذه الميزانية مرة ليعمل بها على مدى سنين جمة . وفي ذلك يقول بسمارك « اذا كان تنظيم جيش التحالف يعرض للاقتراع السنوي يكون

لي ذات التأثيرات في ما لو كنت امام لجنة السدود⁽١⁾ حيثما يقررون في كل سنة بالاقتراع الفردي و بين المقترعين من لا يكون له املاك بعد اذ يلقى عليهم سؤال مؤداه من الواجب اذا وقع الطغيان العظيم ان تقام السدود اولا »

على ان انتصار بروسيا قضى على معارضات المجلس النيابي فيها وفقد حزب التقدم الاغلبية فيه وقام مكانه حزب آلى على نفسه عضد سياسة بسمارك من غير ان يتخلى عن مبادىء الحرية والوحدة وتسمى بالحزب الوطني الحر



بسمارك

اما الممالك الغربية الاربع (بافاريا وورتمبرج و باد وهس دارمستاد) فلم تدخل في الحلفة وانما عقدت مع بروسيا عهود ولاء واتفاق وظلت معها في الاتحاد الجمركي

على ان الحرب مع فرنسا اتمت الوحدة الالمانية ولما اجتمع الامراء الالمان في فرساليا خلال حصار باريز نادوا بملك بروسيا امبراطوراً على المانيا (يناير سنة ١٨٧١) واضيف الى التحالف الممالك الاربع الجنوبية واتخذت اسم الامبراطورية ولم يكن ما حدث الا تبديلاً

(١) ان الانحاء المنخفضة من المانيا الشمالية معرضة لطغيان الانهر الكبيرة والبحر فيلتزم الاهلون ان يعقدوا الاجتماعات للبحث في اقامة السدود على النفقة العمومية

بالامم فقط اذ ظل التنسيق الاخير على حاله من غير ان يضعوا دستوراً للامبراطورية وانما اتخذوا علماً جديداً ملوناً بالاسود والابيض والاحمر . ولما عرضت فرنسا الصلح طلبت بروسيا منها التخلي عن الالزاس وعن قسم من اللورين وعوضاً عن ان تضمها لبروسيا جعلتهما جزءاً من الامبراطورية الالمانية كانهما من ملحقات المانيا وجعلتهما تحت حكومة مستشار الدولة ولم يؤخذ راي الاهلين في ما الحقت بروسيا اليها من البلاد سنة ١٨٦٦ اوسنة ١٨٧١ وانما كانت الحكومة تكتفي بما نالت من حق الفتوح

وهكذا تمت (بالحديد والدم) الوحدة الالمانية لمنفعة بروسيا . وليست الامبراطورية الجديدة الا مملكة بروسيا متسعة حتى حدود البلاد المتحدة جمركياً

وما اسست الامبراطورية الجديدة على وحدة الارومة او الجنسية الاختيارية اذ تركت خارجاً عنها ثمانية ملايين من الالمان في النمسا وادخلت فيها مليونين من البولونيين السلاف بصفة كونهم رعية ملك بروسيا فمزجوا بالقوة شعوباً ما برحت تحتج على الحاقهم بها وهم البولونيون واهل هانوفر والدانمرك والالزاس

تبديل في الحكومة

تقدم النظام البارلماني في اوروبا : — في سنة ١٨٤٨ لم يكن النظام البارلماني جارياً على تمامه الا في انكلترا وفرنسا والبلجيك واما في الممالك الثانوية الالمانية وفي هولاندا فلم يكن منه الا بعض الشيء بخلاف البورتغال واسبانيا فانه لم يؤخذ فيهما الا بظواهره على انه لم يتطرق من وسط اوروبا وشرقيها الا الى بعض الدول في جنوبي المانيا

على ان ثورة سنة ١٨٤٨ زعزعت اركان الحكومات المطلقة الاوروبية ما خلا الروسية فلما اوجست تلك الحكومات خوفاً من الفتن وعدت باقامة الدستور وعقدت مجالس التشريع فنشأ مجلس في بروسيا وآخر في النمسا وغيرهما في المجر وتألف مجلس نواب في المانيا ووضع الدستور في كل الممالك الايطالية الا ان الحكومات لم تلبث حتى سكن روعها فحنثت بوعودها واسترجعت منحة الدستور عام ١٨٤٩ ولم يبقَ من اثار تلك الحركة الا النظام البارلماني في هولاندا المسنون سنة ١٨٤٨ وفي مملكة سردينيا وكذلك دستور بروسيا الممنوح سنة ١٨٥٠ مأخوذاً عن دستور سنة ١٨٤٨ المشابه للدستور البلجيكي وبه تقررت المساواة تجاه القانون وابيحت الحرية الشخصية واقيم بارلمان مؤلف من مجلس اعيان ومجلس انتخابي على ان به ما يحفظ للملك سلطته المطلقة . بيد ان

النكوص عما احدثت حركة الخواطر سنة ١٨٤٨ استمر جارياً حتى سنة ١٨٦٠ ومنذ حينئذ صار الميل للنظام الدستوري يشتد في الناس لازدياد عدد الاوساط ونمو ثروتهم واستنارة اذهانهم — وكانت لهم اقطار غربي اوروبا قدوة ومثلاً على انها سابقة لهم في مضمار الحضارة والعمران وشرع بنصرهم ارباب الحركة الوطنية ثم سنحت لهم فرصة ضعف النمسا التي اهتمت بارجاع الملكية المطلقة فاغتنموها وشيدوا النظام البرلماني في ايطاليا سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٦١ وفي النمسا سنة ١٨٦٢ الى سنة ١٨٦٧ وفي المجر سنة ١٨٦٦

ففي كل بلاد تأسس فيها النظام الدستوري ضعفت سلطة الملك ومجلس الاعيان وزادت سلطة المجلس الانتخابي وبدأت سلطة الامراء تتضاءل تجاه تسود الامة وحينما جعلت السلطة من خصائص المجالس كان الدستور مفصحاً عن حقوق الوطنيين وحرية المطبوعات ولم يبق ثمت من حزب للحكومة المطلقة . وكل رجال السياسة حتى الامراء انفسهم رضخوا للمبادىء الدستورية واعتمدوها وصار اشياع الاحزاب يسمون احراراً ومحافظين ووجه الخلاف قائم على ما يبقى من الشأن والتأثير قلَّ او جلَّ للأسر القديمة من الاعيان بالارث او بالثروة (اولئك الذين يطلق عليهم اسم الطبقات المديرة)

وان البلاد الوحيدة التي ظلت قائمة بمبدأ الملكية المطلقة كما كان الحال في القرن السابع عشر هي الدولة الروسية فيتولى حكومتها وزراء القيصر من غير مجلس انتخابي (حتى ان مجالس الولايات للمشورة اصبحت لا تنعقد جلساتها وكانت الجرائد خاضعة للمراقبة . ولادارة البوليس حق الابعاد الى سيبيريا (اداريا) من غير محاكمة الرجال الذين تحسب افكارهم ثورية

اما الامبراطورية الالمانية فانها صارت منذ سنة ١٨٦٦ بين بين اذ كان لها مجلس عام يسمى رشستاغ ولكل امارة فيها مجلس خاص يسمى لاندتاج ينتخب الاهلون اعضاءه وهم الذين يقررون الضرائب . الا ان السلطة لم تكن للبارلمان بل للامبراطور لان من تقاليد اسرة بروسيا ان للملك حق السيادة وله تنتهي السلطة العليا حتى على ادارة الرشستاغ

حزب الراديكال : — لم يكن الحزب الدستوري راغباً في ان يضرب صفحاً عن التقاليد القديمة فعزموا على ان يتولوا الاحكام على الطرز القديم بحيث لا تنفرد الامة في ادارة اعمالها ولذلك لم يكونوا يطلبون الا الاصلاح اللازم الذي به تتمكن الامة عند مسيس الحاجة من عرض ارادتها على الحكومة

وقام حوالي سنة ١٨٣٠ حزب غير راض عن الاصلاح الجزئي وطلب تبديلاً تاماً في

طريقة الحكومة فسمي حزب الراديكال وكان قد نشأ اولاً مثلهُ في انكلترا سنة ١٨١٥ وفي سويسرا ومن ثم في البلاد الغربية من اوروبا وشرع يسعى في كل بلاد لاستمالة المنتخبين لتحصل له الاغلبية في البارلمان فيرتب احكام الدولة طبق مبادئه

على ان حزب الراديكال لا يعتد بالتقليد ومبدأهُ انهُ لا يجب على الشعب ان يترك الحكومة تحكمه بالسنن القديمة بل ان تتخذ شرائع جديدة تلائم الزمن الحاضر فبعض اشياع هذا الحزب يسندون مطالبهم الى حقوق الانسانية والعدل (وهذا على الاخص منهاج الراديكال الفرنساويين) وبعضهم يسندون اراءهم الى العلوم (وهذه طريقة الراديكال الانكليز) ولهذا يختلف الراديكال رأياً في الخطط التي يريدون الحكم بها كما تختلف اراؤهم ايضاً في مقاصد الحكومة حتى آل الامر بهم الى رأيين متناقضين

فبحسب فريق منهم ان اقصى غايات الحكومة هي تأمين الافراد على حريتهم وان عليها ان تتركهم وشأنهم ليتقدموا في سبل الحياة فيكونون انعم عيشاً واكثر نشاطاً ويسيرون شوطاً بعيداً في التقدم وان المجتمع الانساني يرتب ذاته ترتيباً احسن من الترتيب الذي يوجبه القانون ولذلك يتعين على الحكومة ان تقتصر على اتخاذ الوسائل التي تضمن لكل شخص حريته وما عليها ان تكره الواحد اكراهاً يزيد عن اللازم لضمان حرية الآخر لانها لم تكن الا لتبادل الدفاع عن المصلحة وليس عليها السعي وراء الاعمال النافعة للعموم لان ذلك من خصائص الافراد الذين ينتفعون من تلك الاعمال فمن الضرورة اذا ان تكون الحكومة ضعيفة الحول كي لا تطمح الى خرق حرمة الحرية الشخصية » هذه هي نظريات الراديكال الاحرار

واما مبدأ الفريق الثاني من الراديكال فناتج من القول بان « من مصلحة الحكومة ان تسعى وراء سعادة الناس ونشر العدل ومن حقها ان تدبر كل شيء عملاً بمصلحة الجانب الاكبر من الامة لان سلطتها مستمدة من الامة صاحبة السيادة وليس على الحكومة ان تراعي حرية الافراد اذا كانت تلك الحرية تعيقها عن اتمام وظيفتها اذ ليس للفرد حق تجاه الحكومة التي يجب ان تكون قوية لخضد مقاومة الافراد » تلك نظريات الراديكال الآخرين

وهذان الرأيان يرجعان الى عاطفتين متناقضتين الواحدة منهما حب التقدم والثانية حب النظام . فالاحرار يريدون تقدماً لاحد له والآخرون يطلبون هيئة اجتماعية كاملة ولا يرتضون بالتقدم حتى تحصل الهيئة على النظام الكامل ـ وبين هذين الرأيين المتطرفين اراء اخرى متوسطة بينهما ذلك ان فريقاً من الراديكال الاحرار يرون ان على الحكومة توطيد

السلام وجرّ جميع المنافع للمجتمع الانساني مما لا يرى الافراد لهم منفعة خاصة بالاهتمام بها وعليه من واجبات الحكومة ان تنشئ الجسور والمين وتمهد الطرق وتحفظ الاحراج والغابات وان تبذل جهدها في الاتفاق على دور العلوم والتعليم (١) الا انهم لم يتفقوا رأياً في ما اذا كان من الواجب التفاتها للمذاهب وانما نرى الرأي الشائع هو فصل الكنيسة عن الحكومة والسواد الاعظم من حزب الراديكال في اوروبا من اشياع الفريق الثاني

الاقتراع العام : — ان مبدأ النظام البارلماني هو ان تختص السلطة بالبارلمان المنتخب الا انه ليس من الضروري ان يكون حق الانتخاب لجميع الوطنيين ولا ان يكون المنتخبون جميعهم سواء في الاقتراع فان الملاكين وكبار الفلاحين في انكلترا لهم وحدهم حق الاقتراع وان للمنتخب البلدي الارجحية على منتخب المقاطعة

على ان البلاد التي تحدت النظام البارلماني الانكليزي جعلت حق الاقتراع الاهلين وفررت حداً معلوماً للمال الذي يؤدونه ضريبة فيخولهم حق الانتخاب بحسب القانون بحيث لا ينتخب من لا يدرك القدر المعين وكذلك لا ينتخب ويشترك باعمال الحكومة الا من ادرك الفئة المقررة له . ومن هاتين الهيئتين المنتخِبة والمنتخَبة تؤلف البلاد القانونية اما سائر الاهلين فلا يستشارون في شيء — هذا هو الاقتراع المقيد او الجزئي

وقد عارض اشياع الديمقراطية هذه الطريقة . واتخذوا الاقتراع العام مناظراً لها وبه يكون كل الناس منتخِبين ولم يكن يعمل في باديء الامر بالاقتراع العام الا في بعض المحال من سويسرا وذلك منذ العصور الوسطى وكذلك في الولايات المتحدة الاميركية حيث دخلها بين سنة ١٧٨٣ الى سنة ١٨٣٠ تدريجاً وقد اتخذه الجمهوريون الفرنساويون سنة ١٧٩٢ لكن لم يطل بهم الامر حتى عدلوا عنهُ في فرنسا . اما الراديكال في جميع البلاد فانهم يؤيدونه عملاً بمبدأ تساوي الناس ازاء القانون

الا ان الثورة التي حدثت في فرنسا سنة ١٨٤٨ نشرت هذا المبدأ دفعةً واحدة امافي المانيا فبعد انتصار بروسيا سنة ١٨٦٦ بواسطة المستشار الامبراطوري بسمارك اذ اراد اتخاذهُ ذريعة لتأليف الوحدة الالمانية — لكن القوم في البلاد الاخرى لم يعدلوا عن الاقتراع المقيد وانما وسعوا الاقتراع تدريجاً حتى احرز الحق فيه جميع الاهلين شيئاً فشيئاً فاصبح الاقتراع عمومياً في انكلترا اثر الاصلاحين اللذين تما سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٨٥

(١) انظر مؤلف ثان : في الثورة الفرنساوية الجزء الثالث ص ١٣٢

وبهما نال حق الاقتراع كل مستأجر بيتاً ولم يبق خارجاً عن حق الاقتراع الا الفعلة في الولايات وابناء العيال (قد حسبوا نحواً من ١,٨٠٠٠٠٠ عدد الذين لا يحق لهم الاقتراع من الانكليز)

وخفض دستور مملكة سردينيا من ايطاليا سنة ١٨٨٢ المبلغ المقرر ضريبة على من يحق له الانتخاب فارتفع عدد المنتخبين من نصف مليون الى المليونين ونصف واتخذت اسبانيا الاقتراع العام بعد ثورة سنة١٨٦٨ ثم الغته بعد الرجعة سنة ١٨٧٤ وعادت فقررته سنة ١٨٩٠ وقصارى القول ان مبلغ المال لم يبق كبيراً في مملكة من الممالك

حكم المجلس النيابي مباشرة : — ان مبدأ تسود الامة انشأ في البلاد الجمهورية نوعين من الحكم يخالفي النظام البارلماني فان الامة في الولايات المتحدة الاميركية تنتخب (بالاقتراع على درجتين) رئيس الجمهورية ليتولى الحكم مدى اربع سنين وليس الوزراء الأعمال الرئيس يختارهم لمعاونته وما هم بمسؤولين في شيء لدى مجلس النواب. ودار ندوتهم المسمى Congress يسن الشرائع ويقرر الضرائب والرئيس يعين العمال ويقوم بالسلطة التنفيذية والندوة والرئيس كل السلطة والسيادة والاستقلال . واذا اقترعت الندوة ضد الرئيس لا يسقط عن منصبه وليس للرئيس حق فض الندوة — على ان هذا النظام يجعل الحكومة اكثر استقلالاً عن المجلس مما هو الحال في النظام البارلماني بيد ان في الولايات المتحدة تجد كل ولاية منها تدبر شؤونها بذاتها بحيث لا يبقى للحكومة المركزية الا النذر القليل من السلطة

وبمقدار تقادم العهد على النظام البارلماني وازدياد قوة المجالس النيابية مال هذا النظام للانقلاب والتغيير وجعلوا يقتربون من نظام يخول تلك المجالس حق تعيين الوزراء واقالتهم واصدار أوامره اليهم وبهذا لا يبقى ثمت من وزارة وانما يكون الوزراء منفذين لارادة المجلس هذا ما يسمى حكم المجلس مباشرة وقد جرت عليه فرنسا ايام الكونفانسيون وهو يختلف كثيراً عن النظام البارلماني

فان مبدأ النظام البارلماني هو ان زعيم الاغلبية يختار الوزراء من زملائه فيديرون الاعمال تبعاً لخطة تعرف بها (سياسة الوزارة) على ان المجلس يستطيع قلب الوزارة بالاقتراع ضدها اذا لم يستحسن سياستها الا انه لا يستطيع ان يأمرها مباشرة او ان يخط لها طريقة سياستها وما رئيس الوزارة الا عامل عهد اليه المجلس بالحكم على خطة . فلا يستتب الحكم اذاً لوزارة حتى يتسنى لها احراز الاغلبية الوطيدة في المجلس بحيث تكون

تلك الاغلبية متأهبة لتأييدها بالاقتراع لها

وطالما لا يقوم في المجلس الا حزبان فالاغلبية تتراوح بينهما . وهكذا كان الحال في انكلترا مدى قرن ونصف غير انه يتعذر احراز الاكثرية في كل بلاد كثرت الاحزاب في مجالسها لانه حيث لا يكون للوزارة حزب يبلغ عدد افراده اكثر من مجموع كل الاحزاب لا تقوى تلك الوزارة على الثبات لان المضادين يتفقون فيقترعون ضدها ويسقطونها ولا يهتدون سبيلاً الى تأليف وزارة جديدة اذ تكون الاغلبية في جانب فئة دون اخرى ذلك ما حدث في انكلترا يوم قام فيها الى جانب الحزبين القديمين حزبان جديدان هما الايرلندي والراديكال فاصبح العمل بما يقتضيه النظام البارلماني عسيراً ولذلك عوض عنه بحكومة المجلس مباشرة [1]

الفصل الثالث عشر

السلطنة العثمانية

السلطة العثمانية في القرن التاسع عشر : ـ قامت الدولة العثمانية في اواخر العصور الوسطى وعزز ملكها بالبسطة والسؤدد من تعاقب على تسنم اريكتها من سلاطين آل عثمان فاستولت في اوروبا على رومانيا (الفلاخ والبغدان) شمالي نهر الدانوب (الطونة) وشبه جزيرة ما بين النهرين حتى بلاد فارس وسوريا وبلاد العرب وفي افريقيا على مصر وطرابلس الغرب وغيرهما

وحكمها من النوع الملكي المطلق ولسلطانها الحكم النافذ بالارادة المقدسة يستوزر من شاء من رجال الدولة لادارة مهامها والنظر في شؤونها ويختار العمال من مريديه واتباعه وقد كان جيشها مؤلفاً من الفوارس المعروفين بالسباهية يقطعهم السلطان الارضين فيعيشون من ريعها ومن المشاة الذين يجتمعون في ١٩٩ فرقة كلهم يقيمون في الاستانة ثم عدلوا عن استخدام السباهية واصبحوا لا يكتتبون الانكشارية من الاسرى ولا يحظرون عليهم

(١) ولقد جرب اهل سويسرا ضرباً جديداً من الحكم وهو حكومة الشعب مباشرة وذلك بان يكون للامة حق رفع ظلاماتها Referendum وحق ابداء رأيها L' initiative وكل ذلك لم يكن الا بذور ترتيب سياسي جديد

الزواج فتوالدوا وكثروا وصارت الخدمة العسكرية ارثاً في اعقابهم يقومون باعبائها و بالمعايش الاخرى التي ينتحلونها . على انهم ما لبث ان تغيرت احوالهم وضعفت فيهم النصرة الحربية فخسروا انتظامهم زمن الحرب وصاروا وبالاً على الناس ايام السلم وجعلوا السلطان حبيساً في عاصمته وكانت الدولة تبعث الولاة من الاستانة الى الاقطار وتخولهم كل السلطة وتنعم عليهم بلقب باشا على ان هؤلاء كانوا من خدم السلطان القائمين على تنفيذ اوامره

واما المالية فلم تكن منظمة ولم تضبط بحساب ولا قيود حتى ان اوراق حساباتها كانت تجمع في الاكياس بلا ضابط . وكان لولاة الامر مطلق التصرف في بيت المال يأخذون منه ما شاؤوا من غير حساب . ولم يكن ثمت من نظام مطرد لجباية الاموال فكانوا يعطون مال الجزية على النصارى واليهود ورسوم الجمارك والاعشار وغيرها من الضرائب بالالتزام لقوم يستنزفون بهذه الواسطة ما اقتدروا عليه من مال الاهلين

وسلطان العثمانيين هو خليفة المسلمين واميرهم لذلك يعتمد الشريعة الاسلامية الغراء ويتخذ منها خطة لاعماله الدينية والشرعية والمدنية والسياسية فيحكم السلطنة حكماً دينياً على انه مع اعتبار الاسلام دين الدولة الرسمي ومعاقبة من يرتد عنه بالموت كان متساهلاً مع النصارى واليهود الساكنين في بلاده وحسبك من تساهله انه ارتضى ببقائهم في بلاده وتحت حكومته الا انهم لم يكونوا يخولون حقوق الوطنية فيها وانما يقيمون في حال المسكنة والصغار من غير ان يمتعوا بشيء من الحقوق المدنية ولا يحسبون الا رعية السلطان يؤدون الجزية والخراج وسائر الاموال ولكنهم لا ينالون منصباً ولا يقومون بالخدمة العسكرية

الا انها لم تكن لتعتد بالمزية القومية بمعنى انها لم تكن ترى الميزة لقومها الفاتحين على سواهم بل تساوي من اسلم من سكان السلطنة بغيره من المسلمين فعندها المسلم من اي بلاد كان سواء في الحق والواجب فهي من هذه الوجهة ديمقراطية المبدأ في المسلمين ارستوقراطية مع غيرهم . ولهذا كانت الامة العثمانية صنفين المسلمين وغير المسلمين والصنف الاول يمتاز بثقة الحكومة به وتقلد المناصب الادارية والجندية والصنف الثاني تركته الدولة لشأنه فاحتفظ على معتقده ولغته وادابه وسائر شؤونه الاجتماعية ولذلك بقي نصارى القرن الخامس عشر على حالهم

واما في اسيا فمعظم رعاياها من المسلمين ولم يكن عندها هنالك الا نفر قليل من اليونان والارمن واليهود وهم مبعثرون في الايالات يساوون مواطنيهم ويخضعون للاحكام كل الخضوع على ان الحال في تركيا اوروبا على عكس ذلك فان المسلمين كانوا قليلين بالنسبة لمواطنيهم

النصارى الذين لم يرضخوا لطاعة السلاطين العظام الا بعد ان عملوا على اخضاعهم قرناً من الزمن

فكان اهل الفلاخ والبغدان يؤدون الجزية فقط ويحكمهم منذ القرن السابع عشر رجال من يونان الفنار (حي من احياء الاستانة) يعينهم السلطان ولم يكن في بلادهم احد من المسلمين وكان اهل السرب فلاحين يقيمون على حرث ارض اسيادهم المسلمين الفاتحين وكان في جوارهم اهل مكدونيا والروملي والبلغار وهم من الفلاحين ايضاً الا انهم كانوا كأنهم منفردون في البلاد . واما اهل الجبال فكانوا خليطاً لاختلاف عاداتهم واديانهم واهل بوسنة من السلاف اسلم نحو نصفهم في القرن الخامس عشر فصار هؤلاء اصحاب الارض وكماة الحرب

واما الالبانيون فقسم منهم اعتنق الاسلام وظل الباقون من الاهلين على النصرانية الا ان جماعهم بقوا على عوائدهم بين فلاحين ولصوص يتألفون شراذم متسلحة تكاد تكون مستقلة في جبالها والحكومة لا تكلفهم شيئاً الا ان يلبوا دعوتها لقتال اعدائها عند مسيس الحاجة . واهل الارخبيل اليوناني امة صغيرة جعل المشيرون منها يعدون انفسهم سلالة الهيلانيين اقدماء . على ان كل هذه الشعوب قد خضعت للقوة والقوة وحدها تستطيع ابقاءهم على الطاعة

فالدولة العثمانية لكونها اسلامية لم تدخل في مصاف الدول الاوروبية المسيحية وكانت هذه اشبه باسرة واحدة ظل السلطان غريباً عنها ولم يكن له حليف بينها الا ملك فرنسا وكانت تعد دخوله او ربما تعدياً بالفتح وتريد اخراجه منها بالقوة وتعتبر المقاطعات الاوروبية التي دخلت في حوزته كأنها خالية ومن سبق الى احتلالها ملكها . وفي سنة ١٧٨٧ اتحدت روسيا والنمسا لاكتساح تركيا اوروبا واقتسامها

فكانت الدولة العثمانية تهددها اخطار كثيرة اهمها تمرد الانكشارية في الاستانة وعصيان الولاة في الولايات وتذمر رعاياها المسيحيين ومهاجمة روسيا والنمسا . فلما انتشبت الحروب باوروبا على فرنسا قل الخطر عليها من جهة اوروبا لان النمسا كانت مشتغلة من جهة الغرب فاغفلت توسيع سيادتها في جهة الشرق ونسيت سيادتها على الطونة واصبح همها المحافظة على كيانها . وكانت انكلترا الى ذلك الحين قليلة الاهتمام بالشرق لكنها اضطرت لتجريد على مصر بالاتحاد مع السلطان لاخراج الفرنساويين منها . لكنها مالبثت ان استقرت سيادتها على الهند حتى اصبح همها الاستقلال بالشرق دون سواها فاصبح للدولة العثمانية

ثلاث من دول اوربا (فرنسا والنمسا وانكلترا) يهمهن بقاؤها ولم يبق لها عدو غير روسيا فحاولت هذه ان تسلبها رومانيا (١٨٠٦ — ١٨١٢) ولكن فرنسا اضطرت القيصر ان يعدل عن مشروعه

المسألة الشرقية في القرن التاسع عشر : — لما استتب الصلح في اوروبا سنة ١٨١٤ اضحت الدولة العثمانية موضوعاً لتنازع الدول الاوروبية وخصامها وكانت النمسا قد طلبت في مؤتمر فينا ان يضمن للسلطان سلامة املاكه وان تدخل حكومته في الوفاق الاوربي Concert Européen فابت الروسية عليها ذلك وابت الحكومة العثمانية خارجة عن التمتع بحقوق الامم معرضة للتجزء والاقتسام. الا انه لما كان لكل دولة من الدول الاوروبية غاية خصوصية في املاك هذه السلطنة الفسيحة سعى كل منها في المداخلة بالشؤون الشرقية وطلب ان يستشار في امورها واصبح السياسيون في المرصاد يرقبون كل حادثة يحسبونها تفضي الى التغيير والابدال وغايتهم ايقاف كل دولة اوروبية عن الطموح الى شيء من املاك السلطنة والمداخلة في شؤونها ومنذ سنة ١٨١٥ اضحت المسألة الشرقية الشغل الشاغل للساسة الاوروبيين

والمسألة الشرقية هي هل تبقى السلطنة العثمانية او تتجزأ ؟

وانه ينجم من تجزيئها قضيتان : الاولى ما هي الدولة التي تستولي على الاملاك المتجزئة ؟ والثانية ماذا يكون حال الامم المسيحية الصغرى الخاضعة للسلطان ؟ على ان للمسألة الاولى المكانة العليا من اهتمام السياسيين الذين اعتادوا الا يكترثوا باحوال الامم وانما يصرفون جل اهتمامهم للبحث في احوال الملوك والامراء . وعوضاً عن ان يهتموا بحل هذه المعضلة شرعوا يبذلون قصاراهم لتسويف فضها النهائي بتسكين ما يبدو لهم من الشؤون ولذلك يحسب تداخل اوروبا آيلاً لاستمرار الامور على مجراها ومع ذلك فان الاحوال ادت بالمسألة الشرقية الى ان تتخذ في كل اونة شكلاً جديداً

فمظهر المسألة الشرقية الاول كان من سنة ١٨٢٥ الى سنة ١٨٢٩ وذلك ان اليونان ثاروا واستمدوا من الدول المسيحية سلخ بلادهم عن الدولة العثمانية فسعى مترنيخ لدى الدول برفض طلبهم حفظاً لكيان العثمانية وحسبان اليونان عصاة متمردين على سلطانهم الشرعي فنال موافقة روسيا . غير ان مذبحة سافس وشنق البطريرك الارثوذكسي بالاستانة مع ثلاثة مطارنة وثلاثة كهنة ولئن لم تؤثر في مترنيخ فقد اثارت خواطر الشعوب الاوروبية فتالبوا جماعات لاسعاف الامة المتسلسلة عن الهيلانيين القدماء وبعثوا لليونان بالاموال الطائلة

وجاءها جماعات من الالمان والانكليز والفرنساويين وتطوعوا بجنديتها . ومن ثم آل الحال ان دفع الاهلون بحكوماتهم الى الاشتراك في اسعاف اليونان . واعتصب لهم قيصر الروس الجديد نقولا واتفق مع انكلترا على نصرتهم . فطلب من الباب العالي ان يمنحهم الاستقلال واستمرت المخابرات في ذلك ثلاث سنين ولم تات بنتيجة . وسير السلطان لقتال اليونان عمارة مصر وجيشها فدمر بلاد المورة واكتسحها . ووقفت انكلترا وروسيا لهم فرنسا اليهما فارسلن اساطيلهن سنة ١٨٢٧ الى مياه اليونان لا ابتغاء حرب العثمانيين بل اجباراً لمصر على الرجوع باسطولها وعسكرها فنتج عن ذلك سنة ١٨٢٨ معركة نافرين وبعثت الروسية بعساكرها لقتال الدولة العثمانية مصرحة انها لا تبتغي بذلك فتحاً ولا احداث ثورة وكانت الدولة العثمانية قد فتكت بالانكشارية ولم يجسر محالفوها انكلترا وفرنسا والنمسا ان يمدوا لها يد الاسعاف لاسيما وان فرنسا كانت قد بعثت بكتيبة من جندها لنصرة اليونان في المورة فاستطاع الروس اجتياز الدانوب (الطونة) والزحف على الاستانة واضطر السلطان ان يطلب الصلح ،معترفاً لليونان بالاستقلال ومسامحاً بحرية الملاحة في الدانوب والدردنيل وواعداً باداء غرامة حربية تتقاضاها روسيا منه ولما لم يقتدر على وفاء الغرامة اصبح في قبضة روسيا

اما المظهر الثاني فحدث لاسباب لا محل لذكرها اهمها زحف ابراهيم باشا بن محمد علي باشا والي مصر بعسكره على سوريا فافتتحها وانتصر على المعسكر العثماني في الاناضول فسعى عداة محمد علي باشا لدى السلطان وحملوه على الاستنصار بقيصر الروس فلبى القيصر الطلب وارسل شرذمة من جيشه خيمت على مقربة من الاستانة وخافت فرنسا وانكلترا ان تصير لروسيا اليد الطولى في الدولة العثمانية فتسود فيها احكام الروس لذلك اشارتا على السلطان ان يجنح لمسالمة محمد علي وقبول شروطه باعطائه سوريا يتولى امرها مدى حياته . الا ان القيصر اغتنم فرصة ولائه للسلطان وعقد معه عهدة دفاع متبادل تعهد فيها القيصر بنجدة السلطان . على ان السلطان لا يكلف ارصاد جنده لمعونة روسيا فكان في ذلك وضع تركيا تحت حماية الروس

والمظهر الثالث حدث من سنة ١٨٣٩ الى سنة ١٨٤٠ حينما كانت جيوش الدولة العثمانية تحت امرة خسرو باشا راجعة من حرب الاكراد في جبالهم القريبة من نهر دجلة حتى بلغت سوريا وهي في قبضة محمد علي باشا فاغارت عليها لكنها لقيت من جنوده اندحاراً افضى بالظافر الى طلب المزيد فقصد اكتساح بر الاناضول . بيد ان محمد علي باشا

كان يجهر بانه لا يحارب السلطان لانه سيده ومولاه وانما يحارب رجاله وعماله الذين لا يحسنون الخدمة فاذا ظفر بهم تولى منصب الصدارة العظمى واحسن القيام بالواجب عليه فاستاء الانكليز والروس من عمل محمد علي وطموحه الى مناصبة الدولة وذلك لان انكلترا كانت تخشى منه اشتداد ساعده فتصير طريقها الى الهند عرضة لانفاذ رغائبه فيها ولان روسيا كانت توجس منه' خوف اصلاح تركيا وتقويتها فتصبح امنع من ان تنالها اذا قصدتها بسوء فسعت الدولتان انكلترا وروسيا وضمتا اليهما النمسا وبروسيا فجهرن بالدفاع عن السلطان وطلبن الى محمد علي باشا ان ينسحب من سوريا الى مصر. اما فرانسا فكانت من معاضديه لظنها فيه خيرًا على انها لم تكن ترغب في الحرب فاوعزت الى اسطولها بالانسحاب من مياه الشرق بخلاف انكلترا فانها ارسلت عمارتها سنة ١٨٤٠ فاضطر محمد علي ان يقبل بمطالب الدول التى تخالفه وارتد راجعًا عن سوريا

ورأت انكلترا ان تحول دون نسود الروسية على تركيا فعقدت سنة ١٨٤١ عهدة تسمى وفاق البواغيز اتفقت بها الدول على الامتناع عن ادخال بوارجها الحربية الى الدردنيل والبوسفور وتعهدن لجلالة السلطان بسلامة ممالكه فنال بذلك حقوق الدول الاوروبية المتفق عليها فيما بينها

وجعل السلطان محمود بعد ذلك يبذل جهده في اصلاح شؤون السلطنة بعد الغاء وجاق الانكشارية فرتب جنوده على الطرز الاوروبي واستعان في تنظيمهم بالقائد البروسياني مولتك الشهير

وكان رشيد باشا صدرًا اعظم فبذل قصارى الجهد في اصلاح البلاد فانشأ المنارات والمحاجر الصحية في الاستانة ووضع تعريفة لرسوم الجمارك مهد بها سبيل تجارة أوروبا. ومن ثم جعل لموظفي الدولة رواتب مقررة يستوفونها على انه كان راغبًا في ادخال الحقوق المدنية الى البلاد. ففي ٢ نوفمبر سنة ١٨٣٩ صدر خط كلخانه الشهير وفيه الشيء الكثير من الاصلاح ولا جرم ان رشيد باشا من الرجال العظام الذين يضن الزمان بمثلهم

وجعلوا الخدمة العسكرية الفعلية (النظام) لمدة خمس سنوات والرديف لمدة سبع سنين وانشأوا مصرفًا للدولة على ان يكون مديروه من الاوروبيين وسموه' البنك العثماني السلطاني. ومع كل ذلك لم تمت المسألة الشرقية وانما خمدت نارها تحت الرماد الى ان كانت سنة ١٨٥٢ لان الروسية لم تكن تقعد عن السعي للاستيلاء على البلاد العثمانية التي كانت تنعتها بالرجل المريض فقد قال القيصر نقولا في رحلته لانكلترا سنة ١٨٤٤ « انه يوجد

بين وزرائي رأيان عن العثمانية رأي يقول انها في حالة الاحتضار وآخر انها قد ماتت. وعلى كل الاحوال لاشيء يحول دون مماتها العاجل » وفي سنة ١٨٥٢ قال القيصر لسفير انكلترا « لقد حان الوقت للاتفاق على دفن الميت » وانه جزم على احتلال الاستانة لا على سبيل الامتلاك وانما على سبيل الرضى

فترتب على ذلك المظهر الرابع من مظاهر المسألة الشرقية اذ امست السلطنة العثمانية مهددة بهجوم الروس الا ان الحكومة الانكليزية سعت تخليصها بالقوة وقامت الى الدول تخطب محالفتهم فلم يجرأ ملك بروسيا على الاشتراك واقتصر امبراطور النمسا على الاحتجاج وكان الملك في فرنسا قد انتهى لنابليون الثالث فاصبح امبراطورًا عليها فاراد ان يعيد لها شأنها العظيم في اوروبا ولهذا رضي بمحالفة انكلترا وجرّ اليه دولة سردينيا التي كان من مصلحتها ارضاء فرنسا والعمل على مسرتها فتألبت هذه الدول الثلاث وسيرن جيوشهن واساطيلهن لمشاركة الدولة العثمانية التي كانت قد اجتاحت بمحاربة روسيا ولايات الدانوب فصارت الروسية تتراجع الى الوراء من غير ان تشتبك معهن بمعركة دامية

غير ان الدول المتحالفة ارادت منع القيصر عن معاودة الحرب بتدمير قواه في البحر الاسود فحصرت معقله في القرم اي سباستبول واخذته بعد ان اقامت على حصاره ثلثمئة وخمسين يومًا ثم دكته دكًا

وعقد بعد ذلك اي سنة ١٨٥٦ مؤتمر في باريز مؤلف من معتمدي الدول الكبرى لتنظيم الشؤون الشرقية فقرروا عزلة البحر الاسود بحيث لايباح للبوارج الحربية ان تمخر فيه وكذلك قرروا عزلة نهر الدانوب وعينوا لجنة اوروبية لتنظيم شؤون الملاحة فيه واتفقوا جميعًا على بقاء الاملاك العثمانية سليمة. وبمثل هذه العهود واشباهها عضدت الدول الاوروبية الدولة العثمانية واخذت بناصرها في معاكسة الروسية على انها اشترطت عليه اجراء الاصلاح الموعود لاسيما نشر المساواة بين رعاياه من المسلمين وغيرهم. ففي ١٨ فبراير من سنة ١٨٥٦ صدر الخط الهمايوني آمرًا بالحرية والمساواة امام القانون واعفاء النصارى من اداء الجزية وان يؤخذ منهم عسكر وان يكون لهم وكلاء في الادارات. فاجأت الدول هذا الاصلاح واكبرت عمله وصرحت برضاها عنه وانه لا يحق لواحدة منهن المداخلة في علائق السلطان مع رعاياه ولا في ادارات السلطنة الداخلية الا ان الدول التي اعظمت وعود الدولة العثمانية لم تأخذ باسباب الحيطة لانفاذ تلك الوعود — على ان اجراءها كان متعذرًا على العثمانيين لاسيما في ذلك الزمن حين كان المسلمون يحسبون النصارى احط منهم وادنى من ان يساووهم

في شيء ولئن كان النصارى انفسهم يرجعون في كثير من شؤونهم لآراء رؤساء الدين وحكامهم

على ان النصارى استعفوا الخدمة العسكرية وان يسيروا فيها جنباً الى جنب مع مواطنيهم المسلمين وخافوا عاقبة هذا الاختلاط بحيث ارتضوا ان يؤدوا البدل العسكري ليعفوا بأدائه من الخدمة الفعلية فادرجوا الجزية الملغاة مغيرين اسمها

وكان يتداول مسند الصدارة العظمى رجلان من اعاظم ساسة العثمانيين وهما علي باشا وفؤاد باشا فاحدثا مجالس ادارة ومحاكم وجعلا الاعضاء من المسلمين والنصارى غير انهما لم يراعيا نسبة الاعضاء من ابناء المذهبين الى عدد الاهلين

ويحكى من ذلك ان آراء الدول ونصائحها كانت تختلف باختلاف غاياتها فبينا كانت فرنسا تشير على تركيا بنشر المساواة من غير تمييز بين رعاياها لتؤلف منهم أمة واحدة كانت روسيا تشير بابقاء اهل كل دين منفصلين عن الآخرين

ولم يكن للدولة العثمانية من يذود عنها الا اتفاق فرنسا وانكلترا

فلما انكسرت فرنسا عام ١٨٧٠ أتيح للروسية حرية العمل فاعلنت انها اصبحت غير مقيدة بمعاهدة باريز وما عتمت ان سيرت اسطولها في البحر الاسود واخذت تثير خواطر السلاف من النصارى الخاضعين لسلطان العثمانيين والساكنين بلاد الهرسك

فتجددت المسألة الشرقية للمرة الخامسة سنة ١٨٧٥ اثر حوادث النصارى من السلاف في الهرسك والسرب والجبل الاسود ٠ على ان الفلاحين من اهل البلغار طلبوا الاستقلال فبعثت عليهم الدولة الباشي بوزق ففتكوا في الاهلين فتكاً ذريعاً بلغت عدة قتلاهم من ٢٥و٠٠٠ الى ٤٠و٠٠٠ نفس وسبوا ١٢و٠٠٠ من النساء فاثارت هذه الفظائع سنة ١٨٧٦ خواطر الاوروبيين فلم يبق للدول المتحدة من سبيل التظاهر بالدفاع عن الدولة العثمانية

وحدث في غضون ذلك ان منح القانون الدستوري وتألف مجلس نواب على طرز المجالس الاوروبية الا ان الدول لم تحتفل بالدستور بل طلبت للبلاد التي حدثت فيها الفظائع الاستقلال الاداري فرفضت الدولة العثمانية تلك المطالب بناء على قرار المجلس فسحبت الدول الاوروبية سفراءها من الاستانة

فانفردت الدولة العثمانية بنفسها وقاتلت الثائرين وظفرت على السرب وارجعت جنودها القهقرى فنهض القيصر بجيوشه واجتاز الفلاخ والبغدان سنة ١٨٧٨ وبعد حرب دامية ووقائع هائلة بلغ ادرنة وهناك عقد الصلح على ما شاءت روسيا واعترفت الدولة العثمانية

بالاستقلال التام لحليفات الروسية الثلاث وهن رومانيا والسرب والجبل الاسود ٠ وتنازلت لها عن بعض الاقطار وانشئت امارة البلغار وحكومة الروملي ٠ فرأت دول أوروبا ان هذا التغيير عائد لمصلحة الروسية وكثير في جنب منفعتها فالزمت القيصر على القبول بعقد مؤتمر عام للنظر في شؤون الدولة العثمانية

فعقد المؤتمر في برلين وصادق على استقلال رومانيا والسرب والجبل الاسود وانما خفض من سعة الارضين المعطاة للجبل الاسود ومن الاقطار الاسيوية المعطاة للروسية وجعل باطوم مدينة حرة وابقى حيادة الدانوب والبواغيز ولم يقبل بما كان في المعاهدة من تنسيق البلغار وانما جعلها البلاد الواقعة الى شمالي البلقان على ان يتألف منها وحدها امارة البلغار فتكون مستقلة في داخليتها ولكنها تبقى طائعة للسلطان اما بلاد البلغار الواقعة الى جنوبي جبال البلقان فانها يشكل منها ولاية الروملي الشرقية فيحكم فيها والٍ عثماني يعينه السلطان وتسعفه لجنة من الاوروبيين وبقي البلغار الساكنون مكدونيا تحت سلطة الحكومة العثمانية

على ان هذا المؤتمر حال دون توسع روسيا وحلفائها ولكنه عمل على تقسيم الاملاك العثمانية وفصلها عن جسم الدولة اذ منح اليونان قسماً من تساليا بالحاح دولتي فرنسا وايطاليا ومنحت دولة النمسا حق الاحتلال في بلاد البشناق والهرسك وسبق لانكلترا انها احتلت جزيرة قبرص

وبهذا لم يبق للدولة العثمانية من املاكها في أوروبا الا بلاد البانيا وضواحي الاستانة عاصمتها وولاية سالونيك وبلاد مكدونيا

نشأة اليونان :— كانت الامة اليونانية قد ضعفت في العصور الوسطى لما خضعت للدولة العثمانية على انها عادت اليها بعض قوتها فاستطاعت ان تصبغ السلاف والالبانيين الساكنين بلادها بصبغتها اليونانية وجعلتهم يتكلمون لغتها ولسكناهم ذات الارضين التي اقام بها الهيلانيون القدماء اي بلاد تساليا وجزائر الارخبيل وشواطيء آسيا الصغرى اصبحوا كأنهم من سلالتهم وكان اليونان خلال الحروب الاوروبية التي استمرت من سنة ١٧٩٣ الى سنة ١٨١٤ يسيرون سفنهم في البحار رافعة العلم العثماني فتمكنوا لحيادتهم ان يستقلوا بتجارة البحر المتوسط فكانت سفنهم تروح الى روسيا فتبتاع الحبوب من اودسا وتجيء بها فتبيعها في المدن الاوروبية

فكثرت عدة سفائنهم حتى بلغت سنة ١٨١٦ ستمائة سفينة مسلحة بستة آلاف مدفع

وفيها سبعة عشر الف بحار ومعظمهم يسكنون ثلاث جزائر صخرية قاحلة كانها ثلاث جمهوريات تركت لهن الدولة العثمانية ادارة شؤونهن الخاصة وكان اهلوها كأنة حرب تمرنوا على القتال لمناوأتهم مراكب القرصان على ان انتهاء الحروب الاوروبية افضى بهم الى المسكنة والفقر

وكان يسكن جبال مان (لاكونيا القديمة) واواسط البلاد عصابات من اللصوص اعتادوا حمل السلاح واطلاق الرصاص مستترين وراء الصخور وكانوا لا يرضخون الا لرؤسائهم الذين كان لكل واحد منهم برج حصين في الجبل

وعلى هذه الخطة كان لليونان جيش واسطول متأهبان للقتال وكان الاغنياء من تجارهم يبعثون باولادهم الى اوروبا يتلقون فيها العلم والادب حتى اذا رجعوا الى مواطنهم جعلوا ينشئون المدارس ويقيمون الجمعيات فبذلت ناشئتهم وسعها في تصابيح لغتهم وتهذيبها ثم صرفوا عنايتهم لاصلاح الامة حتى ان واحداً منهم وضع اغنية وطنية في سنة ١٧٩٧ يعارض فيها المارسيلياز مطلعها « هيا بنا معشر الهلانيين ان يوم المجد قد جاء »

وبدأت الثورة في وقت واحد في المورا وابيروس ورومانيا لكن العثمانية غلبت الاقطار الشمالية فلبث اهل المورا على عصيانهم يحاربهم الاتراك ولا يجدون لكبحهم سبيلاً مع انهم اصلوهم حرباً دامية مدى ثماني سنين (من سنة ١٨٢١ الى سنة ١٨٢٩)

وكان العصاة قد نظموا للحكم فيهم ثلاث حكومات فما لبثت ان وقع الشقاق بين رؤسائها وافضى بهم الامر للقتال فاغتنم العثمانيون الفرصة وامتلكوا معظم البلاد وكادت الدائرة تدور على اليونان لولا مداخلة الدول الاوروبية فانها عرضت في باديء الامر على الدولة العثمانية ان تقسم بلاد اليونان الى ثلث امارات تستقل في داخليتها ولكنها تكون على طاعة الدولة فرفض الباب العالي الطلب حتى اذا كانت سنة ١٨٢٩ نال قيصر روسيا من الدولة العثمانية التصديق على الاستقلال التام على ان تكون اليونانية مملكة قائمة بذاتها يتولاها ملك اوروبي

بيد ان الساسة الاوروبيين لم يرضوا ان تكون اليونانية دولة قوية لذلك لم يلحقوا بها كريت وتساليا وهي انما نشأت في بلاد فقيرة لا تقوى على القيام بشأنها اما اهلوها فلم يرضهم ما كان بل طمحت عيونهم الى ضم كل بلاد تجاورهم وفيها سكان من جنسهم اليوناني كتساليا وابيروس وكريت ولذلك لم تسكن ثائرتهم بل كانوا يغتنمون كل فرصة

للمطالبة بحقهم المزعوم • ولكن اوروبا لم تكن لترضى بزيادة قوتهم ولا باضعاف تركيا وظلوا كذلك حتى طلبت فرنسا لهم سنة ١٨٧٨ الحاق تساليا بهم فنالت ما ارادت لهم ولكنها ظلت مدى ثلاث سنين حتى ملكتهم ما نالوه بالوعد

وكانت الامة اليونانية قد انتظمت سنة ١٨٣٣ دولة ذات حكومة مطلقه وتولاها الملك اوتون من امراء بافاريا • وفي سنة ١٨٤٢ اضطره الاهلون ان يجعل حكومتهم دستورية • وفي سنة ١٨٦٣ خلعوه عن الملك واصبحت الدولة اليونانية جارية على الخطة الشوروية

نشأة السرب ورومانيا والبلغار : — نالت السرب استقلالها تدريجاً وكان معظم اهليها في بدء القرن التاسع عشر من الفلاحين يقومون على حرث الارض وزرع الذرة والبعض على رعي السائمة وأخصها الخنازير في احراج السنديان ولم يكن فيها من الوجهاء الا تجار الخنازير والذين دخلوا في خدمة الجندية النمساوية

فانتهزت السرب فرصة انهماك عمال الدولة العثمانية بمقاتلة الانكشارية ونهضت من سنة ١٨٠٤ الى سنة ١٨١٣ تطلب استقلالها تحت امرة تاجر خنازير كان من قبل قائداً صغيراً في الجيش النمساوي يقال له جورج الاسود (قاراجورج) فاصبحت مستقلة الا ان الحكومة الروسية لم تأخذ بناصرها ففر المشاغبون الى بلاد النمسا يحتمون فيها

وكان في السرب تاجر خنازير آخر يقال له ميلوخ اوبرنوفتش اعتصب للدولة العثمانية وراح يقاتل الثائرين فانعمت عليه الدولة بلقب امير السرب في بلغراد سنة ١٨٢٠ ومن ثم في سنة ١٨٣٠ جعلت امارته عامة على كل بلاد السرب ووراثية في اعقابه وذلك لصدق اخلاصه وولائه للدولة وأمرت جنودها ان تخرج من بلاد السرب الا من بلغراد فاصبح السربيون شعباً مستقلاً

واستبد ميلوخ في حكمهم وحصر تجارة الملح والخنازير وارغم الاهلين على حصاد املاكه فلما رأته الروسية قد ازداد قوة ومنعة طلبت الى السلطان ان يقام في السرب مجلس يؤلف من اعيان البلاد • واذ تم لها ما طلبت اعتزل ميلوخ منصبه سنة ١٨٣٩ لانه لم يطق احتمال المراقبة فتعاقب على الامارة اولاده من بعده حتى سنة ١٨٤٢ حين ثار العصاة على ابنه الثاني فخلعوه وولوا عليهم احد ابناء قراجورج • وفي سنة ١٨٥٩ رجعت الامارة لاسرة اوبرنوفتيش وظلت السرب خاضعة للدولة العثمانية بالاسم حتى سنة ١٨٧٨ حين صارت بقرار مؤتمر برلين مستقلة ولقب اميرها ملكاً سنة ١٨٨٢

أما رومانيا فقد كانت منقسمة الى امارتين وهما الفلاخ والبغدان وجميع سكانها نصارى وهم قسمان ملاكون وحراث وكان يتولى امورهم منذ الزمن الطويل امراء وطنيون (هو سبودار) Hosbodart الا انه منذ القرن السابع عشر جعل السلطان يرسل الامراء من يونان الاستانة ويقيلهم متى اراد وفي سنة ١٧٧٤ اعلنت الروسية انها اتخذت رومانيا تحت حمايتها وطلبت الى السلطان سنة ١٧٨٤ ان ينتخب الامراء من الملاكين الوطنيين وعادت فطلبت ونالت ان يكون للامير حق تعيين المال الذي يؤديه للدولة وطلبت سنة ١٨٠٢ ان تكون مدة حكمه سبع سنوات . ومن سنة ١٨٠٨ احتل الروس كل بلاد رومانيا ولم يخرجوا منها الا سنة ١٨١٢ غير انهم ابقوا لانفسهم قسماً منها يقال له بساربيا ثم عادوا فاحتلوا البلاد كلها سنة ١٨٢٨ واقاموا فيها الى سنة ١٨٣٥ وفي خلال ذلك هدموا منها كل القلاع التي كانت للعثمانيين . وسنة ١٨٥٦ قرر مؤتمر باريز ان تكون رومانيا تحت حماية الدول الاوربية جمعاء وزادها المؤتمر سعة بما اضاف اليها من الاقطار الواقعة على ضفاف الدانوب ولكنه لم يرض بجمع حكومة الولايتين الى حكومة واحدة ولئن بذل نابليون الثالث قصاراه لنيل ذلك

وتقرر ان يكون لكل امارة ديوان وطني وامير منتخب فانضم الفلاخ الى اخوانهم البغدان وانتخبوا عليهم اميراً رومانياً اسمه كوسا فاختار هو ذاته اميراً عليهم ايضاً . ومن ثم انضم المجلسان الى واحد والتأم في بخارست سنة ١٨٦٢ وفي سنة ١٨٦٦ تنازل كوسا عن امارته فتوحدت الامارتان واتخذتا النظام الدستوري وانتخبتا اميراً غريباً هو شارل دي هوهانزولرن . وفي سنة ١٨٧٨ اعلنت الامارة استقلالها . وفي سنة ١٨٨١ اتخذت لقب مملكة

وكان معظم البلغاريين من فلاحي السلاف النصارى على ان كهنتهم ورؤساء اساقفتهم كانوا من اليونان فصاروا يعملون على ابادة اللغة البلغارية بتعليم اليونانية فكادت تضيع الميزة بين اليونان والبلغار الا ان الروس لما اكتسحوا البلاد سنة ١٨٢٨ دهشوا لما وجدوا فيها من بقايا العارفين باللغة البلغارية فما عتم ان بثوا في القوم روحاً جديدة لاحياء جنسيتهم السلافية فثار الشعب وطلب من الدولة العثمانية استقلال كنيستهم عن الكنيسة اليونانية في الاستانة ونالوا ذلك سنة ١٨٧٠

وافضت حرب سنة ١٨٧٧ الى تحرير البلغار يومئذ طلب القيصر ان تكون حكومة مستقلة فلم يرضَ مؤتمر برلين بهذا الطلب بل قسم البلاد الى ثلاثة اقسام فجعل القسم

الشمالي منها امارة مستقلة يتولاها امير اوروبي ومجلس دستوري يسمى سوبرانيه وجعل القسم الجنوبي منها اي الروملي الشرقية مستقلاً في احكامه الداخلية تحت امرة حاكم تعينه الدولة العثمانية وقرر ان يبقى القسم الثالث وهو مكدونيا للدولة على حاله الاول

الا ان البلغار لم يرتضوا بقرار المؤتمر وشرع سكان الروملي منهم يتمرنون على حمل السلاح حتى سنة ١٨٨٥ فانضموا الى امارة البلغار رغماً عن احتجاج الباب العالي والدول الاوربية

مصر : — سبق فقلنا ان فتوحات الدولة العثمانية امتدت كثيراً حتى بلغت افريقيا وجعلت مصر من املاكها فيها وكان ولاتها قديماً من المماليك الذين حاربهم بونابارت سنة ١٧٩٨ وانتصر عليهم وافتتح البلاد ومن ثم جاءت انكلترا وانتزعتها منه وارجعتها الى الدولة العثمانية

فاتصلت الولاية على مصر بمحمد علي باشا فاباد المماليك وخلص مصر من جورهم واعتسافهم ثم اعلن انه يملك ارض مصر وان اصحابها الفلاحين ليسوا الا مزارعين لا ملك لهم فيها وما لبث ان اعتنى بتحسين الزراعة وادخال النباتات النافعة كالقطن والنيلة وغرس شيئاً من اشجار التوت لتربية دود القز والتفت الى البلاد فاصلح شؤونها ونظم امورها ورتب جيشها وجعل قادتهم من الاتراك واتخذ رؤساء القادة من الاوربيين لا سيما من الفرنساويين وحمل بجيشه واسطوله من سنة ١٨٢٥ الى سنة ١٨٢٨ على اليونان ودوخها واعمل باهلها السيف كي يعود بهم الى طاعة الدولة فعرفت الدولة له ذلك وجعلت حكومة مصر ارثية في اسرته فاصبحت مستقلة ولكن تحت طاعة السلطان امير المسلمين من اهل السنة . وكانت انكلترا على قول قد عرضت على محمد علي باشا ان تعترف به مستقلاً بملك مصر استقلالاً تاماً فابى عليها ذلك ولم يرضَ به وقال لمعتمدها اني اذا اقدمت على الخروج من طاعة السلطان يبتعد المسلمون عني ويكون اولهم ابني . على انه في الحربين اللتين اقامهما على الدولة كان يجهر انه العبد المطيع للسلطان ولكنه العدو اللدود لرجاله

وظل خلفاء محمد علي باشا على حالهم مع الباب العالي يلقبون بالباشاوات ويؤدون خراج بلادهم للدولة الا ان اسماعيل باشا نال من السلطان ان تكون الامارة للبكر من بنيه وان يلقب بالخديوي وان يبعث بالوكلاء السياسيين لدى الحكومات الاوروبية فاصبحت مصر دولة

واذ انتهى فتح ترعة السويس سنة ١٨٦٩ ذهب الخديوي بنفسه الى اوروبا مع وزيره

لو بار باشا يدعو ملوك أوروبا لحضور حفلة افتتاحها فاستاءت الحكومة العثمانية من ذلك وارادت ان تذكره بسيادتها عليه فامرته ان يسلم اليها ٢٠٠،٠٠٠ بندقية وان يخفض جيش مصر الى ثلاثين الف رجل وان يرفع في كل سنة برنامج دخل الحكومة ونفقاتها الى الاستانة وان يمتنع عن عقد القروض الا باذن من جلالة السلطان واوعزت اليه ان يقرأ جهاراً الفرمان السلطاني الآمر بما ذكر وعضدت انكلترا هذا الطلب فامتثل الخديوي الامر وتلى الفرمان باللغة التركية بحيث لم يفقه احد من الاهلين معناه ومن ثم سعى لاسترضاء السلطان فنال منه التصديق على الامتيازات الممنوحة من قبل ومن جملتها الحق باصلاح ادارته

واعتمد الخديوي في الاصلاح على الدولتين اللتين هما اكثر الدول اتجاراً مع مصر وهما انكلترا وفرنسا وفي سنة ١٨٧٥ اصلحوا الحقانية بانشائهم مجالس اعضاؤها من الاوروبيين وعينوا لجنة اوروبية لوضع القوانين الجديدة

وفي سنة ١٨٧٦ انشاوا ادارة فرنساويه وانكليزية ضمانة لدفع الديون المصرية ومنذ ذلك الحين أصبحت هاتان الدولتان أكثر نفوذاً وقوة في مصر من الدولة العثمانية ومن ثم انسحبت فرنسا فاستمرت انكلترا تدير الشؤون المصرية على ماتشاء

الفصل الرابع عشر

العالم الجديد

الولايات المتحدة : — تنظمت حكومة الولايات المتحدة سنة ١٧١٧ وكان دستورها عبارة عن اتفاق بين حزبين سياسيين احدهما حزب المحالفة Federalistes ومن رأيه ان تكون الحكومة الحليفة ذات قوة كافية للتسلط على الولايات . والحزب الاخر الجمهوري ومن مبادئه ان يكون لكل ولاية سلطة السائد في قومه وكذلك كان الدستور يقرب بين الولايات الشمالية المأهولة بالبيض الذين يقومون بانفسهم على حرث الارض و بين الولايات الجنوبية ذات الارضين التي يملكها بعض الاغنياء فيقوم على زراعتها كثيرون من الزنوج المستعبدين . ولما وضعوا الدستور تنازل كل من اصحاب الاحزاب المذكورة عن شيء من حقه تقريباً من سائرهم ومنحوا الحكومة المتحالفة السلطة باشهار الحرب وعقد الصلح

والمعاهدات وضرب السكة وتنسيق المعاملة والاهتمام بالتجارة وبقي لحكومات الولايات ما عدا ذلك من السلطة واحتفظت الولايات الجنوبية على شؤونها الخصوصية ومن جملتها اجازة الاسترقاق

وقد تم انتظام حكومة التحالف في غضون رئاسة واشنطون (من سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٧٩٦) وألقي على عاتق الحكومة كل الديون التي عقدها المؤتمر أو الولايات زمن الحرب وبذلك كانت نشأة ديون الولايات المتحدة . ولكي تقوم بايفاء فوائظ تلك الديون وضعت الضرائب والرسوم الجمركية وانشأت بنكاً لدولتها

وكانت املاك الولايات المتحدة واقعة بين الاوقيانوس وجبال الاليكاني وعدة ولاياتها ثلاث عشرة ليس الا على ان بعض الولايات كانت تمتلك ارضاً بوراً وقفاراً فسيحة تمتد حتى نهر المسيسبي فعدت الحكومة هذه البلاد صالحة لاستعمار الوطنيين المتحالفين حتى اذا تمصرت تألفت منها ولايات جديدة فاستملكت تلك البقعة الواقعة بين الولايات والمسيسبي ورتبتها بامر صدر سنة ١٧٨٧ فصار قانوناً يرجع اليه في تاليف الولايات الجديدة

وقسمت البقعة خطوطاً مستقيمة تضارع خطوط الطول والعرض وجعلت اقساماً شتى وشرعت الحكومة ترسل لكل قسم حاكماً يتولاها في باديء الامر منفرداً الا انه متى بلغ عدد الاهلين في ذلك القسم خمسة الاف نفس كانت تتولى تدبير شؤونها فتقيم لها مجلساً منتخباً ومجلساً قضائياً وتجعلها تختار عنها معتمداً لدى الندوة الكبرى يكون له صوت مشورة وذلك انها اتخذت لنفسها مبداءً قوياً الا وهو ان تمنح سكان البلاد منذ اول عهدهم بالتالف حق حكم انفسهم بانفسهم ومتى بلغ عددهم الخمسين الفاً يصبح ذلك القسم ولاية قائمة بذاتها فيحق لها طلب الدخول في الاتحاد وعندئذ تسن دستورها بذاتها من غير ان تتقيد بشرط آخر غير الموافقة على العقود الاساسية اي ان يكون نظامها مبنياً على اسس الحرية والمساواة

وهكذا لم تكن الولايات المتحدة محصورة ضمن حدود ضيقة ولكن يمكنها ان تتسع الى ما لا نهاية له

وتمصرت البلاد الواقعة ما بين المسيسبي وجبال الاليكاني وحفلت بالسكان من سنة ١٧٨٧ الى سنة ١٨٢٠

وكان وراء المسيسبي قفر وسيع تابع لولاية لويزيانا وكانت فرنسا قد تخلت عن

تلك الولاية الى اسبانيا سنة ١٧٦٣ واسترجعها منها نابليون الاول لغاية ان ينشيء هناك مستعمرة فرنساوية كبرى على ان الحزب الجمهوري الذي انتهت اليه السلطة سنة ١٨٠٠ لم يكن ليرغب في اتساع املاك الاتحاد اعتقاداً ان الجمهورية لا تدوم في مملكة كبيرة (١)

ولذلك كان الحزب المذكور يخاف ان يزيد بسطة حكومة التحالف الا انهم رأوا ان من الواجب عليهم اجتناب مجاورة دولة هائلة القوة مثل فرانسا فلما اشهرت انكلترا الحرب على فرنسا شعر نابليون بعجزه عن الدفاع عن مغنمه الجديد فعرض ان يبيع تلك الولاية من الولايات المتحدة فقبلت الولايات بابتياعها منه سنة ١٨١٣ فاتصلت حدود املاك الاتحاد حتى الجبال الصخرية فقسم القفر الملحق بها على الطرز المحكي عنه وما عتم ان بدأ يعمر بالسكان

وكان يتاخم الولايات المتحدة من الغرب والجنوب بلاد المكسيك وبينهما ارضون فسيحة كلها براح قفر فانحدر اليها جماعة من اهل الولايات المتحدة ونزلوا منها في ارض جنوبية اسمها تاكساس وعمروها وجهروا باستقلالها ثم رتبوها حكومة جمهورية (١٨٣٥) وسعوا فضموها الى الاتحاد سنة ١٨٤٦ فاحتجت حكومة المكسيك على ذلك وآل الاحتجاج الى الحرب فانتصرت جيوش المتحدين ودخلت المكسيك ظافرة وارغمتها ان تتخلى للولايات المتحدة عن جميع البلاد الواقعة ما بين الجبال الصخرية والاوقيانوس الباسيفيكي سنة ١٨٤٨ فامتدت املاك الاتحاد منذ يومئذ من الاوقيانوس الواحد حتى الاوقيانوس الاخر وصارت اكبر من فرنسا سبع عشرة مرة ولم تزدد مساحتها عن ذلك منذ ذلك العهد

وكان في خلال تلك الازمنة ان كثر عدد سكان البلاد وازدادت ثروتهم وصارت رسوم الجمارك الموضوعة على البضاعة الواردة في البلاد تزيد في دخل الحكومة فتزداد بها ثروتها بنسبة ازدياد التجارة

وكان بامكانها ان تلغي الضرائب المفروضة على الولايات ومع هذا تبقى قادرة ليس فقط على تأدية فوائض ديونها بل على دفع تلك الديون جملة واحدة . واغرب من هذا انه مرّ بها حين من الدهر كثرت فيه النقود في الخزينة كثرة لبكت الحكومة اذ تعذر عليها ان تجد لها سبيلاً حسناً لاستثمارها ومع هذا لم تلغ الرسوم الجمركية حماية للصنائع

(١) هذا رأي مونتسكيو

الاميركية فرضت الحكومة ان تصرف الزائد من دخلها في سبيل الاعمال ذات المنافع العمومية فاجيب طلبها وعملت طريق اوهايو الكبيرة وقناة وصلت بحيرة اريه بالاوقيانوس على ان العمل بهذا المبدإ اي ابقاء الرسوم الجمركية صيانة لصنائع البلاد ووسيلة للقيام بالاعمال العمومية المهمة ظلّ مرعيًا في الولايات المتحدة معروفاً بين الناس بالطريقة الاميركية

والتزمت الحكومة في غضون الحرب الاهلية (من سنة ١٨٦٠ الى سنة ١٨٦٥) ان تضع الضرائب الجديدة وان تزيد الرسوم الجمركية وتصدر القراطيس المالية على ان هذه الوسائل لم تفِ بمصارف الحرب الباهظة لذلك استدانت الحكومة حتى اصبحت ديونها ٢,٨٠٠ مليون ريال (١٤ مليار فرنك) بعد ان كانت سنة ١٨٦٠ قد انخفضت الى ٩٠ مليون ريال اميركي فقط الا انها ما انتهت الحرب حتى جعلت تفي ديونها بحيث ابطلت سنة ١٨٧٨ اجبار الناس على المعاملة بالقراطيس المالية (١)

ومنذ تأسيس الاتحاد جعلت شعوب هذه الولايات تزداد عدداً زيادة لا شبيه لها في غيرها من بلاد الله الواسعة لان ارضها كانت مباحة لمن يريد العمل فيها

والاميركان يعتادون منذ طفوليتهم على التفكير بالسفر الى المواضع البعيدة فيدخلون من غير مشقة الى تلك القفار الغريبة ويعمرونها . وشرع اشدهم اقداماً يتوغلون للصيد في الارضين التي كان يحتلها ذوو البشرة الحمراء ومنهم نفر جعلوا يبنون الاكواخ في الاحراج ويحرثون الارض

وكان معظم المستعمرين حتى اواسط القرن التاسع عشر من الاميركيين حين بدأ اهل البلاد الاوروبية يشعرون بضيق ارضهم فطفق يرحل الى الولايات المتحدة بعض من ضاقت بهم بلادهم وكانت وسائط النقل قد تحسنت واصبحت سرعة البواخر تزداد على ممر الايام حتى صارت المسافة لا يلزم لقطعها اكثر من عشرة ايام بين انكلترا واميركا

(١) نشأ في الولايات المتحدة منذ تأسيسها حزبان متناظران كانا يسميان حتى سنة ١٨٠٠ المتحالفين والجمهوريين ومنذ سنة ١٨٣٦ تسميا بحزب الديمقراطيين والمحافظين ومنذ سنة ١٨٥٤ عرفا بالديمقراطيين والجمهوريين على انه ليس بين هذه الاحزاب أقل اختلاف سياسي وما من فائدة في بيان الفروق بينهما الا للمشتغلين بالسياسة المحلية

وفي سنة ١٨٢٠ لم يكن يهاجر الى اميركا سنوياً الا عشرون الفاً من النفوس على انه حوالي سنة ١٨٤٠ تجاوز عدد المهاجرين اليها المئة الف وفي سنة ١٨٤٧ انشأت حكومة نيويورك لجنة المهاجرة لتمهد للاوروبيين شبيل الجلاء الى أميركا ولاسعافهم حال الوصول اليها. فبلغ عددهم يومئذ نحواً ٢٣٥,٠٠٠ في السنة ولكنهم بلغوا سنة ١٨٥٠ نحو ٣٠٠,٠٠٠ وصاروا في سنة ١٨٨٢ نحو ٧٨٠,٠٠٠ وهذا اعظم ما بلغه عدد المهاجرين حتى يومئذ . ففي مدى ستين سنة (من سنة ١٨٢١ الى سنة ١٨٨١) بلغ عدد المهاجرين ١١,٢٠٠,٠٠٠ منهم ٣,٥٠٠,٠٠٠ من المانيا و ٦ ملايين من الايرلنديين ومليونان من الانكليز

ومعظم الجلاء الى اميركا كان من البلاد الشمالية حيث يكثر السكان ويشتد الفقر ولهذا كان سواد الجالية من الالمان والنروجيين والايرلانديين والانكليز واما الايرلنديون فقد دفعهم الى ذلك البؤس والفقر فان في سني المجاعة الهائلة المسببة عن مرض البطاطا (١٨٤٧ — ١٨٥٣) نزح من ايرلاندا زهاء ثلاثة ملايين من سكانها

وعمرت الولايات المتحدة بسرعة لا مثيل لها في تاريخ العلم والفضل في ذلك راجع لكثرة المهاجرين اليها الا ترى ان عدد سكانها كان في سنة ١٨٢٠ خمسة ملايين من النفوس فبلغ في مدى سبعين عاماً اي سنة ١٨٩٠ ثلاثة وستين مليوناً [1] فان البلاد الواقعة الى غربي المسيسبي كانت سنة ١٨٢٠ قفراً بلقعاً لا يأوي اليها الا نفر من الهنود السلا بين على انهم اليوم باد معظمهم وارتدت البقية منهم الى المواضع القاحلة واقام البيض في كل البلاد الواقعة ما بين الاوقيانوسين

وادخلوا كل التمدن الاوروبي الى هذه البلاد الجديدة . ومن الصفات المميزة لمستعمري اميركا انهم اتبعوا خطة تعاكس الخطة الاوروبية القديمة من ذلك انهم شادوا في القفر البلقع سكة حديدية نريد بذلك سكة الباسيفيك التي بدأت سنة ١٨٦٩ وطولها ٥,٢٠٠ كيلومتر . على انها كانت تجتاز نحو نصف تلك المسافة في مروج فسيحة وجبال منفردة بحيث

---

(١) جرت عادت الاميركان منذ سنة ١٧٩٠ ان يحصوا عدد السكان مرة كل عشر سنين فارباب الاحصاء منهم قابلوا الاحصاءات بعضها واستدلوا ان الشعب الاميركي يبلغ المئة مليون في سنة ١٩٠٠ الا ان تخمينهم لم يصب بسبب الحرب الاهلية التي اعاقت النمو بعض الشيء

كانوا يضطرون في السنين الاولى الى حماية الخط من هجمات الهنود النازلين في تلك المروج ولكن ما عتم ان عمرت البلاد على طول المسافة بحيث صارت محطات السكة الحديدية مدناً عامرة تقام فيها ادارة البريد والتلغراف وتنار بالغاز وتنشأ المطابع وتنشر الجرائد . كل هذا قبل ان يتم بناء بيوت تلك المدن فلا تمر السنتان او الثلاث الا وتصبح المدينة عامرة زاهرة في وسط الصحراء القاحلة . اعتبر ذلك بسان فرنسيسكو التي لم تكن موجودة سنة ١٨٤٦ فبلغ عدد سكانها سنة ١٨٨٠ نحو ٢٥٠,٠٠٠ من النفوس . اما الارياف فلا يسكنونها الا بعد زمن طويل من قيام المدن وفلاحو اميركا لا يشبهون بشيء من فلاحي اوروبا لانهم يستعينون بالادوات على اعمالهم ويحرثون الارض كانهم في معمل واذ كانت الارض بخسة الثمن وفي ملك الحكومة صارت الحكومة تبيع منها المقادير العظيمة بالاثمان البخسة بحيث يغلب ان يكون ثمن الهكتار خمسة فرنكات اما في فرنسا فان الهكتار ثمنه من ١٠٠٠ الى ٢٠٠٠ فرنك فيحسب فيها من ملاك مئة هكتار من الملاكين المهمين بخلاف الحال في اميركا فان سعة الاملاك تقدر بالالوف من الهكتار

وحسبنا ان نبين ببعض الارقام مقدار التقدم المادي الذي ادركته الولايات المتحدة فانه في سنة ١٧٩٠ لم يكن في كل تلك الولايات الا اربع مدن يزيد عدد سكان الواحدة منها عن ١٠,٠٠٠ نفس فان فيلادلفيا كانت اكثر المدائن سكاناً مع ان عدد اهليها ٤٢,٠٠٠ نفس وكان عدد سكان المدائن يعادل ثلثة في المئة من عدد الاهلين جملة واحصى عدد المدن سنة ١٨٨٠ فكان ٩٦٣ مدينة (منها اكثر من ثلاثين مدينة سكان الواحدة منها ينيفون على المئة الف) اما مدينة نيويورك فانها كانت تحتوي على ٦٠٠,٠٠٠ من النفوس واصبح عدد سكان المدن نحو ربع الامة

وسنة ١٧٩٠ كانت تجارتها الخارجية ضعيفة بحيث تعدل وارداتها بقيمة ٢٣ مليون ريال اميركي وصادراتها بمبلغ ٢٠ مليون ريال فصارت وارداتها سنة ١٨٨٠ بقيمة ٦٥٠ مليوناً وصادراتها بمبلغ ٧٠٠ مليون ريال

وكان دخل حكومة الاتحاد سنة ١٧٩٠ اربعة ملايين ريال ومصرفها مليون ريال فصار دخلها سنة ١٨٨٠ ثلثمئة مليوناً من الريالات ومصرفها مئتي مليون

الجمهوريات الاسبانية في اميركا : — ظلت الحكومة الاسبانية منذ القرن السادس عشر تعامل مستعمراتها كأنها من املاك الدولة فتولي حكومتها للاسبان مبعدة عن المناصب كل المولدين Créoles يعني بهم الرجال الذين ولدوا في المستعمرات وكانت القوانين

التجارية تحظر عليهم ابتياع البضائع من غير التجار الاسبانيول فلما دوخت الجنود الفرنساوية اسبانيا سنة ١٨٠٨ اعتصب المولدون مع الاسبانيين لفرديناند السابع وابوا ان يعترفوا بجوزيف بونابرت الفرنساوي ملكاً عليهم . على انهم اغتنموا تلك الحوادث فرصة فطلبوا الاصلاح . ونشر سكان كاراكاس من فنزويلا سنة ١٨٠٨ مطالبهم باذاعات يلتمسون بها مساواة المولدين بالاسبانيين في الحقوق وان يمنحوا حرية الزراعة والاصطناع والتوريد والتصدير كالاسبانيين وان تعطى لهم نصف الوظائف في المستعمرات وان يكون لهم في كل عاصمة يقيم بها وكيل الملك مجلس نواب لمراقبة الحكومة

فرفض حكام المستعمرات من الاسبانيين اجابة مطالبهم فثار اهل المستعمرات وانشأوا حكومات جمهورية على طرز الولايات المتحدة

واستعرت الحرب واستمرت طويلاً وكان الثائرون غير مدربين وليس لديهم سلاح يحسن استعماله فتغلبوا على امرهم عقيب رجوع الملك لفرديناند وعنوا لطاعته سنة ١٨١٦ الا ان ثورة اسبانيا (سنة ١٨٢٠ الى سنة ١٨٢٣) اعادت للثائرين شجاعتهم وآل الامر بهم ان أخذت الواحدة بعد الاخرى من المستعمرات تضطر ملك اسبانيا للاعتراف باستقلالها (ولم يبق لاسبانيا الا كوبا والفيليبين)

ولما استقلت تلك المستعمرات اخذت تسعى اولاً للتألب حلفةً كما فعلت من قبل المستعمرات الانكليزية الا ان معظم السكان كانوا من الهنود او الخلاسيين الذين لا خبرة لهم بالاحكام وزاد تباغضهم في الطنبور نغمة

وكان للاسبانيول في اميركا ايام تسودهم اربعة عمال يلقبون وكلاء الملك احدهم في المكسيك والآخر في ليما حاضرة بيرو وثالثهم في سانتافه حاضرة كولومبيا ورابعهم في بونس ايرس حاضرة الجمهورية الفضية وكان لهم ايضاً ثلاثة عمال عموميون يقيمون في كواتمالا من اميركا الوسطى وفي كراكاس من فنزويلا وفي فلباريزو من شيلي

أما الولايات التي تشكلت بعد العصيان فانها كانت تشابه الايالات الاسبانية الا قليلاً الا ان باراكاي التي كان يسكنها الهنود وحدهم وقد سبق فنظمها الجزويت جعلت يومئذ ولاية مستقلة اما فانزويلا فقد اتحدت بعمالة سانتافه وصارتا معاً حكومة جمهورية باسم كولومبيا تحت رئاسة بوليفار الذي كان يحكم ايضاً على بيرو وعلى ولاية اخرى انشأها بنفسه يقال لها بوليفيا (١)

(١) وحاول بوليفار ان يجمع بالتحالف كل الولايات الاميركية فاستدعى التئام مؤتمر

الا ان تلك الولايات تجزأت وصارت اجزاؤها تنفصل بعضها عن بعض لان اهل الاطراف لم يكونوا يرتضون بالخضوع لسكان الحواضر فانفصلت اوروكاي عن بونس ايرس فتألفت منها جمهورية اوروكاي الشرقية (١٨٢٨) وثارت بيرو وبوليفيا على بوليفار وصارتا جمهوريتين منفصلتين وتجزأت الولايات الكولومبية المتحدة الى ثلاثة اجزاء هي غرناطة الجديدة وفنزويلا والايكواتور وعصت اميركا الوسطى في بادىء الامر على المكسيك (سنة ١٨٢٣) فتألف من العصاة جمهورية اسمها ولايات اميركا الوسطى المتحدة ومن ثم انفصلت سنة ١٨٤٦ الولايات الخمس اللواتي اقترن هذه المحالفة عن بعضهن بعد قتال طويل . واليوم بلغ عدد الجمهوريات الاسبانيه الاميركية خمس عشرة جمهورية

على ان هذه الحكومات الجديدة قضت ادواراً طوالاً في الثورات والحروب الاهلية قبل ان تأتى لها تنظيم شؤونها وكانت تربة هذه البلاد قد بارت لان الاسبانيول لم يأتوها الا للاثراء فيها أو ليعيش فيها عقابؤهم عيشاً رغيداً من غير ان يشتغلوا فيها وهكذا لم يكن في البلاد الا حواضر الولايات أو مساكن كبار المزارعين منفصلة بينها بالقفار والارض الموات الفسيحة الارجاء وليس ثمت اثر للصناعة وأما الزراعة فلم تكن شيئاً مذكوراً أما شعبها فمزيج والسواد الاعظم من الهنود والزنوج والخلاسيين وهم في حالة من الخشونة والمسكنة والجهل التام حتى ان البيض لم يكونوا في حالة مرضية من التمدن على انهم صاروا الى البربرة بعد حربهم الدامية ضد الاسبانيول

وهم يقسمون غالباً الى فريقين احدهما حزب المحافظين وفيهم الكهنة واصحاب الاملاك الواسعة ومن مبادئهم ان يُعهد بالوظائف لابناء الاسر النبيلة وان يكون الانتخاب مقيداً والديانة الكاثوليكية بمقام مذهب الدولة تاركين للكهنة املاكهم ومحاكمهم وامتيازاتهم وان يمنع دخول أي مذهب كان غير الكاثوليكية وتبقى المراقبة على الجرائد ويُبعد الغرباء . أما الحزب الثاني فمنهم الاحرار وطلاب التقدم وهم على الاكثر من التجار والخلاسيين ومن مطالبهم الغاء الاسترقاق والانتخاب العام وحرية المذهب وضبط املاك الكهنة واجتذاب الغرباء للمهاجرة الى بلادهم (١)

عام في باناما الا انه لم يحضر الى المؤتمر الا معتمدو البلاد التي يحكمها ومعتمدو المكسيك

(١) و يطلق على هذه الاحزاب اسماء مختلفة بحسب البلدان ففي المكسيك يسمون المحافظين اسكوس Escoseses و يسمونهم في شلي بليكون Pelucones و يُعرف الاحرار في المكسيك باسم يوركينوز Yorkinos

وثمَّ أيضاً حزبان آخران هما المركزيون Centralistes والاتحاديون Fédéralistes فالمركزيون يريدون تحدي الممالك الاوروبية في جعل حكومة البلاد واحدة تقوم في العاصمة وهي ترسل الولاة ليتولوا الحكم في الولايات ويريد المتحدون اتباع منهاج الولايات المتحدة بحيث ان الولايات تنظم شؤونها شأن الحكومات القائمة بذاتها على انها ترتبط بحكومة واحدة متحدة

وعلى الغالب يكون المحافظون من حزب المركزيين والاحرار من حزب الاتحاديين (الا في اميركا الوسطى)

على ان تنازع الاحزاب كان يتخذ وسيلة لتنازع الافراد أو للمدائن المتناظرة على ان السواد الاعظم من السكان سواء كانوا من الهنود أو الزنوج أو الخلاسيين لم يكونوا يفقهون معنى المسائل السياسية وانما يتعصبون لغير واحد من زعماء الاحزاب . وحيث ان الحرب حالت دون عمل كثيرين من رؤساء العصابات الطامعين الذين اعتادوا ان يحشدوا لانفسهم جيشاً من الانصار الذين يرغمون بالقوة على الاعتصاب لهم فان هؤلاء لم تكن تعوزهم القوة الفعلية ولا شيء آخر من لوازم الحرب الاهلية كما كانت تعوزهم المادة لفهم المسائل السياسية فكانوا ينهضون لحرب الاهلية ثم اذا دعت الحال ينصرفون لحروب بين الولايات المجاورة اذا اقتضى الامر القتال في حسم الخلاف على الحدود

وهكذا ظلت الحروب عادة للجمهوريات الاسبانية مدة تقرب من نصف قرن الا انه من الظلم ان نقول كما قيل في فرنسا ان هذه الممالك لم تكن قادرة على حكم ذاتها بذاتها اذ انها تعلمت في القرن التاسع عشر العمل بالحرية السياسية التي تعلمتها الدول الاوربية في القرون الخالية [1] على ان تعلمهن لم يكن اطول عهداً ولا سفك فيه دم يزيد كما كان الحال في انكلترا وفرنسا بل كان شأنهما اخف من شؤون تينك المملكتين وقعاً

ومنذ سنة ١٨٧٠ امست الحروب الاهلية نادرة جداً وانقطعت الحروب بين الحكومة الواحدة والاخرى أو كادت [2] وكان الفوز في كل مكان لحزب التقدم على المحافظين ولحزب الاتحاد على التقدم وانتظمت شؤون جميع الحكومات على نسق ولايات متحدة ذات

(١) وانه لظاهر ان الممالك الاقل ارتقاء من غيرها (باراكاي واكواتور و بوليفيا) هن اللواتي كن اقل من غيرهن انغماساً في الاضطرابات والفتن الاهلية

(٢) لانه لم يحدث فيها الا حرب بين شيلي وبيرو وحرب اخرى قصيرة في اميركا الوسطى

ندوة تؤلف من مجلسين ورئيس منتخب لبضع سنين كما هو الحال في اميركا الشمالية وقررت جميع هذه الحكومات تحرير العبيد وجعل الاقتراع عمومياً واطلقت حرية الاديان واصبحت الحكومة بمعزل عن تحكم رجال الدين فيها وفتحت البلاد لدخول الغرباء من الاوربيين بل دعتهم للمجيء اليها يقيمون على حراثة ارضها واستخراج معادنها

فاصبحت المهاجرة اليها كثيرة ولا سيما منذ عشرين سنة واتجه معظم الجالية صوب الجمهورية الفضية لانها اقل حرارة من غيرها واطيب مناخاً للاوروبيين واصبح ينزل منهم في بونس ايرس في كل سنة ما ينيف على مئة الف مهاجر ومعظمهم من البلاد اللاتينية كفرانسا وايطاليا (سيما بلاد الباسك) واسبانيا وشرعوا يقيمون في السهول الفسيحة المكسية بالمروج حيث يعتنون بتربية السائمة من البقر والغنم والارض هنالك مؤلفة من طبقة ثخينة من بقايا النباتات بحيث لا يحتاج حراثها لاستعمال السماد على انها تدر من ريع الغلال مقداراً كبيراً ولهذا لم يكلف المستعمرون انفسهم عناء عظيماً في زرعها وتدبيرها ولا هم يضطرون الى التدخين فيها ليزيدوها خصباً ومتى حان زمن الحصاد يطوف البلاد رجال مخصوصون ومعهم آلات لقطع القمح ودرسه

على ان الجمهوريات الاخرى الاسبانية الواقعة في منطقة اشد حرارة من تلك المواقع فانها لم تجتذب من الجالية كثيرين الا ان اموال الاوروبيين تدفقت عليها فاستخدموها لمد السكك الحديدية وتنجيم المعادن وغرس الاشجار وانشاء المزارع

واخذت الحاصلات تزداد بنسبة زيادة عدد السكان على ان كل حاصلات هذه البلاد زراعية ومعدنية وحيوانية كالقمح والجلود واللحم وكل حاصلات المنطقة الحارة (كالقهوة والكاكاو والتبغ والقطن والكينا) وبعض المعادن والسماد وكانت هذه الحاصلات تجمع في المدن حيث تنقل منها بحراً الى اوروبا فترسل اليها اوروبا بدلاً منها كل انواع المنسوجات لان صنائع تلك الاقطار الاميركية ليست بكافية لمطلب المستبضعين

وهذا الغنى افضى الى الابتداء بتنظيم مالية الحكومات على ان الجمهوريات الاسبانية (خلا شيلي) كانت حتى آخر العهد تبرز ميزان ماليتها دالاً على نقص جسيم ولا تستطيع ان تؤدي فوائض ديونها ولذلك فقدت ثقة اوروبا المالية فيها اما اليوم فقد طفق الحساب يتوازن شيئاً فشيئاً ورجعت الثقة الاوروبية بمالية تلك الحكومات بحيث يمكن للحكومة التي تحتاج الى المال ان تجد من يعقد لها قرضاً في اوروبا وهكذا بدأت البلاد الاسبانية في اميركا الجنوبية ان تسير في سبل العمل والنجاح المادي اللذين سبقها فيهما اهل الولايات

الانكليزية في اميركا الشمالية

البرازيل : — ان البرازيل هي البلاد الوحيدة في اميركا الجنوبية التي لاعلاقة للاسبانيين فيها وقد صارت دولة مستقلة في الزمن الذي استقلت به المستعمرات الاسبانية ولكنها لم تقاس ما قاسته تلك من العناء والتعب ولا خفاء انه منذ اغارة الفرنساويين على البورتغال سنة ١٨ ٨ فرّت الاسرة المالكة الى البرازيل (لانها أم المستعمرات البورتغالية) وظلت فيها حتى بعد جلاء الفرنساويين عن وطنهم فاستاء البورتغاليون من ان يسودهم ملك مقامه في اميركا وانتهى بهم الحال الى شق عصا الطاعة (سنة ١٨٢٠) فاستسلم الملك للامر وعاد راجعاً الى ليسبون تاركاً الحكم في البرازيل لابنه بدرو بصفة نائب ملك Régent فاراد الكورتس (المجلس الاعلى) اجبار بدرو على الرجوع الى الوطن فاستدعى الامير جمعية وطنية مشترعة فقرّرت اعلان استقلال البرازيل ونادوا ببدرو عليهم امبراطوراً (١٨٢٢) وطردت العمارة الاسبانية من مياه البلاد

على ان البرازيل التي انشأت ملكية انما تنظمت على طرز الممالك الدستورية كفرنسا وانكلترا وان يكون لها مجلس نواب ينتخب اعضاؤه بالاقتراع المقيد ومجلس اعيان يؤلف من كبار الملاكين ووزارة يختارها الامبراطور

وفي البرازيل من الصعاب مثل ما في الجمهوريات الاسبانية ذلك لان بلادها واسعة جداً ومعظم سكانها من الهنود والزنوج والخلاسيين وجماعهم في حالة الجهل ولا خبرة لهم في السياسة

ولم تسلم البرازيل من شر الحروب الاهلية فقد قمعت الحكومة عصيان الحزب الجمهوري في بارنامبوكو وبارا وتمرد الولايات الجنوبية وكانت هذه الحروب دامية وطويلة الامد كحروب الجمهورية الفضية على ان الامور تغيرت والاخلاق تلطفت والحروب انقطعت منذ سنة ١٨٦٣

لكن النزاع استمر ضارباً اطنابه بين حزبي الاحرار والمحافظين وفي سنة ١٨٨٠ اعيد النظر في الدستور وتقلد الاحرار المعتدلون السلطة فالغوا امتيازات الكهنة وفي سنة ١٨٨٩ قلب الجمهوريون الحكومة الامبراطورية وابدلوا منها بالحكم الجمهوري

وبلاد البرازيل واسعة جداً فانها تملك كل سهول الامازون وكل الشاطىء من كوبانا حتى اوراكاي على ان القسم الاكبر منها لا يستطيع الاوروبيون سكناه لانه صحار ملأى بالاحراج والمستنقعات يجول فيها اقوام من القبائل المتوحشة . اما القسم المسكون منها فهو

الشرقي على طول شاطىء الاتلانتيك وشمالي هذا القسم واقع في المنطقة الحارة وفيه المزارع العظيمة للقهوة والتبغ واكثر المشتغلين بحراثته من الزنوج اما القسم الجنوبي فانه اقل حرارة من ذلك ويشبه مناخ الجمهورية الفضية وجديرٌ باستعمار الاوروبيين ولذلك جعلت الجالية تأتيه افواجاً

الغاء الاسترقاق في اميركا : — ان كل الشعوب الاوروبية التي كان لها مستعمرات في اميركا بعثت اليها بالعبيد من الزنوج الذين ابتاعتهم من شواطىء افريقيا ليقوموا على زراعة القهوة وقصب السكر فاصبح استرقاق السود شرعة عامة تدين بها كل المستعمرات الواقعة في المنطقة الحارة من اميركا اعتقاداً ان ليس الا الزنوج يقدرون على الاشتغال بالغرس والحرث وانهم لا يعملون في ذلك الا اذا كانوا مستعبدين

والفرنساويون في زمن الثورة كانوا اول من اعترض على الاسترقاق لذلك اعلن مجلس التشريع حرية جميع زنوج المستعمرات الفرنساوية من غير ان يعوض اسيادهم بشيء فلما ملك الزنوج حريتهم ثاروا باسيادهم وقتلوا في هايتي كل الملاكين البيض فاعاد نابليون الاسترقاق لانه كان ممن يزعمون ان المستعمرات لا تستطيع البقاء من غير الارقاء . على ان جميع الدول الاخرى جرت على ابقاء الاسترقاق الا ان البعض منها حملها حب الانسانية على ابطال النخاسة اما مؤتمر فينا فانه قرر سنة ١٨١٥ وجوب منعها باتفاق الدول المتمدنة . وارسلت انكلترا وفرنسا بعض بوارجهما الى شواطىء افريقيا لتقبض على سفن النخاسين وامرتا بحسبان بحارة تلك السفن قرصاناً يعاقبون بالشنق

ومع ذلك ظل الزنوج في اميركا يرسفون في عبوديتهم والرق فيهم يشمل الرجل وعياله واستمر النخاسون يبيعونهم ويشترونهم وشرائع البلاد تجبر الناس على رد الآبقين الى اسيادهم اما في اوروبا فان الناس كانوا في اشد القلق يريدون الغاء الرق اما لما اشربت نفوسهم من المبادىء الديموقراطية واما تأثراً لفضائل الدين . ودام هذا حالهم مدى ثلاثين سنة ومن ثم قررت السويد (اسوج) سنة ١٨٤٧ الغاء الاسترقاق فلحقت بها فرنسا سنة ١٨٤٨ وجرت سائر الممالك الاخرى على اثارها

على ان ابطال الاسترقاق افضى في الولايات المتحدة الى تعارض المصالح فالحرب الاهلية وذلك لان المستعمرات لما تألبت سنة ١٧٨٣ فصارت امة واحدة طلبت الولايات الجنوبية منها لاعتيادها على الزراعة ان يكون الدستور ضامناً لها سننها ومناهجها الخاصة (ذلك ما يسمون به الرق) على انهم بعد تأييد حقوق الانسان الطبيعية وتخويله ملء الحرية سنة

١٧٧٦ اصاروا لا يجرأون على تسمية الزنوج بالارقاء بل كانوا يعبرون عن معنى الرقيق بعبارة يقولون فيها « الشخص المقيد بعمل او خدمة » ولم يريدوا ان يبطلوا النخاسة بالزنوج ولذلك ظلوا حتى سنة ١٨٠٨ يبيحون جلبهم من مواطنهم الى بلادهم

وكان الساسة من الاميركان يحسبون وقتئذٍ ان الاسترقاق سيبطل من ذاته بالقريب العاجل على اثر انقراض عيال الزنوج شيئاً فشيئاً الا انه في سنة ١٧٩٣ اخترع هويتني Whitney آلة لتنقية القطن بحيث يتمكن بها الصانع الماهر ان يحلج ٣٥٠ ليبرة في اليوم واصبح استغلال القطن رابحاً ربحاً وافراً اما الولايات الواقعة في الجنوب (جورجيا وكارولين) فانها تزرع من القطن ارضاً فسيحة جداً فتحتاج لعدد كبير من الزنوج واما الولايات المجاورة (كاريلاند وفارجيني) فحرارة اقليمهما لا تكفي لنمو القطن وانما كان سكانهما يقومون على تربية السود فيبيعونهم من زراع القطن. ولهذا كان عدد العبيد ٧٠٠,٠٠٠ فبلغ في سنة ١٨٢٠ مليوناً ونصف. والنخاسة وائن الغيت رسمياً فقد ظلت جارية سرياً حتى بمساعدة بعض الموظفين في الولايات الجنوبية واذا ضبطت سفينة بمن تحمل كانوا يبيعون الزنوج الذين فيها

وكان العبيد في الولايات الشمالية يضمحلون شيئاً فشيئاً ومع ذلك ظل فيها منهم بعضٌ حتى سنة ١٨٤٠ فاصبحت تلك الولايات ارض الحرية وما عتم ان ابطل الاسترقاق فيها. الا ان مستعمري الولايات القديمة الذين نزحوا الى جنوبي اوهايو واقاموا يستعمرون الارضين القفراء الغربية حملوا معهم اليها عاداتهم ومناهجهم فاصبحت الاقطار التي نزلتها جالية الولايات الجنوبية يباح فيها الاستعباد ولم يكن من ينازع مصريها في حق استجلاب الزنوج اليها لانهم من جالية الولايات الاجنبية وقد ارتضت تلك بانفرادهم عنها وصيرورتهم ولاية تنضم الى الاتحاد. واما في لويزيانا فقد كان الاسترقاق جارياً منذ ايام استيلاء الفرنساويين على انهُ لما تجاوز الناس نهر المسيسبي اصبحت مسألة الرق معضلة تطلب حلاً موافقاً. وكانت ولاية ميسوري وفيها العدد العديد من الاغنياء المالكين عبيداً قد طلبت الانضمام الى الاتحاد فاراد مجلس النواب ان يشترط عليها منع الاسترقاق فرفض مجلس الاعيان ذلك وانتهى الامر بالمواطأة المنسوبة الى ميسوري واصبحت تلك البلاد تعدُّ ولاية من الولايات المتحدة الا انهُ تقرر منع الاستعباد من الولايات الحديثة في ما وراء الدرجة ٣٠َ ٣٦ْ من الطول شمالاً

فكانهم سلموا بوقوع الاستعباد الى جنوبي تلك الدرجة (حدث ذلك سنة ١٨٢٠)

على ان الجنوبيين استمروا ينشؤون الولايات الجديدة ويدخلون اليها الرق فاصبحت الولايات المتحدة عبارة عن اقليمين جغرافيين احدهما الشمالي موطن الاحرار وثانيهما الجنوبي بلاد الرق

على ان سكان الولايات الجنوبية كانوا اقل عدداً من اخوانهم الشماليين ومع ذلك فقد كانوا يحرصون على حفظ التساوي في عدد الولايات بين الشمال والجنوب لانه كان لكل ولاية حق ارسال نائبين عنها لمجلس الشيوخ وبذلك لا تعرض الولايات الجنوبية لاحراز الاقلية في المجلس وفوق هذا فان نواب الجنوب كانوا يتفقون على الرق بخلاف نواب الشمال فانهم كانوا منقسمين على انفسهم مع انه يعضدهم كل اصحاب الرأي الديموقراطي من اهل الشمال الذين يسعفونهم في الشؤون الاخرى وكلهم يعملون معاً على اماتة مسألة الرق

الا انهُ في اواخر سنة ١٨٣٣ نشأ بعض الافراد فتبرموا من ابقاء الرق وجعلوا يسعون في الغائه عملاً بالدين المسيحي والانسانية وانشأوا جمعية لمقاومة الاستعباد ووضعوا الرسائل ونشروها وخطبوا الخطب الرنانة في المجتمعات وسعوا لتاسيس المدارس لتعليم الزنوج وكان اكثرهم من بين سكان المدائن ولا سيما اتباع مذهب الكويكرس Quakers فتعقبتهم حكومات الولايات في اول الامر ترميهم بعداء شرائعها الا انهم نموا وزادوا عدداً لكثرة من قصد اميركا من المهاجرين الاوروبيين الحديثين الذين لم يكونوا قد اعتادوا على الاسترقاق

اما ولاية كاليفورنيا التي مصرها اولاً المعدنون الاوروبيون في سنة ١٨٤٨ و١٨٤٩ فانها نبذت الاسترقاق ولما ضمت الى الاتحاد صارت الاقلية في المجالس للولايات الجنوبية ذات الرق الا ان رغاب الاسترقاق حصلوا سنة ١٨٥٠ على قانون يوجب على كل ساكن في الولايات المتحدة ان يرد العبيد الآبقين الى اسيادهم

فاغتنم اشياع الغاء الاسترقاق فرصة امتعاض الناس من الرق واشياعه والعاملين فيه واهتمام النفوس بالطعن في الاسترقاق لانه مناف للانسانية وللدين المسيحي ويومئذ ظهر كتاب كوخ العم توم وهو رواية وصفت بها مدام بيشر ستو تعاسة حال الزنوج وما ينجم عن الاسترقاق من الضرر الادبي للاسياد والعبيد على السواء فنجح هذا الكتاب نجاحاً باهراً

ونشأ سنة ١٨٥٤ حزب جديد في الولايات الشمالية اسمهُ الحزب الجمهوري طعن طعناً شديداً بمبدأ الرق وكان الحزب الديموقراطي منقسماً على نفسه لذلك نجح الحزب

الجمهوري نجاحاً عظيماً ادى الى انتخاب مرشحه لنكولن رئيساً للجمهورية

فلم ترض الولايات الجنوبية ان تفقد السلطة التي قامت بها منذ تاسيس الولايات المتحدة: فاعلنت انسحابها من الاتحاد وانشات لذاتها حلفة فاشتهرت الحرب ولم يكن السبب اولاً الا الاختلاف على قضية دستورية وذلك ان الحكومة كانت تقصد ارغام الولايات الجنوبية على الرجوع الى الاتحاد مجتنبة حتى الالماع الى مسالة الغاء الاسترقاق . على ان الحرب اضطرتها الى بت المسالة فانها اعتقت العبيد الذين اخذهم الجيش الشمالي اسرى حرب ومن ثم اعلن رئيس الجمهورية ان جميع الارقاء يتحررون من اول يناير من سنة ١٨٦٣ واخيراً الغت الندوة العليا الاسترقاق جملة بقرارها سنة ١٨٦٥ ثم قررت ان يعطى للزنوج ذات الحقوق السياسية الممنوحة للبيض

فلم يبق الاسترقاق يومئذ الا في مملكة واحدة مسيحية الا وهي البرازيل على ان الامبراطور بدأ بتحرير اطفال الارقاء حال ولادتهم ومن ثم حرر الزنوج المستعبدين

طريقة مونرو Monroe :— لما استقلت المستعمرات الاسبانية الاوروبية كانت الولايات المتحدة اسبق الدول للاعتراف باستقلالها . أما الممالك الكبرى التي انشات التحالف المقدس فانها عرضت في مؤتمر سنة ١٨٢٣ ان تتداخل في اميركا لكبح جماح الجمهوريات الاسبانية المتمردة على سيدها الشرعي ملك اسبانيا

وكان سياسيو الاتحاد قد وضعوا منذ سنة ١٧٨٠ امبدأ هو انه لا يحق للاوروبيين التداخل بالشؤون الاميركية

وكان رئيس الولايات المتحدة باتفاقه مع الحكومة الانكليزية قد اغتنم فرصة مفاوضات سياسية مع الروسية سنة ١٨٢٣ فاعلن ما ياتي « ان قارتي اميركا لحصولها على الاستقلال واحتفاظها به لم يبق من سبيل لاية دولة اوروبية كانت ان تحسبها بلاد استعمار » ثم قال « وانا لم يسبق لنا قط المشاركة في حروب الدول الاوروبية لان ذلك لا ينطبق على سياستنا ومع ذلك نرى تلك الدول تحاول جهدها ان تمتد الى غير قسم من هذه الاقطار لتكون خطراً على السلم والراحة بيننا » فهذا ما يسمونه خطة مونرو ومنه اشتق قول اخر وهو « اميركا للاميركيين »

على ان الاوروبيين اصبحوا لا يملكون في اميركا الا كوبنيا وجزائر الانتيل واما ما بقي من القارتين الاميركيتين فان نسل الجالية الاوروبية القديمة اصبحوا اليوم فيها شعوباً مستقلة

الفصل الخامس عشر

الشعوب الاوروبية خارج اوروبا

فرنسا في افريقيا :— فقدت فرنسا في القرن الثامن عشر كل مستعمراتها تقريباً اذ لم يبق لها في افريقيا الا جزيرة الاتحاد وسانت لويس وكوريه . وفي اميركا بضع جزائر صغرى في الانتيل وجزيرتا القديس بطرس وميكالون وكوينيا . وفي اسيا خمسة محلات تجارية في الهند كانت انكلترا قد تركتها لها — على ان نابليون كان يرغب في انشاء سلطنة استعمارية وانما حال دون ذلك مناوأته لانكلترا . اما حكومة الرجعة فلم تكن تعبأ بالاستعمار كثيراً الا ان كل الحكومات التي تقلبت على فرنسا منذ سنة ١٨٣٠ جعلت تسعى وراء انشاء سلطنة استعمارية لذلك احتلت بعوث فرنسا في الاوقيانوس الجزيرة المسماة خاليدونيا الجديدة وجزائر تابتي وبعض الارخبيل المجاور وامتلكت في اسيا قسماً كبيراً من الهند الصينية (١)

واتجهت مساعي فرنسا لاستعمار افريقيا على الاكثر ولم يكن في حوزتها منها في سنة ١٨١٥ الا بضعة مواضع متفرقة مثل سانت لويس وجزيرة كوريه وبعض المراكز التجارية في كابون على الساحل الغربي وجزيرة الرينيون في الساحل الشرقي ولكنها ما لبثت ان امتلكت ثلاثة اقطار فسيحة : القطر الاول الجزائر وتونس على الساحل الشمالي . القطر الثاني السودان والسنيغال . والقطر الثالث الكونغو والكوبون في الساحل الغربي . القطر الرابع جزيرة مداغسكر الكبرى

وبدأ الاحتلال اولاً في الساحل الشمالي من افريقيا أي في الجزائر التي سكنها على التعاقب ثلاثة شعوب اولهم القبيل نسل سكان افريقيا القدماء ايام الحكم الروماني . ومع انهم اسلموا فقد حافظوا على عاداتهم ولغاتهم القديمة (٢) وهم فلاحون يقومون على حراثة ارضهم ولكنهم مع ذلك قوم كماة يدججون بالسلاح دائماً ويسكنون القرى المحصنة المشيدة في

(١) ولم يبق بامكان فرنسا ان تنشيء مستعمرة في اميركا لان المستعمرات القديمة الانكليزية والاسبانية والبورتغالية فزن باستقلالهن وجهر القوم ان اميركا صارت لاتحسب ارض استعمار للاوروبيين

(٢) يسمون من تكلم تلك اللغة بالبربر

اعالي الجبال وهم كثيرو العدد في جبال الاطلس

وثانيهم العرب الذين جاؤا من مصر في القرن الحادي عشر فلبثوا على حالهم من البداوة والقيام على رعاية الانعام وسكنى الخيام وانتجاع المياه والمراعي شأن امثالهم الرحَّل . وكانوا يقسمون الى قبائل تخضع لمشايخها وهم يدججون بالسلاح ايضاً لان الحرب قائمة لا تسكن بين قبائلهم اذ يشنون الغارات بعضهم على بعض ابتغاء اغتنام سائمة المغلوب . أما مقامهم ففي السهول والانجاد أمام الاطلس ووراءه

وثالثهم الاتراك الذين جاؤها في القرن السادس عشر وليسوا امة وانما هم من الجند والقرصان الذين يقيمون في المدائن لا سيما ما كان منها على شواطىء البحر ويلقب زعماؤهم بالقاب تركية (بيك او داي) ويحكمون جميع البلاد باسم السلطان في الاستانة ويحكمونها في الحقيقة كاسياد مستقلين الا انهم لم يتمكنوا من اخضاع القبيل ولا العرب

وثمت من السكان غير ابناء هذه الامم قوم من التجار المسالمين يسكنون المدن معظمهم من اليهود والخلاسيين من كل جنس وامة ويسمونهم مورسك (المغاربة) فلا اليهود ولا المورسك ابدوا شيئاً من المقاومة

على ان فرنسا اخضعت تلك الشعوب الثلاثة تدريجاً اذ بدأت اولاً بالاتراك من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٣٧ وآخر العهد بهم كان الاستيلاء على قسطنطينة . ثم بالعرب من سنة ١٨٣٧ الى سنة ١٨٤٧ وكان زعيمهم الامير عبد القادر الجزائري المشهور الذي كانت الحكومة الفرنساوية قد عززته باعترافها له بزعامة العرب . وبالقبيل من سنة ١٨٤٤ الى سنة ١٨٧١ انتهت الحرب معهم سنة ١٨٥٢ الا انهم ظلوا يتمردون ويفتنون حيناً بعد آخر

فهذه الحروب الدامية التي اضرمتها فرنسا مدى عشرين سنة ملكتها من الارضين ما مساحته ٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر مربع ما خلا نحو مئة الف كيلومتر مربع في الصحراء

وجاءت جالية الاوربيين الى جانب هذه الشعوب القديمة من القبيل والعرب وبلغت عدة المستعمرين سنة ١٨٨١ نحو ٤٢٠,٠٠٠ من النفوس نصفهم تقريباً من الفرنساويين واكثرهم من الولايات الوسطى وبعضهم من الاجانب المتجنسين [1] والباقون من الاجانب الايطاليين والاسبانيين والمالطيين . ويضاف الى ذلك العدد خمسون الفاً من يهود الجزائر

(١) وقد حاولوا بعد سنة ١٨٧٠ ان يقيموا في الجزائر جالية الزاسية فلم يفلحوا

الذين عرفوا كفرنساويين منذ سنة ١٨٧٠ اما عدد الوطنيين فنحو ٣,٢٦٠,٠٠٠ نفس

ثم قسمت البلاد الى قسمين قسم لسكنى الجالية تجري فيه الاحكام المدنية ويقسم الى ثلاث ولايات كلها تنظمت على الطرز الفرنساوي وعمالها كالعمال في فرنسا والاهلون ينتخبون النواب بمجلسي النواب والشيوخ ومعظم الوطنيين يسكنون ايضاً في ذلك القسم ولكنهم يحافظون على دينهم وشرائعهم ورؤساء قبائلهم ولا يحسبون من الوطنيين الفرنساويين

اما البلاد التي يسكنها الوطنيون لوحدهم (ومعظمها بلاد الصحراء) فتعرف بالبلاد المحكومة لانها تحت الحكم العسكري وفيها يكون القادة الفرنساويون رؤساء الجيش واصحاب الادارة فيتولون القضاء ويؤيدون النظام بين الوطنيين

فملكت الجالية القسم الاعظم من الارض الخصيبة بعضها شراء من الوطنيين والبعض الاخر كان مما ضبطته الحكومة وطفقوا يحرثونها اما رجال القبيل الذين كانوا من المزارعين فزادت محصولات ارضهم ـ وارض الجزائر ارض حبوب . فقد استغلوا منها سنة ١٨٨٧ ما يقرب من خمسة عشر مليون قنطار من القمح والشعير ويستغل منها ايضاً بعض حاصلات البلاد الحارة فقد اعطت سنة ١٨٨٧ نحو ١٦٠,٠٠٠ هيكتوليتر من زيت الزيتون وفيها الليمون والنخل وقصب السكر

ومنذ بضع سنين وجد في تلك البلاد ثلاثة مصادر جديدة للدخل ذلك انهم شرعوا يزرعون على الساحل بعض البقول ويرسلونها الى فرنسا قبل اوانها فيها لانها تنضج في الجزائر قبل زمن نضجها في فرنسا . ويحصدون في انجاد الداخلية نباتاً بريًّا اسمه الفا (لعله الحلفاء) يستخرجون منه الورق فاستغلوا منه سنة ١٨٨٧ مليونين ومئتي الف قنطار وفي المواضع الواقعة وسطاً بين الداخلية والساحل يغرسون الكرم وتقدرت مساحة المغروس منه سنة ١٨٨٦ بنحو ٧٠,٠٠٠ هكتار وزادت سنة ١٨٨٨ فصارت ٨٨,٠٠٠ هكتار استغلوا منها سنة ١٨٨٦ نحو ١,٥٦٩,٠٠٠ هيكتوليتر من الخمر وفي سنة ١٨٨٨ نحو ٢,٧٢٨,٠٠٠ هيكتوليتر

وبلغت تجارة الجزائر سنة ١٨٨٧ مبلغاً كبيراً فتقدرت الواردات بمئتين واحد عشر مليوناً من الفرنكات والصادرات بنحو مئة وستة وثمانين مليوناً

وقد حسبوا ان الجزائر كلفت فرنسا من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٨٨ خمسة مليارات من الفرنكات ولم تستعض من ذلك حتى الآن الا مليارًا ومئتين وخمسين مليونًا الا ان الحاسبين اغضوا عن اعتبار الثلاثة مليارات واربعمائة مليون نفقات للاعمال الحربية وعن

ان دخل البلاد سيزداد من الآن فصاعداً بسرعة عن مصرفها وان قيم الاملاك تخمنت بما يربو على ثلثة مليارات

وبقي يكتنف الجزائر من جهتين دولتان اسلاميتان مستقلتان هما في الغرب مراكش وفي الشرق تونس على ان فرنسا لم تسع لاحتلال مراكش حتى ولا بعد انتصارها على سلطانها حليف الامير عبد القادر سنة ١٨٤٤ واما من جهة تونس فانها اكتفت بالزام باي تونس ان ينبذ القرصنة في البحر المتوسط

وقد حاول باي تونس ادخال النظام الاوروبي الى مملكته الا انه لم ينجح الا بعمل بعض الاعمال بواسطة المهندسين الفرنساويين و بعقد قروض في اوروبا ادت بمملكته الى الافلاس سنة ١٨٦٩ فظلت تونس في اضطراب لا يسمح لها بالانتفاع من مصادر ثروتها

وفي سنة ١٨٨١ اغتنمت فرنسا فرصة تجاوز بعض القبائل التونسية حدود الجزائر فارسلت كتيبة من جيشها فلم ينهض الباي لقتالها ذوداً عن بلاده بل ارتضى بجعل مملكته تحت حماية فرنسا فابقت له لقبه وقصره ودخله واخذت فرنسا على عهدتها اصلاح الادارة والقضاء والمالية ونالت الحق باقامة الحماة في اي مكان ارادت وتولت ادارة العلائق الخارجية وانشأت ادارة خصوصية من الفرنساويين فوفقت في بضع سنين الى تحسين حال المالية بتخفيض الضرائب والاقتصاد في النفقات

وبقي الوطنيون على عاداتهم وشرائعهم واملاكهم . الا ان استتباب الامن الناتج عن انتظام الادارة حمل الجالية الاوروبية على المجيء لاستيطان البلاد ليس للتجارة فقط وانما للتعدين والاستثمار وغير ذلك و بلغ عدد الاوروبيين في تونس اربعين الفاً منهم خمسة عشر الفاً من الفرنساويين

ومساحة تونس من ١٣٠,٠٠٠ الى ١٥٠,٠٠٠ كيلومتر مربع (تعادل ربع مساحة فرنسا) على ان ارضها اوفر خصباً من الجزائر ولا غرو فهي البلاد التي كانت في زمن الرومانيين تدرّ عليهم غلالها وترى سكانها اليوم قد انصرفوا لغرس الكرم

على ان تجاراتها التي كانت سنة ١٨٨٠ لاتصدر الا بقيمة اثنى عشر مليوناً ولا تستورد الا بقيمة احد عشر مليوناً قد ارتقت في سنة ١٨٨٨ فبلغت وارداتها قيمة واحد وثلاثين مليوناً وصادراتها مبلغ تسعة عشر مليوناً

وقد انفقت فرنسا في سبيل الاحتلال حوالي ثلاثمئة مليون من الفرنكات على ان مصارف الحماية آخذة بالانخفاض سنة فسنة ولكن فرنسا بسيادتها على الجزائر وتونس

اصبحت صاحبة الامر المطاع في افريقيا الشمالية

ولم تكن فرنسا تملك في الجهة الغربية حتى سنة ١٨٥٤ الا بعض المراكز في سانت لويس وجزيرة كوريه حيث كان يقيم بعض التجار الفرنساويين للاتجار مع الوطنيين تحت حماية شرذمة من الجند الفرنساوي وكانت بلاد السنيغال الشمالية موطن قوم من كماة المسلمين اسمهم التوكوليير وهم يتقاضون ضريبة على القوارب الماخرة في النهر . اما البلاد الجنوبية من السنيغال فكانت موطن قبيلة من الزنوج الوثنيين يحكمهم ملوك صغار من جنسهم

ومنذ سنة ١٨٥٤ كان عمال الحكومة الفرنساوية يبذلون جهدهم لحمل القومين المذكورين اي المسلمين والوثنيين على الاستسلام لحماية فرنسا

أما مساعيهم مع ملوك الزنوج الوثنيين فكانت سلمية يتحببون اليهم بالهدايا والهبات و يظهرون لهم آونة المظاهر العسكرية فافضى ذلك الى عقد العهود عهدة بعد اخرى فنالت فرنسا حق الاتجار واقامة المراكز العسكرية في جميع الانحاء ليس فقط على ضفاف السنيغال بل بلاد الانهر الجنوبية . أما جماعة المسلمين التوكوليير النازلين على الضفة الشمالية فاقتضى لمعاقدتهم استعمال القوة فتقدمت الكتائب الفرنساوية على طول النهر تشيد المعاقل الصغيرة في بعض المواقع على ضفته فيحتشد اليها المسالمون من الاهلين وتقيم فيها الحماة من الفرنساويين فشرع التوكوليير يغيرون على تلك المعاقل ولكنهم يرتدون عنها خاسرين حتى ضعفوا وخارت عزائمهم ولم يكن الجيش القائم بتلك الحروب الا شراذم حماة المعاقل و بضع مئات من العسكر ولكن لم يكن بينهم الا نفر قليل من الفرنساويين على ان معظمهم من الوطنيين المتجندين يدربهم و يقودهم ضباط فرنساويون . ولما بلغ الفرنساويون ينابيع السنيغال تتبعوا طرق القوافل فوصلوا الى اعالي النيجر ومنها بلغوا بلاد السودان

أما بلاد السودان فواسعة جداً تشغل كل اواسط افريقيا من اعالي النيجر حتى اعالي النيل والقسم الكبير منها قفر ربما كان قاحلاً الا انه رغماً عن تواصل الحروب والحروب المدمرة للقرى ومع ما يؤخذ من الاهلين عبيداً و يشتريه النخاسون لم يزل عددهم وفيراً يكفي لجعل سوق الاتجار معهم رائجاً ولذلك ترى الاوربيين يتوغلون في البلاد ليجدوا فيها منفذاً لبضائعهم (لاسيما المنسوجات والخردة) فيتقايضون عليها بحاصلات البلاد من العاج والتبر والصمغ والحبوب وقد اختار الفرنساويون طريقين للوصول الى السودان الواحدة من الجزائر فتخترق الصحراء الى تومبوكتو والثانية من السنيغال تسير الى محاذاة نهر النيجر . ولذلك عقدوا العزيمة على مد طريقين جديدين في وقت واحد احدهما يسمى عبر الصحراء

Transsaharien يخرج من الجزائر · والثاني سكة النيجر ويقصد بها ان تكون صلة بين السنيغال والنيجر · على ان مذبحة بعثة فلانر في الصحراء (سنة ١٨٨٢) حملت القوم على الاضراب عن الخط الاول فشرعوا يعملون في مد الخط من السنيغال فاتموا مسافة ٢٦٤ كيلومترًا من الخط الحديدي وجعلوا يستثرونه الا ان العمل كان كثير النفقات يزيد عما في حسبانهم

وفي كل البلاد التي ارتضت بمواثقة فرنسا على الاستسلام لحمايتها شيدت فرنسا فيها مراكز عسكرية عززتها بشرذمة من الحامية وقد بلغت هذه المراكز اليوم اقصى بلاد السنغال وفي سنة ١٨٨٣ احتلوا باماكو على النيجر وشرعوا يبنون المراكز على ضفاف النهر على انهُ يكاد لايوجد من الفرنساويين احدٌ في السنيغال لان اقليمها حار جدًا وانما سرعان ما اعتاد الوطنيون على ان يحسبوا انفسهم من رعايا فرنسا وازدادت تجارتهم بسرعة حتى بلغت الاربعين مليونًا من الفرنكات في السنة (١)

والى جنوبي خط الاستواء مركز تجاري فرنساوي ليس بذي اهمية الا انه قائم في مدخل جابون وانما جعلوا يخرجون منه في بعثات استكشاف سارت صعدًا على مجرى نهر اوكوه من سنة ١٨٧٣ الى سنة ١٨٣٨ فبلغت الى نهر الكونغو العظيم وقد امتلك سافورنان ده برازا باسم فرنسا ارضًا تبلغ مساحتها ٦٧٠,٠٠٠ كيلو متر مربع فتعينت تخومها في مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥ — ١٨٨٦ وهذا القطر اكبر مساحة من فرنسا الا انه لايسكنه الا الوطنيون مع ان هواءه اقل ضررًا من هواء السنيغال واقيمت فيه بعض المراكز التجارية منها واحد على ينابيع نهر اوكوه والآخر فى برازافيل على الضفة اليمنى من الكونغو ازاء مدينة ليوبولدفيل حاضرة دولة الكونغو الحرة التي خططها ستانلي لحساب ملك البلجيك على الضفة الاخرى من الكونغو

وحاولت فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر ان تحتل في الجهة الشرقية من افريقيا جزيرة مدغسكر الكبرى ثم تخلت عنها ولم يبقَ لها في ذلك الاقليم الا جزائر صغيرة والرينيون التي كانت غنية جدًا بمزروعات القهوة وقصب السكر ثم صارت الى الفقراء واشرفت على الخراب لما طرأ على تربتها من الجدب

---

(١) لم تكن المراكز التجارية الفرنساوية على سواحل كوينه ذات شأن مذكور فتخلت الحكومة عنها لسوء مناخ اقليمها ولما تضطر اليه من المصرف الباهظ في المحافظة عليها

ثم حاولت ان تبسط نفوذها على امة الهوفاس التي أسست في المدغسكر سلطنة عسكرية فعقدت معها معاهدات شتى تفضي الى صيرورة البلاد تحت حماية فرنسا الا ان المرسلين الانكليز الذين نصروا ملوك الهوفاس جعلوا يقاومون النفوذ الفرنساوي فشرعت الحكومة الفرنساوية بارغام الهوفاس على اجراء معاهدة سنة ١٨٨٥ التي سلموا بها الى فرنسا ميناء دياكو سوارس وبها منحت فرنسا حق اقامة معتمد لها في عاصمة مداغسكر ومن ثم اوصلت الى قلب الجزيرة بعثة عسكرية انفى ظفرها الى ضم مداغسكر الى فرنسا ١٨٩٥ وهكذا اصبحت فرنسا وامرها الغالب في اربعة اقطار افريقية

تقدم الدول الاوروبية ومناظراتها : — ان ثلاثًا من الدول الاوروبية تطمح الى اسيا ولكل منها سبيل الى غرضها منها تسعى فيه سعيًا متواصلاً حتى انفى بهنَّ جميعًا الى الوقوف ازاء بعضهن فجاءت الروسية من الشمال والغرب ومن سيبيريا التي احتلتها منذ اواخر القرن السادس عشر ومن جبال القوقاس التي افتتحتها بين سنة ١٧٩٩ وسنة ١٨٥٩ وجاءت انكلترا من الجنوب وبدأت فتوحاتها في بنغال سنة ١٧٥٧ وانتهت من افتتاح الهند سنة ١٨٥٧ وجاءت فرنسا آخر الفاتحين واقامت في الجنوب الشرقي من اسيا في الهند الصينية سنة ١٨٦٢

على ان املاك فرنسا اقل تلك الممالك اهمية ولكنها نمت نموًا اسر بعاً فقد بدأ الاحتلال سنة ١٨٦٢ ذلك ان امبراطور انام تغاضى عن ذبح المرسلين الفرنساويين فاضطر ان يتخلى لفرنسا عن ثلاث ولايات فجعلوا منها الكوشين شين الفرنساوية وسنة ١٨٦٧ ضم اليها ثلاث ولايات جديدة وعدد اهليها اليوم يناهز المليونين وتبلغ تجارتها حوالى مئة وثلاثة وعشرين مليونًا سنويًا وارتفعت ميزانيتها من الثمانية ملايين سنة ١٨٦٨ الى الثلاثين مليونًا سنة ١٨٨٨ وهواء البلاد لايخلو من الضرر الا في الجبال على ان تربتها خصيبة جدًا

وبسطت فرنسا حمايتها على مملكة كمبودج الصغيرة سنة ١٨٦٣ ومن ثم بعد حرب التونكين التي قاتلت فيها مملكة انام (سنة ١٨٨٣) وتونكين احدى ولاياتها ولكنها استقلت بعد ان فتحها الفرنساويون مرتين وصارت منذ سنة ١٨٨٢ تحكمها ادارة فرنساوية فصار الامر لفرنسا سرًا وجهرًا في كل اقطار القسم الشرقي من الهند الصينية · اما انكلترا فقد سبقتها الى السواحل الغربية منذ سنة ١٨٢٤ وصارت مملكة بيرمانيا من الاملاك الانكليزية

وامسى الحائل بين اتصال املاك الدولتين انكلترا وفرنسا وجود مملكة سيام المستقلة الا ان انكلترا احتلت في جنوب الهند الصينية مركزين مهمين هما ملقا (سنة ١٨٣٦)

وسنقافور (سنة ١٨٣٦) واملاك انكلترا في الهند ممتدة من جبال حملايا حتى جزيرة سيلان وهي بلاد يسكنها اكثر من مئتين وخمسين مليونًا من النفوس

وكانت الشركة الهندية قد فتحت في قرن واحد (١٧٥٧ الى سنة ١٨٥٧) هذه السلطنة الواسعة واستخلصتها من اصحابها المستبدين فيها وهم امراء عسكريون من الهنود وشرعت تحكمها مستبدة فيها من غير ان تعبأ باراء الوطنيين او تشاورهم في امرها . على ان الحكومة عقيب ثورة سيبايس الكبرى اخذت مكان الشركة سنة ١٨٦٠ وتولت بنفسها ادارة كل شؤون البلاد فنالت الهند من ذلك راحة وسلامًا لم تكن تعرفهما من قبل واباحت الشعوب الهندية الاشتغال فاستغنت ونمت

واهل الهند يختلفون بادابهم وادبانهم عن الانكليز الذين يسودون فيهم اختلافًا كثيرًا الا ان في شمال الهند قوم البراهمة وهم اهل الطبقة الاولى من الاهلين واصلهم من الجنس الآري وتجدهم مابرحوا محافظين على الهيئة والشكل القديمين وعلى اميالهم العقلية بما يشبه الاوروبيين مما يحملنا على تذكر وحدة الاصل بين الفريقين وكان الحكام الاولون من الانكليز يحترمون التمدن الهندي القديم ولذلك لم يسعوا بادخال الافكار او اللغات الاوروبية الى الهند . الا انه في سنة ١٨٣٦ اجابة لطلب ماكولاي اتخذت الحكومة قرارًا افضى الى نتائج كبرى ذلك ان تعلم اللغة الانكليزية في مدارس الهند مثلما تعلم لغة البلاد[1]

لاجرم ان التلغراف وفتح ترعة السويس قرَّبا مدى الصلة بين الهند وانكلترا فاصبحت التجارة عظيمة المقدار فزادت روابط البلادين تمكينًا واصبح الهنود منذ بضع سنين يقتربون من التمدن الاوروبي اذ شرعوا يتعلمون الانكليزية ويطلبون العلوم العالية وينشرون المؤلفات والجرائد باللغة الهندية واخذت الحكومة الانكليزية تعينهم في المناصب والوظائف فترى الآن منهم عددًا بين القضاة في المحكمة العليا بكلكتة

واما املاك روسيا فهي سيبيريا تلك اقطار شاسعة الا انها فقراء ومعظمها خال من السكان حتى عهدنا هذا مع ان الحكومة الروسية لم تزل منذ قرن تنفي اليها في كل سنة الوفًا من المحكوم عليهم فيقيمون فيها وجملة عدد سكانها اليوم لا يتجاوز الخمسة ملايين من النفوس

(١) يتكلمون في الهند لغات كثيرة مشتقة من السنسكريت ـ منها البنغالية والهندوستانية اللتان عوض بهما عن لغة السنسكريت التي اعتبروها ميتة كما عوضوا في اوروبا عن اللغة اللاتينية باللغتين الفرنساوية والايطالية

وحتى الآن لا يعرفون مصادر الثروة السيبيرية في جنوبيها الا قليلاً لان القوم لم يتمكنوا الا من استثمار معادنها مع ان فيها كثيرًا من الاحراج والغابات ولا تعدم ارضها تربة خصيبة يستطاع الانتفاع بها في تكثير عدد سكانها

ويعترض طريق الروسية من جهة سيبيريا قفار مجلدة من بلاد منغوليا وقد امتدت الاملاك الروسية فوسعت قطرًا كبيرًا يماثل فرنسا مساحة وذلك صوب غربي نهر امور سنة ١٨٥٨ ومنذ بضع سنين طفقت تمتد صوب الصين

على ان نجاح روسيا في اسيا كان من صوب غربيها الا تراها تجاوزت القوقاس فتاخمت بلاد فارس وبذلت جهدها لتبلغ تركستان الا ان اهل هذه البلاد قبائل رحل من الارومة التركية وجميعهم فرسان اشداء يعيشون من رعي السائمة وقطع السابلة ويتألبون عصابات فيشنون الغارات على الفلاحين الايرانيين المساكين وينهبون قراهم ويسوقونهم مشدودين الى خيولهم فيبيعونهم عبيدًا واماء

وقد حاولت روسيا في اول الامر اخضاع هذه القبائل بزحفها عليهم من الشمال الا ان البعثة التي سيرتها لمقاتلة خيوا هلكت في اثناء زحفها فعدلت روسيا عن قصد هؤلاء من الصوب الشمالي وسيرت عليهم بعوثها عن طريق بحر قزوين ويتصل هذا البحر بالروسية بالطريق الحديدية الممتدة بين بوتي على البحر الاسود وباكو على بحر قزوين ومن باكو تنتقل العمارة الجنود والذخائر الى الضفة الشرقية من قزوين أي الى كراستوفسك ومن هنالك تبتدئ طريق حديدية أخرى مدّت بسهولة لانبساط ارضها وكانت قد اجبرت الاهلين على الاشتغال بتمهيد هذه الطريق وكلما تمهد قسم جاءته مركبات السكة بالخطوط الحديدية فمدت فيه

وعاودت الحكومة الروسية سيرها من الشمال وجعلت تتقدم بجندها المؤلف من الفوارس القوزاق شيئًا فشيئًا وكلما تقدمت في فتح البلاد اقامت الحصون والمعاقل

وشرعت تكتسح البلاد تدريجًا تارة بالمخابرة مع رؤساء القبائل وآونة بمهاجمة مدائنهم الحصينة فاضعفت اولاً سنة ١٨٤٧ بلاد الكرج ومن ثم استولت على كل تركستان (من سنة ١٨٦٤ الى ١٨٨١) وقد اضطرت لذلك ان تهاجم المدن الكبرى وتأخذها عنوة ففي سنة ١٨٧٣ سيرت على خيوا ثلاث كتائب زحفت احداها من على طريق قزوين تحمل زادها وذخائرها وهي تجتاز القفر . وكانت الموقعة الاخيرة بالهجوم على قلعة تاكس وهي الحصن المنيع الذي كان يخشاه الناس لانه معقل التركمان اللصوص فامتلكوه سنة ١٨٨١

وكانت الحرب شديدة حامية الا ان التركمان منذ دانوا لقوة الروس الغالبة صاروا الى الاستسلام لا تخطر لهم الثورة عليهم ببال وقد ابقت لهم الحكومة الروسية عاداتهم ورؤساءهم ولم تطلب منهم شيئاً الا الاعتراف بسلطة القيصر وان يتنزهوا عن اللصوصية وان يبلوا البلاء الحسن يوم تستنفرهم للحرب واخذت تكافئ بعض رؤسائهم بالهدايا وتمنحهم مراتب القادة في الجيش

على ان روسيا كلما تقدمت جنوباً اقتربت من املاك انكلترا في الهند فجعلت انكلترا منذ سنة ١٨٣٤ تتخوف من ذلك وتحسب روسيا من مزاحميها وتوصلاً لمنعها عن بلوغ تخوم هندها سعت لتجعل الشعب الافغاني المشهور بشدة البأس وقوة المراس حاجزاً للهند لانهم يسكنون القطر الواقع الى شمالي جبال حلايا ووسعهم ان يصونوا التخوم الهندية . أما الروسية فسعت باحباط مساعي انكلترا وذلك انها حالفت شاه الفرس عدو الافغان اللدود

حينئذ بدأ التنازع على النفوذ بين انكلترا والروسية فدفعت الحكومة الروسية شاه الفرس للاستيلاء على هرات فدافع عنها قواد الانكليز واجبروا الفرس على الانسحاب عنها واغتنمت الحكومة الانكليزية فرصة تنازع امراء الافغان على الامارة وسيرت جيشها لاحتلال البلاد الا ان الافغان شعب مسلم حربي لايطيق ان يرى جنداً مسلحاً في بلاده فقام وذبح العسكر الانكليزي عن آخره (سنة ١٨٤٢) وعادت الحكومة الانكليزية فجددت المحالفة مع امير الافغان وامتلكت الاقطار المجاورة (قندهار وبلخ) ثم اعانت الامير على فتح هرات (١٨٦٣) ورغماً عن حرب ثانية وقعت بين الانكليز والافغان وعن ذبح كثيرين من عسكرها ثانية (سنة ١٨٨٧ وسنة ١٨٧٩) ظلت انكلترا تعامل الافغان معاملة الحليف

وفي سنة ١٨٨٤ اعترفت القبائل التركمانية بسيادة القيصر . وبهذا صار الروس مجاورون الافغانيين وجعل رعايا القيصر وامير الافغان يتنازعون على الحدود فاتفقت الحكومتان الانكليزية والروسية على اجتناب الحرب وعينا لجنة منهما ذهبت الى هناك وحددت التخوم . ورأت انكلترا ان تصون املاكها من البقاء تحت مرحمة حليفتها الافغانية فحصنت تخومها في مضايق حلايا الواقعة الى الشمال الغربي من بلاد الهند تحصيناً منيعاً لان منها السبيل الوحيد لغزو الهند من ذلك الصوب

التمدن الاوربي في الشرق :— ولقد حاول الاوربيون التوغل في الشرق الاقصى

الى الصين واليابان فوجدوا ثمت تمدناً اقدم عهداً من تمدنهم

فان الصينين وحدهم اكثر عدداً من جميع الاوروبيين وهم منذ قرون جمة خاضعون لحكومة واحدة وهي سلطنة الوسط المؤلفة من شعب يبلغ نحو الثلثمئة وخمسين مليوناً الى الاربعمئة مليون من النفوس وكلهم يتكلمون لغة واحدة ولهم العادات الواحدة وعليهم الحكومة الواحدة . والصينيون ذوو قناعة وصبر على العمل ولا مثيل لهم بين الناس من حيث التداوم على الكسب والعيش في بقعة صغيرة يزدحم فيها الناس ازدحاماً وترى البقاع القائمة على ضفاف الانهر الكبيرة تكاد تضيق بسكانها ولا شبيه لها على الارض من حيث كثرة الناس فيها . على ان الارض تحرث عندهم باعتناء عظيم ومعظم حرثها بايديهم فتشبه الصين حديقة كبيرة مغروسة — . والصينيون عملة مستقيمون صبورون وقد مضى على صناعاتهم حين من الدهر كانت لها الافضلية والسبق على مصنوعات الغرب ودام ذلك لهم حتى ظهرت الآلات فكان التبريز للمصنوعات الاوروبية . وفي الصين عددٌ من المدائن الكبرى وقد حسبوا منها ٤٢ مدينة يتجاوز عدد اهل كل منها مئة الف نفس وبعضها يسكنها ما يناهز المليون — وحكومة الصين منظمة وعمالها Mandarin الذين يحكمون البلاد اهل علم يرتقون في مراتب الحكم تدريجاً من درجة الى اخرى ويجوزون الامتحانات الجمة ولقد كان من شأن فلاسفة القرن الثامن عشر الاعجاب بهذه السلطنة المسالمة التي مر على قدميتها ثلاثة الاف سنة حيث تجد الزراعة فيها مقاماً سامياً من الاعتبار حتى ان الامبراطور يجيء باحتفال عظيم ويحرث بيده تلماً من الارض . ولما اتصل التمدنان القديم والحديث ظن الناس انهما ينشئان العلائق الحبية بينهما لكنه يظهر ان بين الصينيين والاوروبيين تنافراً يتعذر نزعه وذلك ان اسباب عظمة التمدن الاوروبي الا وهي العلوم والمعارف والصنائع والفنون والدين كل هذا لبث محجوباً عن الصينيين او ان تلك الامة لاتفهم هذه الاشياء مثل ما يفهمها الاوروبيون او كأنهم يحتقرون التقدم ويحتفظون كل الاحتفاظ بعادات اجدادهم . وكانوا ينظرون الى الاوروبيين محترسين منهم كأنهم برابرة خداعون وقد تمثل الاوروبيون امامهم تجاراً وجنداً والحق انهم لم يروا من التمدن الاوروبي الا السلاح الناري آلة المذابح والفتك الافيون الذي يحمله اليهم التجار الانكليز فيكون سماً زعافاً للمدخنين منهم

ولم ترض الحكومة الصينية الا بالرغم عنها ان تأذن لسفن الاوروبيين بالدخول الى ميناء واحد او ميناوين من بلادها . وفي سنة ١٨٣٩ طرحت في البحر عشرين الف صندوق من الافيون ارسلها اليها تجار الانكليز من الهند فانتهزت انكلترا الفرصة لمحاربة الصين وارغامها

على فتح ميناء للتجارة ونالت سائر الدول ذات الحقوق التجارية التي نالها الانكليز الان الحكومة الصينية كانت تكثر من العوائق في سبيل التجار الاوروبيين ولما طلبت دولتا انكلترا وفرنسا بعض المطالب ورفضت اشهرتا الحرب على الصين وما عتم ان نزل برها جيش فرنساوي زحف توًّا الى باكين عاصمتها وهدم قصر الامبراطور الصيني البديع وارغم الصينيين على اعادة العلائق التجارية الى ما كانت سنة ١٨٦٠

ومنذ يومئذ جعلت كل دول اوروبا تقريبًا تعقد المعاهدات التجارية مع الحكومة الصينية تخولها بها حق الاتجار في احد مين بلادها فاصبحت عدة المين المفتوحة حتى اليوم لتجارة اوروبا تسعة عشر ميناء الا ان الصينيين ما برحوا يأنفون من العادات الاوروبية بحيث لا ينتحلون من مناهجهم شيئًا الا الطرق الحديدية والتلغراف ومع هذا ليس من السهل مد الخطوط الحديدية لسبب نفرة الشعب منها

اما الشعب الياباني فلا يذكر عدده ازاء الصيني (لانه يناهز ٣٦ مليونًا) وتمدنه ليس كالصيني في قدمه ومبلغه ولذلك انصرف بكليته للتمدن الغربي يأخذ عنه وكان اول العهد بفتح الثغور اليابانية للسفن الاجنبية سنة ١٨٥٤ حين اباحت طروق خمسة من مينها وما عتم ان انشأت حكومة اليابان الطرق الحديدية والتلغراف وضربت السكة واقامت المطابع والجرائد ثم اعتمدت على التقويم الاوروبي واستخدمت كثيرين من المهندسين الاوروبيين وبعثت بعثات من الشبان اليابانيين الى اوروبا لاخذ العلم عن مدارسها ونظمت اداراتها على طرز الادارات الاوروبية وحاولت ايضًا ان تقيم فيها بارلمانا

المستعمرات الانكليزية : — جددت انكلترا سلطنتها الاستعمارية التي تناقصت كثيرًا بعد انفصال الولايات المتحدة عنها فلها اليوم اربعة اقسام من التملكات اولها شمالي اميركا وهي القطر الذي غنمته من فرنسا ثانيها جنوبي افريقيا وهي بلاد انتزعتها من هولاندا ايام حروب الامبراطورية . وثالثها الجزائر الكبرى في الاوسيانيا التي تدرج القوم في سكناها . ورابعها الهند التي فتحتها الشركة الهندية . وكل هذه المستعمرات تؤلف سلطنة مساحتها ٢١ مليونًا من الكيلو مترات المربعة وعدد اهليها حوالي ٢٧٠ مليونًا من النفوس . فالهند يبلغ عدد نفوسها ٢٥٧ مليونًا كلهم من الوطنيين . اما المستعمرات الاخرى فقد عمرت بسكنى الانكليز وغيرهم من الاوروبيين وكل قسم من الاقسام الثلاثة يؤلف من مستعمرات شتى كل واحدة منها منفصلة عن الاخرى ففي الرأس خمس مستعمرات وفي كندا ثمان (عدا الارض الجديدة) واما اوستراليا فلم يكن فيها حتى القرن الثامن عشر احد من الاوروبيين فقررت الحكومة

الانكليزية ان تؤسس فيها مستعمرة يجلى اليها المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ففي سنة ١٧٨٧ حملت اليها احدى السفن من انكلترا الى بوتاني باي ٥٦٥ رجلاً و١٨٢ امرأة وثورين وخمس بقرات وسبعة خيول و٢٩ غنمة و١٩ من الماعز و٧٤ خنزيرًا وخمس ارانب و١٨ ديكاً حبشيًا و٣٥ كنارًا و٢٩ وزة و١٢٢ دجاجة . فكانت هذه البعثة طليعة الجالية الاولى وعلى التوالي نشأت ست جاليات اخرى — وكانت زيلاندا الجديدة خالية من السكان حتى سنة ١٨٤٠ فعمرتها يومئذ جالية انكليزية فصارت اليوم ذات ثمان مقاطعات .

على ان الجالية التي احتلت هذه البلاد احتفظت على الشؤون الانكليزية السياسية ولاعتيادهم على الحكم الذاتي كانوا يأنفون من مداخلة الدولة في امورهم ولهذا منحتهم الحكومة الانكليزية حق العمل بالمبادىء الاقتصادية الحرة وخولتهم ان يحكموا انفسهم بانفسهم (١)

ولكل مستعمرة دستورها الخاص بها الا ان جميع تلك الدساتير شبيهة بالدستور الانكليزي فكلها ذات بارلمان مؤلف من مجلس نواب تنتخب الجالية اعضاءه ومن مجلس عال او من ديوان قضائي يسمي الملك رجاله (ذلك ما يشبه مجلس اللوردات) ومن حاكم يرسله الملك من انكلترا فيمثل السلطة الملكية ويختار وزراء يكونون مسؤولين لدى المجلس النيابي

ومع ان للحكومة الانكليزية حق نقض قرارات مجالس الجالية فانها تابى العمل بذلك الحق . وحدث في سنة ١٨٧٣ ان قرر مجلس النواب في ولاية فيكتوريا من اوستراليا ان يرتب للنواب اجور فرفض المجلس العالي ذلك القرار ونجم عن رفضه نزاع شديد بين المجلسين وحينئذ اسرع الوزير الاول فسافر الى لندرا وطلب الى الوزارة الانكليزية اصلاح دستور المستعمرة فيكتوريا فرفضت الوزارة طلبه قائلة انه ليس من العدل التداخل في اعمال المستعمرات الداخلية الا لدى الاشراف على الخطر — وفي سنة ١٨٧٨ عزل والي مستعمرة كندا السفلى وزارةً تسندها الاغلبية في المجلس وشكل وزارة اخرى من تلقاء اراداته فناهض مجلس النواب هذه الوزارة لكن الحكومة اصرت على ابقائها فطلب المجلس من الحكومة المحافظة على الدستور وعضدت الوزارة الانكليزية مطالب المجلس واقالت الوالي والحكومة الانكليزية تبيح للمستعمرات ان تنشىء لها جيشًا ولذلك يبلغ عسكر اوستراليا عشرة الاف جندي وعسكر كندا ثمانية وعشرين الفًا واغرب من هذا انها تخول المستعمرات حق تعيين الرسوم الجمركية على البضائع التي تجيئهن من انكلترا

(١) الاجامايكا وجزيرة موريس فانهما تخضعان لحاكم ولمجلس قضائي تعينهما الحكومة الانكليزية

وهكذا تكاد تكون كل مستعمرة دولة مستقلة بذاتها ولقد وكان يخطر للقوم ان تجمع تلك البلدان في حلقة على طرز الولايات المتحدة ففي سنة ١٨٦٧ تأسس اتحاد اسمه Dominion of Canada وانخرط فيه ثماني مستعمرات من اميركا الشمالية (عدا مستعمرة الارض الجديدة فانها لم ترض بذلك) ووضع دستور هذه الحلقة على مثال دساتير الحكومات الخاصة بحيث يكون عليها حاكم عام يرسل من انكلترا ولها بارلمان مؤلف من مجلس الشيوخ الذي يعين الملك اعضاءه ومن مجلس تشريعي ينتخب الاهلون اعضاءه ومقام هذا البارلمان في أوتاوا ومن خصائصه ادارة اعمال الجمرك والجيش والتجارة — على ان مستعمرات الراس وأستراليا لم ترض بمثل هذا الائتلاف

وفي انكلترا مذهبان متناقضان في ما يجب اتباعه في سياسة المستعمرات فاحد المذهبين يحرص على المبادىء الاقتصادية فيحسب المستعمرات عبئاً ثقيلاً يسوم الحكومة كثيراً ولا تنتفع منه بشيء فتبذل انكلترا الاموال الطائلة لتمد فيها الطرق الحديدية وتقيم الحامية في اقطارها والاساطيل في بحارها وقد جرّت لنفسها بسببها الحروب والمتاعب واندفعت لمحاربة الماوريس Maoris في زيلاندا الجديدة وقبائل الكافير في الرأس والافغان في الهند ولم تجنِ من ذلك مغنماً اذ ليس من حقها ان تجبي منها مالاً ولا توصل بضائعها اليها من غير ان تؤدي عليها رسم جمرك . وقد قال واحد من اشياع هذا المذهب (١) « انما نحن امبراطورون من غير امبراطورية فيترتب على انكلترا والحالة هذه ان تصرح لمستعمراتها بالاستقلال عنها وان تترك لها القيام بالدفاع عن شؤونها بما لديها من القوى »

على ان اشياع المذهب الثاني اكثر عدداً من تباع المذهب الاول وسياستهم ترمي الى احتفاظ انكلترا باملاكها او كما يقولون ان تبقى الامبراطورية البريطانية سالمة — فوزارة بيكنسفيلد المحافظة (١٨٧٤ الى سنة ١٨٨٠) قامت بحروب عديدة ضد الزولوس والبوير والافغان وغنمت جزيرة قبرس ونادت بملكة انكلترا امبرطورة على الهند (سنة ١٨٧٦) اما وزارة غلادستون الحرة فعدلت عن السياسة الحربية التي سامت الحكومة كثيراً من النفقات ولكنها حافظت على الامبرطورية المسالمة

ومن ثم نشأ حزب يريد عوضاً عن ترك المستعمرت لشأنها ان يزيدها ارتباطاً بعاصمة الدولة قائلين انهُ لا يوجد حتى الآن امبراطورية بريطانية فيقتضي لذلك بارلمان

(١) ابان هذا الخاطر غولدوين سميث في كتاب الامبراطورية سنة ١٨٦٣

امبراطوري بريطاني يكون فيه نواب عن كل المستعمرات وعوضاً عن ان تكون هذه ولايات منفردة ومحالفات ضئيلة الشأن تصبح الحلقة واحدة شديدة الحول ولا يقال حينئذٍ لبريطانيا العظمى بل بريطانيا الاشد عظمة (١)

الاكتشافات : — كان الناس في اواخر القرن الثامن عشر قد عرفوا عقيب اسفار القبطان كوك البحرية معظم ما حول القارات وجميع جزائر الكرة الارضية الا ما كان في الاقطار القطبية وبقي عليهم يومئذ معرفة داخلية كل من قارات افريقيا واوستراليا واسيا واميركا الجنوبية وما حول القطبين فاتجهت اكتشافات القرن التاسع عشر صوب تلك المجاهل

على ان البعوث في هذا القرن لم تكن تجارية صرفاً كما كانت في القرن السادس عشر وانما هي بعوث البحث شرعوا بها لا للانتفاع وانما لغاية تقدّم المعارف . والمكتشفون ان لم يكونوا من موظفي الحكومات فهم من رجال العلم وطلابه ويغلب فيهم ان يكونوا من موظفي الحكومات والجمعيات المؤلفة للابحاث العلمية وفي سنة ١٧٨٨ تأسست في انكلترا الجمعية الافريقية وبعثت منكو بارك لاكتشافات النيجر وامدت الجمعية الجغرافية في فرنسا المكتشفين بالمال ومنحتهم الجوائز مكافأةً لاتعابهم وتألفت بعض البعوث باكتتابات اهتمت بها بعض الجرائد وحدث لاحدى صحف نيويورك انها انفقت من مالها على الرحالة ستانلي في سفرته الاولى الى افريقيا

الا ان الاكتشافات في داخل القارات أشد خطراً من السفر حول الساحل لان الرواد في الداخلية قد يطرقون دياراً اقليمها شديد الحرارة ردي الهواء يبلي الاوروبيين بالسقام او يضربون في ارجاء القطبين المتجمدة وفي كلا الحالين الحر والبرد خطرٌ على الذين يعرضون بانفسهم لهوله ولذلك مات من اولئك الرواد كثيرون ومنهم نفر قتلهم الاهلون كما حدث في بلاد السودان لمنكو بارك وفوجل واخرون اودت الحمى بحياتهم وحسبك بمثال كلابرتون وليفنستون او اثر الجوع مثل رواد اوستراليا . وكان فرنكلين قد سافر الى الاقطار الطبية في مركبين سنة ١٨٤٥ ولم يرجع على انهم وجدوا سنة ١٨٥٩ اثراً لبعثته وعرفوا انهُ وصحبهُ قضوا بين الثلوج والجليد شهور الشتاء والبرد القارس مدى سنتين متواليتين فذاقوا البلاء شديداً وجاءهم الموت فانقذهم من الحياة المرة

(١) جهر بهذا الخاطر اولاً السير شارلس دبلك سنة ١٨٦٨ في كتابه المعنون بريطانيا الاكثر كبراً وزاد على ذلك سلي في كتابه المعنون امتداد بريطانيا

اما بعثة كربلي الى القطب الشمالي فقد ظن الناس روادها قضوا نحبهم غير ان الذين فتشوا عنهم وجدوهم بعد ضياع سنتين في اخر رمق من الحياة يكاد الباقون منهم ان يقضوا جوعاً بعد ان كانوا قد اكلوا جثث رفاقهم الموتى الا ان هذه الضحايا لم تكن قد ذهبت ضياعاً بل بعكس ذلك كشفت النقاب عن وجه الكرة فعرفها العلماء الا قليلاً وتمكنوا بما علموا ان يرسموا خريطة العالم

الفصل السادس عشر

الفنون والآداب والعلوم في القرن التاسع عشر

علوم البيان

المذهب الابداعي[1] Romantique — كان الادباء من الالمانيين منذ القرن السابع عشر يترجمون المؤلفات الفرنساوية ويقلدون مؤلفيها الا ان في الثلث الاخير من القرن الثامن عشر نشأ في المانيا طرز جديد للتاليف وذلك ان كتابهم يومئذٍ الا وهم لسينغ وغوطي وشيلر كانوا أعظم من نبغ في المانيا من الكتاب وقد احدثوا منهاجاً جديداً يناقض المنهاج المدرسي Classique الذي كان شائعاً يومئذٍ في فرنسا فلم تتجه عناية هؤلاء النوابغ لارضاء الناس باجادة مباني الكلام وتنميق العبارات بل بحسن اداء المعاني التي تثير العواطف يسمون المدة الواقعة بين سنة ١٧٧٠ وسنة ١٧٨٠ الهجوم Sturm und drang فكانوا ينطقون بما توحيه اليهم عواطفهم وينتقون من الحوادث اليومية مواضيع لكتاباتهم على انهم اذا اختاروا حادثاً قديماً فانهم يختارون رجاله من بين الالمان القدماء او المحدثين

(١) يعبر الاوربيون عن المؤلفات القديمة ذات الشان التي يعتبرونها حرية بالاتباع بقولهم مدرسية Classique وهي تعم عندهم كتب اعاظم المؤلفين من اليونان والرومان ومن جرى مجراهم من كتاب سائر الامم الذين يركن الى اقوالهم وتعتمد اراؤهم وانما سموها مدرسية لانهم كانوا يقتصرون على تعليمها في مدارسهم · ومن ثم نبغ فيهم جماعة عولوا على تقليد القديم فسموهم Romantique واطلقنا عليهم اسم الابداعيين وشانهم ان لا يقيدون اقلامهم بتحدي المدرسيين (انتهى للمترجم)

(مثل اكون ووليم تل وولستين) لا يتانقون باللغة واساليب التعبير او ينتقون التراكيب الفخيمة وانما يجعلونها بلغة يفهمها الناس و يالفها القراء فتتأثر منها النفوس لان غايتهم احداث التاثير والحماس لانهم صاروا لا يكتبون للطبقة العالية وانما ينشرون كتاباتهم لكل طبقات الامة مؤثرين الاوساط منها وقد كان شيلر شاعر النساء والاحداث

وتلقى الالمان هذا المنزع الجديد بالترحاب والاعجاب ومع انه كان دون البيان المدرمي كمالاً فانهم وجدوه العب بالالباب واكثر تأثيراً في العواطف واقرب الى الطبيعة من المدرمي · وما لبث ان اتصل استحسانه والاعجاب به الى البلدان الاخرى ومنذ بداءة القرن التاسع عشر صار البيان الالماني نموذجاً لكتاب اوروبا · اما الكتاب الالمان الذين اقتدوا بقوطي وشيلر فقد لقبوا بالمبتدعين لأنهم عوضاً عن ان يحذوا خطط الانشاء القديم اصبحوا يتخذون امثلتهم من اقاصيص العصور الوسطى[1] وقد نشأ المذهب في المانيا بكتابات شليكل وتياك وبرينتانو · وهي تمتاز بتحمسها وتعرضها للفروسية وللكنيسة الكاثوليكية وامتهانها للوثنية القديمة وبميلها للقصص العامية والتخيلات .

ومنذ اواخر القرن الثامن عشر دخل المذهب الابداعي الى انكلترا غير انه لم يكن في بادىء الامر على ماقال اصحابه الا « بدعة مخالفة للشعر المألوف » لانهم حاولوا النظم باللغة العامية الجارية على السنة الاوساط واسافل الناس فاحيوا ما كاد ينقرض من قصائد العصور الوسطى واخترعوا على نهجها اشكالاً جديدة من الشعر ومن ثم جاء الفلاسفة الابداعيون من مثل ودورث وكوبر وبعد ذلك نبغ الشاعران العظيمان شيلي وبيرون والراوية ولترسكوث وكلهم عملوا على نصرة الطريقة الابداعية في انكلترا

وبدأت هذه الطريقة في فرنسا ايام نابليون فصرف شاتوبريان وسعه ليلفت النظر الى شؤون العصور الوسطى واميركا وجعلت مدام دوستايل تعرف الناس بالخطة الالمانية وتم رسوخ هذه الطريقة في ايام الرجعة الملكية ويحسب العارفون ان المقدمة التي كتبها فيكتور هيكو لرواية كرومويل سنة ١٨٢٧ بمثابة بيان لمنهاج المذهب الابداعي ومما يذهب اليه كتبة الابداع ان الروايات الفواجع tragedies والهوازل Comédies

(١) ومن العجب العجاب ان كلمة Romantique المشتقة من كلمة Roman (القصة الموضوعة) صاروا يعنون بها ضرباً من البيان الجرماني المخالف للبيان الروماني (اللاتيني والفرنساوي) وفي ذلك خروج عن أصول الاشتقاق .

انما هي كاذبة وقديمة العهد وكذلك عوضوا عنها بضرب من التمثيل يقال له Drame اي المضحكات المبكيات لانها تجمع في التمثيل بين الجد والهزل تمثلاً بالطبيعة التي تجمع بين الامرين ويتم هذا للمؤلفين البارعين بسرد حوادثها بقالب الشعر البديع وبحسن تمثيلها والقائها في المرسح وترى الآخذين بهذا المذهب قد عدلوا بتاتاً عن أخذ ابطال الرواية من الرومان او اليونان وشرعوا ينتقونهم من اهل العصور الوسطى او من زمن النهضة وذلك اما من المانيا او من اسبانيا او من الشرق — على انهم ينتقدون على اصحاب الطريقة المدرسية تمثيل القديم بما يشبه الحديث اما هم فانهم يدعون بانهم يمثلون الاشخاص في الحالة الحقيقية التي كانوا عليها من لغتهم وعواطفهم وازيائهم وذلك ما يسمونه الحالة الموضعية وصاروا لا يتحرون الاسلوب العالي في الانشاء بل يرغبون في تنوع اللغة لمطابقة حال المتكلم منها وما عتم ان ادخلوا الى اللغة البيانية كل الكلمات العادية التى نبذتها الطريقة المدرسية من قبل وشرعوا يبحثون في المعجمات اللغوية عن الكلمات والتعبيرات الاصطلاحية وعن قواف جديدة ليزيدوا غنى لغتهم وشعرهم . وقصارى القول انهم نعتوا المذهب المدرسي بالظاهر المموه وانه مكلف مملّ ناشف — وقالوا انهم يقصدون صيرورة الفن اكثر رقة وتنوعاً وانطباقاً على الطبيعة فيدخل القلب ويحيك في النفس

وفي ايام الرجعة الملكية قام التنازع في فرنسا بين اشياع الطريقتين المدرسية والابداعية فكانه التنازع بين الشيوخ والشبان . فالفريق الاول كانوا يتمسكون بالطرز القديم والانشاء الفخيم والفريق الثاني اصبحوا وقد اشربت نفوسهم حب اللغة الدارجة واسلوب الانشاء المؤثر فشرع المدرسيون ينتحلون زعامة راسين والابتداعيون زعامة شكسبير فاحتدم النزال بين الفريقين وكان شديداً هائلاً وكل منهما يطعن في الفريق الآخر طعناً يلمّ به ولا يسلم منه شأن زعيمه فاصبح اسم الرجلين العظيمين راسين وشاكسبير اللذين يحسبان ممثلين لهاتين الطريقتين مضغة في الافواه . وكانت المناظرة تؤدي بهما في مراسح التمثيل الى الخصام فكان الفريق الواحد منهما يهزأ بالرواية التي يستحسنها الفريق الآخر وطالما انتهى بهما الخصام الى الضرب والملاكمة

وكان السواد الاعظم من الناس في بادىء الامر من صوب تباع المذهب المدرسي لان حزب فرنسا الفتاة لم يكن فيه الا نفر من الشبان — على انه كان يعضدهم كل الكتاب الذين اذخر لهم المستقبل القريب اسماً وذكراً حسناً فلما كانت سنة ١٨٣٠ انضم معظم الناس الى حزبهم

اشياع المذهب الواقعي Réalistes — : وما عتم ان ناهض الابداعيين قوم يدعون الدفاع عن الحقيقة والطبيعة ويقولون « ان روايات الابداعيين سواء كانت تاريخية او موضوعة لا تفضل الفواجع المدرسية من حيث ابتعادها عن الطبيعة واما اصطباغها بالصبغة الموضعية فليس الا وهم وتضليل . وما يذكرون عن ابطال العصور الوسطى وعن رجال زمن النهضة وعن الشرقيين ليس هو من الحقيقة في شيء مشابهين في ذكر هؤلاء ما يروي المدرسيون عن ابطال اليونان والرومان لان الابطال الذين يذكرونهم ليسوا الا بعض افراد من المحدثين البسوهم الزيّ القديم الا ان المؤلف انطقهم بلغة عصره (١٨٣٠) وحباهم الشعور بالعواطف الموافقة لزمانه » وانما ظهر هؤلاء المخالفون لطريقة الابداع في فرنسا حوالي سنة ١٨٤٨ وانتهى الحال بهم الى ان أسسوا طريقة جديدة ولم يبقوا من الرأي الابداعي الا الاقة اذ نبذوا الروايات المضحكات المبكيات (درام) والتاريخية وجعلوا موضوع كتاباتهم مقتطفاً من الحوادث الحديثة واقتصروا على تمثيل مشاهداتهم ويدعون انهم لا يثبتون الا الحقائق بحيث يصورون طبيعة الحوادث كما هي فيصفون مشاهد الحياة وصفاً دقيقاً يسهبون في جزئياتها اسهاباً يحمل مشاهديها على استطلاع الحالة والوقوف على حقيقتها ولذلك دعي اصحاب هذه الطريقة بالواقعيين على انهم في هذه السنين الاخيرة صاروا يسمون طبيعيين ورأيهم الغالب اليوم في فرنسا وانكلترا والروسية ومنهم نفر في المانيا ولذلك اصبح البيان الحديث قائماً بالمشاهدات واكثر ما يميل ذووه اليه الروايات عن العادات والاخلاق والاداب وفيها الشيء الكثير من البحث عن اعمال الحياة اليومية

والخطة العامة لاشياع هذا الرأي هي الافاضة بالشرح المدقق على انها تتصل بعاطفتين متناقضتين اما رغبة المؤلف الفاترة في ان يتخذ من اشخاص الرواية موضوعاً للبحث في اخلاقهم واما على عكس ذلك يظهر الكاتب ميله الشديد لعواطف ابطال روايته فينتج من ذلك ضربان مختلفان جداً ففي الواحدة منهما يأخذ المؤلف بالوصف وتحليل الحوادث ومؤثرات الاشخاص كانه شاهد لا يعبأ بما يقول وهذا الضرب سائد في فرنسا ويقال له l'impassible وفي النوع الثاني يقص المؤلف ما يطرأ من السراء والضراء على ابطال الرواية متأثراً كانه يقاسمهم احوالهم (وهذا منحى رواة الانكليز والروس)

أساليب الانشاء : — لم يمر على اللغة الفرنساوية زمن كان بيانها فيه اكثر تنوعاً منه في القرن التاسع عشر ونبغ فيه لكل نوع من انواعه رجال يشدون ازره ولكم نبغ

من بينهم نفر يسعى كل منهم باحياء غير واحد من ضروب الانشاء القديم ولكنهم لم يوفقوا الا لايجاد اربعة ضروب الاوهي : الشعر الموسيقي والروايات التمثيلية من المضحكات المبكيات والاقاصيص والانتقاد

اما الشعر الموسيقي Lyrique فقد كان منحط الشأن في تضاعيف الدور المدرسي فانعشه قوطي وشيلر الالمانيان وما عتم ان صار الاسلوب الذي يعتمده تباع الابتداع حتى انك لتجدن كل الكتبة المبرزين الذين نبغوا من سنة ١٧٧٠ الى سنة ١٨٣٠ يقرضون الشعر الموسيقي وحسبك منهم في المانيا اوهلان وهين وفي انكلترا واسورث ورن وكولريدج وبيرون وشيلي وفي ايطاليا ليوباردي وفي فرنسا لامارتين وموسه وهيكو والثلاثة من اكبر الابداعيين [1] اما الروايات (الدرام) التي وضعها شيلر وقوطي فانها تنقسم الى فرعين — احدهما الدرام التاريخية التي نابت مناب الروايات الفواجع القديمة وقد نسجوا فيها على منوال شكسبير وشرعوا يختارون مواضيعها من التاريخ او من الحكايات الاوروبية ويلبسون ابطالها الازياء الوضعية او كما يقال يصبغونه بصبغة الوطن . الا انهم كانوا يمثلون في المشاهد ما يريدون من الاعمال الفظيعة على مرأى من الجمهور ومعظم تلك الروايات من اقلام الشعراء الموسيقيين مثل قوطي وشيلر وهيكو ومما يذكر ان اولئك المؤلفين كتبوا رواياتهم وفي قصدهم ان يقرأها الناس مطالعة اكثر من ان يشهدوها تمثيلاً في المراسح على ان هذه الروايات التاريخية عراها في اواخر سنة ١٨٣٠ الانحطاط فاصبحت اليوم مهملة اكثر من الفواجع واصبح الناس يكادون لا يفرقون بينهما حتى ان نقائس الروايات التاريخية كادت لا تقف ازاء الفواجع القديمة المدرسية التي جعل المرسح المسمى لا كوميدي فرانسز يمثلها حتى اعاد لها شأنها القديم — وثانيهما الروايات عن آداب المعاصرين واحسن مثال لها رواية مينادي برنهايم تاليف لاسينغ الا انها ادرجت في دور الابتداع ولكن لم تزدهر الا منذ سنة ١٨٤٨ حين اصبح الجمهور راغباً فيها وتدرجت منذ حينئذ بالاقتراب من طرز الروايات القديمة المضحكة التي كانت تمثل الاداب والعادات واشتد ميل الناس اليها حتى اصبحت المراسح لهذا العصر مقتصرة عليها الا قليلاً وحتى اصبحوا لا يمثلون في طول اوربا وعرضها الا ما الفه الكتبة الابداعيون الفرنساويون والخص منهم ديماس واوجيه وساردو وكان اشياع الابداع قد اهملوا في بادي الامر تاليف

(١) تألف من بقية الطريقة الابتداعية في فرنسا راي جديد يقال له بارناس

القصص من النوع المعروف بالرومان Roman ولكن ما عتم ان عاد الى الظهور على نوعين — النوع الاول القصص التاريخية التي ابتكرها ولتر سكوت اذ كتب من سنة ١٨١٤ الى سنة ١٨٣٢ نحواً من ٧٢ قصة فراجت كتاباته ورغب الناس في تحديها والتمثل بها حتى اواسط القرن التاسع عشر فاتبعه من فرانسا المؤرخون (اوغيست تيبري وكينه وميشاله) والنوع الثاني قصص الاداب والعادات فانها نشات تقريباً في وقت واحد في كل البلاد واصبحت الخطة المثلى للبيان الحديث واصبح اشهر الكتاب من سنة ١٨٣٠ يؤلفون الاقاصيص فنبغ في انكلترا ديكنس وناكراي وجورج اليوت وفي روسيا كوكول وتوركنيف وتولستوي ودوستويفسكي . وفي اميركا ادكار بو وبرت هارت . وفي المانيا فرايتاغ . وفي فرنسا بالزاك وجورج ساند . وكل اشياع الطريقة الواقعية فلوبير (وزولا وروود وغيرهم)

أما الانتقاد فيراد به درس المؤلفات البيانية والفنية وتمحيصها على انه لم يكن ذا شأن مذكور في القرن السابق لان اصحابه كانوا يقتصرون على تقريظ المؤلفات أو الطعن فيها وفي القرن التاسع عشر جعل المنتقدون يسعون بتفهم المؤلفات ثم تقريبها من افهام الناس وهم في خلال ذلك يفصحون عما فيها من الافكار والعواطف والانشاء ويبينون ان التأليف يتأثر من حال البلاد وادابها ومن القوم الذين يحيطون بالمؤلف مما يسمى بالمحيط أو الوسط والانتقاد على الاكثر انكليزي وفرنساوي ففي انكلترا يجعلونه في نبذ منفردة له أما في فرنسا فالمقالات تنشر في المجلات والجرائد . واشهر الانتقاديين في انكلترا ماكولي وفي فرنسا سانت بف وتاين ورينان وكلهم من اعاظم الكتبة

أهمية البيان في القرن التاسع عشر : — لم يتفق القوم على شأن البيان في القرن التاسع عشر لان من الكتبة من لا يرضى بخططه فيحسبه احط مما كان عليه في القرون الماضية قدراً وشأناً ويزعمون انه اقل سهولة وسمواً وكمالاً ويرمونه بخلوه من التطرق الى التخيلات على ان له ايضاً من التباع والاشياع من يفضلونه على بيان القرون السابقة اذ يجدونه اكثر تنوعاً ولطافة ودقة ولانه يعبر عن العواطف الاقرب الينا وكلا الفريقين يعترفان بانه لم يسبق للبيان مثل هذا المقام بين الناس لان عدد النساء القارئات في القرن الثامن عشر كان قليلاً فضلاً عن ان رجال العامة كانوا اميين لا يقرأون . اما اليوم فان القراءة صارت فكاهة الناس اجمعين الا الفلاحين واصبحت الجرائد من الحاجيات التي لا يستغني اهل المدائن عنها . وكانوا يحسبون بيع بضعة آلاف من الكتاب نجاحاً كبيراً اما الان فليس

من النادر ان يباع من الاقاصيص العادية خمسون الف نسخة في السنة الواحدة لان عدد القراء زاد عشرة اضعاف عما كان منذ قرن ووفاء بالحاجة انشئت في المانيا مكاتب لاعارة الكتب لمدى بضعة ايام وكذلك في انكلترا اقيمت مكاتب دوارة تعير الكتب لاهل الارياف واما في فرنسا فقد ظلوا على عادة الشراء فازدادت مبيعات الكتب بمقدار زيادة سائر البيوع التجارية

وقد انتفع الكتبة من هذا التقدم ونشأ منهم في العواصم عصبة من رجال الادب لا كسب لهم الا من موارد اقلامهم على ان معظمهم صحافيون مهنة ومنهم يحررون في الجرائد للحصول على دخل قانوني على ان القانون يضمن للمؤلفين قسماً من ارباح مؤلفاتهم وحقوق التأليف هذه كافية ليعيش المؤلف بواردانها ان كان من كتبة الروايات التمثيلية أو القصصية عيشاً رغيداً سيما اذا كان من المشهورين

الفنون المستظرفة او الجميلة

صناعة التصوير : — ان معظم مجموعات الصور والتماثيل التي سبق للامراء الحاكمين حشدها صارت في القرن التاسع عشر في حوزة الحكومة فوضعتها في المتاحف العمومية حيث يتمتع الرغاب برآها وطلاب الفنون بدراستها وجعلت معظم الحكومات تقيم كل سنة في عواصمها معارض للنقش والتصوير يستفيد منها طلبة الفن واعظم تلك المعارض قاعة باريز التي يرجع تاريخ نشأتها الى القرن الثامن عشر ويعرض فيها كل سنة اكثر من ثلاثة آلاف صورة والف وخمسمائة تمثال

ومنذ جرت عادة انشاء مجاميع الصور في دور افراد الاغنياء وقعت المباراة بين المشترين فرفعت اثمان الاعلاق النفيسة ارتفاعاً عظيماً حتى قيل ان بعض الصور بيعت بثمن ٣٠٠٠٠٠ فرنك ومنذ عهد قريب غلت اثمان الصور التي من صنع المصورين المعاصرين غلاء يزيد حتى على قيم صور اساتذة المصورين النابغين في زمن النهضة واصبح التصوير حرفة يقصدها الطلاب للكسب منها فصاروا يعدون بالالوف المؤلفة واكثرهم في فرنسا على ان الذين يشتهرون منهم يجنون ثمار عنايتهم فيعيشون باليسر ومنهم نفر يدر عليهم الفن كثيراً فينالون الغنى

والتصوير كالبيان تعاقبت عليه ثلاثة طرائق فمنها الطريقة المدرسية التي كانت سائدة عند بدء القرن التاسع عشر وكان مركزها في باريز وزعيمها دافيد ومعظم تصويرها لحوادث قديمة العهد اكثرها من التاريخ الروماني وتباعها يميلون لحفظ التناسب في التصوير اكثر

من الاهتمام بالالوان ونشأ في المانيا حوالي سنة ١٨٢٠ عصبة ابداعية زعيماها اوفربك وكورنيلوس اللذان اسسا طريقة مونيخ فشرع اتباعهما يستقون مواضيعهم من الموارد المسيحية ومن حوادث الفروسية ويصورون ابطالها ولكنهم كانوا ايضاً ينصرفون الى حفظ التناسب اكثر من مراعاة الالوان — على ان الطريقة الابداعية في التصوير لم تدخل فرنسا الا بعد سنة ١٨٣٠ اذ وقع التنازع بين الرسامين بزعامة انكروبين المصورين بالالوان بزعامة دلاكروا — ومن ثم جاءت طريقة الواقعيين القائلين انهم يصورون الواقع كما هو من غير ان يعبأوا بجمال الصورة

اما مصورو القرن التاسع عشر فكانوا ككتابه قد جروا على كل انواعه فاصبحت قاعة التصوير بباريز وفيها من كل ضرب نموذج

والنوع المفضل على غيره عند اهل الطريقتين المدرسية والابداعية انما هو التصوير التاريخي وبه تمثل مشاهد القرون الخالية . فالمدرسيون كانوا يستمدون مشاهدهم من حوادث الزمن القديم والابداعيون من العصور الوسطى والملونون من الشرق . وجعل المصورون يعملون كالكتاب يومئذ برسم تصاويرهم رسماً يطابق الشؤون المكانية بحيث يلبسون الاشخاص المصورة ازياء بلادهم في الزمن الذي حدث مشهد الصورة فيه . على انه منذ نحو نصف قرن اصاب التصوير التاريخي ما اصاب الروايات التمثيلية من نوع الدرام والاقاصيص اي ان المصورين صاروا يصورون الحوادث والمناظر التي شهدوها بانفسهم

والتصوير على ثلاثة ضروب التصوير الجنسي وتصوير المناظر الطبيعية وتصوير الافراد والاول اي التصوير الجنسي فاش في المانيا وزعيم اصحابه فيها هو ديسلدورف وتباع طريقة مونيخ الجديدة . واعظم مصوري المناظر والافراد من الفرنساويين (مثل كورو وروسو وميلت وفرومانتين وكابانل وبريتون)

النقش : — انتعشت صناعة النقش في ايطاليا في بداءة القرن التاسع عشر اذ مهر فيها كانوفا (من سنة ١٧٥٧ الى سنة ١٨٢٢) وانعشها في الشمال تورولدسن الدانمركي (١٧٧٠ الى ١٨٤٤) وشوانتلر وريتشل الالمانيان ومنذ نصف قرن لم يعد وجود النقاشين البارعين في المانيا وايطاليا وفرنسا امراً نادراً وانصرفت عنايتهم للعمل في بناء القبور والآثار والنصب للذكرى التي جرت العادة في اقامتها بالمحال العمومية الا ان النقش لم يكن كالتصوير يسعى اليه الطلاب رغبة فيه فكان النقاشون يقتصرون على السعي في نيل الامر من الدولة او من الافراد في اقامة الانصاب استحصالاً للكسب ليس الا

ولم يقع في النقش مباينة بين الطريقة المدرسية والطريقة الابداعية ولذلك انصرف سوادهم لاقتباس أنموذج نقشهم عن القديم توصلاً للاشكال البسيطة الخالية من الزخرفة ومع ذلك ففي سنة ١٨٤٨ مال جماعة من النقاشين الى الطريقة الواقعية وبذلوا قصاراهم في تحدي الانموذج الذي اخذوا عنه تحديًا تامًّا ثم جعلوا يجهدون انفسهم في اكساب منحوتاتهم الملامح والهيئات فصرت ترى الى جانب التماثيل المدرسية التي يسعى نحاتها الى اكسابها الجمال والشكل الحسن انصابًا تكشف عن ملامح المصورين فيها وهيأتهم

هندسة البناء : — لم يبن في العالم قط من المباني العمومية على اختلاف انواعها مثل ما بني في القرن التاسع عشر وحسبك ما ترى من الكنائس ودور البلديات ومجالس القضاء والمراسح والمستشفيات والثكنات والمدارس · على ان اكثر تلك المباني شيدت على غير طريقة خصوصية ومنها ما جرى بناؤها على غير واحد من ضروب البناء القديم · على انهم كانوا في اواخر القرن الثامن عشر قد ملوا من الاسلوب المسمى روكوكو ومن تحدي الايطاليين وصاروا لا يرتضون بتحدي الاساليب القديمة المتصلة اليهم اخذًا عن مقتبسيها في زمن النهضة فشرع المهندسون يدرسون الآثار القديمة مباشرة في ايطاليا وبلاد اليونان فظهرت على اثر ذلك الطريقة المدرسية التي من شانها تشييد المباني منطبقة كل الانطباق على الطرز القديم فتحدى الفرنساويون الصناعة الرومانية اما الالمانيون فالصناعة اليونانية وفي خلال ذلك بنوا في فرنسا كنيسة المدلين والبورس وهما على مثال الهيا كل القديمة واقاموا قبة النصر في كاروسل على مثال قبة تيطس اما في المانيا فان ملك بافاريا لويس الاول جعل في مونيخ بنايات جمة على الطرز اليوناني واستمرت هذه الطريقة اليونانية الجديدة سائدة الى سنة ١٨٤٨

اما الطريقة الابداعية فلم تسع لايجاد اسلوب جديد الا انها عملت عكس الطريقة المدرسية التي من خصائصها تحدي البناء القديم بان اتخذت الاسلوبين الروماني والقوطي Gothique وزعيم هذه الطريقة في فرنسا فيوله لادوك قضى ايامه في احياء آثار العصور الوسطى او تقليدها · اما المهندسون الابداعيون فانهم لم يبنوا من الكنائس او المنازل الا على الطرزين الروماني والقوطي وقد ادوا بذلك خدمة تذكر اذ جعلوا الناس يستحسنون الصناعات الرومانية والقوطية بعد ان مرت العصور عليها وهي مزدراة لديهم فنجت بمساعيهم نفائس صناعة القرون الوسطى من الدمار حتى ان كنيسة نوتردام في باريز تداعت اركانها واوشكت السقوط لولا ان تداركها فيوله لادوك فاقام على ترميمها السنين الطوال · وفي المانيا

رمموا قصر وارتبورج ترميماً كاد يحسب تجديدًا له وفي هذه الايام الاخيرة جعل نفر من المهندسين يشيدون البنايات على اسلوب جديد يلائم عادات العصر ومناهجه وحسبك ببناء الاوبرا في باريس فانها من صنع كارنيه

والمعرض العام سنة ١٨٨٩ جاء باسلوب جديد من الهندسة اذ استخدموا للبناء مواد خفيفة جدًّا كالحديد والاجر الملون بحيث صاروا يستطيعون ان يبنوا بتلك المواد بنايات اكثر علوًّا واقل ثخنًا مما كانوا يبنون وحسبك برج ايفل فانه اعلى بناء في العالم يبلغ ارتفاعه ثلثمائة متر وهو قائم في شان دي مارس

الموسيقى — : قد يسمون القرن التاسع عشر عصر الموسيقى والحق ان الموسيقى شغلت مركزًا كبيرًا في اذهان البشر فضارعت الآداب واصبحت جزءًا متممًا لكل الاحتفالات حتى صار الناس يرونها منذ سنة ١٨٣٠ من لوازم تهذيب بنات الاوساط فادخلتها معظم اوروبا الى المدارس الابتدائية وامست كل المدائن الكبرى الاوروبية لا تخلو من المراسح وقاعات الطرب وفي بعضها منتديات موسيقى لعامة الناس حتى ان فرنسا وانكلترا اللتين لم تكن الموسيقى فيهما من لوازم عيش الناس آل بهما الحال الى تحدي مثال البلاد التي ما برحت تحسب الموسيقي وطنية فيها كالمانيا وايطاليا والبلاد السلافية

وقد نبغ في القرن التاسع عشر من الموسيقيين الكبار من لم ينبغ مثلهم في العصور الماضية يكفي انه نبغ فيه من يحسب اعظم الموسيقيين في العالم اريد به بيتهوفن ١٧٧٠ الى ١٨٢٧

وفي خلال النصف الاول من ذلك القرن انقسم الناس فريقين تباع الطريقة الالمانية وتباع الطريقة الايطالية واشهر موسيقيي الطريقة الالمانية هم بيتوفهن وموزار ووابر وشوبر وماندلسهون وشومان · وقوام هذه الطريقة الضرب على ذوات الاوتار والنفخ بالمزمار وامثاله وتوقيع الالحان الافتتاحية والمفردة مما يحسن استعماله في المعازف والغناء · اما رجال الطريقة الايطالية وهم بالليني ودونيززتي وروسيني وفاردي فان عملهم كان محصورًا في ما ينظم للمراسح وكانوا ينظمون رواياتهم الملحنة باللغة الفرنساوية لانهم قصدوا تمثيلها للشعب الفرنساوي — واما رجال الموسيقى الفرنساوية فهم بوالديه وهرولد واوبر وهالفي ومايربير وكونود) ونظمهم للروايات الملحنة (الاوبرا) والملحنة المضحكة (اوبرا كوميك) وطريقتهم وسط بين الطريقتين المار ذكرهما اولاً

وكانت الطريقة الايطالية مرغوبة كل الرغبة في فرنسا مدة تسود الطريقة الابداعية

ولهذا كان المرسح الايطالي في باريز منتجع الاعيان والوجهاء . على ان الناس اليوم يؤثرون الموسيقى الالمانية لانهم يجدون معازفها (نوبتها) اكثر اتقاناً واشد تأثيراً وفيها تنوعات شتى فتفضل الايطالية . ونبغ في المانيا رجل يقال له رشارد وجنر (من سنة ١٨١٢ الى سنة ١٨٨٣) فجدد الروايات الملحنة تجديداً حسناً واخترع لها ضرباً يسمى الدرام الموسيقية [١] فكان عمله هذا شذوذاً عن الخطة المألوفة فانه عوضاً عن نظم الالحان بعد الرواية جعل بنظم الرواية والحانها معاً بحيث يصبح كلاهما واحداً وابطل الادوار التي يتوقف التمثيل خلالها يقصد بهذا ان يجعل المنشد يقوم بالانشاد والتمثيل معاً فيكون النشيد جزءاً من اجزاء الرواية

ولقد وجد القوم لهذه الآونة مورداً جديداً للنشيد ذلك بما يستمدونه من اغاني العامة فشرعوا يجمعونها في المانيا وبلاد السلاف اولاً ثم امتد حتى بلغ فرنسا

العلوم

تقدم العلوم : — يعرف عصرنا هذا بعصر العلوم اذ انصرفت همم جميع الامم المتمدنة الى اقامة المعاهد العلمية والكليات [٢] وبفرض على اساتذتها ان يبذلوا قصاراهم في تقدم العلم فاصبح العلماء في زماننا في كل فن ومطلب اكثر منهم في كل زمن اخر ولم يأت على العلم حين من الدهر سار فيه سيراً قانونياً فتقدم كما هو حاله اليوم

ولو اردنا ان نسهب في ما بلغه كل فرع من العلوم من التقدم لاحتجنا الى صفحات كثيرة على ان اسرع العلوم تقدماً ونجاحاً هي العلوم الكيمية والطبيعية

واعظم الاكتشافات في الفلسفة الطبيعية قائمة بالكهربائية المغنيطسية اي في المجاري الكهربائية التي منها اكتشفوا مبداء التلغراف الكهربائي فمدوا اسلاكه في فرنسا وانكلترا في وقت واحد . وفي الرأي الاعظم الا وهو توازن القوة والحرارة واهم المخترعات ايجاد السبكتروسكوب Spectroscope الذي يتهيأ بواسطته معرفة تركيب الاجرام البعيدة من الثوابت والسيارات بجمعه الاضواء الصادرة عنها وهذا ما يعرف بالحل الطيفي

(١) اعد وبر هذا الانقلاب من قبل بادخاله الى ما نظم من الروايات الملحنة بعض الانغام العامية

(٢) ان الحكومات في معظم اوروبا تعضد المعاهد العلمية بالاموال اما في انكلترا واميركا فيعضدها الافراد

اما علم الفلك فقد تممه رأي لابلاس لانه كشف الحجاب عن القول بتركيب الشمس والارض والسيارات (كما هو موضح في رسالته عن النظام السماوي) وباكتشافاته عن تركيب السدم . اما المتيورولوجيا اي الاحداث الجوية فبانشاء المراصد على قمم الجبال تسنى للعلماء ان يجمعوا كثيراً من حقائقها على انهم لم يجعلوها حتى الآن علماً قائماً بذاته

ونشأ علم الكيمياء في اواخر القرن الثامن عشر بمباحث شيل الاسوجي وبريستلي الانكليزي ولافوازيه الفرنساوي الذين حللوا الاجسام الكيمية الاكثر اهمية . فان لافوازيه كان اول من حلل الماء فاصلاً الاوكسجين عن الهيدروجين [١] . ومنذ ذلك الحين جعلت الكيمياء تسير في التقدم المستمر في كل من بلاد فرنسا والمانيا وانكلترا فبعد ان حللوا الاجسام البسيطة شرعوا يدرسون تركيب الاجسام الآلية في الحيوان والنبات . تلك هي الكيمياء الآلية التي تقدمت كثيرا حتى تمكن بها الكيميون البارعون من تركيب الاجسام الآلية تركيباً يحاكي نتاج الطبيعة وذلك بجمعهم العناصر بالتركيب الكيماوي

واما علم الحيوان فقد صار علماً بمباحث كوفيه الذي شرح الحيوانات ورتب صنوفها واشهر ذلك في كتاب له اسمه المملكة الحيوانية ثم اكمل علم النبات بواسطة التشريح والفيسيولوجيا النباتية اللذين بهما تسنى الاطلاع بدقة على اعضاء النبات ووظائفها

واما علما طبقات الارض (الجيولوجيا) وعلم الاحافير Paléontologie فانهما حديثان وقد وضع كوفيه اساسهما واعقب ذلك انصراف العلماء لحفر الارض استطلاعاً لطبقاتها فانكشف لهم وللمهندسين العاملين في المقالع وتمهيد الطرق للسكك الحديدية فاستفاد الباحثون من كشفها معرفة واسعة بضروب شتى من الطبقات وامثلة جمة من الحيوانات التي تعاقبت على سطح البسيطة

والفيسيولوجيا العامة وضعها في فرنسا كلود برنار اذ ظهرت له طلائعها اثناء اختباراته في الحيوانات الحية وظهر في المانيا للباحثين في المكرسكوب حقائق جمة فوضعوا علم تركيب الحيوان والنبات Histologie وجعلت كل هذه العلوم نسقاً واحداً لما ظهر رأي دارون في ارتقاء الحيوان وعم كل العلوم الطبيعية . وهذا المذهب الداروني في النشوء والارتقاء جمع ما كان من قبل متفرقاً من الحقائق الجمة وفتح للعلماء الباحثين سبيلاً جديداً يسيرون

(١) ويمكن ايضاً حسبان لافوازيه مؤسس علم الفيسيولوجيا فانه ابان شأن الاوكسجين واوضح ان كل تنفس انما هو اشتعال

فيه بابحاثهم

العلوم الادبية : — حاول العلماء في القرن التاسع عشر ان يدرسوا النواميس الادبية درساً قانونياً لاول مرة يراد بذلك دراسة مظاهر العقل الانساني كاللغات والكتب والشرائع والعادات . وان يبحثوا في الشرائع التي تدير تلك الشؤون على ان هذا العمل بدأ فيه بعض الافراد في فرنسا واتصل منها الى المانيا فاشتغل به اساتذة الكليات

فبحثوا في اديان الهند والفرس ولغاتهم وقابلوها على لغات اليونان واللاتين واديانهم فنتج من ابحاثهم علم اللغات La Philologie وعلم المقابلة في الاساطير La Mythologie comparées فلحظوا من ذلك ان اللغات لا تنشأ عرضاً ولكن تبعاً لسنة مقررة وكانوا يحسبون حتى يومئذ ان النحو في اللغات المختلفة ليس الا قواعد جمعت اتفاقاً من غير ان يعرفوا سبباً يحمل على وضع هذه القاعدة او تلك الا ان العالمين كريم Crimm وبوب وضعا علماً يبين اصل اللغات ونحوها — ولدى مقابلة لغات الشعوب الصينية بلغات الامم الهمجية التي حصلها المرسلون وضع همبولدت علماً عاماً للغات يسمى دراسة اللغات linguistique (١)

وسعوا ايضاً بتجديد نسق التاريخ فعوضاً عن ان يكون مجموعة اخبار ليس الا انصرفوا لجعله درساً قانونياً يبحث عن تغييرات المجتمع الانساني واخص من اشتغل في هذا الفن علماء الالمان ودرسوا اللغات ومن موضوعاتهم انه لا يمكن الوثوق بالتاريخ مالم تعززه الادلة المكتوبة الصحيحة واعتمدوا طريقة الانتقاد في تمحيص الروايات والنصوص المحرفة وتبيان حقيقتها واحتفروا ارض بلاد اليونان وايطاليا ومصر واشور يستخرجون منها الكتابات الاثرية وانقاض الامم الغابرة وبحثوا في المكاتب والسجلات ليتخذوا منها الحقائق الموثوقة عن تاريخ اوروبا فبفضل هذه الابحاث كاد التاريخ يصبح علماً لا خلاف في احكامه

واتخذوا ايضاً الطريقة التاريخية لدراسة المجتمع الانساني فبحثوا في كيفية وضع الشرائع والمناهج عند الامم وكيف تكونت الحقوق التاريخية (تلك مباحث خاض فيها اصحاب المذهب الالماني الذي يترأسه ده سافيني) وكذلك السياسة التاريخية والاقتصاد

(١) ويعنون اليوم باسم الفيلولوجيا دراسة المؤلفات واما Linguistique فيطلقونها على دراسة اللغات

السياسي التاريخي فاصبح القرن التاسع عشر خليقاً بان يلقب بالعصر التاريخي . ولفلسفة عصرنا الحالي مذهبان المذهب الالماني والمذهب الانكليزي

على ان الفلاسفة الالمان ما برحوا منذ زمن الفيلسوف كانت ميالين لفلسفة ما وراء الطبيعة Métaphysiques وانهم يبحثون لايجاد طريقة تبين وحدة الدنيا ومكان الانسان في العالم . ولكل من الفلاسفة العظام مثل كانت وفشت وشيلينغ وهيكل وشوبنهور مذهب خاص به غير مقتبس من سواه . وانهم لسمو افكارهم وبلاغة عباراتهم اثرت كتاباتهم في النفوس واحدثت حركة في الخواطر وعمت اراءهم حتى انك لتجدن فيها اثراً في مؤلفات الكتبة ورجال السياسة حتى علماء عصرهم !

وعلى عكس ذلك الانكليز مثل ستيورت مل وبين وهربرت سبنسر . فانهم يغلب فيهم ان يكونوا من المناطقة والبسيكولوجيين (علماء العلوم النفسية) اذ يبحثون في القضايا التي تمر في افكار الناس ويسعون في ترتيبها انواعاً وقلما يلتفتون الى ما وراء الطبيعة ولكنهم يؤثرون البحث في السياسة والاداب باذلين جهدهم لادماجها بين العلوم وذلك بملاحظة النواميس العامة المتسلطة على الاعمال الانسانية

وليس الفلاسفة في البلاد الاخرى الا تلامذة الالمانيين او الانكليز

واما في فرنسا فالمذهب الوحيد المبتكر انما هو المذهب الوضعي او الاثباتي Positivisme لصاحبه اوغست كونت . واما الفلسفة الانتخابية فزعيمها كوزان وهي ماخوذة عن المذهب الاسكوتلاندي ومثلها الفلسفة الانتقادية منبعثة عن مبادىء كانت والمذهب الاختباري يعمل على الطريقة الانكليزية

الفصل السابع عشر

الصناعة والزراعة والتجارة

استخدام الاكتشافات العلمية في الصناعة : — لم يقتصر العلم في القرن التاسع عشر على الاتساع بل ازدادت منافعه ايضاً واصبحت نظرياته في منتهى الدقة والاحكام بحيث يمكن تطبيقها على العمل فافضى تقدم العلوم وارتقاؤها الى اتقان الصنائع والزراعة وتسهيل وسائل النقل وآل الى احداث انقلاب سريع في شؤون البشر بما لم يسبق له نظير واصبح

الصناع والمهندسون والكيماويون يسعون في كل بلاد للانتفاع في مصالحهم من اكتشافات العلماء للحقائق والنواميس ويبنون مناهجهم على أسسها فصار بعض أولئك العاملين يسعى ليزداد معرفة في احكام الطبيعة وسننها بينما ترى البعض الاخر يبذل قصاراه ليتحكم في في الطبيعة اكثر فاكثر

البخار والكهرباء : ـ واعظم الاكتشافات فائدة حتى اليوم هي القوة البخارية المحركة وقد استخدموها لثلاثة اعمال كبرى وهي الآلات البخارية والسفن البخارية والطرق الجديدة

اخترع وط آلة البخار منذ القرن الثامن عشر وزيد فيها مراراً حتى بلغت اتقانها الحاضر وصارت لهذا اليوم تحرك كل آلات المعامل الكبرى حتى نابت في بعض المطاحن مناب الماء المنحدر

ويرجع مبداء السفن البخارية الى بابين والمركيز دي جوفروا الا ان هذا الاختراع لم يبرز الى حيز العمل الا في القرن التاسع عشر حين اطلق الاميركي فلطون اول سفينة بخارية في نهر هدسون سنة ١٨٠٨ وجعلت تلك البواخر تسير في اول عهدها بالدواليب ثم ابدلوها سنة ١٨٤٠ بالالة الدافعة وما عتم ان عدل السياح عن ركوب البحر بالسفن الشراعية وازدحموا لركوب البواخر التي اخذت ايضاً تناظر تلك في وسق البضائع ونقلها حتى انتهى اليها السباق وصارت ايضاً تقوم مقام زوارق الصيد كل هذا لان البواخر تفضل الشراعية بسرعة سيرها واقتدارها على السفر في كل ريح

وظهرت الطرق الحديدية بعد ظهور السفن البخارية فانهم اخترعوا المركبة البخارية وشرعوا يسيرونها على الطريق فوق قضب الحديد على انهم كانوا يستخدمون المركبات في المناجم تسير على قضب الحديد ولكن تجرها الخيول فوضع ستيفنسون الالة البخارية يجرها من فوق الحديد فكان بذلك نشأة السكة الحديدية وقد استعملت اولا (سنة ١٨٢١) لنقل الفحم ولكنها صارت من سنة ١٨٣٠ تستخدم لنقل الناس

على انهم لم يستخدموا الكهربائية الا منذ نصف قرن فنشأ عنها التلغراف والتلفون والتنوير وتلبيس المعادن

والتلغراف الكهربائي اخترع دفعة واحدة في المانيا وفرنسا وانكلترا وذلك ما بين سنة ١٨٣٣ وسنة ١٨٣٨ وبعد ان تمهدت لهم اسباب مده على سلك واحد من الحديد اخذوا يحسنون طرق نقل الرسائل عليه فكانوا يستعملون في البدء ابرة تنقش الحروف على

صفيحة ومن ثم استعملوا آلة مورس التي تطبع نقطاً على لفائف من الورق وانتهى بهم الامر الى ايجاد آلة تطبع الحروف ولم يعم استعمال التلغراف الا بعد سنة ١٨٥٠ اما التلغراف تحت البحر فمؤلف من سلك حديدي يكتنفه غلاف من الكوتابرخا ومد اولاً في البحر بين كالة ودوفر سنة ١٨٥١ اما السلك الذي مد في الاتلانتيك فاخترق الاوقيانوس ووصل بين اوروبا واميركا فانهم مدوه سنة ١٨٥٧ الا ان تجاربهم الاولى لم تأت بنتيجة حسنة وظلوا الى سنة ١٨٦٥ حتى انتظم امر المراسلات بعد اذ وضعوا اداة جديدة لاقتبال الرسائل

اما التليفون فحديث العهد ولم ينته تحسينه بعد وقد انتشر استعماله في معظم المدائن الكبرى فاصبح لكل محل تجاري تليفون يتمكن به من مخابرة عملائه من غير عناء

تقدم الزراعة : — ان معظم تحسن الزراعة تم بواسطة الميكانيكيات والكيمياء .
اما الميكانيكيات فمن اثارها احداث الآلات الزراعية مثل آلة الحصاد والدراسة التي نابت مناب الآلات اليدوية (كالمنجل والمحصد والنورج) والعمل بها اسرع ولا يحتاج الى عملة كثيرين . كاحتياج الآلات اليدوية اليهم . واما الكيمياء فقد اعدت سواداً كيمياً اشد تأثيراً وفي الاحايين ابخس ثمناً — ولم تعدم الحيوانات والنباتات فائدة من التحسين اذ انصرفت همم كبار المزارعين الى تحسين اجناس الحيوانات والى ادخال مزروعات جديدة فانشأوا في كل مكان الجمعيات الزراعية التي تنشر ابحاث الفن وتشويق الحراث بالجوائز للاهتمام بتحسين اساليب زراعاتهم واتقانها

وكان لتقدم التجارة يد فعالة في تحسين الزراعة اكثر مما اثرته فيها العلوم الا ترى انه لما لم يكن من وسائط للنقل الا المركبات كان المزارعون لا يرون لهم نفعاً من اكثار غلاتهم كثرة تزيد عن حاجاتهم وعما يمكن لهم بيعه في اسواق المدائن المجاورة فكان فلاحو كاستيل يتركون حبوبهم تتلف ومثلهم فلاحو روسيا كانوا لا يستطيعون بيعها لعجزهم عن اداء اجور نقلها ولكن منذ عمت السكك الحديدية البلاد وتمهدت سائر الطرق الاخرى اصبح الفلاح قادراً على نقل ما اراد من غلاله فانصرف بكليته الى العمل في انماء مزروعاته وجعل ارضه بتسميدها ان تدر عليه اضعاف ما كان يستغله من نتاجها وعدل جماعهم عن ترك الارضين ترتاح من الزرع مرة كل ثلث سنين وجعلوا يكثرون من زراعة الشمندور وذلك ما يسمونه ابدال المزروعات بتنويعها على الارض الواحدة — ثم اتسعت مساحة الارض المزروعة باحياء الموات منها خصوصاً فاصبحت الحقول الوسيعة القفراء في

اميركا مزارع قمح وافرة الخير واوروبا التي لم يكن فيها سنة ١٨٥٠ الا مئة وخمسون مليون هكتار من الارض الزراعية امست سنة ١٨٨٤ ذات مئتي مليون هيكار . اما الولايات المتحدة فلم يكن فيها سنة ١٨٥٠ الا اثنان وعشرون مليون هيكتار فصار لها ٦٤ مليون هيكتار في سنة ١٨٨٤ وقس على ذلك الماشية فان اوستراليا ورأس الرجاء ولابلاتا وهي اكثر البلدان تربية للسائمة فلم يكن يصدر منها سنة ١٨٦٤ الا ٤٥٠،٠٠٠ بالة من الصوف فزاد ذلك حتى اصدرت سنة ١٨٨٥ نحو ١،٧٠٠،٠٠٠ بالة . والقطن كانت غلته سنة ١٨٧٠ مليونين واربعمئة الف ليبرا فصارت اربعة ملايين سنة ١٨٨٤ وهكذا ترى ان الزراعة تقدمت خلال ثلاثين سنة تقدماً لم يتأتَ لها نيله في مدى ثمانية عشر قرناً

تقدم الصناعة : — وقد استفادت الصناعة كثيراً من استخدامها العلوم لا سيما الميكانيكيات والكيمياء وحدثت في القرن التاسع عشر صناعات كثيرة وامسى الانسان بالكاد يجد بين كل الصناعات القديمة ما لم تتجدد فيها كل ادواتها منذ مئة سنة الى الآن. فاتقان الصناعات وانتشارها وازدياد عدد الاهلين ونمو ثروتهم وتسهيل اسباب النقل كل ذلك عمل على ازدياد تقدم الصناعة فوسعوا المعامل القديمة وانشأوا غيرها جديدة وفوق ذلك تراهم انشأوا خلال هذه الثلاثين سنة عدة مصانع في البلاد التي كانت حتى ذلك العهد زراعية كالروسية والمجر والولايات المتحدة — واصبح لكل فرع من صناعة القرن التاسع عشر تاريخ مزدوج احدها تاريخ ما ادخل عليه من التحسين شيئاً فشيئاً وثانيهما تاريخ دخول تلك الصناعة الى الاقطار المتمدنة على اننا نجتزئ عن الاسهاب بروابة تاريخها بما نثبته في جدول الصنائع الكبرى التي اخترعت او تجددت في عصرنا الحالي

فمن الصنائع القديمة :

استخراج الفحم الحجري - كان يستخرج من مناجم الفحم سنة ١٨١٠ تسعة ملايين طن ليس الا فصار مقدار المستخرج سنة ١٨٦٠ مئة واربعين مليون طن ولكنه بلغ سنة ١٨٨٠ ثلثمئة واربعة واربعين مليوناً من الطنات

صناعة الحديد — كانت معامل الحديد تستعمل الحطب وقيداً فاستعاضوا عنه بالفحم الحجري ثم انشأوا المواقد العالية والمطارق الضخمة وبذلك صاروا يستطيعون العمل بقطع الحديد الجسيمة فكان مقدار الحديد المصنوع سنة ١٦٥٠ اربعة ملايين طن فصار سنة ١٨٨٢ عشرين مليون طن . وصناعة الاسلحة استعاضوا عن استعمال البارودة ذات الصواة بذات المكبس ومن ثم اصطنعوا البنادق السريعة الطلق . كذلك اخترعوا المدافع

تحشى من مؤخرها والقرابينات والريفولفر . والآلات للتبييض تجددت باكتشاف الكلور والمدابغ وغزل القطن والصوف والحرير وحياكتها . والمطابع تجددت باختراع المكابس البخارية والطبع على صفائح منحنية . والوراقة تجددت باستعمال اللآلات . والنقش تجدد باختراعات جمة كالليتوغرافيا وهو طبع الصور والحفر على الفولاذ وعلى الزنكو (التوتيا) والكروموليتوغرافيا [1] اما الاختراعات الحديثة فاشهرها خلا البخار والكهربائية ما يأتي :

الثقاب الكيمي . السكر المستخرج من الشمندور . الغاز . البترول . الكاوتشوك والكوباترخا . التصوير الشمسي وحفره . والتمويه بالكهربائية . الالوان المعدنية . المقددات وخلاصة اللحم

وترى لهذا العهد في جميع المدائن الكبرى وفي مقاطعات جمة من الارياف جمهوراً كبيراً من الناس لا مورد لهم غير الصناعة . وقد قدر عدد الفعلة العاملين في المناجم والمعامل باوروبا والولايات المتحدة سنة ١٨٨٠ بنحو ١٦ مليوناً يصطنعون ما قيمته سبعون مليارا من الفرنكات . على ان العمل في القطن والصوف لوحدهما يستغرق نحواً من ثلاثة ملايين ونصف من العملة وهم يصطنعون ما قيمته نحو ربع ثمن الصناعات كلها . اما فرنسا ففيها من العملة نحو مليونين

تقدم التجارة : — طرأ على التجارة حادثان عظيمان غيرا شؤونها احدهما في وسائل النقل وثانيهما في وسائط التراسل . ففي البحر نابت البواخر مناب السفن الشراعية واخذت سرعتها تزداد وتحسنت الاساكل وملئت السواحل من المنائر ورسمت الخرائط البحرية مبينة بملء الدقة ما في البحار من الاعماق والمجاري . وانتظم مسير البواخر بين الاساكل الكبرى وما عتم ان صارت عدة البواخر الماخرة عباب البحر تعد بالمئات وكلها تسير في سبل قويمة مطروقة ومعروفة جيداً حتى ان الخطة تعرف من قاع البحر حيث تلقي البواخر رماد فحمها . وقد كان السفر من انكلترا الى اميركا يستغرق شهراً من الزمن فاصبح اليوم يقطع بعشرة ايام عادةً الا انهم شرعوا ببناء بواخر يمكنها قطع هذه المسافة بسبعة ايام ويقدّر العارفون ان البواخر تستطيع ان تنقل وسقاً يزيد ثقله خمس مرات على ثقل السفينة الشراعية ولو ساوتها تلك في حجمها

ولم يكن يتأتى السفر للناس براً الا في المركبات الحوافل واما البضائع فكانت تنقل

(1) طبع الصور الملونة (للمترجم)

على العجلات (الكارات) وانها تسير على طرق مملوءة بالغبار والعفار ولا تخلو من الوحول فلما انشئت بين باريز وليون شركة المركبات المسماة مساجري وشرعت تنقل الركب بمدى ثلاثة ايام مع لياليها حسبها الناس قد تقدمت تقدماً باهراً وظل الحال كذلك حتى اواخر سنة ١٨٥٠ حين لم يبق للحوافل ولا لمركبات النقل من سبيل لان السكة الحديدية جرت بين المدن الكبرى واخذت من ثم بالامتداد في كل انحاء البلاد العامرة حتى تقدر امتدادها سنة ١٨٨٣ بنحو ٤٥٠,٠٠٠ كيلو متر منها في اوروبا ١٨٣,٠٠٠ وفي امريكا ٢٢٠,٠٠٠ يسير عليها ضرب من القطر السريعة يقال له اكسبرس يقطع في الساعة ٦٠ كيلو متراً (والقطار الحديدي بين لوندرا وايدنبوج يقطع ٦٤٦ كيلو متراً في ثماني ساعات) ومدوا في امريكا الشمالية خطين يقال لاحدهما الباسيفيك والاخر ترانسكونتيننتال كناديان فاجتازوا القفر الخالي من السبل على ان انشاء السكك الحديدية لم يحل دون اهتمام القوم بتحسين الطرق العادية فان الطرق القديمة المبلطة التي كان اجتيازها صعوداً ونزولاً محفوفاً بالمتاعب فاستبدلت بطرق ممهدت ذات انحدار قليل

واحكم تنظيم طرق التراسل ايضاً ومع ان البريد كان قد ترتب بعض الشيء في بداءة هذه القرن (١٩) فان نقل الرسائل ظل بطيئاً كثير النفقة فبدأت انكلترا بجعل اجرة البريد خفيفة الوطاة واحدة في فيئتها لاي مكان كان وان تلصق على الرسالة عند ارسالها وريقة (تمبر بوست) تشير الى اداء الاجرة فلحقت سائر الامم بانكلترا وتحدتها ٠ ومن ثم احدثت الطرق الحديدية تغييراً كبيرا في احوال البريد فانتظمت شؤونه اليوم بين كل البلاد المتمدنة ومستعمراتها حتى بلغ مقدار ما ينقل اتحاد البريد نحو ٤,٨٠٠ مليون رسالة و٩٠٠ مليون بطاقة بريدية (كارت بوستال و٣,٧٠٠ مليون جريدة ٠ واعطت ادارات البريد مئة وعشرين مليون حوالة تبلغ قيمها ٦,٥٠٠ مليون فرنك — اما التلغراف الكهربائي فلم ينتظم شانه الا سنة ١٨٥٠ ولذلك كان الممتد من اسلاكه سنة ١٨٨٣ بطول مليون ومئتي الف كيلو متر ٠ منها ٥٠٠,٠٠٠ كيلو متر في اوروبا و٤٣٠,٠٠٠ في اميركا و١٥٣,٠٠٠ من الاسلاك التلغرافية تحت البحر

على ان هذه الوسائل الجديدة للنقل والتراسل قد زادت كثيراً في تجارة البلاد سواء كان في داخليها او مع غيرها ٠ وفي غضون خمسين سنة (١٨٣٠ الى سنة ١٨٨٠) زادت تجارة اوروبا والولايات المتحدة الاميركية بنسبة مائة الى ثمانماية وبعد ان كانت قيمتها تقدر بتسع مليارات من الفرنكات ارتفعت الى سبعين ملياراً فانكلترا كانت قيمة

تجارتها الفين ومئتي مليون فصارت خمسة عشر الف مليون [1] واما فرنسا فكانت تتجر بقيمة الف وخمسمئة مليون فصارت تجارتها بقيمة ٩,٢٠٠ مليون

واحصوا سنة ١٨٨٣ تجارة اوروبا فوجدوها تجاوزت مبلغ ٦٢ ملياراً ٠ فان انكلترا وحدها اصدرت ١٠ مليارات واستوردت لا اقل من ٦ مليارات ٠ وهذه الزيادة مضطردة النمو على ممر الايام فانه في مدى عشرين سنة (١٨٦٥ ـ ١٨٨٥) زادت التجارة ضعفين او اكثر وكان من نتائج هذا الفلاح انه اتيح لكل بلاد تصريف حاصلاتها بتقريب منالها للمشترين في البلدان الاخرى ٠ وبالنتيجة علت اثمان البضائع في البلدان التي تنتجها وانخفضت قيمها في البلاد التي تشتريها فحوالي سنة ١٨٣٠ كان ثمن المد من القمح في انكلترا خمسة عشر فرنكاً وعشرين سنتيماً وفي فرنسا تسعة فرنكات ونصف وفي المانيا ستة فرنكات وعشرين سنتيماً وفي المجر اربعة فرنكات وربع فلما كانت سنة ١٨٧٠ انحطت الاثمان في انكلترا الى تسعة فرنكات و٩٠ سنتيماً وارتفعت في المجر الى ٧ فرنكات و٩٠ سنتيماً فانخفضت نسبة الفرق من ١٥٠ بالمئة الى ٢٣ بالمئة وهكذا تساوت الاثمان في كل اطراف العالم وستأول التجارة الى جعل حاجات الحياة المادية متشابهة تقريباً في كل البلاد المتمدنة

الفصل الثامن عشر

الاصلاح الاقتصادي في فرنسا وفي اوروبا

ازدياد الثروة : — ان تقدم الصناعة والتجارة افضيا الى نمو الثروة وادى توفر حاجيات الحياة الى ازدياد عدد السكان زيادة لم يسبق لها مثيل فانه بمدة ٨٢ سنة (من ١٨٠٠ الى ١٨٨٢) زاد عدد اهل اوروبا من مئة وسبعة وثمانين مليوناً الى ثلثمئة وثلاثين مليوناً ٠ وزاد عدد اهل الولايات المتحدة من خمسة ملايين الى خمسين مليوناً على ان سرعة النمو كانت على معظمها في الشعوب الانكلوساكسونية لان عدتهم زادت ثلاثة اضعاف في مدى ثمانين سنة

وازداد نماء الثروة زيادة اكثر ولم يزل آخذاً بالزيادة واهل البلاد المتمدنة لا ينفقون كل دخلهم وانما يدخرون كل سنة شيئاً من ارباحهم يصير لهم مصدراً لربح جديد

(١) في الاصل ١٥ الف مليار والسهو فيه ظاهر — مترجم

وهذا مايسمى بالاقتصاد وبلغ متوسط مايدخرون في السنة ١,٦٠٠ مليون في إنكلترا و ١,٩٠٠ مليون في فرنسا ومليارًا في ألمانيا و ٤,١٠٠ مليون في الولايات المتحدة فجملة المدخر في السنة ١٢ مليارًا وسنة ١٨٦٠ لم يكن في صناديق الاقتصاد الا ٣,١٥٠ مليونًا اما في سنة ١٨٧٨ فقد بلغ ٨,٥٠٠ مليون

واستفادت الحكومات من نمو الثروة بحيث صارت قادرة ان تزيد في نفقاتها وقد كانت جميع حكومات اوروبا سنة ١٨٢٠ لاتنفق سنويا اكثر من ستة مليارات فصارت تنفق لهذا العهد تسعة عشر مليارًا . أما نفقات انكلترا فكانت ١,٢٥٠ مليونًا وصارت ٢,٨٠٠ مليون وكانت نفقات فرنسا ٧٠٠ مليون فاصبحت ٢,٨٠٠ مليون على ان الدول تضطر لتسديد تلك النفقات ان تزيد الضرائب لان وارداتها صارت منحصرة فيها فالاموال المقررة على الاملاك لاتقوم باعباء هذه الزيادة الفاحشة فجعلت الحكومات تستدرها من الرسوم الجمركية ومن الاموال غير المقررة على الخمور والسكر والتبغ فزادت واردات هذه المكوس لتكاثر السكان واصبحت اكثر الضرائب مالاً

وفي القرن الثامن عشر لم تكن الدول تقترض مالاً فلما ادر التاسع عشر معين الثروة تسهلت سبل الاقتراض فجرت الحكومات فيها واقترضت الاموال الطائلة وكانت انكلترا هي البادئة لانها اضطرت الى البقاء على عداء بونابرت وحربه فاستدانت حتى بلغت جملة ديونها سنة ١٨١٥ نحو ٩٢٠ مليونًا من الجنيهات (اي ٢٣ مليارًا من الفرنكات) وكان الناس يظنون يومئذ ان مثل هذا الدين العظيم يثقل كاهل الدولة فيؤدي بها الى الافلاس ولكنها شرعت من يومئذ تقتصد في نفقاتها فتمكنت من اداء ربا الدين واستهلكت منه قسماً وقد بلغت جملة مادفعت للدائنين من ذلك الحين حوالي ٨٣ مليارًا وصار الدين الباقي عليها ١٩ مليارًا

على ان كل الحكومات الاخرى سلكت هذه السبيل واصبح الاستقراض وسيلة لاستحصال الاموال التي تضطر الحكومات اليها لسد اعوازها وهذه القروض تعقد بين الحكومات والدائنين بحيث يؤدون المال فلا يأخذون منه الا رباه وحسب الحكومات في وفاء الربا ان تزيد على الضرائب والرسوم مايكفي لمقداره

واستهوت هذه القروض اربابها حتى اكثروا منها فازدادت ديون كل الدول من سنة ١٨٢٠ الى سنة ١٨٨٠ زيادة هائلة فقد كانت ديون امبراطورية المانيا ٥٥٠ مليونًا فصارت ٥,٤٠٠ مليون غير ثمانية مليارات هي ديون خصوصية على حكومات المانيا

المستقلة وزادت ديون الروسية من ١,٢٠٠ مليون الى ١٤,٥٠٠ مليون وديون النمسا من ٢,٤٠٠ مليون الى ١٠,٥٠٠ مليون وديون ايطاليا من ٨٢ مليونًا الى ١٠ مليارات . اما ديون فرنسا فكانت اربعة مليارات وهي اليوم ٢٢ مليارًا ومعظم الاموال المأخوذة بهذه الديون أنفقت في سبل الحروب . وقد قدر العارفون ان حرب القرم سامت الدول التي اشتركت فيها مقدارًا زاد ديونها ٤,٨٠٠ مليون وتكبدت الولايات المتحدة في حربها ١٢,٢٠٠ مليون وانفقت فرنسا في حربها ٩ مليارات وجاء تسلح الدول ضغثًا على ابالة اذ زاد ديونها ٤٠ مليارًا مع ان انشاء الطرق الحديدية والتلغراف لم يزد تلك الديون الا ١٤ مليارًا

النقود والقراطيس المالية : ـ ان مناجم الذهب في اوستراليا وكاليفورنيا اخرجت من الذهب اكثر مما تعامل به الناس منذ ابتداء العالم الى الآن فان المعدنين استخرجوا بين سنة ١٨٥٠ وسنة ١٨٦٠ في كل سنة معدلاً متوسطًا لايقل عن ٢٠٠,٠٠٠ كيلوغرام ذهبًا وهي تعادل ٧٠٠ مليونًا من الفرنكات فاصبحت كمية الذهب المنتشر في العالم بين سنة ١٨٠٠ وسنة ١٨٨٥ ثلاثة اضعاف مقداره اولاً . ويقدرون الموجود منه اليوم في العالم كله بنحو ٤٥ مليارًا . وكان المستخرج من مناجم الفضة اقل مما هو عليه اليوم . فحوالي سنة ١٨٥٠ كان يستخرج منه سنويا ٩٠٠,٠٠٠ كيلو فاصبح في سنة ١٨٧٠ نحو ٢,٠٠٠,٠٠٠ كيلو وصار في سنة ١٨٨٤ نحو ٢,٨٠٠,٠٠٠ كيلو

الا ان زيادة الذهب والفضة ولئن كانتا عظيمتين فما هما تحسبان كافيتين لحاجات التجارة لان زيادتها بتلك المدة كانت اعظم بعشرة اضعاف من زيادتهما فاصبح النقدان الكريمان الذهب والفضة لايفيان بالحاجة ولذلك وضعت القراطيس المالية في القرن التاسع عشر لوفاء الغرض فكانت احدى حوادث القرون الكبرى

على انه كان ثمت كثير من البنوك تصدر السفاتج وقد سبق استعمالها في الصين منذ القرن الثامن المسيحي وكان بنك الدولة في فرنسا منذ ١٧١٩ يصدر مثل تلك الاوراق لكن لم يكن للناس بها ملء الثقة

ففي اواخر القرن الثامن عشر انشأت الدول بنوكها مضمونة الضمانة الكافية لاستجلاب الثقة . على انه لايحق للبنك ان يصدر من الاوراق الا قدرًا معينًا وعليه ان يدخر في خزائنه مالاً كافيًا لاداء قيمها عند طلبها ذلك مايعرف بدفع النقد وهذا المال المدخر يجب ان يكون لقاء ثلث القراطيس الجارية في التعامل ويبقى للبنك حق استثمار الباقي باداته

للوثوق بهم من التجار . وهذا المال المقروض يعطى لقاء سندات . على ان المال الذي يعطيه البنك ديناً لا يكلفه شيئاً لانه لقاء قراطيسه ولذلك يكون ربحه من اداته مضموناً له . على انه في اوقات الازمة حين يزدحم حاملو السفاتج يطلبون من البنك اداء قيمها كلها يومئذ تضطر الحكومة الى مساعدة البنك باعلانها ان قيم الاوراق اجبارية وبذلك يصبح البنك وقد تملص من واجب الاداء نقداً فيضطر الناس لقبول قراطيسه بدل النقدين

ولكل البلاد المتمدنة اليوم بنوك دولية وفي البلاد الغنية كانكلترا وفرنسا والولايات المتحدة نجد للاهلين كل الثقة باوراق البنوك يقبلونها كما يقبلون الذهب وفي الاحايين يفضلونها على الذهب لسهولة نقلها . واما في البلاد التي تقل ثقة الناس باقتدار حكومتها المالي فان قيم الاوراق تنحط الى ما دون قيمتها المسماة . ففي النمسا تنخفض قيمتها عشرين بالمئة وفي الروسية يساوي الروبل ورقاً فرنكين ونصف مع ان قيمته المسماة اربعة فرنكات وتبلغ قيم الاوراق الجاري تداولها نحواً من ٢٣ ملياراً

انتظام الثقة المالية : — لم يكن في الامكان بلوغ التجارة والصناعة هذا المبلغ العظيم من النجاح ما لم تكن قد انتظمت الثقة المالية وزادت زيادة تناسبها على ان الدين قديم الوجود منذ اواخر العصور الوسطى ولكنه امتد في القرن التاسع عشر امتداداً عظيماً بفضل البنوك والشركات المساهمة التي لئن كانت من المنشآت القديمة فانها انتهجت في هذه الآونة منهاجاً جديداً

فالبنوك تصدر قراطيسها والناس يتداولونها كما يتداولون الفضة والذهب وبذلك اصبح النقد في المعاملة مضاعف المقدار وصار باستطاعة ارباب الاعمال ان يستخدموا رأس المال مضاعفاً وبالنتيجة ان تتضاعف اعمالهم . ثم ان للبنوك فائدة اخرى وهي اصدار السفاتج (شك) والحوالات وذلك ان التجار واصحاب المعامل اذا كان لهم حساب جار في البنك واضطروا ان يدفعوا قدراً من المال فلا يلتزمون لاكثر من ان يعطوا سفتجة بالمبلغ الذي يرغبون اداءه فيؤديها البنك الذي يعاملون وتكون فائدة هذه الاحالة على اشدها متى كان المتعاملان من بلاد مختلفة وقد يقع التحويل من رجل الى آخر وكلاهما يعاملان البنك الواحد فيرفع المبلغ المحال عن مطلوب المحيل ويضاف الى حساب المحال له . وعلى هذه الطريقة يدفعون مليارات من غير ان يمسوا درهماً واحداً من النقد حتى ان بنك فرنسا يشتغل على هذا النسق بمبلغ يربو عن اربعين ملياراً يحيلها في السنة من حساب عميل الى آخر وبنوك البلدة كثيراً ما تجري على هذا النسق في تعاملها

فيما بينها وفي لندرا ونيويورك يجتمع مستخدمو البنوك كل يوم في محل تصفية الحسابات Clearing-house لمبادلة السفاتج التي يصدرها البنك الواحد على الآخر وتبلغ القيم التي تؤدى على هذا النمط سنوياً في لوندرا مئة وثلاثين ملياراً وفي نيويورك مئة وخمسين ملياراً وهذه الطريقة البسيطة فعالة جداً في تدوير رأس المال تدويراً بلغ في العالم الى هذا المقدار العجيب

على ان الجمعيات المساهمة ليست بجديدة فان بنك القديس جورج تأسس في جنوا سنة ١٤٠٧ ورأس ماله جمع من جماعة وضع كل منهم فيه نصيباً وكانت كل الشركات التجارية التي تأسست منذ القرن السابع عشر ذات رأس مال موزع حصصاً يسمونها سهاماً الا ان شركات المساهمة اصبحت لهذا العهد تقوم برأس مال يقسم حصصاً صغاراً فيجعلون السهم بقيمة ٥٠٠ فرنك ليسهل تناوله على ضعاف الحال فكان من مجموع التوفيرات التي تكاد لا تذكر انهم ياخذون اموالاً تؤلف رأس مال عظيم فاصبحت المساهمة سبيلاً للقيام بكل المشاريع الخطيرة

ومتى لاح للناس عمل يعطي كسباً ينشئون شركة غير مسماة Société anonyme (تدعى غير مسماة لتمييزها عن الشركات التجارية التي يضع مؤسسوها اسماءهم فيها ويكونون مسؤولين عنها) والشركة غير المسماة عامة بين كل من يبتاع اسهمها ويقتسم المساهمون فيما بينهم ارباحها بالنسبة الى عدد ما يملكون من حصصها ويسمون هذا محاصة الربح le dividende ثم ان اعمال الشركة يقوم على تدبيرها مجلس ادارتها لكن الاحكام لا تجري الا برأي المساهمين في اجتماع عام يعقد بينهم — على ان لشركات الانونيم الفضل في ادارة معظم المشاريع العظيمة من مثل الطرق الحديدية والمناجم وترعة السويس . وقيم اسهم الشركات ترتفع وتهبط ولا تستقر على حال الا قليلاً فالمشترون يؤدون اثمانها غالية او بخسة حسب ما يتوقعون من ارباحها وهي بذلك اشبه بالبضائع فان اثمان الحبوب والقطن والقهوة والزيت تتوقف على الظروف فتختلف من يوم الى آخر . على ان تحديد اثمان الاسهم والسلع يقضي بتجمع المشترين والبائعين في موضع عمومي وهذا الموضع هو ما يسمى البورص

فهذا الاجتماع اليومي لم يبق من حاجة للاسواق الدورية فقل عليها ترداد الناس شيئاً فشيئاً لا سيما في الغرب

ومنذ القرن السادس عشر نجد في المدن الكبرى التجارية بورصات يجتمع اليها اهل

التجارة للمعاملة في الحبوب والقطن والقهوة وكل البضائع التي تباع بالجملة الآن ما يسمونه اليوم بالبورص انما هو الموضع الذي يتعاملون فيه بالسهام فيجتمع اليه الوكلاء عن التجار فيشترون او يبيعون لحساب عملائهم اسهم الشركات الأونيم والاوراق المالية الدولية

واثمان الاسهم تختلف كل يوم عن الآخر فاذا ازدادت قيمها قيل حدث صعود واذا تناقصت قيل وقع هبوط فصعودها دليل نجاحها وتقدم مشروعها ونزولها دليل مضايقتها وتلبكها ولهذا كان البورص عبارة عن الترمومتر تدل اختلافاته على حالة البلاد المالية

ومن الصعود والهبوط ينشأ ضرب من الاعمال لم يكن الا في عصرنا وهو ما يعرف بالمضاربة وانما نشأ هذا الضرب من اعتياد القوم على ان يكون بيع السهام وشراؤها ليس نقداً (اي لا ينقد الثمن في الحال) وانما لاجل (يؤجل الى وقت مسمى ويغلب فيه ان يكون في آخر الشهر) فالمضاربون يبتاعون الاوراق والبضائع ولكنهم لا يستلمونها بل يبيعونها من غير ان يحرزوها واذا تصاعدت اثمانها في خلال المدة بين الشراء والاستلام اضطر البائعون ان يعيدوا شراءها اغلى ثمناً مما باعوها فيؤدون الفرق الذي يخسرون . ولكن اذا هبطت الاثمان استعادوا الشراء بثمن اقل فيربحون الفرق . وخلاصة القول يربح المشترون اذا تصاعدت الاثمان لانهم لم يشتروا الا بثمن اقل مما باعوا ويخسرون اذا هبطت . ولذلك فاعمال البورص اتخذت شكل المقامرة ويقولون عادة قامره على الصعود او على الهبوط ويغلب في المضاربة ان تكون بمبلغ طائل لان المضارب الشاري بما قيمته مليون فرنك ليس من الضرورة ان يملك المليون فيقع من جراء هذا التساهل ربح عظيم او خسارة فادحة وقد ادت المضاربة برجال المالية الى احرازهم الاموال الطائلة

والاموال لا تبقى محصورة في البلاد التي جمعت منها لان المتمدنين الاغنياء منذ زمن طويل كالانكليز والفرنساويين جمعوا من الاموال الطائلة ما لا يمكنهم استخدامه في بلادهم فيرسلون اموالهم ومهندسيهم الى البلاد الجديدة التي يعوزها المال كاميركا وروسيا وتركيا لينشئوا فيها الاعمال الخطيرة كالطرق الحديدية والمناجم ومعامل الغاز ويقدرون ارباح الانكليز سنوياً من اموالهم المستعملة في الخارج بمليار ونصف لانه يوجد في كثير من انحاء العالم اعمال صناعية عظيمة تختص بالشركات الانكليزية ولقد يحدث ان تجمع اموال طائلة من بلاد شتى للقيام بالمشاريع العامة مثل حفر ترعة السويس التي يبلغ طولها ١٦٢ كلو متراً وعرضها مئة متر وعمقها تسعة امتار وكاشتراك متمولي المانيا وايطاليا وسويسرا بحفر نفق القديس كوتار الذي وصل المانيا بشمالي ايطاليا

الحماية وحرية التجارة : — ان في تنظيم الاتجار بين الامم رأيين متناقضين : احدهما حرية الاتجار وقد نجم عن مبدإ اتخذه الاقتصاديون القدماء وهو ان حرية المسابقة افضل ذريعة لاستحصال الثروة وبه يخول كل سكان بلد ملء الحرية لمقايضة بضائعهم بنتاج البلدان الاخرى اي ان يشتروا ويبيعوا في الاقطار الاجنبية كما يشترون او يبيعون في داخلية بلادهم من غير ان يؤدوا رسوماً عند ادخال بضائعهم او انهم يؤدونها رسوماً قليلة لا تنهظ تجارتهم . وثاني الرأيين مبدأ الحماية وهو شبيه بالمبداء القديم في موازنة التجارة لاعتباره ان من مصلحة الامة حماية صناعاتها من مزاحمة الامم الاخرى ولذلك يطلب تباع هذا الرأي ان تضرب الرسوم الفادحة على المنسوجات المصنوعة في الانحاء الاجنبية حين دخولها الى بلادهم فيضطر اصحابها الى زيادة اثمانها فتساوي المصنوعات الوطنية ثمناً

اما اشياع حرية الاتجار فيرفضون الرسوم الجمركية التي تضرب على البضائع الاجنبية عند تجاوزها التخوم ومنهم من لا يرضى بها الا من نوع الضرائب . اما اشياع الحماية فعلى عكس ذلك يحسبونها واجبة لحماية صناعات بلادهم

وكانت حرية الاتجار جارية في القرن الثامن عشر ولكنها اهملت خلال حروب الامبراطورية فان الحصار البري الذي اتخذه نابليون كان منعاً لم يسبق له مثيل وبه اغلق الباب في وجه كل البضائع الانكليزية وبعد رجوع الملكية الى فرنسا جروا على طريقة وسط بين المنع والحماية — اما في انكلترا حيث كان كبار الملاكين هم اصحاب الكلمة النافذة في البارلمان فانهم انشأوا الجمارك حماية لغلة ارضهم من القمح وقد بدأت تزاحمه تجار الغلة من البلدان الاخرى فكان نظام سنة ١٨١٥ سداً لابواب انكلترا في وجه القمح الغريب ودام ذلك حتى بلغ ثمن الكوارتر من القمح الانكليزي ثمانين شليناً فاوجس القوم خوفاً من المجاعة واباحوا ادخال القمح الغريب الى بلادهم — ومنعوا في فرنسا دخول اصناف المصنوعات الانكليزية الى بلادهم مثل منسوجات الكتان والقطن والعجلات والمدى ولكي ينظموا تجارة القمح اوجدوا طريقة السلم المتحركة فكانت الرسوم على الداخل الى فرنسا تختلف بحسب اثمان القمح في السوق الفرنساوية

ومن ثم عاد اشياع حرية المتجر الى سعيهم الغاء للمنع وتخفيضاً من رسوم الحماية ففي انكلترا احرزوا النصر تماما وذلك ان في سنة ١٨٢٤ استحصل هسكيسن على قرار من البارلمان بتخفيض الرسوم وانشئت في سنة ١٨٣٨ جمعية لطلب الغاء الرسوم على

القمح Anti-corn law League

وكان مركز الجمعية في مانشستر ويديرها كوبدن وهو من اصحاب المعامل فصرفت جهدها بنشر المقالات واهاجة الخواطر حتى حدثت المجاعة سنة ١٨٤٦ فاذنت الحكومة باعطاء حرية الاتجار بالقمح على ان جمعية مانشستر اجتذبت الى ارائها الحزب الحر فاحدثت تخفيضاً في فئة الرسوم المضروبة على اصناف البضائع عند دخولها . وظلت الحكومات في البلاد الاخرى الاوروبية جارية على طريقة الحماية

المعاهدات التجارية : — ظلت حماية التجارة مبدأ تعتمده الدول الاوروبية في تأييد حقوقها المتبادلة فلا تسمح احداها بدخول البضائع الاجنبية الى بلادها ما لم تؤد الرسوم الجمركية وكل حكومة تخرج جدولاً بالرسوم المفروضة على كل نوع من انواع البضائع ويقال لهذا الجدول تعريفة فيستحيل بعد ذلك الغاؤها او ان يخفض شيء منها الا بالاتفاق المخصوص . ولذلك اذا ارادت الدول تخفيض التعريفة على شيء من حاصلاتها اضطرت ان تعاقد الدول الاخرى عهوداً تتبادل بها المنافع وتسمى هذه العقود المعاهدات التجارية

والقاعدة المرعية في عقد مثل هذه المعاهدات هي المعاملة بالمثل او تبادل التخفيض فالدولة الواحدة تخفض من الرسوم الموضوعة على بضائع الدولة الاخرى عند دخولها بلادها بشرط ان تخفض تلك من رسومها على بضائع الاخرى وهذا ما يسمونه في انكلترا بتجارة الولاء . ويفرق هذا النوع عن حرية الاتجار بان حرية الاتجار تفتح اسواقها لاقتبال كل البضائع الاجنبية على اختلاف اجناسها من غير اشتراط على الدول ان تعاملها بمثل ذلك

ولقد مرّ على المعاهدات التجارية حين من الدهر ظهرت فيه كانها ذريعة لاعطاء حرية الاتجار فان المعاهدة التجارية المنعقدة بين انكلترا وفرنسا سنة ١٨٦٠ افضت بنابليون الثالث الى الغاء طريقة المنع واستبدالها بطريقة الحماية . وان تخفض الرسوم من سنة الى اخرى ثلاثين بالمئة ابتداء من سنة ١٨٦١ وخمسة وعشرين بالمئة من سنة ١٨٦٤ واما انكلترا فالغت كل الرسوم الجمركية على البضائع الفرنساوية من منسوجات حريرية وغيرها من الاصناف وخفضت رسوم الخمر من ١٥٨ فرنكاً الى ٣٢ فرنكاً عن كل هيكتوليتر . على ان هذه المعاهدة عقدت لمدة عشر سنوات الا انه في هذه السنين الاخيرة رجعت جميع الحكومات الى طريقة الحماية . فاصبحت المعاهدات التجارية بين الدول تخلو من ذكر تعريفة تسمي بها الرسوم المحددة على البضائع الاجنبية وانما يقتصر في نصها على اداء الرسوم بمقدار ما تؤدي الامم الاخرى من المتفقات على اداء احط الرسوم مقداراً وهذا ما يسمونه شروط

الامة الاكثر تفضيلاً . على ان هذا الضرب من المعاهدات لا يمنع الدولة المعاهدة من رفع فئات رسومها وانما يحظر عليها ان تتقاضى من ابناء الامة الواحدة اكثر مما تأخذ من الاخرى

المعارض العمومية : — ان التقدم العظيم في الصناعة والتجارة دفع بالحكومات الى تصور اقامة المعارض العمومية لتجتمع فيها كل مخترعات العالم برمته وحاصلاته فيكون مشهداً ومدرسة معاً واول معرض كان في لوندرا سنة ١٨٥١ فبلغ عدد العارضين فيه ١٧٫٠٠٠ ومن ثم تتابعت المعارض العمومية كالباريزي الاول سنة ١٨٥٥ (كان فيه ٢٤٫٠٠٠ عارض) واللندني سنة ١٨٦٢ (وفيه ٢٧٫٠٠٠ عارض) والباريزي الثاني سنة ١٨٦٧ (وكان فيه ٥٢٫٠٠٠ عارض) ومعرض فينا سنة ١٨٧٣ ومعرض فيلادلفيا من الولايات المتحدة سنة ١٨٧٦ والباريزي الثالث سنة ١٨٧٨ ومعارض مالبورن وامستردام وانفرس وبروكسل والباريزي الرابع سنة ١٨٨٩

وكان كل معرض من هاته المعارض اعظم من المعرض الذي سبقه فان معرض باريز سنة ١٨٥٥ أقيم في قصر الصناعة في شأن اليزه ولم يشغل وقتئذ الا احد عشر هيكتاراً من الارض ولم يعرض فيه الا ٢٤٫٠٠٠ عارض وقد امه نحو ٤٫٥٩٤٫٠٠٠ زائر

اما معرض سنة ١٨٦٧ فقد شغل ارضاً سعتها نحو عشرين هيكتاراً (ولم تكن الا جزءاً من شان دي مارس) والعارضون فيه بلغت عدتهم ٥٢٫٢٠٠ عارض اما زواره فبلغوا نحواً من ٩٫٣٢٩٫٠٠٠

وامتد معرض سنة ١٨٧٨ فشغل كل ساحة شان دي مارس واكمة التروكاديرو (فسعته ٢٩ هيكتاراً) وعدة العارضين فيه ٥٢٫٣٠٠ والذين دخلوهُ زهاء ١٦٫٠٠٠٫٠٠٠ زائر

ولكن معرض سنة ١٨٨٩ امتدت سعته فشغل شان دى مارس والتروكاديرو وكل ساحة الانفاليد والرصيف الواقع بين الانفاليد والشان دى مارس وجاءهُ اكثر من ٢٨ مليوناً من الزائرين

الازمات المالية : — ان التجارة ربطت الشعوب المتمدنة بعضها ببعض رباطاً متيناً بحيث تتبادل المساعدة وتشعر الواحدة منهن بنجاح الاخرى او ضنكها

وكانت كل مقاطعة في العصور الوسطى منفردة لذاتها واذا امحل الموسم في احداها نجم عن ذلك مجاعة ومات الفقراء جوعاً . على انهُ منذ القرن التاسع عشر انقطعت المجاعات ولكن ظلت البلاد حتى منذ نصف قرن اذا امحلت مواسمها تولاها القحط وتصاعدت اثمان

القمح ارتفاعاً كبيراً واما اليوم فان كان موسم القمح في جهة ماحلاً تتكاثر واردات الغلال من روسيا واميركا والمجر تكاثراً يسد النقص ويقوم بالحاجة فلا يقع الضنك على الناس ومنذ سنة ١٨٧٦ الى سنة ١٨٧٩ امحلت مواسم فرنسا اربع مرات متوالية بحيث لو وقع مثل هذا المحل في العصور الوسطى لاحدث مجاعة هائلة على ان المحل الاخير كاد لا يؤثر تأثيراً يذكر في ثمن الخبز

فاصبح القوم لهذا اليوم لايخشون من وقوع المجاعة وانما ناب عنها طروء الازمات المالية والازمات تختلف في مصادرها واسبابها فمنها التجارية وهي ما ينجم عن حرب عوان تضطرم نارها فتقف الاشغال او عن افتتاح اسواق جديدة او تغيير فجائي في طرق التجارة . ومنها الصناعية وهي تنتج عن سد احد منافذ الصناعة او عن مزاحمة جديدة او لان المعامل اصطنعت اكثر مما تقتدر على بيعه (وهذا ما يسمونه زيادة المصنوع) . ومنها المالية وهي تتأتى عن تصدير مقادير كبيرة من النقود . ومنها ازمات البورص وهي تحدث من تهافت الناس على شراء الاسهم فتصعد اثمانها الى حد يتجاوز المعقول وقد اطلقوا منذ بضع سنين على هذه الازمة اسماً المانيا (كراش) ومعناه التهور — على ان كل تلك الازمات تظهر بوقوف الاشغال وقوفاً فجائياً فتبطل الثقة ويحجم ارباب المال الذين يحرزون منه ماجرت لهم العادة باعطائه ديناً عن المخاطرة باداتة اموالهم فيصبح الصيارف والتجار وهم لايجدون محلاً يستقرضون منه فلا يقتدرون على اداء ما عليهم فيشرفون على الافلاس وينقص مقدار البيوع وتقل عن الصناع مطالب صناعاتهم فتقفل المصانع او تصرف عدداً من عمالها فلا يجد العملة شغلاً فيعضهم الفقر بنابه ويلم هذا الحال بجميع مراتب الهيئة الاجتماعية نوعاً او بالتسلسل واذ ان كل البلاد المتمدنة مرتبطة بعضها ببعض بالتجارة بحيث صارت كانها كلها سوقاً واحدة لاتلبث الازمة الواقعة في بلد حتى يتصل اذاها بالاخرى . فان الازمة الكبرى الحادثة سنة ١٨٥٧ بدأت في الولايات المتحدة في شهر ايلول (سبتمبر) فحدث على اثرها افلاس خمسة الاف تاجر مجموع ديونهم مليار ونصف من الفرنكات ولكن لم يأت شهر تشرين الثاني (نوفمبر) حتى شعرت بها انكلترا ومنها اتصلت الى شمالي المانيا والدانمارك والنمسا ومن ثم بلغت الهند والبرازيل و بونس ايرس

الفصل التاسع عشر

الديموقراطية والمبدأ الاشتراكي

الديموقراطية

المبادىء الديموقراطية : — كانت مراتب المجتمع الانساني الاوروبي مرتبة منذ العصور الوسطى مراتب غير متساوية وكان مقام الانسان متوقفاً على مكانة عائلته التي ولد منها فاما ان يكون من الاشراف او الاوساط او الفلاحين . فشأن الانسان تابع اثر مولده على ان الناس كانوا لايرون بأساً من بقاء الانسان على الحالة التي ولد فيها ولذلك كان لابناء المراتب السامية وهم نفر قليل من ذوي الاحساب وحدهم حق التمتع دون سواهم بالسلطة والمجد والثروة ولهم وحدهم تتلفت انظار الناس . وعليه كانت الهيئة الاجتماعية اريستوقراطية اي قائمة بمبدإ الاعيان

الا انه منذ القرن الثامن عشر شرع الناس لاسيما الكتبة يقدحون بهذه الاحوال مبينين جورها لان بها سلب الناس حق التساوي مع انهم ولدوا متساوين بحكم الطبيعة ورموها بخلوها من الانسانية لانها تفرض على القسم الاكبر من الشعب البقاء في حال الذلة والمسكنة ونعتوها بالسخافة والخرق لان بها تحكم الصدفة في العهد بادارة الشؤون لرجال لا شأن لهم الا كيانهم مولودين اعياناً فنشأ يومئذ المبدأ الديموقراطي اي العامي مناقضاً للاريستوقراطي على ان واضعي الاسم الديموقراطي قد خرجوا بالكلمة عن وضعها اللغوي لانها تفيد الحكومة الشعبية فصار مفهومها لهذا العهد كل سنة لا اعتداد فيها للشرف الموروث . وبالحقيقة ان اشياع الديموقراطية يميلون عادة للحكومة الجمهورية لأن مخالفيهم الاريستوقراطيين يعضدون الملكية ولكن علينا ان نفرق بين الديموقراطيين والجمهوريين [1] على ان الامبراطورية

---

(١) وعلينا ان نفرق ايضاً بين الديموقراطيين والقائلين بالمساواة فان هؤلاء اشياع المساواة يريدونها على اطلاقها بين كل الناس من غير ميزة ولو كانت الميزة عن الجدارة اما الديموقراطيون فيسلمون بوجوب الامتياز في الثروة والجاه والسلطة وانما يطلبون الغاء امتياز الاحساب ولذلك نجد حكومة الجاكوبيين قد قامت على مبدإ المساواة المطلقة اما حكومة الولايات المتحدة الاميركية فطريقتها ديموقراطية صرفاً

الفرنساوية كانت ملكية ــ ديموقراطية

ومبادىء الديموقراطية يمكن العمل بها وتحكيمها في الحكومة والهيئة الاجتماعية والآداب فيطلبون ان لا تجعل الحكومة في قانونها اقل فرق بين الناس سواء كان في الضرائب أو في القضاء وانما يريدون ان كل انسان مهما كان حسبهُ يتمكن من التوظف في كل المناصب حتى اسماها . وكان أشياع التقليد يتبرمون من هذه المطالب لانهم يحسبون قيام العامة في المناصب محطاً من شانها ومن مطالب الديموقراطيين ان لكل انسان الحق في مشترى اي ارض شاء ولو كانت من أملاك النبلاء وان يباح لعامة الناس الاعتناء بتعليم أولادهم مثلما يعلم الاعيان بنيهم وهكذا تراهم لا يجيزون عدم المساواة حتى في الشؤون الخاصة ويناهضون التمسك بمفاخر الحسب ويعظم عليهم ان يأبى النبلاء قبول أحد الاوساط في قاعاتهم أو ان يزوجوه من بناتهم وانكى من هذا ان كثيرين من الاوساط يعاملون ابناء العملة كما يعامل النبلاء اعيانهم [1]

الغاء الاسترقاق — : لم يبق من اثر لاسترقاق الفلاحين في معظم اوروبا في غضون الثورة الفرنساوية وقد الغي تماماً من كل البلاد التي اقيمت بها الادارة الفرنساوية

وسمحت الحكومات في البلاد الاخرى للفلاحين بابتياع كل السخرة والاموال المقررة عليهم لاسيادهم فتم لهم المشترى تدريجاً اما في المانيا فالغي كل ما بقي من حقوق الاسياد وذلك على أثر فتنة سنة ١٨٤٨ واصبح الفلاحون يملكون الارضين (خلا ما كلنبرج) واما في امبراطورية النمسا فقد ابقوا السخرة ولكنهم رتبوا شؤونها ثم الغاها مجلس التشريع سنة ١٨٤٨

اما في الروسية فلم يتطرق التغيير الى شيء من شؤون الاسترقاق على انه بعد سنة ١٨٥٠ جعل الكتبة من الروس يثيرون عواطف الامة بما يصفون من شؤم حالة الارقاء [2] وفي سنة ١٨٦١ اصدر القيصر اسكندر الثاني امراً يلغي فيه الاسترقاق فتحرر جميع الارقاء وصار لخدمة البيوت منهم (وعدتهم في بيوت الكبراء مليون ونصف) الحق في اعتزال خدمة اسيادهم او ان يظلوا فيها لقاء اجور يتقاضونها منهم ٠ وكان من الصعب جداً بت مسألة الارقاء من الفلاحين وهم السواد الاعظم من الشعب الروسي اذ ليس في الامكان ان تنزع من ايديهم الاراضي التي اقام على حرثها الاباء والابناء فيصبحون

---

(١) طالما افصحت القصص والروايات التمثيلية عن تقبيح هذه الافكار وحسبك رواية الحيل والحب لشيلر (٢) انظر كتاب تورگنيف في اخبار امير روسي

اذا نزعت عنهم فعلة ليس الا عند اسيادهم ٠ وهم انفسهم يؤثرون البقاء على الرق يقومون على حرث الارض التي يحسبونها كانها ملك لهم على الاشتغال كفعلة فيها ٠ على ان واحداً من الملاكين المحسنين اراد تحرير ارقاءه وان يهب لكل واحد منهم البيت الذى يسكنه والحديقة التي حوله فلما كاشف الارقاء بما خطر له سألوه ولمن تكون الارض الصالحة للزراعة ؟ — اجاب انها تبقى لي — قالوا اذاً يا ابانا الصغير فلتبق الامور على حالها الماضي لاننا نحن لك انما الارض لنا — لكن ما عتم ان صدر امر القيصر ان ياخذ كل فلاح من الارض ما يكفي للقيام باود عائلته وان يكون الارقاء العاملون في املاك الدولة مالكين الارض التي يقومون على حراثتها اما من كان منهم في خدمة الافراد فيشاركونهم في الاملاك التي بايديهم ومن ثم يشترون من المالكين الحصص التي تخصهم على ان الحكومة تعضدهم بتسليفهم المال للمشترى وكل ملك تم شراؤه على هذا النمط اصبح ملكاً مشاعاً لفلاحي القرية

تحرير المرأة : ــ قد ادت الاراء الديمقراطية الى انقلاب عظيم افضى الى تحسين حال النساء فانهن كن في كل مكان دون الرجال مقاماً ولم يكن يحق لهنَّ الاشتراك في شيء من اعمال الحكومة ولا معاطاة المهام التي يتعاطاها الرجل وفوق ذلك لم يكن يباح للنساء المتزوجات تدبير امور ثروتهن الخاصة ولا اختيار محال سكناهن وانما للزوج حق تدبير اموال زوجته وفي وسعه ارغامها على اللحاق به الى حيث اراد

فنشأ حزب يطلب باسم الانسانية والعدل تحرير النساء وكانت مطالبهم تختلف بين ان يكون التحرير شاملاً كل الشؤون او مقتصراً على بعضها ففريق منهم شرع يطلب المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة في كل الحقوق السياسية وان تنال حق الانتخاب وان تنتخب فتجلس في المجالس وتتولى المصالح السياسية — وطلب فريق اخر مساواة الرجل بالمرأة في حقوق المجتمع والاقتصاد بحيث تستطيع النساء ان يسعين في الارتزاق كالرجال وان يدخلن المدارس مثلهم وان يتعاطين كل الاعمال الا السياسية — واقتصر فريق ثالث على طلب المساواة المدنية لهن بحيث يكون للمرأة حق التصرف بمالها وحريتها الذاتية كما يتمتع الرجل

واشياع حرية النساء كثيرون في البلاد المتمدنة مثل انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة فنال الجنس اللطيف في تلك الديار حق دراسة العلوم وممارسة صناعة الطب الا انهن لم ينلن شيئاً من ذلك في المانيا فطالبات الطب يتلقين هذا العلم في كليات فرنسا او سويسرا . واما حزب حقوق النساء السياسية فلا وجود له الا في البلاد الانكليزية ولقد كانت ولاية

وايومين في الجبال الصخرية من الولايات المتحدة في بعض ازمنتها البلاد الوحيدة في في العالم التي يتمتع النساء فيها بالحقوق السياسية. على ان مجالس النواب في الممالك الاربع الغربية ارادت ان تمنح النساء حق الانتخاب الا انها وجدت انهُ يتعذر ادخال مثل هذا التغيير على الدستور من غير استشارة المنتخبين فلما سئلوا رأيهم ابوا الموافقة على المطلب فاصبح وليس للمرأة حق الانتخاب الا في زيلاندا الجديدة وفي ولايتين من الولايات المتحدة الاميركية (وهما وايومن وواشنطون)

واما في انكلترا فقد صرح مجلس النواب ان حق الانتخاب منوط بالمتملكين ولذلك لا يمكن ان تسلبه النساء لانهن مالكات ايضاً

الخدمة العسكرية : — لقد عدلت حكومات اوروبا منذ انتهاء النظام الاقطاعي عن طلب الاهلين للخدمة العسكرية وصار الجيش يتألف من المتطوعين الذين يتقيدون في الخدمة لمدة طويلة الا انه في القرن الثامن عشر احتاجت بعض الدول لزيادة جيوشها ولم يكن عدد المتطوعين وافياً بحاجتها فشرعت تكتتب من رعيتها بالاجبار اعتبر ذلك بما فعله لويس الرابع عشر ملك فرنسا وفردريك غليوم ملك بروسيا وبطرس الاكبر قيصر روسيا [1] على انهم اقتصروا يومئذٍ على تكتيب الفلاحين والعملة دون الاشراف والاوساط

فلما قامت فرنسا تحارب كل اوروبا حاولت في بادىء الامر ان تعبىء جيشها من الذين يدفعهم اليه حب الوطن (فكانت نشأة متطوعة سنة ١٧٩١ وسنة ١٧٩٢) الا انه في بدء سنة ١٧٩٣ اضطرت حكومة الكونفانسيون ان تجبر الناس على التجند فنشأ مبدا مؤداه وجوب الخدمة العسكرية على كل وطني فرنساوي واذا لم تكن الدولة تحتاج الى كل القادرين على حمل السلاح وضعت حكومة الديركتوار سنة القرعة وبها يوخذ من يقضي عليه حظه بالخدمة ويترك الاخرون

واجاز نابليون لمن اصابته القرعة ان يقدم عنه بديلاً فلما صار البديل يشترى بالمال اصبح الاغنياء في الواقع معافين من الخدمة العسكرية وقد حافظت كل الحكومات الفرنساوية على هذا النظام (ولئن غيرت اسمه) حتى سنة ١٨٧٠ وجرت عليه معظم الدول الاوربية

ولما كانت دولة بروسيا تحتاج في محاربة نابليون الى حشد جميع شبانها الاصحاء حافظت على المبدأ حتى الى ما بعد انتهاء الحرب وكان قانونها العسكري يوجب على كل بروسياني ان يكون جندياً يخدم ثلاث سنوات في العسكر العامل ثم ينتقل الى الرديف واخيراً الى

(١) ولقد سبق لملوك السويد ان جروا على ذلك منذ عهد غوستاف ادولف

اللاندوار ولا يعفى احد من الخدمة ولا يقبل البدل . ولما طلب اهل برلين اعفاءهم من الخدمة العسكرية سنة ١٨١٦ اجابهم الملك متوعداً الطالبين باشهار اسمائهم على انه يحق للشبان الذين ينهون دروسهم ان يخدموا سنة واحدة وان يقضوا تلك الخدمة في البلدة التي يختارونها ويقال لهذا العمل التطوع لمدة سنة

على ان هذا النظام البروسي مؤسس على مبدأ حق الحكومة المطلق على الشعب اكثر مما هو موضوع على مبدأ المساواة اذ لم يكن المجتمع البروسياني يومئذٍ ديموقراطياً (وما هو حتى اليوم ديموقراطي تماماً) على ان الناس الفوا الرأي البروسياني الموجب على كل الرعايا ان تحمل السلاح دفاعاً عن الوطن فانصل منها الى سائر الامم

وبعد انتصارات بروسيا على النمسا سنة ١٨٦٦ وعلى فرنسا سنة ١٨٧٠ عملت معظم الدول على جعل الخدمة العسكرية اجبارية فغلب عليهن جعل خدمة المتطوعة الى سنة والخدمة العاملة لثلاث سنوات واتخذت فرنسا سنة ١٨٧٢ مبدأ التطوع والخدمة العاملة لخمس سنين بيد انها عادت سنة ١٨٨٩ فخفضت الخدمة العاملة الى ثلاث سنوات وابطلت التطوع

اما حكومة سويسرا فاشهرت منذ سنة ١٨١٧ نظام العسكرية الاجباري غير انها وضعته بحيث يكون اخف وطأة على الاهلين واذ كانت بلاداً متحايدة وقد عزمت ان لا تهاجم البلاد المجاورة ابداً وانما تتخذ هذا النظام حتى يتسنى لها اذا مست الحاجة ان تكون متأهبة للدفاع فان شبانها يقومون بالخدمة في الثكنات وقتاً قصيراً في مدى بضعة اسابيع ومن ثم يعودون الى منازلهم على ان الحكومة تدعوهم في الاحايين للتمرن على اطلاق البنادق حتى صار اطلاقها عند السويسريين من الملاهي الوطنية واصبحوا من امهر الاوربيين في احكامها

ولبثت انكلترا تتبع في تكتيب جيوشها طريقة التطوع وتستخدم المتاجرة من الذين اتخذوا الخدمة العسكرية حرفة يرتزقون منها فتؤديهم الاجور الباهظة وهي شلين في اليوم

اما الولايات المتحدة الاميركية فجيشها صغير جداً يؤلف من العشرين الى الخمسة والعشرين الفاً ولا تحتاج للنظام العسكري لانها لا تجاور بلاداً تعاديها

التعليم العمومي : — وظلت الحكومات الاوروبية زمناً طويلاً تحسب التعليم امراً خصوصياً من خصائص الاباء لذلك لم يكن فيها الا مدارس خاصة اقيمت وتولى ادارتها رعاة الدين من الكاثوليك والبروتستانت على ان التعليم الديني كان الجزء الاهم من تعليم تلك المدارس الا ان بعض الحكومات الالمانية (سيما في القرن الثامن عشر) صرحت

بل الآباء ملزمين بتعليم اولادهم التعليم الابتدائي ولكنها اقتصرت في ان تفرض على الناس وجوب انشاء المدارس على نفقتهم

ولقد وضع مجلس التشريع ومن ثم حكومة الكونفدراسيون مبدأ مؤداه ان من واجب الحكومة القيام على تعليم الاولاد على ان الولايات لم يسمح لها بالعمل بالمبدإ الذي وضعناه ولما اتى الكونفدراسيون انشاء المدارس المركزية فقط بدلاً من المدارس والكتاتيب الابتدائية ولكن قبل اتمام هذا النظام عاد نابليون المدارس وظلت الكتاتيب مهملة وترك للشعب الاضطلاع والقيام بانشائها

فمكث التعليم الابتدائي مهملاً في كل البلدان حتى القرن التاسع عشر وكان الرأي الشائع بينئذ بين رجال السياسة ان لا لزوم لتعليم طبقة الشعب لانهم كانوا يذهبون الى ان التعليم يدفع بهم الى احتقار العمل اليدوي ويبث فيهم روح الثورة - ولما عرض لاول مرة على مجلس النواب الانكليزي مسألة التعليم الابتدائي ووجوب تقرير النفقات لانشاء مدارس له اعترض على هذا الاقتراح احد اللوردة قائلاً اذا كان ثمت جواد يعرف كمعرفة الانسان فلا احب ان اكون فارس ذلك الجواد

على ان حكومات المانيا سيما حكومات ساكس وبادن وتمبرج وبروسيا هي اللواتي اول من جعل التعليم الابتدائي الزامياً واللواتي انشأن في كل ولاياتهن المدارس الابتدائية وفرضن على كل الاولاد الدخول اليها من السادسة الى الرابعة عشرة من سنيهم وآل الامر بالحكومات الى ان صارت تقوم بمعظم نفقات المدارس الابتدائية بحيث اصبح التعليم مجانياً

وجرى هذا النظام في سويسرا والبلاد السكندنافية

ومن ثم تدرجت الامم الاخرى في تحذي هذا المثال فاصبح الرأي الغالب في كل القارة الاوربية انه يحق لكل الاولاد من غير استثناء ان يتلقوا العلم الابتدائي واصبح التعليم الزامياً في معظم الممالك وعلى هذا النظام تجري المانيا وسويسرا والنمسا وفرنسا منذ سنة ١٨٨٢

وبسبب رسوخ المبدإ الارستوقراطي في انكلترا ازدادت حكومتها اهمالاً في المدارس على ان هذه الحركة انما ظهرت بعد اصلاح سنة ١٨٣٢

وكما ازداد المبدأ الديموقراطي شيوعاً في البلدان الاخرى كما ازداد العلم انتشاراً وترى التعليم الابتدائي اكثر شيوعاً وانتشاراً في الولايات المتحدة الاميركية التي هي اشد البلاد تمسكاً بالمبدإ الديموقراطي

ومنذ جعلت الحكومات التعليم فرضاً عليهن صرن قريب المثال لجميع بانشاء الكتاتيب

على نفقات الولايات والاقضية في كل قرية ومزرعة وكانت المدارس في فرنسا سنة ١٨٨٠ ... ٧٣٠٠٠[1] مدرسة فيها خمسة ملايين تلميذ وفي المانيا ... ٥٧٠٠٠ مدرسة فيها زهاء سبعة ملايين تلميذ - وفي النمسا والمجر ... ٣٣٠٠٠ مدرسة يتعلم فيها اكثر من اربعة ملايين من الطلبة وفي ايطاليا ... ٤٨٠٠٠ مدرسة فيها اكثر من مليوني تلميذ - وفي البلجيك ٦٣٩٠ مدرسة فيها ... ٦٨٢٠٠٠ تلميذ وفي سويسرا ... ٨٠٠٠ مدرسة فيها ... ٤٧٤٠٠٠ تلميذ وفي انكلترا زهاء ... ٤٨٠٠٠ مدرسة تلامذتها ... ٤٠٠٠٠٠٠ طالب

نجاح المبادئ الديموقراطية :- من البين ان المبادئ الديموقراطية اتصلت لعهدنا هذا بكل الامم المتمدنة لان معظم الكتبة كانوا من الاوساط او من ابناء الشعب فسعوا بنشر هذه المبادئ وتعميمها وكذلك ارتقت المراتب السافلة وعلت - وبمقدار صيرورة الاعمال السياسية والخصوصية اكثر اختلاطاً من ذي قبل اصبح من اللازم الاعتداد بصفات الناس الخصوصية اكثر من الاعتداد بحقوق النسب ولهذه الاسباب صار المجتمع الانساني ديموقراطياً

واصبحت كل الدول المتمدنة لهذا العهد عاملة بمبدإ مساواة الناس اجمعين ازاء القانون ومتت على الجميع التساوي في اداء الضرائب ونيل العدالة

وصارت كل الممالك لا تنكر استواء رعيتها على الاقل نظرياً في تقلد مناصبها من غير التفات الى مزية الحسب - وتعزيزاً لمبدإ المساواة جعلت كثيراً من الوظائف لاتنال الا بالمسابقة فان انكلترا اتخذت هذه الطريقة منذ سنة ١٨٥٣ في وظائف الحكومة بالهند على ان كل البلاد الجارية على مبدإ الاقتراع العام تعمل بمبدإ المساواة في الحقوق السياسية لان لكل واحد من الاهلين حق الاقتراع كما للآخرين

ولقد تسربت روح المساواة الى العوائد والآداب فان اولاد صغار الاوساط يتلقون الدروس التي يتلقاها اولاد البيوتات الكبيرة اما النبلاء فمع احتفاظهم على القابهم يعيشون بالائتلاف مع الآخرين ولم يعودوا يسألون عن نسب الانسان ليقبلوه في قاعاتهم واصبح الحزب الارستوقراطي نفسه ديموقراطياً لان اصل بعض زعمائه من الاوساط الا ترى ان دزرائيلي ظل في انكلترا زمناً طويلاً رئيساً لحزب المحافظين مع كونه يهودي الاصل ومن الاوساط ولم يبق من هيئة ارستوقراطية[2] الا في انكلترا وفي المجر[3] كل هذا مع ان شرائع البلدين

(١) منها اثنا عشر الف مدرسة خصوصية

(٢) كتاب سنوبس لمؤلفه V. Thackeray

(٣) في سنة ١٨٨٥ دعي جماعة من الكتبة الترنسلوانيين لحضور حفلة اقيمت في معرض

ديموقراطية تماماً قال توكفيل سنة ١٨٤٨ ان المساواة بين النصارى اتم في ايامنا هذه مما كانت عليه في مطلق الايام وفي كل بلاد اخرى

مسائل الاشتراكيين

اصل الاشتراكية : — حدث في القرن التاسع عشر انقلاب تام في نظام الاعمال على انه لم يكن في القرن الثامن عشر الا القليل من المدائن الكبرى ونكاد لا تجد فيها معملاً كبيراً وكانت قوانين الصناعة لا تجيز لرب المعمل استخدام اكثر من ثلاثة او اربعة من العملة وكان يقال لهم الرفقاء وهم يشتغلون في المصنع مع معلميهم كما هو شأن صناع المدن الصغيرة (كالنجارين والخبازين والاساكفة) وفي انتهاء بضع سنين يصير هؤلاء الرفقاء اساتذة كمعلميهم. اما في ايامنا هذه فقد نشأت المعامل الكبرى وصاروا يجمعون في معمل واحد عدداً وافراً من العملة للانتفاع بقوة الآلات . وحاجة هذه المعامل للوقود قضت بفتح المناجم لاستخراج الفحم فاشتغل فيها الوف من الناس . واجابة لمطالب الاقتصاد بين منحت الحرية المطلقة للصناعة وأجيز لاصحاب المعامل والمناجم ان يستخدموا المئات من العملة لقاء اجور يتقاضونها منهم. يومئذ بدأ الانفصال بين واضعي راس المال (يعنى اصحاب آلات العمل) و بين العملة الذين يشتغلون لقاء اجورهم المعينة و يقال لهم المعارضون بين اصحاب راس المال والعملة . وقد قال لافيلاي لم يبق للعامل في المصانع الا ان يعمل عملاً عضلياً آلياً ولذلك انحط شأنه عن مقام الرفقاء الاقدمين وفي الوقت نفسه ارتفع شأن ارباب المعامل عما كان اسلافهم عليه قديماً فصاروا اعلى من اساتذة الصنعة وسواء كان المعمل خاصاً برب المال او لم يكن الا مديره فانه يتصرف بالمال الكثير و يكون كقائد يدير جيشاً من العملة فهذا الصانع الماهر ينال بعلمه ومقامه وحسن معيشته مقاماً لا يناله العملة المشتغلون عنده على ان عواطفه كانسان او كمسيحي قد تحمله على حسبانهم اخواناً له ولئن لم يكن بينه و بينهم جامعة ما وكل منهما غريب عن الآخر . فارباب المعامل يعدون من علية الاوساط اما

بودابست فاستقبل احد الاشراف المجريين الكتبة الفرنساويين في القاعة وابقى كاتباً مجرياً كان مع الفرنساويين في غرفة الانتظار لانه لم يكن من الاعيان على ان الفرنساويين المدعويين لم يكونوا هم ايضاً من النبلاء غير انهم كانوا غرباء فناب ذلك لدى مضيفهم مناب النبالة

العملة فلم يكن شأنهم معروفاً حتى عصرنا هذا فيقيمون في البلدة التي يكون معملهم فيها ولكن ليس لهم ما يضطرهم للبقاء في بلدتهم فاذا لم يعد المعمل في حاجة اليهم او انهم طمحت نفوسهم لايجاد عمل يدرّ عليهم اكثر ذهبوا في طلب ذلك العمل ولو الى اقصى اطراف البلاد ولذلك ليسوا بالمستقرين في مكان وانما يعيشون عيشة الرحل النازلين في اماكنهم والمتاهبين للرحيل فهم لا يملكون شيئاً وليس عندهم من موارد الحياة غير اجورهم وهذه الاجور تتوقف على وجود العمل ولا شيء يضمن لهم وجوده لان رب المعمل يستخدمهم ليوم او لاسبوع وليس بمضطر لاستئجارهم الى مدة اطول فاذا لم يجد العامل عملاً يشتغل به او اذا اقعده المرض التزم العطلة لا ياخذ في خلالها اجرة يستطيع بها اطعام عياله فالعملة اذاً يشتغلون و يعيشون كل يوم بيومه

وهكذا نشأ الى جانب الفلاحين واصحاب المهن صنف جديد مؤلف من فعلة المعامل والمناجم وقد سموهم بالاسم القديم الروماني Prolétaire الذين لا يملكون غير اولادهم . و يسميهم الالمان احياناً بالصف الرابع اشارة الى انهم احط من مرتبة العامة القديمة . وحقيقة الحال ان طعام العملة الحديثين ومساكنهم وشؤونهم اخف و بلاً من حالات طبقة العامة في العصور الوسطى ومع ذلك فهم اقل ارتضاء من اولئك لان حالتهم غير ثابتة ومحفوفة بالخطر وتراهم يشعرون بسوء عيشهم لانهم لا تستقر لهم قدم في مكان ولا يستطيعون ان يكونوا على ثقة من مستقبلهم شيئاً وانهم قد علموا في الوقت ذاته ان الهيئة الاجتماعية اصبحت ديموقراطية وتساوى الناس تجاه الشرع وان لهم ما للاغنياء من الحقوق السياسية فامسوا لا يرتضون بما قسم لهم وطفقوا يطلبون التغيير

وقد ذهب علماء الاقتصاد في القرن الثامن عشر ان التعاسة نتيجة الشرائع الطبيعية ولا بد من حدوثها و يوم جعلت الحكومة الانكليزية (سنة ١٨٤٠) تبحث في شؤون العملة بين جامس ناسمث وهو من كبار ارباب المعامل ان ارباحه تزداد في اغلب الاحايين حين يستبدل المهرة من عملة معمله بغيرهم من العملة المبتدئين واذ سالوه ما تكون حالة العملة المعروفين وعيالهم اجابهم انه يجهل ذلك وانما يترك امرهم لعمل الشرائع الطبيعية التي تدير نظام المجتمع الانساني

وفي القرن التاسع عشر قام حزب يضادون هذا الرأي ويقولون ان التعاسة ناجمة عن سوء توزيع الثروة بين الناس فمنهم من يتنعم بالمال الكثير حالة كون غيره لا يملك الا النذر القليل فنظام المجتمع الانساني سيء ولذلك من واجبات الحكومة تجديد ترتيبه

على شكل يخفض من عدم المساواة • فلا بد اذاً من احداث انقلاب اجتماعي ويسمون اشياع هذا الانقلاب الاجتماعي بالاشتراكيين[١] Socialistes ويسمون مذهبهم بالاشتراكي

وقد اتفق جميع الاشتراكيين على الايقاع بنظام التملك الحالي وطلبوا من الحكومة ان تسعى لابداله بنظام آخر غير انهم يختلفون في النظام الذي يريدون وضعه موضع النظام الحالي فاصبحت الاشتراكية غير ذات مذهب واحد فنشب بينهم الاختلاف عظيما سيما بين الفرنساويين منهم والالمان

الاشتراكيون الفرنساويون : — ان الذين حكموا فرنسا في غضون الثورة حتى الجاكوبيين منهم صرحوا ان الملك حق مقدس لايمس • على ان بابوف حاول في بدء حكومة الديركتوار ان يحدث تغييراً يبطل فيه حق التملك ويجعل الاملاك مشتركة بين الناس الا ان اشياع هذا الرأي كانوا يومئذ قليلي العدد جداً فتمكنت الحكومة من قمعهم وتشتيت شملهم وظلت الاشتراكية في فرنسا لاتظهر بمظهر الطرائق القائمة بذاتها حتى بعد الرجعة الملكية واهم زعمائها سان سيمون وفوريه

وشأن الاشتراكيين في فرنسا كان كشأن رجال الثورة فيها لم يؤسسوا مذهبهم الا على العواطف والمبادىء العمومية فشرعوا يناهضون حق التملك كانه امر يخالف العدل والانسانية طالبين اقامة مجتمع انساني جديد وجعل سان سيمون قاعدة مبدائه « لكل واحد حسب اهليته ولكل اهلية حسب عملها » وبطلب انشاء مجتمع تكون حكومته وحدها صاحبة الملك وتوزع دخله على كل واحد بالنسبة لعمله — اما فوريه فاتخذ شعار مبدائه (لكل واحد حسب حاجته) وقد تخيل قيام مجتمع يؤسس على اتفاق اختياري يعقد بين اناس يتحدون على العمل بالاشتراك ويكون دافعهم لذلك العمل حبه والرغبة فيه وان يجتمع الناس وينقسموا جماعات وكل جماعة منهم تتألف من الف وثمانمئة شخص تسكن في قصر كبير يكون فيه مكان للمؤونة واخر للمطبخ واهراء مشترك بين الجميع ويؤخذ احتياراً من كل واحد من اؤلئك الجماعة حصة للعلماء وللصناع

(١) كان قد نبغ في الزمن القديم وفي ايام النهضة جماعة من الفلاسفة (كافلاطون وكامبانلا ومورس) ووضعوا مجتمعاً خيالياً الا ان القوم لم يحسبوا اراءهم في المجتمع الذي تخيلوه الا اضغاث احلام على ان من مميزات اشتراكيي عصرنا انهم يسعون لتحقيق اماني انفسهم غير مكتفين بتخيل النظريات وانما يبذلون قصاراهم لاحداث اصلاحات تبنى عليها

وكان بين الذين احدثوا ثورة سنة ٤٨ عدد كبير من الاشتراكيين ومنهم من تقلد مناصب حكومتها الموقتة وكانوا يذهبون الى ان المجتمع الانساني ملزم بايجاد عمل لكل من يطلبه لذلك قررت الحكومة الموقتة حقوق العمل وعملاً برأي لوي بلان انشات معامل وطنية ولكن لما لم يكن لدى الحكومة عمل مفيد تشغل العملة به جعلت تستخدمهم في جمع التراب ولما اغلقت هذه المصانع الوطنية كان مبلغ ما سامت الحكومة من النفقة عليها زهاء اربعة عشر مليوناً فهذا الاختبار الناقص اضعف في فرنسا شان اراء الاشتراكيين[١] واصبح الاوساط والفلاحون يوجسون خوفاً من الاشتراكية لانها تمثلت لهم اقتسام ما يملكون لذلك قال مؤرخها لوي ريبو سنة ١٨٥٤ انها ماتت في فرنسا فالكلام فيها عبارة عن تأبينها

الاشتراكية الالمانية : — منذ سنة ١٨٦٣ نشأت في المانية اشتراكية جديدة النسق وضعها لاسال وكارل ماركس وهما يهوديان المانيان وكلاهما من تلامذة الاشتراكيين الفرنساويين ومن الاوساط ولهما مشاركة في العلم كادت تبلغ بهما مقام العالمية فاسسا مذهبهما على الحقائق وليس على العواطف والاراء ولكي يجعلا اصلاحهما للاشتراكية مقبولاً لم يؤسساه على الانسانية والعدل بل على مبادىء الاقتصاد السياسي والاحصاآت وكل منهما عزز طريقته بمبداء علمي يقبله الاقتصاديون انفسهم

فان ماركس قد اتخذ قاعدة اتفق عليها كل من ادم سميث وريكاردو ذلك ان الثروة بنتاج العمل ليس الا • وان قيمة الشيء قائمة بالعمل الذي صرف لاحداثه فرأس المال ذا ليس بذي قدر في ذاته • ومن قوله انه عمل ميت لاحياة له الا بالامتصاص كالعفريت[٢]

(١) اتهموا الحكومة بأنها عملت قصداً على احباط هذا المشروع (٢) ولقد كثر استعمال هذا التشبيه حتى انك لتجدن الجرائد الاشتراكية تستخدم هذا الاسلوب في التعبير بكلمة Vampirisme مؤاخذة لارباب الاموال المستخدمة في الصنائع

كلمة للمترجم : عربنا كلمة Vampire بالعفريت مجاراة لمن سبق من معربيها والمراد بها الاشارة الى خرافة كانت شائعة في بعض انحاء اوربا وهي ان الموتى يخرجون من قبورهم خلسة في الليل الحالك حتى اذا وصل احدهم الى نائم امتص من دمه ولا يزال به حتى تفارقه العافية ثم يعود الميت اليه فيمص البقية من دم الحي حتى يموت و يصبح مثل الموتى متلهفاً على مص دم الاحياء • ومغزى الحكاية ان الميت يطلب الحياة بامتصاص دم الحي حتى يميته

فلا قيمة للشيء الا بعمل العامل فيه وبما ان العامل هو الفاعل وحده في احداث قيمة المصنوع حق له التمتع بثمرة عمله من غير ان يشاركه فيه رب المال فالواجب اذاً يقضي ان يقتسم العملة فيما بينهم ارباح الصناعة وليس ان يعطوا على عملهم اجوراً — هذا هو مبدأ ماركس

وأما لاسال فجعل مدار بحثه ما سماه بقانون الاجور الجائر الذي عوَّل عليه قدماء علماء الاقتصاد وبسطه تيركو هكذا « ان الفاعل البسيط لا يملك من الدنيا الا يداه والا مقدار ما يبيع من عملهما لتحصيل خبزه فهو يبيع ذاك العمل بثمن جل أو قلّ وهذا الثمن سواء كان جليلاً أو حقيراً هو نتيجة الاتفاق الذي يعقده الصانع مع الشخص الذي يؤديه ثمن عمله وهذا الشخص يسعى بان يؤدي من الثمن اقل ما يمكن وبما انه يخير في انتقاء العملة من بين عديدين من الصناع فانه لا يختار الا من يأخذ منه اقل من سواه فيضطر العملة ان يخفضوا من اثمان عملهم تناظراً فيما بينهم فيبلغ العامل في كل ضرب من ضروب الصناعات الى ان يكتفي من الاجور بما يكفيه للقيام باوده »

وقد قال لاسال « ان في كل مجتمع منتظم على هذا النسق يضطر الصانع ان يستمر على الحط من ثمن عمله ومهما زاد العمل كثرة وتحسناً لا يحصل منه الا على ما يقيه من الموت جوعاً ولا يفيد شغله الا ارباب المال الذين يستخدمونه في عملهم وما شأن العملة اليوم الا خدمة ارباب المال مع ان الواجب ان يعكس الامر فتصير الاموال لخدمة العملة فيجني هؤلاء حينئذ ثمرة اتعابهم » هذا هو رأي لاسال [1] ولكي يخرجه الى حيز العمل تحدى لوي بلان وخاطب الحكومة طالباً اليها ان تنظم العمل تنظيماً يمكن العملة من

(١) وقد تبين اليوم ان ما وضعهُ الاقتصاديون القدماء من الاراء فعوَّل عليه لاسال وماركس ليس في شيء من الصواب لان قيمة الشيء لا تتوقف على عمله الا ترى ان ثمن الزجاجة من خمر بوردو عشرة فرنكات وهي لا تكلف من الشغل فيها زيادة عما تكلفه زجاجة خمر تساوي عشرة بنسات وان القمح المستغل من ارض خصيبة يزيد ثمنه عن المستغل من ارض ماحلة مع ان قمح الارض الجيدة يتطلب شغلاً أقل مما يتطلبهُ قمح الارض الرديئة فقيمة الشيء لا تتوقف اذاً على مقدار العمل وانما على قدر منفعته وليس بالواقع ان اجور العملة تتناقص ابداً حتى تصل الى ما يساوي ثمن القوت الضروري بل الحقيقة ان الاجور آخذة منذ ثلاثين سنة بالازدياد في جميع البلاد

الحصول على المال

ولم يقف كل من ماركس ولاسال عند حد الكتابة بل تأتى لهما خلال بضع سنين ان يجعلا لهما في المانيا حزباً قوياً فنشأ سنة ١٨٦٦ حزب الاشتراكيين الديمقراطيين واشتد ساعده حتى بلغ عدد نوابه في الرشستاغ في سنة ١٨٩٣ اربعين نائباً ونهياً لم عقد الاجتماعات ونشر الجرائد واصبحت الحكومة الالمانية تحسب لمقدرته حساباً فسنت لكبح جماحه سنناً مخصوصة سنة ١٨٧٨ غير ان الاشتراكيين الالمان لا يطلبون قلب المجتمع الانساني قلباً تاماً [1] ولا يريدون الغاء حقوق التملك ولا الارث ولا الحرية الذاتية وانما يطلبون من الحكومة تبديل نظام التملك ووسائل العمل (يعني بها المعامل والمناجم والطرق الحديدية والاملاك الكبيرة) بحيث لا ينفرد الافراد ولا الشركات بامتلاكها بل تكون ملكاً مشاعاً للامة كلها ويناط بالحكومة ايجارها لجماعات من العملة ومن ذلك المبدإ اشتق اسم فرع من الاشتراكيين Collectivistes

اختلاف اجناس العملة International — حدث في ايام المعرض العام في لندرا سنة ١٨٦٢ ان اجتمع فيها العملة الغرباء عنها فخطر لهم اقامة اتفاق بين كل العملة على اختلاف بلادهم وفي سنة ١٨٦٦ تأسست جمعية العملة على اختلاف اجناسهم وكان يديرها كارل ماركس احد زعيمي الاشتراكيين الالمانيين ولم يكن غرضها يومئذ الا اجتماع العملة من كل مملكة وقطر للبحث في الاعتصاب وشرع يلتئم منهم في كل سنة مؤتمر مؤلف من معتمدي عملة الامم فالتأم المؤتمر الاول في جنيف سنة ١٨٦٦ وجاءهُ ستون معتمداً ولما لم يكن الرسم يتجاوز الفرنك والفرنكين في السنة كان عدد الاعضاء يزداد زيادة كبرى حتى صاروا يعدون بالملايين وكانوا يتبنون في هذه الجمعية (كما يشرب واحدهم كأساً من الخمر) ومنذ المؤتمر الثالث (مؤتمر بروكسل سنة ١٨٦٨) شرعوا يتباحثون في تبديل الهيئة الاجتماعية بما تبطل الاجور (ويسمونها شكلاً جديداً للاسترقاق) وقرر مؤتمر بال (سنة ١٨٦٩) ان من حقوق المجتمع الغاء تملك الافراد للارض وان تجعلها مشاعاً بين الجميع فتراءى حينئذ ان المؤتمر منيع جداً ومملوء خطراً حتى خطر لبعضهم ان لتلك الجمعية يداً في اثارة فتنة الكومون في باريز فشرعت الحكومة تشترع السنن لمضادتها على ان الحقيقة هي ان المؤتمر لم يكن في سعة من المال فلم يأت شيئاً يذكر غير نشر الاذاعات وفي سنة ١٨٧٢ تطرق الاختلاف الى

(١) ان شيفل العالم الالماني نشر خلاصة اراء الاشتراكيين في كتابه الاشتراكية

زعماء الحزب فتضعضع شأنه اواخر سنة ١٨٧٤

الفوضويون : — ونشأ سنة ١٨٧٩ حزب آخر جديد يسمى الحزب الفوضوي وزعيم هذا الحزب باكونين الروسي مؤسس التحالف العمومي وكان قد طرده الاشتراكيون من مؤتمرهم في هاي سنة ١٨٧٢ على ان الفوضويين لم يطلبوا اصلاحاً وانما جل ما يريدونه ملاشاة كل الحكومات والكنائس بجميع شؤونها وشرائعها الدينية والسياسية والقضائية والمالية والتنفيذية والتعلمية والاقتصادية والاجتماعية بحيث يتنفس بعد ذلك الالوف المؤلفة من الناس الفقراء الصعداء متمتعين بتمام حريتهم . غير انهم لم يبدوا رأياً في تعويض ما يريدون ملاشاته ويقولون « ان كل كلام يقال عن المستقبل يعد جريمة لان ذلك الكلام يحول دون الملاشاة المطلقة ويقف عثرة في سبيل تقدم الثورة »

والفوضويون موجودون في كل البلاد الاوروبية وبعضهم يقيم في المدائن الكبرى من الولايات المتحدة على ان هذا الحزب لم يبد عملاً مهماً الا في الروسية حيثما تجد الفوضوية عبارة عن حزب سياسي يقاوم استبداد القيصر وحكومته ويحاول الايقاع به وبعماله . فهؤلاء الثوار الروس يكرهون الظلم فيريدون ملاشاة كل شيء ولكنهم لا يطلبون احداث بدبل عما يسعون في تبديله ويقال لهم في اوروبا النهيلست Nihilistes (العدميون) وهو ما سمى به القصصي الروسي المشهور تورگنيف (سنة ١٨٥٢) ثائرة الروس الغضاب على حكومتهم

النظريات والاصلاح الاجتماعي : — ينقسم الاقتصاديون اليوم الى مذهبين المذهب الاول ويعرف بالحر لانه يطلب للصناعة الحرية المطلقة ورأيه مستفاد من مبداء يذهبون فيه الى ان المجتمع الانساني اذا ترك لشأنه ترتب على شكل يكون موافقاً طبعاً لجميع الناس لان من الواجب ان ترتب علائق العملة مع اسيادهم من تلقاء انفسهم بدون تداخل الحكومة وذلك حسب ناموس الشرائع الطبيعية وحدها وحرية التناظر وسنتي العرض والطلب فليس ثمت من مسالة اجتماعية وانما هي مسائل اقتصادية وافضل شيء للحكومة ان تترك الوطنيين يدبرون انفسهم بانفسهم — ويعرفون هذا المذهب احياناً بالمذهب المستقيم لانه ظل اميناً على التعاليم الاساسية لواضعي الاقتصاد السياسي ويسمونه ايضاً مذهب مانشستر لان مركزه في انكلترا كان منذ سنة ١٨٣٩ في مدينة مانشستر ومعظم تسود هذا المذهب بين الاقتصاديين الفرنساويين

ويعتمد المذهب الثاني على مراقبة الحوادث ويعرف بالتاريخي او الحقيقي ويذهب الى ان التعاسة نتيجة لازمة لحرية الصناعة المطلقة وانها تأول الى اثارة الاثرة والبغضاء بين

مراتب المجتمع على انه ليس المهم السعي لاكثار الثروة لان الموجود منها كاف لضرورة الناس لا يشكون فقراً ولكن المهم توزيعها توزيعاً حسناً هذه هي المسالة الاجتماعية ولا يمكن حلها مالم تسن الشرائع لتوزيع الارباح فمن واجب الحكومة اذاً ان تتداخل لتضع تلك السنن وقد نشأ هذا المذهب في المانيا وله فيها اشياع كثيرون معظمهم من اساتذة الكليات . ومنذ سنة ١٨٧٢ جعلوا يعقدون المؤتمرات السياسية الاجتماعية يتباحثون فيها بالمسائل الاقتصادية والسياسية ويقترحون اصلاحات جمة في القضاء . ويسميهم خصومهم باشتراكيي المنابر لانهم يلقون من على منابر كلياتهم من المبادىء ما يشابه المبادىء الاشتراكية بعض المشابهة

على ان الهرج والبحث في الشؤون الاجتماعية مدى نصف قرن استمال الخواطر للنظر في شؤون العملة فظهر لهم ان الفقر كان السبب الفعال في احداث ذلك الهرج . حتى قيل في المانيا ان المسألة الاجتماعية هي مسألة المعدة . ولهذا شرعوا يسعون في تقليل عدد الفقراء وفي تخفيف وطأة الفاقة عن المراتب السافلة

وقد حظرت الحكومة على المعامل تشغيل الاولاد الصغار ومنعت اشتغال النساء في الاعمال الشاقة . ولقد علم من بحث الحكومة الانكليزية سنة ١٨٤٢ ان في بعض المناجم تقيم النساء تحت الارض في كل يوم من اربع عشرة الى ست عشرة ساعة وهن مشدودات الى مركبات تملأ فحماً . وألزم ارباب المعامل في انكلترا على اقفال مصانعهم يوماً واحداً في الاسبوع لراحة العملة . ثم اسست الحكومة وبعض الافراد مراكز عامة لاسعاف المحتاجين واعانتهم وأقيمت المستشفيات لمعالجة المرضى مجاناً والملاجىء ليلتجأ اليها الشيوخ والعاجزون وانشاوا المدارس الابتدائية والصناعية لتعليم اولاد العملة مجاناً

وسعى العملة في عقد جمعيات في ما بينهم ينضمون اليها تخفيف وطأة الحياة عليهم منها جمعية تبادل المعونة فكل عضو من اعضائها يدفع رسماً سنوياً لصندوقها على انه ينال منها اسعافاً متى اعتراه المرض — ومن منشآتهم جمعية اللوازم وهي تقدم لاعضائها احسن الحاجيات بابخس الاثمان التي تباع بها في المخازن — وجمعيات الادانة وهي تقرض اعضاءها النقود (وحسبك بنك شولتس دايتش في المانيا) — وايضاً جمعيات التعاون ومنها ان يجمع اعضاؤها ما يوفرونه من دخلهم ويشترك به جميعهم حتى يقتدروا بهذا التعاون على شراء المعمل الذي يشتغلون فيه واشهر هذه الجمعيات جمعية l'Equitable pioniers de Rochedal التي أسسها سنة ١٨٣٤ عشرون عضواً فبلغت عدة المنضمين اليها سنة ١٨٦٧ ٨٢٣ عضواً وصار رأس مالها ٣,٢٠٠,٠٠٠ فرنك

وكذلك احداث ارباب المعامل اصلاحات يعود نفعها على العملة مثل انهم خططوا مدناً للفعلة بحيث يتمكن كل فاعل من امتلاك بيت يؤدي ثمنه شيئاً فشيئاً وانشاوا لهم صناديق الاعتزال ليضع العامل فيها قسماً من اجوره فينمو نصيبه من الربا والمدخر ومن بعضهم سنة من شانها اقتسام ارباح المعمل من العملة ولم تقعد هممهم ابداً عن السعي في ما يجعل الحياة اقل شؤماً على الذين يتجشمون صعابها

الفصل العشرون

الخاتمة

حظ فرنسا من الارتقاء الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في القرن التاسع عشر :—

انه ليصعب جداً معرفة ما فعلته كل امة لوحدها في سبيل ارتقاء العالم لان التمدن تمّ بعمل الشعوب جمعاء فنصيب الامة الواحدة من العمل فيه مختلط بعمل الآخرين ومع ذلك ترى من الناس من يؤكد ان فرنسا عملت اكثر من سائر الامم في تمهيد سبل التقدم الاجتماعي في عصرنا هذا بان اسست المجتمع الانساني على دعائم المساواة في الحقوق ومجتمعات كل امة كانت منذ ابتداء التمدن منقسمة الى مراتب وكلها تعمل بالامتيازات التي تؤيدها الشرائع . أما فرنسا فهي التي وضعت سنة ١٧٨٩ المبدأ القائل ان كل الناس يولدون احراراً ويظلون متساوين في الحقوق [1] ومن ثم أدى الحال الى أن عم جميع الامم الاخرى وعليه ففرنسا هي التي ادخلت الى اوربا المبدإ الديموقراطي

وأما في السياسة وشؤونها فقد اخذت فرنسا عن انكلترا كل الشؤون التي تحتاج اليها لتجديد مناهجها بعد ان اسقطت النظام القديم الا انها حوّلت تلك المناهج الى شكل يلائم حالة شعوب القارة الاوربية فاصبحت معظم السنن في كل المانيا واسبانيا وايطاليا والبلجيك موضوعة على مثال النظام الفرنساوي . وما النظام البارلماني المعمول به اليوم في كل اوربا الا عمل انكليزي كيفه الاختبار الفرنساوي

(١) ان دستور الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٧٨٧ وضع على هذا المبدإ الا ان الولايات المتحدة ظلت حيناً من الدهر تكاد لا نعرف فتأثيرها على التمدن الاوروبي كان قليلاً

واما الارتقاء الاقتصادي فيكاد يكون مأخوذاً من اصل انكليزي لان الشعب البريطاني اوفر الامم ثروة واكثرها اعتياداً على الصناعة والعمل والفضل في ذلك لمناجم الحديد والفحم الحجري فضلاً عن ان موقع بريطانيا احسن المواقع للتجارة الكبرى البحرية فحاز اهلوها السبق في اعمالهم على الجميع ولا سيما ابان الحروب التي دمرت اوروبا واقلت من عدد اهليها وهكذا فان انكلترا هي التي كانت قدوة لاوروبا في الارتقاء الاقتصادي والانكليز هم الذين اخترعوا الآلات البخارية والطرق الحديدية وهم الذين اوجدوا انموذجاً للمعامل الكبيرة وللمناجم ولشركات الطرق الحديدية والسفن البخارية وهم الذين اوجدوا نظام البنوك والقروض والشركات المساهمة وجمعيات التعاون وجمعيات العملة

اما فرنسا فعلى الغالب كانت تقتصر على تحدي انكلترا في الشؤون الاقتصادية ولم يكن ما عملته في سبيل التقدم الاقتصادي من قبيل اختراعاتها ومع ذلك كان نصيبها من العمل وافراً ويكفي لمعرفة مقدار ما عملت ان تقابل احصاآت اليوم باحصاآت اوائل القرن . فان اثمان الارضين زادت اكثر من ضعفها عما كانت عليه سنة ١٨١٥ فكان المعدل المتوسط لثمن الهيكتار من الارض ٧٠٠ فرنك فصار سنة ١٨٧٤ يقوّم بالفي فرنك لكنه عاد فهبط بعد ذلك واصبح ثمنه من سنة ١٨٨٩ ١٧٠٠ فرنك واثمان الارض واجمالاً بلغت تسعين ملياراً . وبين سنة ١٨٥١ الى سنة ١٨٦٩ كان الصعود سريعاً جداً فاربى ثمن الارض على ٢٥ ملياراً . ولم تكن زراعة الحبوب سنة ١٨١٥ تشغل من الارض الا اربعة ملايين ونصف من الهيكتار ولا تغل اكثر من اربعين مليون هيكتوليتر على انها تشغل اليوم من الارض ستة ملايين هيكتار ونصف وتغل نحو مئة مليون هيكتوليتر وكانت غلة الهيكتار تسعة هيكتوليترات فصارت اليوم ١٤ هيكتوليتراً وكان الشمندور لا يشغل من الارض سنة ١٨٤٠ الا ٥٨٫٠٠٠ هيكتار فصار يشغل اليوم نحواً من ٥٢٠٫٠٠٠ هيكتار

وكان عدد البيوتات التجارية والمعامل سنة ١٨٢٣ دون ستة ملايين ونصف مليون فصار في سنة ١٨٨٨ اكثر من تسعة ملايين واثمان الابنية زادت كثيراً عن زيادة عددها فكانت قيمتها سنة ١٨٥١ تساوي ٢٠ ملياراً فصارت سنة ١٨٨٨ اربعين ملياراً وكانت ابنية باريز تساوي سنة ١٨٢٨ من ثلاثة الى اربعة مليارات فصارت اليوم تساوي سبعة عشر ملياراً

ومعظم المعامل انشئت بعد الرجعة الملكية ولم تكن حتى سنة ١٨٤٨ تدرّ في السنة

اكثر من ٥ مليارات ونصف على ان حاصلاتها اليوم ١٢ مليارًا . وكانت التجارة مع الخارج من سنة ١٨١٤ الى سنة ١٨٢٥ هكذا : الواردات ٤٠٠ مليون والصادرات ٥٠٠ مليون اما نموها بعد ذلك فظاهر من الجدول الآتي المحسوب لكل عشر سنين رقمًا

من سنة	الى سنة	الصادرات	الواردات
١٨٢٧	١٨٧٣	٨٩٨	٦٦٧ (مليون فرنك)
١٨٣٧	١٨٤٧	١٠٢٤	١٠٨٨
١٨٤٧	١٨٥٧	١٦٧٢	١٥٠٣
١٨٥٧	١٨٦٧	٣٢٩٣	٢٩٨٧
١٨٦٧	١٨٧٧	٤٢٠٢	٤٢٦٢
١٨٧٧	١٨٨٧	٤٣٨٣	٥٤٤٨

مقام فرنسا بين الدول الكبرى الاوروبية : ــ مساحة فرنسا ٥٢٨,٠٠٠ كيلو متر مربع وعدد شعبها ٣٨ مليونًا من النفوس واما بقية الممالك الكبرى فمساحة انكلترا ٣١٥,٠٠٠ كيلو متر مربع وعدد سكانها ٣٧ مليونًا ومساحة المانيا ٥٤٠ الف كيلو متر مربع وعدد اهلها ٤٧ مليونًا ومساحة النمسا والمجر ٦٢٣,٠٠٠ كيلو متر مربع وعدد نفوسها ٤٠ مليون ومساحة الروسية ٥,٤١٦,٠٠٠ كيلو متر مربع وعدد شعوبها ٩٣ مليونًا

وفي كل البلاد (خلا البلجيك وهولاندا) لا يبلغ ثمن الارض مبلغه في فرنسا الا انكلترا وحدها فانها تفوق فرنسا باثمان ابنيتها . وتفوق صناعتها كل صناعات الامم الاخرى الا انكلترا فانها تزيد على فرنسا بوفرة مصنوعاتها وارتفاع اجور العملة فيها

وهي في التجارة لا يسبقها الا انكلترا التي تصدر بقيمة خمسة مليارات ونصف وتستورد بقيمة تسعة مليارات ولكن فرنسا تفوق المانيا التي تصدر اقل من اربعة مليارات وتستورد تقريبًا مثل ذلك وتزيد عن النمسا التي تصدر ١,٧٠٠ مليون وتستورد ١,٤٠٠ مليون والروسية التي تستورد اقل من مليار وتصدر حوالى ١,٥٠٠ مليون

أما البحرية التجارية في فرنسا فالسفن الشراعية عندها ضعيفة جدًا بحيث تجعلها في المرتبة السابعة بين الدول بعد انكلترا والنروج والمانيا وايطاليا والروسية والسويد وأما في سفنها البخارية فهي في المرتبة الثانية

وأما في حركة المراسلات فانكلترا هي السابقة لان معدل ما يرسل منها في كل سنة

٤٦ رسالة لكل واحد من السكان والمعدل في سويسرا ٢٧ وفي المانيا ٢١ وأما في فرنسا فتسعة عشر فقط . وأما من جهة الاموال الموضوعة في صناديق التوفير ففرنسا النصيب الاوفر لانه لا يزيدها في استيداع اموالها صناديق التوفير احد من اهل الممالك الاخرى الا بروسيا وقيمة المستودع من اموال الفرنساو بين ثلاثة مليارات

وتقدر الثروة العمومية في فرنسا [1] بمئتي مليار وان دخلها يبلغ ٢٤ مليارًا على ان انكلترا تفوقها في ذلك فثروتها ٢١٨ مليارًا ودخلها ٣١ مليارًا وتحسب ثروة المانيا ١٥٨ مليارًا ودخلها ٢١ مليارًا وثروة الروسية ١٠٨ مليارات ودخلها ١٥ مليارًا [2]

وأما بالنظر للقوة العسكرية ففرنسا في البحر امنع الدول (لها ١٩١ بارجة) فتأتي بعد انكلترا التي (عندها ٣٨٣ بارجة) أما جيش فرنسا البري فيربو في اوقات السلم على جيوش غيرها من الدول لان عدته (٦٠٠,٠٠٠) ويكاد يكون في الحرب معادلاً للجيش الالماني أما الروسية فيزيد جيشها على جيوش سائر الدول ولكن حبرًا على ورق لانه يستحيل عليها تجريد جميع ما عندها من العسكر

الحالة الحاضرة في العالم : ــ يقدرون سكان العالم كله من كل جنس ١,٤٥٠ مليونًا منهم في اوربا ٣٣٠ مليونًا وفي اسيا ٨٠٠ مليون و ٢٠٠ في افريقيا و ١٠٠ في اميركا . وعلى الارض عدد كبير من الاجناس المختلفة الا ان معظمها رجعت القهقرى فصارت الى حال الضعف والوهن بما تسرب اليها من البربرية والهمجية حتى اوشكت تتلاشى وحسبك اهل تسمانيا الوطنيين ومنها ما غلبت عليه الاجناس الاشد منه قوة فامتزج بها كما هو الحال في هنود اميركا . فلم يبق من البشر الا ثلاثة اجناس كبرى هي الجنس الابيض الساكن نصف اسيا واوربا واميركا واوستراليا وشواطئ افريقيا والجنس الاصفر الساكن اسيا الشرقية ويمتد الى ارخبيل ماليس والجنس الاسود والزنوج سكان افريقيا والاقاليم الحارة من اميركا . على انهم نقلوا من مواطنهم الافريقية الى اميركا في حال الرق وقضوا فيه غابر ايامهم

وعلى هذا النسق يتمشى تعدد الاديان وهي ولئن كانت لهذا العهد كثيرة العدد الا ان معظمها لا يدين به الا فئة قليلة من الناس في بعض القبائل المتبربرة فتراها آخذة بالتلاشي سائرة الى الانقراض اسرع من سير الجنسيات الى التلاشي لان تلقاءها اديان اكثر انتظامًا واحسن ترتيبًا

(١) حسب تقرير ميلهال (٢) وهذه الارقام غير مضبوطة جيدًا

على ان الاديان الاربعة الكبرى تقتسم العالم بينها فالنصرانية سائدة في اوربا واميركا وعدد تباعها ٤٣٥ مليونًا وهي تنقسم الى ثلاثة فروع الكاثوليك وعددهم ٢٠٠ مليون . والبروتستانت ١٥٠ مليونًا والروم الارثوذكس ٨٥ مليونًا . والاسلام سائد في غربي اسيا وفي افريقيا وعدد تباعه ١٧٠ مليونًا والبوذية سائدة في غربي اسيا والمعتقدون بها ٥٠٠ مليون والبراهمة في الهند عددهم ١٥٠ مليونًا . ويبلغ عدد اليهود من سبعة الى ثمانية ملايين وهم منتشرون في العالم . والباقي من سكان المعمور عددهم ٢٣ مليونًا من متوحشي الاوقيانوس وهنود اميركا وزنوج افريقيا كلهم من الوثنيين وتراهم اليوم يدخلون افواجًا في الاسلام والنصرانية

ولا علاقة للاجناس بالدين فالجنس الابيض يدين بالاسلام والنصرانية والبرهمية . ويدين الزنوج بالاسلام والنصرانية الا ان لكل دين شكلاً من التمدن خاصًا به فالتمدن النصراني اوربي والاسلامي عربي والبرهمي هندي والبوذي صيني على ان التمدن الهندي وقف عن التقدم والانتشار ولعله يمتزج بالتمدن الاوربي المنتقل الى تلك البلاد مع الانكليز وكذلك التمدن العربي وقف تقدمه ولم يبقَ للآن في الوجود غير تمدنين لم يقوَ الواحد منهما عن الآخر وهما الاوربي والصيني

وميلنا للتمدن الاوروبي شديدٌ جدًا نحسبه التمدن الصحيح دون سواه ذلك لانهُ تمدننا ولنا ملء الامل ان يستغرق كل تمدن يناظره . على ان القسم الاكبر من الكرة الارضية يختص بغير واحد من الفروع الثلاثة الكبرى الاوروبية فالروس نسل الجنس السلافي يحتلون اسيا الشمالية والانجلوساكسون من الارومة الجرمانية يسودون في اميركا الشمالية والهند والاوقيانوس . والشعب الروماني اجداد الاسبانيول والبورتغاليين يملك اميركا الجنوبية . ويتكلم اهل هذه الارومات الثلاث بثلاث لغات منتشرة في معظم الارض فيتكلم اللغة الانكليزية مئة وعشرون مليونًا من الناس وينطق بالروسية نحو مئة مليون وبالاسبانية خمسون مليونًا . واما اللغة الالمانية التي هي لغة اواسط اوروبا فيتكلم بها ستون مليونًا من الناس . ويتكلم بالفرنساوية ستة واربعون مليونًا على ان هاتين اللغتين منتشرتين في ارض ضيقة النطاق

وانهُ من الخطأ الفاضح ان يحكم الانسان على خطارة شعب بكثرة عدد المتكلمين بلغته او لما يملك ذلك الشعب من الكيلومترات المربعة انما الامة تعتبر بكثرة علمائها وكتابها وصناعها ومهندسيها الناهضين باعباء التمدن فان فرنسا تلعب في العالم دورًا غير

ما تلعب اسبانيا ولا يبعد ان الروس والانجلوساكسون والاسبانيول الاميركان سيأتيهم يوم تسود كثرتهم فيه العالم ولكن ذلك اليوم لم يأت بعد . على ان ثلاثة شعوب كبرى هي لعهدنا هذا تعلو على غيرها نشاطًا واقدامًا فتدبر دفة التمدن الا وهم الانكليز والفرنساويون والالمان

على ان لكل هذه الشعوب تمدنًا واحدًا مشتركًا بينها نشأ عن التمدن القديم وانتقل الى البلاد النصرانية كلها فطفقت جميعها تسعى وراء كماله

وكل هذه الامم تستعين على اعمالها بالآلات الواحدة وبذات طرائق الصناعة ووسائط النقل وعندهم جميعهم المعامل والآلات البخارية والطرق الحديدية والتلغراف وكلهم يعدنون المناجم ويحرثون الارض

وبلاد اميركا والاوقيانوس التي تسكنها الناس حديثًا هي بلاد زراعية فالاقاليم المعتدلة تغل القمح وتربو فيها السائمة واما الاقطار الحارة فيستغل منها الارز والقطن والقهوة والافاويه

وأما اوروبا فشأنها بلاد زراعية ايضًا فيستغل من البلاد الرومانية في الجنوب الكرم والاثمار ومن بلاد السلاف في الشرق القمح والجلود والاخشاب . وتشتغل في الصناعة معظم الشعوب الجرمانية الشمالية كاهل انكلترا والبلجيك والمانيا وسويسرا وشمالي فرنسا وثمت ترى الاقطار المزدحمة بالسكان لان اهلها ينمون بسرعة عجيبة فقد تبين من الاحصاء انه يسكن في كل كيلو متر مربع من بلاد البلجيك ١٩٢ نفسًا وفي انكلترا ١٧٢ نفسًا وفي هولاندا ١٢٨ وفي المانيا ٨٤ وفي قطر جنيف من سويسرا ٣٦٤ اما في فرنسا ٧١ نفسًا فقط . فيزيد الشعب في انكلترا سنويًّا على معدل ٩٫٢ بالمئة وفي السويد ١١٫٥ وفي المانيا ١٠ وفي هولاندا ٩ وفي فرنسا ٢٫٣ فقط . فترى ان سكان بريطانيا العظمى كانوا سنة ١٧٠٠ ثمانية ملايين فصاروا الآن سبعة وثلاثين مليونًا وأما اهل المانيا فكانوا ١٩ مليونًا ولكنهم صاروا ٤٦ مليونًا . بينما اهل فرنسا كانوا ١٩ مليونًا وما عددهم الآن الا ٣٨ مليونًا

وكل البلاد المتمدنة تتصل بعضها ببعض بالطرق الحديدية (مسافة ٤٥٠،٠٠٠ كيلو متر) وبالسفن البخارية التي تسيرها سبع وسبعون شركة وبالاسلاك التلغرافية تمتد مسافة (١،٢٠٠،٠٠٠ كيلو متر) وبالاسلاك البرقية تحت البحر (١٥٠،٠٠٠ كيلو متر) وباتحاد البريد الشامل كل انحاء المعمور . وجميعها تتبادل الحاصلات والاموال فتراها

لذلك كله في اتصال مستمر حتى انه لايمر يوم الا والجرائد تنشر اخبار العالم باجمعه محمولة بالتلغراف

وتكاد تكون طرق المعيشة واحدة في كل العالم المتمدن فتجدها في جميعها المدائن الكبرى تتشابه من حيث انتظام شوارعها وسعة ساحاتها ورصفها بالبلاط ووجود طرق للمشاة وأخرى للمركبات والحوافل · وفي غازها واسرابها ومياهها المجرورة اليها من المواضع البعيدة على ان الفلاحين والعملة ابطأ من غيرهم في تبديل عاداتهم فما برحوا في اوروبا الشرقية محافظين على شؤونهم وازيائهم بخلاف الاوساط في كل مكان فانهم متشابهون في اعمالهم وملاهيهم وعاداتهم وفي كل المواطن يتخذون اللباس الانكليزي ويتبعون الزي الباريزي وفيهم الميل للمراسح والجرائد والاندية والبورص

وكذلك تنتقل الافكار من بلاد الى أخرى ويشتغل العلماء في جميعها على منهاج واحد · وبما يقيمون من المؤتمرات العلمية المؤلفة من كل الامم جعلوا العلم مشتركاً بين الجميع وانك لترى النقش والتصوير والهندسة والموسيقى كلها مشتركة بين الامم المتمدنة اما الكتابات الادبية والبيانية فانها لم تزل وطنية لاختلاف اللغات ولكنها تسير الى البلاد الاجنبية في لباس الترجمة وعلى هذا الاسلوب نقطع الآداب العالم منتقلة من طرف الى آخر

وعلى هذا النسق تأخذ الامم بعضها من بعض المناهج السياسية فالاقتداء بانكلترا وبالثورة الفرنساوية ادخل في اوروبا لعهدنا هذا النظام الدستوري · وفي اوروبا الآن تسع عشرة دولة مستقلة (ومن جملتهن البلغار) وفي اميركا ثماني عشرة دولة خلا المستعمرات وكلهن الا سلطنتين في اوروبا ذات حكومة ملكية · وكل حكومات اميركا ذات حكم جمهوري ولكنهن جميعهن الا الروسية يجرين على خطة واحدة ففيهن المجالس النيابية تبحث في الميزانية وتقررها والمطبوعات في بلادهن حرة والشرطة كافلة للامن والمحاكم القانونية تعززه

فاصبحت مميزات الشعوب المتمدنة كالصناعة والتجارة والشؤون العملية والعلوم والفنون والعادات السياسية كلها الا اللغات مشتركة بين الامم على اختلاف اجناسها · ولكنها مع كل ما يجمعها من الروابط المتينة لا تسعى للامتزاج ولا للائتلاف بل تراها منفصلة بحكم لغاتها وبالمزاحمة الصناعية وبالنفور القديم · فان في اوروبا تجد السكان اكثر ازدحاماً والعصبية الجنسية لم تزل ضاربة اطنابها لان العصور الجمة التي مرت عليها

كانت ملأى بالحروب والفتوحات وامتلاك الاقطار بحيث زرعت البغضاء بين الشعوب فاصبحت الدول تحذر بعضها من بعض وحسبك انه منذ انتصرت بروسيا على فرنسا جعلت الدول تتأهب للحرب وتكتتب من الجيوش عدداً لم يسبق له مثيل فان لروسيا من الجيش ٧٥٠٠٠٠ جندي ولايطاليا ٧٥٠٠٠٠ ولفرنسا ٦٠٠٠٠٠ ولالمانيا ٤٥٠٠٠٠ على ان بجمع الرديف يصبح جميع الرجال الاصحاء معدين للخدمة فيتألف منهم جيش عرموم يزيد عددهم ثلاثة اضعاف · هذا هو النظام المعروف بسنة الامم المسلحة وتنفق اوروبا للتسليح في كل سنة زهاء اربعة مليارات ونصف فهي اليوم تمرح في السلم ولكنه سلم مسلح وانه ليجر الى الخراب كانه الحرب العوان فالعالم المتمدن بين امرين متناقضين فالتمدن المشترك اوجد في الامم روح الاشتراك مع غير ابناء الجنس وسعى بتقريب الامم · والمزاحمة والبغضاء اوجدتا دافعاً وطنياً يدفع بكل منها الى الانفراد والعداء على ان مستقبل العالم يتوقف على انتصار احدى هاتين العاطفتين

صفة التمدن الحديث : — انى يتأتى لنا وصف تمدن لم نزل راتعين في ظلاله ؟ فاننا اذا قابلنا بين حالتنا الحاضرة وبين حالات العصر القديم وزمن النهضة ظهر التباين بينهما وبان الاختلاف العظيم بين عصرنا الحالي والعصور التي تقدمته فاحطنا علماً بما كان حديث النشأة من تمدننا

لم تقتصر الامم المتمدنة على سكنى اوروبا بل اتخذت لها املاكاً في سائر الارض وطفقت تشتغل في حرثها واستعمارها لذلك لم يبق التمدن اوروبياً بحتاً بل اصبح عاماً شاملاً

على ان القيام بالاعمال المادية التي هي نتاج التمدن العظيم لم يكن يتهيا لاجدادنا القيام بها الا بقوة الانسان والحيوان الداجن واما التمدن الحديث فاستبدل ذلك بقوة الآلات ولذلك قل الشغل اليدوي وتكفلت المعامل بالقيام بكل حاجيات الحياة حتى تحولت الزراعة ذاتها الى صناعة فاصبح التمدن صناعياً

على ان اتقان الصناعة والزراعة جعلنا الثروة تفيض عن حاجاتنا وبلغت زيادة الحاصلات مبلغاً عظيماً حتى احدث تجمعها في مدى نصف قرن حشد اموال طائلة تمتع بها الناس فاصبح ارباب الصناعة والماليون لهذا العهد متمتعين بعيش رخي كاد لا يدركه السادة العظام في العصور الخالية

وبازدياد الثروة كثر الترف وانتشر وهو ولئن كان اقل ظهوراً منه في الزمن القديم

ايام كان من مميزات عظماء الاشراف فانه صار اكثر انتشاراً وقد تسرب الى كل مراتب المجتمع واصبحت المعامل تصطنع السلع وتبيعها بابخس الاثمان وصارت التجارة تكثر من نقل حاصلات البلاد الحارة بحيث امست وما هي من الترف في شيء بل عم استعمالها بين اهل المراتب الدنيا

فاولدت الاختراعات الجديدة رغد العيش ويسميه الانكليز الراحة فنحن نتمتع اليوم بالوف من اسباب رفه العيش مما لم يكن يحلم به اباؤنا مثل سرعة الانتقال وجودة الطرق وانتظام الفنادق وحمامات البحر والتنزه بالسفر وقراءة الجرائد والمجلات وحضور المراسح والمنتديات والاستفادة من المتاحف والشوارع المرصوفة والمنارة بالاضواء والنظيفة بحيث اصبح الصغير من الاوساط في ايامنا الحاضرة ممتعاً بعيش هنيء اكثر من هناء اعظم اشراف العصور السابقة

وقد تقربت الشعوب بعضها من بعض بعد ان كانت منفردة في الماضي وذلك لسهولة اسباب الانتقال والاتصال بينها وصارت كل واحدة منها تستفيد من تقدم الاخرى لان التجارة والدين والمطبوعات والعلوم صيرت التمدن عامًّا لا يختص بامة دون اخرى

وروح هذا التمدن هو العلم الذي لم يكن فيما مضى الا فكاهة العقول النيرة ولكن منذ حينئذ وطدت دعائمه وحققت نتائجه واخذ دوراً عمليًّا فاصبح وهو الدليل الرشيد في الصناعة والتجارة ومن ثم شرع يدير دفة السياسة وصار اعظم وسيلة لتهذيب عقول كل مراتب المجتمع واخلاقهم واقيمت المدارس والمكاتب لافادة العموم وانشأت الحكومات ايضاً المدارس الابتدائية

والعلوم الحديثة تعول على المشاهدات الدقيقة فجاءت بالمنافع الجمة واحدثت تغييراً كبيراً وساقت الخواطر الى الشغف باستطلاع الحقيقة كما هي والى الرغبة في تكييفها على ان اتحاد هاتين العاطفتين المتناقضتين في الظاهر يحدث حياتنا العقلية الحديثة ونتج من الرغبة الوقادة في البحث عن الحقائق مبدأ حب الاشياء المجردة Réalisme وكذلك انتجت الرغبة في التقدم غير المتناهي المبدأ الصوري Idéalisme فالفنون الحديثة هي من المجردات وارباها في عصرنا تجدهم قلما يرغبون في استكمال الشكل وانما ينصرفون الى الدقة في صغائر التفصيلات ويكثرون منها ، وعلى عكس ذلك نرى الحاجة فينا شديدة للمبدأ الصوري حتى تسرب الينا واخترق اعمالنا السياسية بشكل حب التقدم

وكانت الهيئة الاجتماعية القديمة قائمة على الواقعي الذي يحفظه التقاليد ولم يكن

ليخطر لذويه الا الاحتفاظ عليه ، واما في ايامنا فيسمون الى تحسين الشؤون بصوغها على حب النظريات الصورية وكانت القوة والعادات تدبر شؤون المجتمع القديم واما اليوم فهو قائم على المبادي

ولم يبق من كل الشؤون القديمة الا العائلة والتملك وما عدا ذلك تبدل حاله وصارت الهيئة الاجتماعية الحديثة لا تعترف لانسان بالحق على الآخر فلا سلطة للسيد على عبده ولا لرب المصنع على عملته ولا لكبير على ارقائه ولا تعترف الا بسلطة اب العائلة على زوجته واولاده ومبدأها ان الانسان حرٌّ لا توجب عليه الطاعة لاي لانسان آخر — وبذلك تلاشت العادات والشرائع التي كانت تقيد حياة الافراد وصار باستطاعة كل انسان ان يتولى بذاته امر نفسه واملاكه ومنحت للجميع حرية الضمير والدين والكلام والذهاب والاياب واختيار الوطن وتدبير المنزل والتجارة والصناعة كل هذه الامور تعترف بها الهيئة الاجتماعية الحديثة وهي قائمة على الحرية الذاتية

وكانت الشرائع القديمة اريستوقراطية تقسم الناس الى مراتب غير متساوية وتو
على كل واحد البقاء في مرتبته وأما الهيئة الاجتماعية اليوم فهي ديموقراطية تعد الناس
سواء تجاه القانون ولم تبقَ محافظة الا على عدم المساواة الناتجة عن الثروة وبذ
المساواة العامة

وكانت الامة قبلاً تتألف من نفر من الممتازين سواء كانوا
وقد قال ارسطو « ان بلداً حسن الانتظام لا يجعل
اليدوية كانت ممتهنة فالصناع لا يتولون من
الحديثة تقبل كل الاهلين حتى
نحرها المسلوب وصارت
ولم تبقَ الحـ
الامة هي الق
وكا
فذات
كافي
ع

اما الحروب بين الامم فلم تبطل الا انهم شرعوا يحسبونها شرًّا ضروريًا ولم تبق لكلمة الحرب المرتبة الممتازة التي كانت لها لان التجند اصبح ضريبة لازبة وليس للتفكه واستحصال الشرف . نعم ان الحروب زادت هولاً وقتلاً الا انها ندر وقوعها وقصر امدها فاصبح التمدن ميالاً للسلم

وهذه التغييرات جعلت الحياة انعم بالاً واكثر تنوعًا وحرية ولم يستطيع التمدن القديم ان يهيئ للانسان من اسباب الراحة مثل ما اعده التمدن الحالي — فهل يا ترى نحن اوفر سعادة من اجدادنا ؟ ان اثبات ذلك عسير على الناس لان السعادة تتوقف بالاكثر على شعورنا الداخلي مما هي على الرفاه الخارجي نعم ان حياتنا الآن احسن انتظامًا من حياة آبائنا وانما نحن شبيهون بالاولاد ذوي الثروة الطائلة الذين ينشأون على الترف الا تراننا اعتدنا الرفاه فلا نشعر بلذة حالتنا لان تربيتنا اضعفت فينا قوة التمتع بهذا الرغد

فقد تغير كل شيء قديم تستوي في ذلك الحياة العقلية والمادية والاجتماعية وانا لنتوقع ا... مختلف المستقبل عن الوقت الحاضر كاختلاف الحاضر عن الماضي ولا يبعد ان يرى النجا... في هذا القرن انقلابًا كبيرًا اذ يظهر انه كلما تقدم التمدن كلما كان سيره سريعًا ورو... ما يوجسنا منه خوفًا لان الانسانية اجتازت انقلابات جمة لم تكن تخطر في منذ حينئذ... ير ان يلم بها خطر فالواجب ان يوحي الينا تاريخ التمدن بتمام الثقة

الصناعة والتجار...

مراتب المجتمع واخلاقهم واقيمت...

ايضاً المدارس الابتدائية ... انتم...

والعلوم الحديثة تعول على المشاهدات الدقيقة ...

كبيراً وساقت الخواطر الى الشغف باستطلاع الحقيقة كما هي ...

على ان اتحاد هاتين العاطفتين المتناقضتين في الظاهر يحدث حياتنا العق...

من الرغبة الوقادة في البحث عن الحقائق مبدأ حب الاشياء المجردة...

وكذلك انتجت الرغبة في التقدم غير المتناهي المبدأ الصوري Idéalisme فالفنو...

هي من المجردات وار بابها في عصرنا تجدهم قلما يرغبون في استكمال الشكل ...

ينصرفون الى الدقة في صغائر التفصيلات ويكثرون منها . وعلى عكس ذلك ترى الح...

فينا شديدة للمبدأ الصوري حتى تسرب الينا واخترق اعمالنا السياسية بشكل حب التقد...

وكانت الهيئة الاجتماعية القديمة قائمة على الواقعي الذي يحفظه التقاليد ولم يكن